كلمة الوزارة

أ. الدكتورة لبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

الشباب والحوار الوطني

يسرّني أن أرحب بكم جميعاً في هذه الندوة الثقافية التي تعقد في ظروف غير عادية، مما دعانا لأن نطرق باباً في غاية الأهمية ألا وهو دورُ الشباب وموقعُهم وموقفُهم من الحوار الوطني.

لم يأتِ اختيار عنوان هذه الندوة عبثاً، بل له مدلولاته العميقة. فأمّ سورية مجبول اليوم بالأمل، وهذا ما حدا بنا لاختيار عنوان لها يجمع بين كلمتين مفتاحيتين «الشباب» و«الحوار الوطني»... وهما يشكّلان عنصرين أساسيين في بث روح التفاؤل والأمل بإمكانية إنقاذ الوطن من محنته، وبلسمة جراحاته، والنهوض به لبناء مستقبل يسوده السلام والمحبة والوئام.

وهل من سلام ووئام يمكن أن يسودا في أي مجتمع إنساني كان بغير ثقافة الحوار؟ ومن أحقّ برسم خطوط المستقبل الذي نرنو إليه وأقدر على إعلاء بنيانه، من

• كلمة وزيرة الثقافة التي ألقتها في افتتاح ندوة «الشباب والحوار الوطني» - في مكتبة الأسد في دمشق بتاريخ ٢٨/٠٤/٢٠١٣.

تلك النفوس المتّقدة طموحاً وحماساً، والسواعد الشابة القوية، والعقول المستنيرة المنفتحة، المسلّحة بأمضى سلاح، سلاح العلم، المحصّنة بالمعرفة والحسّ الوطني ضد كل أشكال التطرّف والإقصاء، المدركة لمخاطر الانغلاق والتعصّب، والتي ترنو لبناء مستقبل أفضل؟

أيُّها الحضور الكريم

لقد كان للأحداث المؤلمة التي تشهدها البلاد منذ عامين ونيّف أثر سلبيٌّ بالغٌ على كافة مناحي الحياة. تضرر الاقتصاد الوطني وهُدِّمت البنى التحتية ونُهب التراثُ الثقافيّ. لكن الأذى الأكبر هو ذاك الذي لحق بالإنسان، فقد اهتزّت منظومة القيم لدى البعض واستُبدلت بمفاهيمَ وأفكار وممارساتٍ غريبة عن أخلاقنا، بعيدةٍ كل البعد عن سُنن حياتنا وجوهر قيمنا.

ولعلَّ شريحة الشباب كانت الأكثر تضرراً في هذه المحنة، بل لعلّها كانت الأكثر استهدافاً... فشبابنا هم الكوادر التي بُذِل الكثير لإعدادها... هم الطاقة الخلّاقة، والفكر المبدع، هم القلب الذي يضخّ الدم المتجدد في جسد الوطن... هم حاضره المشرق ومستقبله الواعد، والنيل منهم جسداً وفكراً إنَّما هو هدم لهذا الحاضر وتهديد للمستقبل بالفناء.

ولأنَّ الشباب ينبض عطاءً، ويشع طموحاً، فهو قادر على قلب المحنة منحة.

من هذا المنطلق، أقمنا ندوتنا هذه لتكون خطوة باتجاه دفع الحراك الثقافي نحو التفكّر في واقع الشباب وطموحاتهم ومدى امتلاكهم لثقافة الحوار، ودورهم المأمول في الحوار الوطني الذي سيؤسس لسورية المستقبل. كما نتمنى أن تتحوّل في جانب منها إلى منصة تتحاور فيها العقول وتتلاقى القلوب وتتصافح الأيدي.

أيَّتها الأخوات... أيُّها الأخوة

إذا كانت الثقافة، نتاجَ موروث من العادات والتقاليد، فإنَّها أيضاً ثمرةُ منظومة معرفية تبنى تراكمياً، وتنعكسُ ممارسةً وسلوكاً. وكلما تنوّعت مشاربها كلما اغتنت وازدادت عمقاً. وهي بالتالي تحمل في طياتها بذورَ الانفتاح على الآخر، وتقبّل الاختلاف وإيّاه، واستيعاب التنوع، بناءً للإنسان المدرك لحقيقة وجوده، المعتزّ بمنظومة قيمه، والحريص في آن معاً على القيام بمراجعة تقييمية تقويمية لأفكاره وسلوكه، تهذيباً للنفس وتصويباً للأفكار والممارسات وتصالحاً مع الذات والآخر.

إنّ الثقافة أحاديةَ اللون والصوت ثقافةٌ عقيمة، لا تنتج إلا نفسها ولا تسمع إلا صدى صوتها، ولا تثمر إلا ركوداً فكرياً وانغلاقاً على الذات. والفكر غير المتجدد يخبو مع الزمن ويؤول إلى التلاشي... لأنّ في الركود موتاً وفي التجديد شباباً وحياة.

واليوم نحن مدعوون أكثر من أي وقت مضى لتبنّي ثقافة الحوار، وتغليب الكلمة الطيبة الصادقة، والتحفيز على سلوك سُبل الخير والمحبة والتسامح. لكن الحوار حتى يكتب له النجاح ويؤتي أُكُله، لا بد أن ينبع من قناعة صادقة وإيمان راسخ بجدواه وبضرورة أن يكون قائماً على المساواة واحترام الرأي الآخر.

نعاود اليوم اللقاء التزاماً بعهد تعاهدنا عليه يوم التقينا في ندوة «الحوار الوطني من أجل سورية»، أن نستمر في جهودنا، وأن نفتح المنابر الحرّة لتبادل الرأي. نعاود اللقاء إدراكاً منّا جميعاً للمخاطر التي تحيق بسورية إذا ما استمر نزف الدم فيها.. ولقناعتنا أنّ الحوار الوطني هو سبيلنا الوحيد في المرحلة

القادمة للمّ الشمل والخروج سوية برؤى لما نريد جميعاً أن تكون عليه سورية المستقبل.

يمكن لندوتنا هذه أن تخرج بآراء وأفكار تفتح بعض الأبواب الموصدة، وتنير الطريق، وتعزز الأمل، وتسهم في رسم معالم مستقبل آمن مزدهر، في وطن الإخاء والمحبة....وطن يتّسع حضنه لكل أبنائه، يحمي حقوقهم ويصون كرامتهم ويعزز انتماءهم وشعورهم بالمواطنة في ظل دولة العدل والقانون.

ما زال في الوقت متسع، وما زال في الأفق أمل. لم يفت بعد أوان التلاقي. فلنتلاقى ولنتحاور.. ولنختلف حتى نعاود اللقاء، لقاء العقول والقلوب.. لقاء الأيدي المخلصة البنّاءة، المدودة لإنقاذ هذا الوطن العظيم، وطن الأبجدية الأولى، والمدن الأقدم في التاريخ.

أشكر كلّ من تكبّد عناءَ الحضور للمشاركة في هذه الندوة، وأخص بالشكر السادة الباحثين وكل من بذل جهداً في تنظيم هذه الندوة التي أتمنى لأعمالها كل النجاح.

كلمة العدد

د. علي القيّم
رئيس التحرير

أوغاريت
والبحث عن نشأة الموسيقا

في عام ١٩٨٨م، صدرت الطبعة الأولى من كتابي «الموسيقا تاريخ وأثر» عن دار الشيخ في دمشق، وقمت فيه برصد تطور الآلات الموسيقية القديمة من خلال مكتشفات الآثار في بلاد الرافدين وسورية، وقد وجدت أنَّ للموسيقا في حضارتنا القديمة، تاريخاً طويلاً يمتد إلى أكثر من خمسة آلاف سنة مضت، وهذه الموسيقا، كانت الأصل الذي تطورت منه موسيقا شعوب العالم، وأصبحت تشكل تراثاً إنسانياً أكثر منها تراثاً محلياً، صنعته عبقرية أجدادنا، وقامت بتطويره من عصر إلى عصر، ومن جيل إلى جيل، وكانت في كل جيل تبدع آلة جديدة، أو تدخل تحسينات على آلة قديمة، فيشيع ذلك، وتتلقفه الأنامل وتشدو بوساطته الحناجر..

المواضيع التي طرحتها في هذا الكتاب الذي أعيد طباعته، كانت، ومازالت مثيرة للجدل، لأنَّ موضوع الموسيقا وآلاتها، وكيف نشأت وتطورت وانتشرت في

العالم، مازال مثار بحث ودراسة بين كثير من الباحثين والعلماء والمهتمين؛ لأنّ قصة الموسيقا وآلاتها، على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت، مازالت ضائعة بين ثنايا التاريخ القديم، ومخلّفات وآثار الإنسان القديم، وسبيلنا إلى معرفة ذلك يرتبط بالملاحظة والمقارنة والدراسة والتكهّن والاستنتاج، وتتبع مكتشفات مواقع الآثار.

السبب في صعوبة تفسير نشأة الموسيقا وآلاتها يعود إلى أن هذا الفن العريق، قد رافق الإنسان منذ بداياته الأولى، فهو قديم قدمه، وكان من مستلزمات حياته الفردية والاجتماعية وفي أفراحه وأتراحه وأعياده ومآتمه، ولهوه وعبادته، وجدّه وعبثه، وفي جميع أطوار عمره، من المهد إلى اللحد.. آخر الأبحاث تقول إن الموسيقا، نشأت في منازل السحرة، ومن موسيقا السحر ولد الغناء، وفن الإيقاع الموسيقي، فقد كان الإنسان البدائي يعتقد أنّ للموسيقا قوة سحرية قاهرة، وأنّ تأثيرها فعّال وقاطع، فكان يلجأ إليها ويستعين بها للتأثير على تلك الأرواح الشريرة، والأفكار المخيفة للتغلّب عليها، لذلك كانت له أناشيد خاصة، لكل مناسبة تتعلق بظاهرة معيّنة، ويعتقد بأنها تأتي بالمعجزات لقهر تلك الأرواح التي تخيفه وتقلق أفكاره وحياته..

لم تكن الموسيقا في البدء فنّاً أو علماً، بل كانت أصواتاً غير مهذبة، بلا قانون ولا قاعدة، وقد ارتقت وتطوّرت معه في كل أدوار حياته ورقيه وتطوره، وكانت مقياساً لحياته الفكرية والدينية والاجتماعية، لذلك فالباحث عن أصل الموسيقا، كالباحث عن أوّل ضاحك أو باكٍ في البشر، ومع ذلك يرى العلماء أنّ الموسيقا مرّت في تطورها المبكر بمرحلتين:

- الأولى: هي موسيقا العصور «الباليوليتية» التي استمرت فترات طويلة جداً من الزمن، ومعظم هذه الموسيقا كانت عبارة عن غناء وتنغيم لصوت الإنسان..

- الثانية: التي تطورت في العصر الحجري الحديث المتأخر، وما تلاها في عصور أكثر حداثة في تاريخ الشرق القديم، وقد ازداد فيها الميل إلى التعبير الموسيقي باستخدام الآلات الموسيقية، التي تتراوح بين الآلات الوترية البسيطة، وآلات القرع كالطبول والجلاجل وغيرها، وكانت معرفة الإنسان للموسيقا من الإيقاع، فالإيقاع ضرب من النغم، وأصل النغم. ومنه بداية تكوّن الموسيقا..

❁ ❁ ❁

لقد اخترع الإنسان الآلات الموسيقية ليريح جسده من الرتابة، وقام بالمشاركة بين صوته وصوت الآلة، فتكوّن من ذلك انسجام جديد، وجاءت طقوس العبادة، والأديان لتقوّي فكرة التوافق الحركي والصوتي، ولتقوم بترسيخ حب الموسيقا والتعلّق بها، حيث أصبحت الموسيقا متممة لرسالة المعابد والهياكل، وأداة للتعبّد الجماعي، وبعث النشوة الروحية بين المتعبّدين، وقامت الموسيقا بدورها في تحريك الوجدان وتغذية المشاعر لإنسان عاش طويلاً في عصور العنف والقسوة والقوة الغاشمة، وصراع الطبيعة ومن خلال البحث والتقصّي والدراسة، ثبت أنّ الموسيقا في حضارتنا القديمة، كانت تشكّل جزءاً من الحياة، وعنصراً أساسياً في العبادة، فكان الإنسان، إذا فرغ من عمله اليومي يقوم بالاستمتاع بأنغام الموسيقا الهادئة الشجيّة، وكان في المعابد جوقات موسيقية، ومغنيات للآلهة، كما كان في القصور الملكيّة بعض الفرق المؤلفة من العازفين الذين يقومون بتقديم الوصلات والاحتفالات الخاصة في المناسبات المختلفة..

تبين الآثار المكتشفة في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام، أن ميلاد الموسيقا، بمعنى الكلمة، قد عاصر ميلاد الدين، فهي قديمة قدمه، شاركته في أداء طقوسه التي يمثّل الغناء ركناً أساسياً فيها، ومن هذه الآثار ما يعود تاريخه إلى أكثر من خمسة آلاف سنة خلت، ومنها ما أخبرتنا عن فرقة للإنشاد الموسيقي كانت

موجودة في معبد «ننجرسو» الكبير في مدينة «لاغاش» الرافدية، حيث كان يقوم بتدريبها موسيقي على الغناء والعزف على الآلات الموسيقية، وكانت الفرقة مكوّنة من الرجال والنساء، وتسجل لنا الوثائق الأثرية أنّ بعض المدارس الموسيقية قد ألحقت بالمعابد، وقد عثر المنقّبون على مجموعة من النصوص الدينية التي كانت تدرّس في معبد بل (إله الشمس ورب العدالة والعرافة)، ومن خلال قراءة الرُّقم المسمارية الكتابية التي وجدت في مملكة ماري السورية على الفرات الأوسط، قرب بلدة (البوكمال) تبيّن لنا أنّ الملكة «شيبتو» زوجة الملك «زيميري ليم» كانت تدير شؤون القصر الملكي، وتختار من الصبايا، من تراها جديرة بتعلّم العزف على الآلات الموسيقية في الألف الثاني قبل الميلاد، حيث كانت الموسيقا في ماري من الضروريّات الأساسية لاستكمال الثقافة العالية..

أمّا عن الشعر الذي كان يرافق الغناء، فيرى الدكتور ثروت عكاشة في كتابه «الفن العراقي القديم»: «أن الشعر الغنائي القديم، كان يكتب من مقطع واحد، تصاحبه ميلودي صغيرة، محصورة في نطاق السلّم الموسيقي المعروف، آنذاك، وهو السلّم الخماسي المكوّن من خمس أنغام فقط في الأوكتاف، تلاه في مرحلة متأخرة نسبياً- السلّم السباعي.. وكانت الميلودية تصاغ في قوالب غنائية متعارف عليها، كما يصاغ الغناء الديني في قوالبه الخاصة: النشيد، والبكائيات، والصلاة، والضراعة، وكثيراً ما اشتملت الأغنية على مقاطع عدّة، تصاغ لكل منها ميلودية خاصة، ويتخللها فاصل موسيقي».

ويرى العالم «ميكابي» أن «مرثية» مدينة «نيبور» الرافدية كانت تصاغ في ست ميلوديات مختلفة تسهم في أدائها الطبلة والكاسات وآلة «الكنارة»، وكان قالب الدعاء في الصلاة أكثر القوالب شيوعاً، ويغلب عليه طابع الابتهال والتوسل.. ومن المؤكد أن التقاليد والعادات الموسيقية في حضارتنا القديمة، منذ الألف الثالث قبل الميلاد قد تطورت تطوراً كبيراً في العصور اللاحقة..

✿ ✿ ✿

من خلال تتبعي مسار تطور الموسيقا في حضاراتنا القديمة، وجدت أنّ الموسيقا في الحضارة السومرية في جنوب بلاد الرافدين كانت في البداية وسيلة من وسائل التقرّب من الآلهة، وكانت آلهة سومر متعجرفة، وسريعة الغضب، لأنها كانت تضجر من ضوضاء الناس ولا تحتمل ذلك، فكان السومريون يعزفون لها على آلات القيثارة (الكنارة) وغيرها، ويقومون بالغناء لتسكين غضبها، كما أن السومريين كانوا يعتقدون أن لآلهتهم طبيعة موسيقية.

ولعلّ الإلهة «إنانا» السومرية، وتقابلها «عشتار» عند البابليين كانت الناطقة باسم مجمع الآلهة في سومر، فهي تؤكد أن إله الحكمة «أنكي» أعطاها الآلة الموسيقية المدوّية، وأعطاها فن الغناء، كما أنّها كانت تحتضن السلم الموسيقي من أوّله إلى آخره، من خلال قولها: «أنا الوتر الأوّل.. أنا الوتر الأخير» وعشتار هنا تتحدث أيضاً عن «الأوكتاف» الموسيقي في السلّم السباعي، الذي يكون فيه الوتر الثامن تكراراً للوتر الأوّل.

و«الأوكتاف» يعني شيئاً له علاقة بالعدد ثمانية، وبمسافة الأوكتاف الذي أكدته عشتار: «أنا الوتر الأوّل.. أنا الوتر الأخير» حيث إنّ الوتر الأخير هو الثامن، وهو تكرار للوتر الأوّل بدرجة أعلى أو أخفض، بحسب الاتجاه، لأن السلّم الموسيقي كان في الحضارات السومرية والبابلية والأوغاريتية، سباعياً، وهذا يلتقي مع عدد أيام الأسبوع، وما أثبتته القراءات العديدة لأنشودة العبادة الأوغاريتية التي اكتشفت في مدينة أوغاريت على الساحل السوري، ويعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، والتي أكدت النظرية الموسيقية فيما يتعلّق بطبيعة السلالم الموسيقية، والمسافات الصوتية، وأن أقدمها وجد في هذه المدينة العريقة، ودحضت الخطأ العالمي الشائع الذي يقول بأنها تنسب إلى «فيثاغورث» اليوناني سنة ٥٠٠ق.م، والمشكوك في هويته، حيث يعتقد أنه من أصل سوري، فضلاً عن أن كلّ ما ينسب

إليه مقتبس منَ الشرق، حول هذا الموضوع يقول الباحث العراقي الأستاذ علي الشوك: «لقد حاول فنسنزو غاليلي (والد العالم غاليلو) الذي كان موسيقياً ضليعاً بفن الموسيقا، إعادة بعض التجارب التي تنسب إلى فيثاغورث، وتوصل إلى أنّها مشكوك في صحتها تماماً، لكن فيثاغورث بقي يُعتبر المنظّر الموسيقي الأوّل في التاريخ، وهذا افتئات على الحقيقة التاريخية».

في أسطورة الملك الأوغاريتي من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، يطلب الملك من ابنته المساعدة في تقديم الأضحية قائلاً لها:

«خذي الدف بيدك..

والطنبور (العود) احضنيه

وقفي مكانك مع مغنيّات الملك

وقدّمي طلباتك على أنغام الموسيقا

فإنّ الرب سيصغي إليها..»

وفي أوغاريت وجدت آلات موسيقية، مثل صنجات مصنوعة من البرونز، وبوق عاجي، ودمية طينية لعازفة على الصنج يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، مما يثبت أهمية الموسيقا في حياة أوغاريت الدينية والثقافية والاجتماعية، فقد كان العزف على الآلات الموسيقية معروفاً، وكان صنّاع الموسيقا، يعرفون المسافات الموسيقية، التي تعد من أهم أركان القواعد في الموسيقا، فهي أساس تركيب السلم الموسيقي، وأساس علم الانسجام الصوتي (الهارموني) وتقابل الأصوات (الكونتربوانيت) وأهل أوغاريت عرفوا السلّم السباعي الدياتوني، الذي هو أصل السلم الموسيقي المعمول به حتى يومنا هذا، في شتى أرجاء العالم.

شعراء صعاليك.. لكنهم نبلاء

إبراهيم محمود الصغير ✿



الشعراء الصعاليك، أمراء الكلمة والبيان، وفرسان المعارك والقتال، وأنجم البيد المضيئة في الليالي المظلمة، وسحابة الخير والعطاء للبائسين والمعدمين، وشعلة الحرية وارفة الظلال، والمزهرة بالإنسانية، والمتدفقة بالمشاعر الصادقة والنابعة من قلوب تفيض بالصبر والعزم والجلد، إنهم طلائع الثائرين على قوانين المجتمع الظالمة، وعلى القبيلة وأعرافها وتقاليدها الجائرة، إنَّهم المتمردون ضد الظلم والاضطهاد، وضد الرق والعبودية، وضد التمايز والعنصرية.

✿ أديب وناقد سوري.

كان تمردهم بالكلمة والسيف، والنفور والابتعاد عن القبلية وعن المجتمع، واللجوء إلى حيث لا تطولهم أي سلطة ظالمة وجائرة بحقهم.

كان التجار وأصحاب الثروة في المدن، وهم قلة، يملكون كل شيء، في حين كانت الأكثرية لا تملك شيئاً، وكان حق التشريع محصوراً في أيديهم، فكانوا يسنون من الشرائع ما كان يوافق مصلحتهم، مثل (مكة)، ويستغلون الفقراء، الذين كانوا يعيشون في بيوت ومضارب حقيرة في شعاب البلدة وأطرافها البعيدة، وكانت (مكة) في الجاهلية حرماً مقدساً (لا ظلم ولا بغي فيها)، نظراً لوجود الكعبة فيها، فهي مدينة لها نظامها الاجتماعي، ولا تصلح أن تكون ميداناً لحركات الصعاليك المتمردين.

ومن هنا لم يجدوا مفراً من الخروج منها إلى البادية الواسعة حيث فوضى الحياة، وحيث طوائف المشردين، وقطاع الطرق، وذؤبان الصحراء، فإذا ما ضاقت بهم الحياة، فإن طريق العودة إلى (مكة) ميسر، وأبواب البلد الحرام مفتوحة لكل لاجئ، أو خائف، أو طريد «من دخله كان آمناً، ومن أحدث في غيره من البلدان حدثاً ثم لجأ إليه فهو آمن إذا دخله».

ومن هنا نستطيع أن نفهم السر في كثرة الخلعاء من شتى القبائل فيها، واتخاذهم منها مركزاً يلتقون فيه آمنين على حياتهم في الطلب.

أما في البادية العربية، حيث البعد عن النشاط التجاري، فإننا نجد صراعاً بين الفقر والغنى، فالمجتمع البدوي القبلي يتكون من طبقتين اقتصاديتين أساسيتين، طبقة أصحاب الإبل، وطبقة الصعاليك، وكانت ثروة الأفراد في المجتمع البدوي تقاس بمقدار ما يملكون من الإبل، وإلى جانب هذه الطبقة من أصحاب الإبل، وجدت طبقة من الصعاليك لا تكاد تملك شيئاً، أو كما يعبر عن ذلك بعض شعرائهم قائلاً:

وإني لأستحيي من الله أن أرى
أجرر حبلاً ليس فيه بعير

وكانت حياتهم بائسة حتى ليضطر بعضهم إلى قتل أولادهم خشية إملاق.

ومن هنا لم يكن أمام هؤلاء البدو الفقراء إلا أن يعملوا للأغنياء في الرعي وخدمة الإبل، أو يعينوا نساء الحي، على حد تعبير (عروة بن الورد) فإذا رفضت نفوسهم ممارسة هذه الأعمال المهينة، لم يكن أمامهم إلا الغزو والإغارة والنهب، محاولين أن يزيلوا هذا الحيف المقدر بالسيوف وأسنة الرماح، وكأنهم يتمثلون بقول (أبي ذر الغفاري) رضي الله عنه:

((عجبت لمن لا يجد قوت يومه ولا يخرج إلى الناس شاهراً سيفه مطالباً بحقه!)).

ويعرّف الدكتور (شوقي ضيف) الصعلوك فيقول:

«الصعلوك في اللغة هو الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها

اللغوية الخالصة، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطريق» كما يعرّفها (محمد مظلوم) في (أناشيد الصعاليك) قائلاً:

«يبدأ التصعلك من أصل لغوي يعني الفقر، ليذهب إلى مفهوم واسع من الافتقار المركب، والانكشاف متعدد المستويات، فالصعلوك في معاجم اللغة: هو الفقير الذي لا مال له، وليس له نسب يقويه، كما تنطوي كلمة الصعلوك على معنى النبذ والانفراد، وكذلك تنطوي على دلالة العري والانكشاف، من حيث افتقار الصعلوك إلى غطاء جماعي، ففيما يتعلق بالافتقار إلى النسب سنجد أنّ حركة الصعاليك، من طورها الأوّل، قد تأسست من أولئك الأفراد الذين كانوا يعانون افتقاراً من جانب نسب الأم، ويصح هذا على معظم الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي».

ويمكن أن نميز ثلاث فئات من الصعاليك في العصر الجاهلي:

مجموعة من الخلعاء الذين تخلت عنهم قبائلهم لكثرة جرائرهم، فأصبحوا منبوذين مطرودين بعد أن تبرأت منهم قبائلهم، وكان الخلع يتخذ صورة إعلان رسمي يذاع على الناس في المواسم والأسواق، وهؤلاء الخلعاء كانوا يمدون حركة الصعلكة بمجموعة كبيرة من صعاليك العرب.

والمجموعة الثانية هم من أبناء الحبشيات ممن نبذهم آباؤهم مثل (السليك بن السلكة، وتأبط شراً، والشنفرى)، وكانوا يشاركون أمهاتهم في سوادهم فسموا (أغربة العرب)، وكانوا يعاملون معاملة العبيد، ويعملون في الرعي وخدمة أسيادهم، وقد كان (عنترة بن شداد) أحدهم، حيث كانت أمه (زبيبة) أمة حبشية سوداء، فعامله أبوه (شداد) معاملة العبد، وجعله يعمل في رعي الإبل والأغنام، إلى أن استطاع أن يكسب حريته بشجاعته وحد سيفه، وأن يصبح من فرسان وسادة عبس.

أمّا الجماعة الثالثة فهم الذين احترفوا الصعلكة احترافاً، وكان ديدنهم النهب والسلب والإغارة على القبائل والقوافل، وقد يكون الصعلوك فرداً مثل (عروة بن الورد) أو قد يكونون قبيلة برمتها مثل (هذيل) و(فهم)، اللتين كانتا تنزلان بالقرب من (مكة) و(الطائف).

لقد كانت حركة الصعاليك في العصر الجاهلي مظهراً من مظاهر الاحتجاج على الفوارق الاجتماعية في المجتمع، وخاصة الظلم الاجتماعي والتمييز اللوني، وكان هذا الاحتجاج بالكلمة والسلاح، وهو تعبير عن الشعور بالاضطهاد والعبودية، لذلك تمرد الصعاليك على النظام الاجتماعي للقبيلة وعلى كل ما يشمله من نظم اقتصادية وفكرية، وسعوا إلى تكوين بيئة خاصة بهم، جسدت نزعتهم الاستقلالية، وكان (الأغربة) أشد الصعاليك ثورة، وأكثرهم بطشاً وعنفاً، وأقربهم إلى حياة الذؤبان، لأنّ آباءهم تخلوا

عنهم، وعاملوهم معاملة العبيد، فقط لأنَّهم أبناء حبشيات، وأنَّهم سود مثل أمهاتهم، فبأي حق يستعبد الآباء أبناءهم السود؟ إنَّهم يستنكرون ذلك، كما استنكره فيما بعد، الخليفة (عمر بن الخطاب) حين قال قولته المشهورة:

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».

ولعل (الأغربة) معذورون في اتخاذهم موقفاً عنيفاً وقاسياً من المجتمع، بسبب الظروف القاسية التي عانوا منها، وهم يختلفون عن بعض الصعاليك المعتدلين مثل (عروة بن الورد) وفي ذلك يقول الدكتور (يوسف خليف):

«إنَّ (عروة بن الورد) يمثل الجانب الإنساني في حركة الصعاليك، أمَّا (الشنفرى) وهو من (الأغربة) فيمثل الجانب الشيطاني منها».

وعلى العموم فإنَّ الصعاليك، خاصة في العصر الجاهلي، كانوا يتميزون بثلاث مزايا أصلية تكاد تنتظمهم جميعاً هي: الثورة على الظلم وطلب الحرية، والشجاعة في طلب الحق حتى تبلغ حد التهور، والكرم في مشاركة الأرامل والفقراء والأيتام، إلى حد إيثار الصعلوك الفقير أخاه الفقير بلقمة عيشه، تلك المشاركة التي تبدو لنا شكلاً من أشكال الاشتراكية في معناها القريب ولونها الساذج البسيط.

كان شعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ويمكن أن نطلق عليهم (الشعراء أو الصعاليك المؤسسين) والذين يمكن أن نتعرف على صفاتهم من خلال قصائدهم ومقطوعاتهم وأخبارهم في كتب التراث، كانوا فاتكين وعدائين، والافتخار سمة من سمات خطابهم الشعري، وهم (ذؤبان) يتلصصون على ذوي المال، ويصيخون السمع لأدق الأصوات وأبعدها في الفلوات، وأغلب هؤلاء الشعراء الصعاليك مات قتيلاً، بعد أن قتل من قتل، وقد تركوا بعد قتلهم نهباً للوحوش، أو فقدت آثارهم، أو جرى التمثيل بهم، وهي ميتة كان العديد من الصعاليك يتوقعونها لأنفسهم، بل ويسعون إليها بخطواتهم السريعة.

أمَّا طرق معيشتهم، فكانت تنحصر كلها بالسلب والنهب والغارات ليلاً، والتلصص بخفة ورشاقة، فكانوا يروعون النساء والأطفال، ويبلبلون عقول الرجال، حتى إذا خافوا الخيل أن تدركهم، اتجهوا نحو الجبال المنيعة، والأودية الوعرة، والأدغال الموحشة، فتغلغلوا فيها، وقد روى الرواة عن (الأغربة) كثيراً من أخبارهم وغاراتهم، إلى حد أن امتزجت فيها الحقيقة بالخيال، واختلط التاريخ بالأسطورة.

ونلاحظ في شعر الصعاليك، في العصر الجاهلي، أنَّه شعر مقطوعات، والتي خرجوا فيها على بعض القيم الفنية والفكرية السائدة في القصيدة الجاهلية تعبيراً عن نقمتهم على أعراف المجتمع وتقاليده، فطبعت رغباتهم،

في الثورة على المجتمع، أشعارهم بسمات ثورية تلائم قلقهم النفسي، والثورة القابعة في أعماقهم، وفقدانهم حس الانتماء إلى القبيلة وقيمها، فتخلصوا من الوقفات الطللية، والمقدمات الغزلية، التي عرفها الشعر الجاهلي، وتخلوا عن التصريح، وتجلت في أشعارهم الروح الفردية، وتحللوا من الأغراض الشعرية الأخرى المباشرة، سواء في مضمونها أو في صيغتها الفنية، فبرز ما نقلوه من الطبيعة القاسية، وما صوروه من شدة فتكهم وبطشهم، وغلب النهج القصصي البسيط على مقطوعاتهم، لاهتمامهم بسرد غاراتهم ومغامراتهم، والحوادث التي مروا بها.

وغصت أشعارهم بكل ما هو وحشي وفطري ودموي، فاتسمت صيغهم الفنية بالتهويل والمبالغة، والخوارق، وطبعت ألفاظهم وصورهم بالقسوة والغلظة والجفاف، على أن أبرز ما في شعرهم هو ظاهرة الوحدة الموضوعية، فالقصائد لها موضوع واحد، باستثناء قصائد معدودة، وهناك ظاهرة أخرى في شعرهم هي الواقعية والصدق، واقعية اللغة الأدبية، وصدق التعبير عن الذات، وغرابة اللفظ، لذلك يندر في شعرهم المدح، لأن في المدح كذباً ومبالغة وإسباغ صفات حميدة على الممدوح قد لا تكون فيه، وابتعدوا عن المستهل الطللي، الذي اتبعه الشعراء الجاهليون، وأصبح لهم مستهل آخر مختلف، وهو مستهل سفر ورحيل ووحشة، يتجه نحو مخاطبة نسائهم خطاباً تفنيدياً مثل (دعيني أسعى، دعيني أسافر، دعيني أطوف، دعيني أجوب..)، وبينما كان شعراء المعلقات، مثلاً، يبحثون عن نسائهم، ويقتفون آثارهن، كان الشعراء الصعاليك في هجران دائم لنسائهم، ونكران مستمر لديارهم، وكانوا يشدون من سفر إلى سفر، ومن غارة إلى أخرى.

لقد شكلت أشعار الصعاليك من خلال ما حملته من سمات فكرية، ظاهرة جديدة في الشعر الجاهلي، أغنته بنقل تجارب نفسية ومادية خاصة بحياة الصعاليك، وفارقته في النظرة إلى العدالة الاجتماعية، ومظاهرها القبلية، وبقي هذا الموضوع يتطور مع العصور كلها.

ولم تتوقف حركة الصعلكة عند العصر الجاهلي فقط، وإنما امتدت لتشمل صدر الإسلام ثم العصر الأموي، وبعدها العصر العباسي، ويقول الدكتور (حسين عطوان) في هذا الموضوع:

«تضاءلت حركة الصعلكة في صدر الإسلام، وقل عدد الصعاليك، لأن الإسلام وضع الحلول لكل المشكلات التي صادفت الصعاليك في العصر الجاهلي، وحملتهم على الثورة والتمرد، ولكن ظهرت حركة الصعاليك بوضوح في العصر الأموي، وكانت نتيجة لعوامل عدة أنشأتها وعملت على ظهورها واستمرارها، إذ استشعر الصعاليك الظلم الاقتصادي، الذي أوقعته عليهم وعلى قبائلهم سياسة بني أمية،

فثاروا لدفع الظلم، والمحافظة على كيانهم وعزتهم وكسب أقواتهم».

وتحولت المواجهة مابين الصعاليك والقبيلة إلى مواجهة بين الصعاليك والدولة، فهم الآن أعداء الدولة ونظمها، وهم كذلك سجناء تلك النظم الجديدة، أما الموضوعات الجديدة التي طرحوها فأشهرها وصفهم لحياة السجون وحراسها وعقابها، وأدوات التعذيب بها، ووسائله، ومن يقومون بتنفيذه، ومنها الحنين إلى الاستقرار، والتخلص من حياة التشرد والبعد عن أوطانهم وأهلهم، كما كثرت قصائد التوبة والعودة إلى قطع الطرق، وأنتجت هذه الحقبة، داخل الطبقة نفسها، مجموعة من الشعراء الخلعاء الطريدين، ورواد العزلات البعيدة، والهاربين من السجن البشري الكبير، ولغة هؤلاء لغة وحشية متأتية من حياة الانفراد والعزلة، ومعاشرة الحيوانات البرية، والمكابدات الطويلة في يوميات القسوة والتأمل في الطبيعة، وانقطاعهم عن حياة الدعة والرفاهية.

وفي هذه الحقبة أيضاً، تحول الشاعر الصعلوك من نابذ ومنشق في العصر الجاهلي، إلى منبوذ ومنفي، أو طريد أو سجين في العصرين الإسلامي والأموي، فبعد أن كان يوصف، في مرويات الأقدمين، بالفاتك والشجاع والمارد وسواها من أوصاف تنطوي على مناقبية واضحة، تحول في مدونات معاصريه من النقاد والمؤرخين، إلى مستودع لدلالات المثالب واللمز.

وقد كتب الشعراء الصعاليك في هذه الحقبة، أشعاراً تصور هذا التحول، وتعبر عنه بلغة أخرى مختلفة، وبمحتوى يكشف هذا العري الجديد، حيث غدوا لصوصاً سجناء مطرودين، أو ينوءون بأثقالهم وقيودهم في السجون، بعد أن كانوا يطلقون سيقانهم للريح، ويسابقون الظلال بحرية ورشاقة، وصاروا يعيشون بأسماء غريبة، وكنى وحشية مستعارة من وحشتهم.

أمَّا الصعاليك في العصر العباسي، فيقول عنهم (محمد مظلوم) في مقدمته لـ (أشعار الصعاليك):

«أمَّا في العصر العباسي، حيث أصبحت الدولة امبراطورية مترامية الأطراف، وتداخلت فيها الثقافات، انعكست تأثيرات هذا التحول على صورة الصعلوك، فتأثرت جماعة الصعاليك بها، وأدخلوا جرعات جديدة في أنماط سلوكهم وتنظيمهم، وفي هذه المرحلة كان أغلب الصعاليك من الموالي، أي من رعايا البلدان التي دخلت في الإسلام، وبهذا عادت عقدة النسب إلى الظهور من جديد في شكل آخر.

صار الصعاليك من (المكدّين) أي المتسولين، ويعرفون بـ (بني ساسان)، وهي كنية لا تدل على الانتماء العرقي، وإنَّما على انتساب ثقافي واجتماعي، وبعد أن كانوا يوجهون

سلاحهم نحو الآخرين لاستحصال أرزاقهم، صاروا يبسطون اليد لا للأخذ والعطاء، وإنما للاستعطاء، وبطقوس فقر تصل إلى مستوى ابتداع الحيل واستدرار العطف، ولعل التحول الجديد في هويتهم يلخصه شاعرهم الأبرز (الأحنف العكبري):

هم الصعاليك إلا أنهم عدلوا عن السلاح إلى الأخبار والنتف

وإذا كان مصطلح الفتك مرتبطاً بشخصية الصعلوك في الجاهلية، واللص والطريد في العصر الأموي فإن الصعلوك في العصر العباسي أصبح عياراً، أو متطفلاً، بل حتى متسولاً، وهو ما أوجد تعريفاً أدبياً جديداً للشعراء الصعاليك، الذين صاروا يُعرفون بـ (الشعراء المكدّين)، وصار التسول، والعيارة، والشطارة، هي الصفة الجديدة التي يستر بها هؤلاء الصعاليك عريهم عبر تحولات الزمن، وفي مواجهة حالات التبدل الاجتماعي، والتغير المدني، بعد أن تكفل نشوء الدولة، وقيام الإمبراطورية بإنجاز ترويض أولئك (الذؤبان) واتصفت مضامين أشعارهم في هذه المرحلة بالتهكم بسخرية سوداء، والهجاء الظريف على الذات الجمعية، وعلى أنفسهم وحضر في قصائدهم التعري من البلاغة، ونبذ الديباجة الفخمة، بما يتناسب مع الحالة الرثة، التي كانوا يعيشونها، فهوية الصعاليك إذاً هي هوية متشظية، وطبقات شعرائهم متحولة مع العصور، أما تاريخهم فهو تاريخ الخروج الدائم عن الطاعة عبر الحقب».

لقد كانت حركة الصعلكة، في جميع مراحلها، مظهراً من مظاهر الاحتجاج على الفوارق الاجتماعية في المجتمع، وهو احتجاج، كما ذكرنا سابقاً، بالكلمة والسلاح، غير أنها لم تتخذ طابعاً جماهيرياً واسعاً ومنظماً ليكتب لها النجاح، وهي مع ما حملته من أمل في تحرير الإنسان من الظلم، لم تخل من مواقف سلبية تجلت في كره شعرائها للمجتمع وانعزالهم عنه، وحقدهم على الناس والتماسهم حلولاً غير مجدية في حل مشكلتهم الاجتماعية.

ولكن، وبشكل عام، كان للشعراء الصعاليك أثرهم في المجتمع العربي، من الناحية الإنسانية والثقافية والأدبية، إذ أصبحت قصائدهم تتداول بين الناس، وقصصهم وأخبارهم تروى في كل المجالس والأمكنة، وقد اكتسبوا إعجاب الناس ومحبتهم وتقديرهم لسمو أخلاقهم، ونبل أفعالهم، وإنسانية مشاعرهم، ولشجاعتهم الفائقة وبسالتهم النادرة، وصبرهم العظيم على المكاره والنوائب، ولصفاتهم وعاداتهم الفردية والخارقة، حتى نسجت حولهم بعض الأساطير والقصص الخيالية، وحتى وصل تأثيرهم أيضاً، كما يكتب بعض النقاد، إلى الشعراء الأوروبيين في العصور الوسطى (شعراء التروبادور) وهم الشعراء والمغنون الذين كانوا يجوبون البلاد ينشرون فيها قصائدهم وأغانيهم بمصاحبة قيثاراتهم.

ومن منا لم يعجب بإنسانية وشاعرية (عروة بن الورد)، ذلك الشاعر والفارس، الذي اتخذ من صعلكته باباً من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعي، يقتضي الأغنياء رزقه بحد السيف، ويجمع إليه نفراً من الفقراء الصعاليك من أبناء قبيلته، يوزع عليهم الغنائم في غاراته بالعدل.

حتى عرف بـ (أبي الصعاليك) أو بـ (عروة الصعاليك) وكان جواداً وكريماً وهو الذي يقول:

وإني امروٌ عافى إنائي شركة
وأنت امروٌ عافى إنائك واحد
أفرِّق جسمي في جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء بارد

ويعد شعر (عروة) أجلى صورة لنموذج الصعلوك في عصره الذهبي، وتمثيلاً فصيحاً لنزعة المشاعية لدى جماعة الصعاليك، لذا يهاجم البخل قائلاً:

وقد علمت سُليمى أن رأيي
ورأي البخل مختلف شتيت
وأني لا يريني البخل رأياً
سواء إن عطشت وإن رويت

حتى (الأغربة) من الصعاليك، الذين عرفوا بالقسوة والفتك، كانت نفوسهم تختزن الكثير من الرقة والشاعرية، والروح الإنسانية، ولا عجب في ذلك فهم شعراء، والشعراء رقيقو الحس ومرهفو المشاعر، وجياشو العواطف،

فهذا (الشنفرى) الصعلوك القاتل، يرسم صورة إنسانية رائعة لأرملة تطعم أولادها، وهي تحاول أن تقلل من الطعام خوفاً من أن لا يبقى ما تطعمهم إياه فيما بعد، وهي مهما حاولت فسيبقى أولادها جياعاً:

وأم عيال قد شهدت تقوتهم
إذا أطعمتهم أوتحت وأقلَّت
تخاف علينا العيل إن هي أكثرت
ونحن جياع، أي آل تألَّت

كما يصف الصعلوك حياته وصفاً دقيقاً بقوله:

أنا السمع الأزل فلا أبالي
ولو صعبت شناخيب العقاب
ولا ظمأ يؤخرني وحر
ولا خمص يقصر من طلاب

فهو يقول أنه كالذئب السريع فلا يبالي إذا كانت الطرق صعبة إلى رؤوس الجبال، وأنه لا الظمأ ولا الحر ولا الجوع يعيقه عن طلب الرزق.

وهذا الشاعر (تأبط شراً) واسمه (ثابت ابن جابر) ولقب تأبط شراً لأنه كان يضع سيفه وقيل خنجره، وقيل أيضاً سهامه وقوسه تحت إبطه، لذلك لقب تأبط شراً، وكان فارساً فاتكاً ومن أغربة الصعاليك. عرض عليه أحد الرجال أن يشتري اسمه ليخيف به الناس، ويعطيه فوق ذلك كنيته، فقال (تأبط شراً) مفتخراً بنفسه وساخراً من الرجل:

فهبه تسمى اسمي وسمّاني اسمه

فأين له صبري على معظم الخطب؟

وأين له بأس كبأسي وسورتي

وأين له في كل فادحة قلبي؟

كما يصف نفسه أيضاً بقلة التشكي أمام الأمور الخطيرة، وأنه كثير الأهواء ومتعدد السفر وأنه يسبق الرياح بسرعته الخارقة في الجري:

قليل التشكي للمهم يصيبه

كثير الهوى، شتى النوى والمسالك

ويسبق وفد الريح من حيث ينتحي

بمنخرق من شدة المتدارك

أما (السليك بن السلكة) وهو من أغربة الصعاليك، وكان شاعراً فاتكاً، كما كانت أمه شاعرة أيضاً، وهو أحد العدّائين وبه يضرب المثل (أعدى من السليك) وهو يقول عن نفسه أنه لم يحظ بالغنائم إلا بعد أن تصعلك طويلاً وجابه الموت، وأنه قد قاسى الجوع حتى غدا يدور في الظلام من شدة الجوع:

وما نلتها حتى تصعلكت حقبة

وكدت لأسباب المنية أعرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرّني

إذا قمت تغشاني ظلال فأسدف

ويقول لإحداهن معاتباً بأنه ربّي على فعل الرجال الكرام الجميلين:

فإني يا ابنة الأقوام أربي

على فعل الوضيء من الرجال

وكذلك الشاعر الصعلوك (عمر بن برّاقة) واسمه (عمرو بن منبّه) وكان فارساً صعلوكاً وثالث ثلاثة (تأبط شراً والشنفرى) في أخبار كثيرة وغزوات مشهورة، وكان عداءً أيضاً، وقد أدرك الإسلام وأسلم وهو شيخ أعرج.

يقول (عمرو بن براقة) يخاطب إحداهن، عندما نصحته أن لا يذهب في طلب المال الذي اغتصبه منه بعضهم، وذلك خوفاً عليه من القتل:

تقول سليمى لا تعرض لتلفة

وليلك عن ليل الصعاليك نائم

ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم

قليل إذا نام الخليّ المسالم؟

متى تجمع القلب الذكي وصارماً

وأنفاً أبياً تجتنبك المظالم

ومن يطلب المال الممنّع بالقنا

يعش مُثرياً أو تخترمه المخارم

ويقول أيضاً، واصفاً إباءه ونبله وترفعه عن الصغائر، وهاجياً رجلاً تعرض له:

وما هو لي ند فأشتم عرضه

ولا هو لي عبد فأبطش بالعبد

أمّا الشعراء الصعاليك في العهد الإسلامي وعهد بني أمية، فجل شعرهم ثورة عارمة ضد البؤس والفقر والظلم والواقع المؤلم الذي يعيشون فيه، كما يختلط شعرهم بالفخر والاعتزاز بالذات، وعدم تقبل الضيم، والصبر على المكاره والمحن، فهذا الشاعر (أبو خراش الهذلي) وهو شاعر مخضرم، نشأ في الجاهلية،

وأدرك الإسلام فأسلم، ومات في خلافة (عمر بن الخطاب).

يقـول (أبو خراش) أنـه يصبّر نفسه على الجوع، ويوفّر الزاد لأولاده ولا أن يحيا بمهانة وذلة:

وإنـي لأثـوي الجـوع حتى يملّني
فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي
أرد شجـاع البطـن قـد تعلمينه
وأوثـر غـيري مـن عيـالك بالطعم
مخـافـة أن أحـيـا بـرغـم وذلـة
وللمـوت خير من حياة على رغم

كما يفتخر بنفسه قائلاً:

وإني لأهدي القوم في ليلة الدُّجى
وأرمي إذا ما قيل: هل من فتى يرمي؟

وهنـاك شاعر آخر شبيه بـ (أبي خراش الهذلي) هو الشاعر (أبـو النشناش النهشلي) وهـو شاعر صعلـوك في عصر (مـروان بن الحكـم)، وكان يعترض القوافـل بين الحجاز والشام فيسلبهـا، فحكم عليه بالسجن، ولكنه تمكن من الفرار، يكاد مذهبه في التشرد وشعره يشبهـان إلى حد بعيد مذهـب الصعاليك في الجاهلية وشعرهم، وهو ثائر على حياة الفقر وتنكـر الأقرباء له، ويفضل المـوت أو الحياة في البـراري ولا أن يطلب العون والمساعدة من الأقارب والأصدقاء الكارهين له، لذلك يقول:

وسائلـة: أيـن الرحـيل؟ وسـائل
ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه؟
مـذاهـبـه أن الـفـجـاج عـريـضـة
إذا ضـنّ عنـه بـالـنـوال أقـاربـه
فللموت خير للفتى من حياته
فـقـيراً، ومـن مـولى تـدب عـقـاربـه
ولم أر مثل الهمّ ضاجعة الفتى
ولا كـسـواد الـليل أخـفـق طالبـه

ومن الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، أيضاً، (مالك بن الرّيب) الذي اشتهر بقصيدته التي يرثي فيها نفسه، وكان لصاً وقاطع طريق في بادية البصـرة، وكان متزعماً لمجموعة من الصعاليك.

إلا أنـه تـاب والتحق بجيشـ (سعيد بن عثمـان بن عفان) المتجه للغزو والفتح في بلاد فارسـ، وقد مات في (مرو) ودفن هناك، ومن قصيدته التي يرثي فيها نفسه:

ألم تـرني بعت الضلالة بالهدى
وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا
تـذكـرت مـن يبكي عليّ فلم أجد
سوى السيف والرمح الرُدينيّ باكيا
وأشـقـر مـحـبـوك يـجـر عـنـانـه
إلى المـاء لم يـترك لـه المـوت ساقيا
وقد كنت عَطّافاً إذا الخيل أدبرت
سريعاً إلى الهيجا إلى من دعانيا
وقد كنت صبّاراً على القرن في الوغى
ثقيلاً على الأعـداء غضباً لسانيا

ويظهـر (مالك بـن الريـب) إيمانه بالله وقضائه وهو ينصح ابنته قائلاً:

ليس شيء يشاؤه ذو المعالي
بعزيز عليه فادعي المجيبا
ودعي أن تقطعي الآن قلبي
أو تريني في رحلتي تعذيبا
أنا في قبضة الإله إذا كنـ
ـت بعيداً أو كنت منك قريبا

وهناك الشاعر (الأحيمر السعدي) وكان من الصعاليك، وعاش بين الدولتين الأموية والعباسية، طرده أهله لكثرة جناياته، فراح يقطع طريق القوافل، فطلبه والي البصرة فهرب إلى الفلوات، وصاحب الوحوش، ليس قصيدة واحدة شهيرة يصف فيها ألفته للحيوانات ونفوره من الناس، كما يشكو الفقر والبؤس وفيها هذه الأبيات:

عوى الذئب فاستأنست
بالذئب إذا عوى
وصوّت إنسان فكدت أطير
يرى الله أني للأنيس لكاره
وتبغضهم لي مقلة وضمير
وإني لأستحيي من الله أن أرى
أجرر حبلاً ليس فيه بعير
وأن أسأل المرء اللئيم بعيره
وبعران ربي في البلاد كثير

وله بيت مفرد جميل وطريف يقول فيه:

نهق الحمار فقلت أيمن طائر
إن الحمار من التجار قريب

ومعنى البيت: أنه يستبشر بصوت الحمار إذا نهق، لأنه يشير إلى أنَّ التجار باتوا قريبين ليغير عليهم ويسلبهم.

أمَّا الصعاليك في العصر العباسي فقد غلب على شعرهم، كما مرَّ معنا، التهكم بسخرية سوداء والهجاء الظريف، ووصف البؤس والفقر والحالة الرثة التي يعيشون فيها، وذلك بشكل فكاهي وطريف، فهذا الشاعر (أبو الشمقمق) واسمه (مروان بن محمد) وهو شاعر من الموالي، أصله من (خراسان)، و (أبو الشمقمق وكنيته تعني الطويل) كان صعلوكاً ظريفاً متبرماً وذا لسان لاذع وساخر، وعن سوء حظه يقول:

لو ركبت البحار صارت فجاجاً
لا ترى في متونها أمواجا
ولو أني وضعت ياقوتة حمراء
في راحتي لصارت زجاجا

ويصف بؤس حاله، وفقره المدقع قائلاً:

أنا في حال تعالى الله ربي أي حال
ليس لي شيء إذا قيل لمن ذا؟ قلت: ذا لي
ولقد أهزلت حتى
محت الشمس خيالي
ولقد أفلست حتى حلَّ أكلي لعيالي

كما يقول ساخراً من نفسه، ولكن سخرية سوداء تدل على بؤسه وفقره:

أنا من زوار بيتي
وأنا ضيف لنفسي
أشتري في كل يوم
حزمة البقل بفلس

وإذا ما ذقت خلاً
كان من أيام عرسي

ومثله أيضاً الشاعر الصعلوك (جحظة البرمكي) ويعود نسبه إلى (يحيى بن خالد البرمكي)، أجداده البرامكة، وقد نكل بهم (هارون الرشيد) بعد عز وسيادة، فعاش فقيراً معدماً، وكان في شعره ظرف وتهكم أسود، ولغة متقشفة بلاغياً، وذات نكهة سوريالية غير معهودة في الشعر العربي، وهو يشكو الدهر الذي يشقيه ويتعبه قائلاً:

يطول عليّ الليل حتى أمله
فأجلس والنوام في غفلة عني
فلا أنا بالراضي من الدهر فعله
ولا الدهر يرضى بالذي ناله مني

وهو يحيا بثياب بسيطة أشبه ما تكون بثياب الإحرام:

وقائلة لي: كيف حالك بعدنا
في ثوب مثر أنت أم ثوب مقتر؟
فقلت لها لا تسأليني فإنني
أروح وأغدو في حرام مقتّر

كما يقول عن الدقيق:

إلا الدقيق فإنه قوت لنا
فإذا غلا يوماً فقد نزل البلا

أمّا (الأحنف العُكبري) واسمه (أبو الحسن عقيل بن محمد العكبري) ولد في (عكبر) قرب مدينة (الدجيل) شمال (بغداد) ولقب بالأحنف لأنه كان أعرج، وهو شاعر المكدّين وظريفهم، وظريف الجملة كما وصفه (الثعالبي)، مارس قراءة الطالع والتنجيم كجزء من ضرورات الحياة الصعبة، التي كان يعيشها، وكانت أشعاره شكوى في القلة، وتذمراً من الذلة، وإشادة بالعزلة، وكان يغلب عليه التشاؤم، حيث يقول:

وأحلم في المنام بكل خير
فأصبح لا أراه ولا يراني
ولو أبصرت شراً في منامي
لقيت الشر من قبل الأذان

وكثيراً ما يتذمر من عيشته وفقره، وعدم امتلاكه بيتاً، مع أن للعنكبوت بيتاً وللخنفساء بيتاً، إلا هو لا يملك بيتاً، لذلك يقول:

العنكبوت بنت بيتاً على وهن
تأوي إليه وما لي مثله وطن
والخنفساء لها من جنسها سكن
وليس لي منهما إلف ولا سكن

ثم يبدي تشاؤمه، وعدم اكتراثه بالحياة، لوصوله إلى حد اليأس، وركونه إلى سوء حظه:

ما أبالي بأي أرض حللت
إنني حيثما سقطت لقطت
سائح بالنهار حتى إذا الليـ
ـل بدا دجنه نفخت ونمت
راحتي قصعتي وبطني جرابي
وبجلدي عن الثياب قنعت

ومع أنّه من الشعراء المميزين في وقته، إلا أنّ شعره لم يغنه شيئاً، ولم يفده بشيء، وظل فقيراً يحلم بالدقيق، وفي ذلك يقول:

رأيت الشعر لا يغني فتيلاً
إذا ما البيت أعوزه الدقيق
إذا فُقد الدقيق فقدت عقلي
ويبقى العقل ما بقي الدقيق

وناتي إلى شاعر صعلوك آخر هو (أبو دُلف الخزرجي الينبوعي) واسمه (مسعر بن مهلهل) وهو شاعر عباسي «كثير الملح والظرف، مشحوذ المدية في الجدية، خنق التسعين في الإطراب والاغتراب، وركوب الأسفار الصعاب، وضرب صفحة المحراب بالجراب، في خدمة العلوم والآداب، وفي تدويخه البلاد» كما وصفه (الثعالبي) في يتيمته، له قصيدة مشهورة تعرف (الساسانية) تلخص تجربة الصعاليك في العصر العباسي، وهي تعارض قصيدة شبيهة لها (للأحنف العكبري)، وفي مقطوعة شعرية صغيرة له، يتكلم عن اللحم فيقول:

تركت اللحم للإفلاس والدشة والضيق
فقالوا بل تثوبون بظن غير تحقيق
ولو مر بنا (ماني) أكلناه على الريق

و(ماني) هو مؤسس الديانة المانوية، ومن تعاليمها تحريم الذبح وأكل اللحوم. ومن قصيدة طويلة له، يقول عن تجربته الأليمة في الحياة وبؤسها وشقائها:

ألا إني حلبت الدهر من شطر إلى شطر
وجبت الأرض حتى صرت في التطواف كالخضر
وللغربة في الحر فعال النار في التبر
وما عيش الفتى إلا كحال المد والجزر

كما أن له فلسفة خاصة في الحياة. حيث يقول:

ويحك هذا الزمان زور
فلا يغرنك الغرور
لا تلتزم حالة ولكن
در بالليالي كما تدور

وأخيراً، لا يسعنا إلا الاكتفاء بما ذكرناه، وكان بودنا أن نذكر جميع الشعراء الصعاليك في المراحل الثلاث، الجاهلية، والأموية، والعباسية، وأن نذكر شيئاً من أخبارهم وأشعارهم ولكن هذا يستحيل في مثل هذه المقالة، لذلك اكتفينا بذكر بعضهم في كل مرحلة مع نماذج من شعرهم، آملين أن نكون قد وفقنا في إعطاء لمحة عامة عن الشعراء الصعاليك وعن شعرهم في المراحل الثلاث خلال التاريخ.

المصادر والمراجع

١- الجامع في تاريخ الأدب العربي-حنا الفاخوري- دار الجليل- بيروت-ط١- ١٩٨٦م.
٢- تاريخ الادب الجاهلي- شوقي ضيف- دار المعارض- القاهرة- ط٨ - ١٩٩٦م.
٣- اللاميتان- أعدها وعلق عليها عبد المعين ملوحي- وزارة الثقافة- دمشق-١٩٦٦م.
٤- أناشيد الصعاليك - اختارها وقدم لها محمد مظلوم وكتاب في جريدة -العدد/١٥٣/-دمشق- أيار ٢٠١١م.
٥- ديوان الشنفرى-جمع وتحقيق وشرح إميل بديع يعقوب- دار الكتاب العربي- بيروت- ط٢- ١٩٩٦م.
٦- الادب العربي والنصوص -الصف الاول الثانوي- وزارة التربية - دمشق -٢٠٠٩م.
٧- اللغة العربية وآدابها- الصف الأول الثانوي- وزارة التربية-دمشق- ٢٠١١م.

سليمان العيسى وأدب الرحلة

د. ملكة أبيض ❁

-١-

هذا العنوان يثير تساؤلات عدة، أولها:

هل تضمنت كتابات سليمان العيسى مؤلفات أو نصوصاً في أدب الرحلات؟

والجواب أنَّ النتاج الغزير للشاعر يضم مؤلفاً كاملاً تدور موضوعاته حول عدد من الرحلات التي قام بها معي أو بمفرده. كما أنَّ لديه نصوصاً متناثرة في العديد من دواوينه التي صدرت في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن تتناول هذه الموضوعات.

أمَّا المؤلَّف الذي خصه بالرحلات فهو: مدن وأسفار، صدر عن الهيئة العامة للكتاب،٢٠٠٩م؛ وأمَّا الدواوين التي تضم، فيما تضم، نصوصاً حول رحلاته، فهي:

١- الأعمال الشعرية، (٥) مجلدات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٥ -١٩٩٦م، ولاسيما في المجلدين الأخيرين.

٢- كتاب الحنين، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، ٢٠٠٥م.

٣- الديوان الضاحك موجزاً، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٩م.

٤- ديوان العراق، اتحاد الكتَّاب العرب، دمشق،٢٠١٠م.

٥- السفر الجميل، دار جداول، بيروت، ٢٠١١م.

❁ أديبة ومترجمة وأستاذة التربية في الجامعات العربية.

٦- دفتر النثر، دار جداول، بيروت، ٢٠١٢م.

٧- النعيرية قريتي، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠١٢م.

ومن هذه النصوص ما يتحدث عن رحلات قريبة العهد، ومنها ما يعود إلى فترات سابقة، وحتى إلى مرحلة الطفولة.

والواقع أنّ الشاعر قرر -بعد نكسة حزيران- أن يتجه بنتاجه إلى الصغار ويسهم في تنشئتهم، وهذا ما جسّده الأدب الذي كتبه للأطفال. كما رأى أن يفتح نافذة يطلّ منها على ذاته في تأملاته مع نفسه وعلاقاته بالآخرين، فكانت كتاباته النثرية والمسرحية، وكانت نصوصه التي تحدثت عن أسفاره تلبية لدعوة إلى مشاركة أدبية أو ثقافية، أو بقرار منا، بغية الترويح، وارتياد الآفاق، ولقاء الأبناء والأصدقاء.

وقد تحدثتُ عن أدب الأطفال لديه، وعن نثره ومسرحياته، في بحوث سابقة. وأتوقف الآن عند كتاباته حول الأسفار، وهو ما يدخل في باب «أدب الرحلات».

والسؤال الثاني الذي يتبادر إلى الذهن هنا:

ما هو أدب الرحلات؟ وهل يُمثّل جنساً أدبياً متميزاً، حتى نفرد له المؤلفات والدراسات؟

والحقيقة أنّ الرحلات لدى الإنسان قديمة جداً، بل إن الكائنات الحية الأخرى تشاطره فيها. كما أنّ أدب الرحلات قديم من دون شك، وكان تداوله يتم شفاهاً في البداية. ثم ظهر كتابياً في الكتب الدينية، مثل رحلة النبي نوح في السفينة التي أنقذت البشرية من الطوفان، والملاحم الأولى مثل ملحمة جلجامش التي تتحدث عن سفر البطلين جلجامش وأنكيدو إلى لبنان وسواه من الأماكن، وفي كتب التاريخ مثل رحلة هيرودوتس «أبي التاريخ» إلى مصر، أو على جدران المعابد مثل الرحلة البحرية التي وجّهتها الملكة المصرية حتشبسوت إلى بلاد بونت (وهي الصومال الآن) لأغراض تجارية.. وقد عرف أدبنا العربي هذا النوع منذ القرن العاشر الميلادي. فمع ازدهار الحضارة العربية، ظهر أدب الرحلات ليشكل أحد أهم تجليات الثقافة في ذلك العصر؛ وأدى الرحّالة العرب ابن فضلان، والإدريسي، وابن جبير، وابن بطوطة وغيرهم، مهمة سامية إذ أسهمت كتاباتهم في التعريف بالمعالم المميزة للبلدان التي زاروها من حيث طبيعتها الجغرافية، وظروفها المعيشية؛ وألقوا الضوء على تاريخ هذه البلاد وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها.. إلخ فساعدوا بذلك على نقل بعض ثقافات الشعوب الأخرى وإثارة الاهتمام بها.

إلا أن النصوص التي كتبوها كانت

جغرافية إلى حد كبير، ذات طابع عملي، تنقصه المسحة الفنية التي تميز الأدب. ويمكن قول الشيء نفسه عمَّا كتب في الغرب في عصر الاكتشافات الجغرافية ذات الغرض التوسعي الاستعماري بالدرجة الأولى.

على أنَّ العصر الحديث رفع مستوى توقعاته من هذا النوع من النصوص، وطالبها بأن تعكس شعوراً ومعاناة، وأن تعبر عن ذلك بأسلوب فني شائق يغري القارئ بمواصلة القراءة من دون كلل؛ ويجعله يتعايش مع الأحداث والأماكن، ويندمج فيها.

المهم أنَّ أدب الرحلات في العصر الحاضر لا ينتظر منه أن يكون وصفاً جافاً للمعالم الجغرافية، أو الاجتماعية، بل هو تعبير عن مشاعر تختلج في نفس الأديب المغترب إزاء ما عاناه في بلد الاغتراب من جوانب إيجابية وسلبية. والأديب حرّ في اصطناع الأسلوب الذي يختاره لأداء ذلك سواء أكان ذلك بالقصص أو الحوار أو الشعر..

ولنعد إلى أدب الرحلات عند سليمان العيسى.

-٢-

هذه الكتابات تسجل جانباً من تجربة الشاعر في الحياة. ففي طفولته شارك في الرحلات العائلية من قريته إلى مزاريّ «الخضر» و«الأعرابي» القريبين من القرية؛ ورافق تلامذة أنطاكية في النزهات شبه الأسبوعية إلى شلالات دفنة؛ وهاجر من وطنه الصغير (لواء الإسكندرون) إلى المدن السورية الأخرى للدراسة، ثم للاستقرار بعد انتزاع وطنه الصغير من أمه سورية وإلحاقه بتركيا، ومنع أبناء اللواء من المغادرة.

وفي شبابه ذهب إلى العراق لإتمام دراسته في دار المعلمين العالية، مع عودات صيفية طاف خلالها بلدات الساحل السوري وقراه داعياً مع رفاقه إلى النضال في سبيل الوحدة العربية والعدل الاجتماعي.

وخلال سنوات العمل، كثرت جولاته في المدن السورية والأقطار العربية وبعض الدول الأجنبية في نشاطات أدبية وتربوية وسياسية وترويحية؛

وحين تقاعد عن العمل الرسمي، رجحت كفة زيارات الأبناء والأصدقاء. على أنَّ الرحلات الأخرى لم تتوقف حتى نهاية عام ٢٠٠٨م. وكانت برفقتي، بالطبع.

إنَّ الكتابات عن هذه الرحلات تختلف من نوع إلى آخر، من حيث أسلوبها، وتركيزها، ودور الخيال والواقع فيها.. ولا أقول زمن كتابتها، لأنَّ الشاعر لم يلتفت لتسجيل رحلاته في مرحلة الشباب التي غلب عليها الشعر القومي والانفعال الشديد، وإنَّما في مرحلة النضج بعد أن ودّع

الاندفاع والحماسة البالغة، ومال إلى التعقل والمعالجة الهادئة.

ولنبدأ برحلات الطفولة.

كتبت هذه الرحلات من الذاكرة، أول ما كتبت، ونشرت في «كتاب الحنين» عام ٢٠٠٥م، وهي تتضمن ثلاثة عناوين: الخضر، الأعرابي، دفنة.

وربما كان من الممكن إدراج «مدرسة العفّان الابتدائية» في هذه القائمة، لأن دخول الشاعر إلى هذه المدرسة يشكل المرحلة الثانية من طفولته، حيث انتقل من الكتّاب في قريته «النعيرية» إلى مدرسة «العفّان» في أنطاكية، وكان ذلك حلم كل طفل قروي في تلك المنطقة. وعن هذه التجربة يقول:

«.. لَكَم كان رفاقي تلامذة المدرسة (من أهل المدينة) يبدون سعداء في نظري، لأنهم ما يكادون يغادرون بيوتهم في المدينة حتى يكونوا قد انتظموا في باحتها..

أمّا أنا.. فقد كان عليّ أن أجتاز الطريق سيراً على قدميّ من القرية المجاورة «الجَكَمْجة» التي أتيح لي أن أنزل فيها ضيفاً على أحد البيوت الصديقة الكريمة، إلى مدرسة العفّان. ولم تكن المسافة قريبة ولا سهلة على صبيّ يحمل كتبه كلّ صباح، وينطلق من القرية إلى المدينة، ليعود مع الغروب، ويعاني ما يعاني من أمطار الشتاء ووحله وبرده في الطريق..».

على أنّ هناك متعاً كثيرة تأتي مع الالتحاق بمدرسة المدينة، ومنها مشاركة التلاميذ في نزهاتهم الأسبوعية التي كانت شلالات دفنة محطّها في الغالب. يقول الشاعر في ذلك على هامش كلمة مطوّلة عن دفنة:

«كنتُ أهرع مع عدد من رفاقي
التلامذة الصغار
صباحَ كل جمعة
لنصل إلى الشلاّل
ونتأمل الروعة الهادرة
التي تنحدر من قمة الجَبَل
إلى حضن «العاصي»..
كانت شلاّلات دفنة «الحربيات»
متعةَ الصغار الأولى
إنها ما تزال حيّةً نابضة
في أعماق الذاكرة والحنين..»

إنّها ذكريات تعود إلى قرابة خمسة وسبعين عاماً. ومع ذلك ما تزال حيّة نابضة في نفس الشاعر، وفي كتابته عنها. ومن منا لا تهزه ذكريات الطفولة والمدرسة الأولى.

على أنّه يتوسع في نصوصه عن زيارات أهل النعيرية والقرى المجاورة للخضر، والأعرابي. ففيما يتعلق بزيارة الخضر يذكر الشاعر أنّ أسرته -شأنها في ذلك شأن الأسر الأخرى- تستيقظ يوم الجمعة قبيل الفجر وتُعِدّ حاجاتها لقضاء يوم وليلة في

ذلك المكان الذي يقع على شاطئ السويدية عند مصب نهر العاصي، وهو مكان رائع لقضاء عطلة الأسبوع، ولا سيما في فصل الصيف.

إلا أنَّ غرض القرويين المعلن من هذه الزيارة هو التماس البركة ووفاء النذور. فالخضر يوزع بركاته على الناس، ولاسيما الفقراء الذين يحتاجون إليه أكثر من غيرهم، لذلك كان هؤلاء ينامون إلى جواره مفترشين الرمل الناعم حتى الصباح، وقلما كانوا يستخدمون الغطاء.

وهذه الزيارة الدينية المقاصد لا تخلو من معالم ترويحية، كالسباحة، والتعرض للشمس والهواء الطلق، وتناول الطعام الذي يقدم على وجبتين، واحدة خفيفة في النهار، وأخرى غنية في بداية السهرة ويرافقها سمر وغناء ودبكة حتى ساعة متأخرة من الليل.

هكذا نرى أنَّ هذا النَّص يركز اهتمامه على وصف تقاليد القرية، وما فيها من متع جميلة تعوّض عن ضيق حالها؛ ويحاول رسم الواقع بكل تفاصيله. إلا أنَّ نص «الأعرابي» يجنح إلى الخيال في تفسير تقديس هذا الشخص وعلو مقامه على رأس الجبل الذي تقع القرية في سفحه، حتى إنَّ قلة من الناس كانوا يستطيعون الصعود إليه لوعورة الطريق. ولكن الجميع كانوا يحلفون الأيمان باسمه ويخصّونه بنذورهم إذا أصابهم مكروه، أو عنّت لهم أمنية.

كانت زيارة معظم الأهالي تقتصر على الوصول إلى عين رقراقة تنفجر تحته، وسنديانة ضخمة تملأ الفضاء فوقها. على أنَّ بعض الشجعان كانوا يصعدون الطريق الوعر ويقضون سحابة نهارهم إلى جواره يلتمسون منه البركة والرضا.

وهكذا تخيل الشاعر أنَّ هذا الولي زاره في الحلم خلال نومه في خيمته الصيفية التي أقامها في قلب شجرة التوت التي تظلل باحة داره في القرية، وأعلمه أنه فجع في شبابه بوفاة فتاته البدوية سعدى إثر مرض خطفها منه، فراح يهيم في الأرض ويساعد المساكين، وألقى عصا الترحال إلى جانب هؤلاء القرويين الطيبين الذين أحبهم وأحبوه، إلى أن قضى أجله بينهم. وقد ظلوا يلقبونه «الأعرابي» في حياته وبعد مماته.

ويضيف الشاعر:

«.. وأفيق من حُلُمي..
لأهبط من خيمتي..
وأهرع إلى الوالد الشيخ أحمد..
أقصُّ عليه قصة هذا الطائف العجيب الذي طاف بي
وما يلبث الوالد الوقور أن يبتسم قائلاً:
لقد خَصَّك الأعرابي بواحدة من أعظم بركاته

يا بنيّ
حين روى لك هذه القصة..
التي لم يسمع بها أحد قبلك..»
وهكذا تنتهي الزيارة..

إنها بعض ذكريات الطفولة العزيزة على قلب الشاعر وأحلامها. وهي نموذج يعكس أهم خصائص أدب الرحلات، وهي الحرية:

حرية الكاتب في اتخاذ الأسلوب الذي يراه لتحقيق هدفه، ألا وهو جذب القارئ إلى موضوعه، ونقل مشاعره إليه، حتى الانبهار. إن أمكن.

وقد ضمّن الشاعر نصّه جميع المعلومات المفيدة في الرحلة: الموقع. الطريق. الزوار. أغراض الرحلة..(1)

-٣-

لن أتحدث هنا عن الرحلتين اللتين شكلتا هجرة الشاعر من وطنه الصغير (اللواء)، إلى المدن السورية الأخرى في عام ١٩٣٨م بالباص مع لفيف من الطلاب والطالبات، وعام ١٩٣٩م سيراً على الأقدام عبر الجبال مع أخيه الأكبر، لأنهما حصلتا على تغطية جيدة في إطار سيرة حياة الشاعر.(2) ولكني سأنتقل على الفور إلى رحلته للدراسة في العراق، وقد تحدث عنها في رسالة إلى صديق عراقي، أثبتها في مقدمة كتابه «ديوان العراق»، بعنوان: همسة حب إلى بغداد، يقول فيها:

«قبل نيّف ونصف قرن من عمر الزمن، في مساء خريف حار، لا يخلو من عذوبة ورقة، وهل يمكن أن يمر مساء في بغداد بلا عذوبة ورقة؟

قبل خمسة وخمسين عاماً يصل فتى مشردٌ من لواء إسكندرون إلى بغداد، بعد أن أنفق يومين كاملين في عربة بائسة في «قطار الشرق السريع». والطريف أنّ هذا القطار- السُّلحفاة- ما يزال يحتفظ بلقب السريع، تحمله العربة البائسة من حلب إلى عاصمة الرشيد، عن طريق الموصل. وأشهد أن الفتى عانى في هذه الرحلة من صنوف المشقة والعذاب ما لم يعانه من أية رحلة شاء له قدره القاسي أن يقوم بها حتى الآن. كنا قافلة التشرد الأولى.

وتضمني البعثات العربية بين جناحيها مع عدد من رفاقي المشردين الذين يبحثون عن مكان يتابعون تحصيلهم فيه.

شكراً للبعثات العربية وللعراق.

وفي اليوم التالي، أكون طالباً في دار المعلمين العالية- كلية التربية الآن.. خمسة وخمسون عاماً تستيقظ في هذه اللحظة، حيث يجمد الزمن، ويتحول إلى لحظة شعر، وحب، وأحلام.

ولا ينسى بهذه المناسبة أن يذكر حدثاً هاماً جرى له آنذاك:

«على باب دار المعلمين العالية، ومنذ اليوم الأول، ألتقي «أنشودة المطر»، ألتقي الفتى الضامر النحيل مثلي، القادم من البصرة، من أبي الخصيب، بدر شاكر السيّاب. وفي «الدار» نواصل رحلة الدراسة، والشعر، والحب، والنضال..».

وبمناسبة الحديث عن العراق، لابدَّ لي أن أذكر أنَّه سافر إلى هناك عشرات المرات بعد ذلك لتقديم أمسيات شعرية والمشاركة في أنشطة أدبية أخرى. ولكنه يتوقف في هذه الرحلات عند زيارته لبابل. وكلنا يعرف ما تعني بابل لأديب عربي يعرِّف أمته كما يقول في هذين البيتين:

وأبعدُ نحنُ من عبسٍ
ومن مُضرٍ نعم أبعدْ
حمورابي وهاني بَعْلْ
بعضُ عطائنا الأخلدْ

يبدأ هذه الرحلة بسؤال يوجهه إليه أحد الأصدقاء، وكان حينئذ يشارك في مهرجان المتنبي الذي أقيم في بغداد في أواسط السبعينيات

«- هل رأيتَ بابل؟

- لا، لم أزر بابل مع الأسف حتى الآن، على الرغم من أني أقمت في العراق فترة دراستي الجامعية كلها.

قال: هيا إذن. سنذهب إليها على الفور، سيارتي تحت تصرفك..»

وخلال هذا الحوار القصير يذكر الشاعر موقع المدينة التاريخية على مسيرة ساعة ونصف الساعة بالسيارة جنوب بغداد.

ويطلب من الصديق التوقف عند المكان الذي أقيمت فيه حدائق بابل المعلّقة وهي إحدى عجائب الدنيا السبع التي أشادها ملك بابل لزوجته بنت آشور كيلا تحس الغربة، عن بيئتها الجبلية التي نشأت فيها، في مقامها الجديد السهلي المنبسط. وبعد أن يبدي الشاعر تأثره لحلول أكوام من التراب محل الحدائق، يتحدث عن متانة الآجر الذي صُنعت منه ويقارنه بحجارة الأهرام المعاصرة له. ويختم بقول الصديق: لقد صنع الأجداد من هذا الآجر في بناء بابل على مرّ العصور ما يكفي لرصف طريق طويل يصل إلى القمر، كما يقول دارسو الحضارات في بلادنا؛ فيرفع بذلك من مستوى الإبهار الذي تمتع به النص من البداية.[3]

على أنَّ الوقفة الطولى في كتابات سليمان عن أسفاره في العراق كانت عند عام ١٩٧١م، حين دُعي لحضور رفع الستار عن تمثال صديقه المرحوم الشاعر العراقي بدر شاكر السياب في مدينة البصرة، وجرى استضافته خلال أسبوع في «جزيرة السندباد»

بشط العرب. هذه الرحلة أعطت ديواناً كاملاً بعنوان «أغنية في جزيرة السندباد»، غلب عليه الخيال. ذلك أن الشاعر فضّل أن يتجول في الماضي بدل الحاضر ويقابل الأعلام الذين عاشوا في هذا المكان، أو مرّوا به، وتركوا بصماتهم عليه على مر التاريخ كالخليل بن أحمد، والجاحظ، والأصمعي، والفرزدق، وجرير، وأبي نواس.. جولة ثقافية تؤدي فيها شهرزاد دور الدليل، والشاعر المسافر دور السندباد الذي يختم الجولة بعرض رؤيته الخاصة لهذا التاريخ، ومضيفاً رحلة ثامنة إلى رحلات السندباد السبع.

كما أعطت هذه الرحلة نصاً قصيراً بعنوان «عيناك غابتا نخيل»، اختلطت فيه أبيات بدر شاكر السياب الغزلية بانطباعات سليمان العيسى عن مشاهد غابات النخيل، ومياه الشط، والنسمات الباردة التي تحملها رؤوس الأشجار فتنقل عذوبة الجو إلى مسافات بعيدة.(٤) مما يجعله أجمل نصوص أدب الرحلات على الإطلاق.

-٤-

لنأت الآن إلى كتابه «مدن وأسفار».

هنا أيضاً لا يستطيع الشاعر التحدث عن جميع أسفاره، فهي كثيرة، بعضها عادي لم يترك انطباعاً قوياً، إلا أنَّ بعضها الآخر جدير بالتسجيل لأنه ترك انطباعاً مميزاً في نفسه. وهناك أسفار تتابعت في زخم جعله يقدمها مجتمعة في فصل واحد من الكتاب، كالفصل الأوّل الذي حمل عنوان الكتاب نفسه وبلغ خمساً وخمسين صفحة، والفصل الثاني بعنوان «خيوط من الذكرى» وهو في عشرين صفحة، والثالث بعنوان «عجائب الدنيا السبع» وهو في حوالى عشر صفحات.

يتحدث الفصل الأوّل عن سفر الشاعر إلى موسكو لحضور مهرجان السلم العالمي الذي عقد عام ١٩٥٧م، ثم انتقاله مع مجموعة صغيرة اختارتها الصين، إلى بكين بالقطار عبر سيبيريا في رحلة استغرقت عشرة أيام.

يلفت النظر في هذا العرض استخدام الكاتب تقنية مستعارة من السينما، وهي «البدء من وسط الحدث أو آخره، والعودة إلى أوله»، فقد بدأه من فندق بكين في ٢٧ آب ١٩٥٧م، ثم عاد إلى الوراء للحديث عن بداية المهرجان، وألمح إلى العلاقات الحميمة التي كانت قائمة آنئذ بين القوتين الكبريين في العالم الاشتراكي (الاتحاد السوفييتي والصين) ووصف الرحلة المتعبة الممتعة في آن. ويعود إلى الفندق ليستعيد مشاهد زيارته لجامعة بكين وحديقتها، ويعقد بين هذه الحديقة وحديقة قصر الزهراء بقرطبة مقارنة تستدعي أبيات ابن زيدون الغزلية بحبيبته ولادة.

وينقله هذا التداعي إلى مشاهداته في قصر الإمبراطور الصيفي، ولا سيما الزورق الصغير الذي حملهم إليه.

ذكريات جميلة، حديثة وقديمة، ينتقل الكاتب من إحداها إلى الأخرى وينهيها بزيارة السور العظيم. إحدى عجائب الدنيا السبع. ثم بزيارة شانغهاي في قطار بطيء يمتلئ حكمة ورصانة كأصحابه..

وما يلفت النظر في هذا العرض هو التقنية الجديدة، والتلوين، والتعليق المستقى من ثقافة الكاتب العميقة وخياله الواسع، وعدم التوقف عند التفاصيل المملة، مما يشعر القارئ أنّ الكاتب يعمل على إبداع نص فني، لا كتابة تقرير.

يضم الفصل الأوّل من مدن وأسفار أيضاً نصاً يتحدث عن رحلة عائلية قمنا بها مع الأولاد صيف عام ١٩٦٤م لزيارة أهل سليمان في اللواء، وهي المرّة الوحيدة التي سمحت له فيها السلطات التركية بدخول اللواء بعد مغادرته عام ١٩٣٩م.

وقد انتقلنا من النعيرية وأنطاكية إلى مرسين لزيارة شقيقته، ومن ثمّ إلى أنقرة وإستامبول للاطلاع والترويح. ولابد من القول هنا أن من الطبيعي أن يحفل النص بمشاعر الفرح للقاء الأهل والوطن الصغير؛ إلا أنه يحفل أيضاً بالتأملات والأفكار.

ففيما يتعلق بأنقرة يقول الشاعر:

«هناك مدن تصنعها الطبيعة قبل أن يتدخل البناء والعمران، أمّا أنقرة العاصمة الأنيقة الرشيقة فإنّها من صنع الإنسان..».

وعن إستانبول يقول: «إنّها الزمردة التي يشطرها الماء، وتقف لتشع جمالاً وبهجة وسحراً بين قارتين». ويتابع: «أسبوع كامل أمضيناه في هذا البلد الذي انصهرت فيه الحضارات، وتلاقت الشعوب، وتعانق في رحابه الشرق والغرب؛ ولكن رائحتنا، رائحة الحضارة العربية الإسلامية ظلّت تعبق فيه، وتملأ الجو كله بنكهتها وتراثها وتقاليدها وعاداتها ومآذنها وقبابها..

رائعة البوصيري الطويلة التي ازدانت بها جدران (توب كابي) أوّل قصر بناه العثمانيون في عاصمتهم الجديدة، لا يرى فيه السياح الأجانب إلا زخرفاً ونقشاً على جدار. أمّا أنا فكنت أردد أبياتها التي تلفّ جدران القصر كله تقريباً، في داخل الغرف، والتي خطّها خطّاط ما أشكّ أنه كان أمهر من أمسك بقلم عربي للخط في عصره، واختار لأبياتها اللون الأزرق المُشِعّ، كأنما ينقل إليك زرقة البحر المجاور، يملأ به بصرك وخيالك متعة لا حدود لها، وفناً عربياً يبلغ حد الإعجاز.

أمن تذكر جيران بذي سَلَم
مزجتَ دمعاً جرى من مقلة بدمِ؟

وتنساب القصيدة شريطاً من الروعة الفنية على أعلى الجدار، في كل حجرة من حجرات القصر العريق لتهبه جلاله

ومعناه في رأي المصمم العظيم الذي أوصى بنقشها، ورأي السلطان نفسه الذي ربما رأى في قصيدة «البُرْدَة» النبوية حرزاً له من الأعداء، ووقاء من نوائب الزمان».

إنها ثقافة الشاعر العربية العريقة، وحساسيته الفنية العميقة التي تمكنت من التقاط مواضع الجمال وتفسيرها للقارئ، لجعله يحس بها ويدركها كما فعل. وأظن أنّ قلة من الكتّاب يملكون هذه الثقافة وهذه الموهبة.

-٥-

هذه نماذج من نصوص «مدن وأسفار» لا أظن أن مساحة البحث تسمح بعرضها كلها. إضافة إلى روسيا والصين وتركيا يتحدث الفصل الأوّل عن أسفاره إلى اليمن، والجزائر، وباريس، وأثينا، ودبي، ومونتريال، وواشنطن، والرياض..

ويتحدث الفصل الثاني «خيوط من الذكرى» عن بداية علاقة الشاعر باليمن التي توِّجت بإقامته فيه خمسة عشر عاماً.

في مطلع كانون الأوّل/ ديسمبر ١٩٨١م أقيم مهرجان الشعر الخامس عشر بدعوة من «اتحاد الأدباء والكتّاب العرب». وقد بدأ المهرجان في عدن.. وانتهى في صنعاء، بغية تشجيع اليمن على إنهاء التشطير وإقامة الوحدة.

ألقى الشاعر قصيدة في حفل الختام في جامعة صنعاء، والتقى بعدها رئيس الجامعة آنئذ الشاعر الدكتور عبد العزيز المقالح- ثم تتالت الدعوات للشاعر ولي لزيارة جامعة صنعاء واليمن.. وتتالت الزيارات:

سليمان يقدم أمسيات أدبية.. وأنا أحاضر في الجامعة بصفة أستاذة زائرة حتى عام ١٩٨٩م حيث قررت التعاقد مع الجامعة للتدريس فيها، وقرر سليمان مرافقتي متفرغاً للكتابة والأنشطة الأدبية الأخرى..

يتحدث الفصل عن بعض هذه الأسفار، وعن قيام الوحدة اليمنية في ٢٢ أيار/مايو ١٩٩٠م.

ويتحدث الفصل الثالث «عجائب الدنيا السبع» عن العجائب السبع القديمة. فقد حملت الرحلات الشاعر إلى مصر وشاهد أبا الهول والأهرامات، وإلى العراق فشاهد بابل وحدائقها المعلّقة، وإلى الهند فتوقف عند تاج محل، وإلى الصين فتناول غداءه على سورها العظيم.. ويذكر بأن معظمها كان في وطنه العربي.. وأن العجائب الآن تعدّ بالمئات، بل بالآلاف..

ويتوقف فصل آخر عند رحلة في المحيط الأطلسي إلى جزيرة برمودا، على ظهر باخرة سياحية، بعنوان «ساعة مع المحيط»، وهو يلتقط هنا مشهداً واحداً في هذه الرحلة.. إنّه ظهور حوت من حيتان المحيط الهائلة.. ويعرضه بشكل مثير معلقاً: «الباخرة الأنيقة تتحرك.. وأنا أتذكر قصائد «بايرون» التي أملاها الموج الهادر؛ و«موبي ديك» و«الشيخ والبحر»، وفرس عقبة بن نافع الذي وقف

على شواطئه متحدياً ذات يوم، ثم ألقى عصا التحدي في عباب موجة جبّارة.. كل هذا كان يمر أمام عيني، والزرقتان ما تزالان تفتحان أبواب المجهول أمامي: زرقة السماء وزرقة الماء.

فجأة: يشق صدر المحيط الحالم شيء ضخم، يرتفع فوق الماء كالشهاب الساطع، ثم يهوي، ثم يرتفع مرة أخرى..

في هذا المشهد أيضاً تتضافر ثقافة الشاعر الواسعة، وإحساسه العميق ليقدما عرضاً مثيراً باهراً، يدفع القارئ إلى متابعة القراءة بشغف..

ويقتطف فصل «صباح في جنة العريف» حواراً قام بين الشاعر وسائحة برازيلية، خلال زيارته للأندلس، حول اسم حدائق قصر الحمراء. فهي تلفظه «خنا ناريف» بالإسبانية المحرّفة عن الاسم الأصلي العربي «جنة العريف»، وهو يُصحِّحه، ويعلق على ذلك:

«صباحُ الخير..
يا ظُللَ العريف!
صباحُ الخير.. يا بستانَ أهلي
عبيرُ دمشقَ ملءُ دمي
وأنتِ حديقتي..
وإذا مددتُ يدي هنا..
فإلى قطوفي.»

وفي الفصول الأخيرة «في بودابست زمرّدة أوروبة» و«رحلة إلى ليل» و«فيلادلفيا في البال»، يختار أجمل المعالم الطبيعية، والأبنية الأثرية، والأنشطة الثقافية والفنية، ويتحدث عنها شعراً، أو بنثر يكاد يكون شعراً.

و«في بودابست»، يتوقف عند نهر الدانوب ويهديه قصيدة ترجمت على ما يُذْكر إلى الفرنسية والإنجليزية، ويستمع في جزيرة «مارغريت» إلى فرقة موسيقية تعزف ألحان فرانز ليست، ترافقها مجموعة من الفتيات والفتيان بثيابهم المزركشة، يرقصون رقصاتهم الشعبية على هذه الألحان.. ويؤكد: «..لا أريد أن أتحدث بالتفصيل عن كل ما شاهدناه في بودابست وما حولها، خلال إقامتنا فيها لأني لا أحب السرد العاري. إنني أوثر أن ألتقط من هذه الزيارة ما كان له أثر يمكن أن يبقى في النفس، وأن تستعيده الذاكرة بشيء من الحب والحنين».

وفي «رحلة إلى ليل: النجمة المتعددة الأشعة»، يطلق هذه الصفة على المدينة لأنّ المسافر قادر على أن يختار كل يوم شعاعاً من هذه الأشعة، ينسرب في طريقه ويمضي نهاراً ممتعاً في مدينة قريبة أو بلد مجاور.. وأهم شعاع انسرب فيه خلال زيارته كان «نفق بحر المانش.. هذا المنجز الأوروبي الذي قرأتُ عشرات المقالات، وسمعتُ مئات الأخبار عن بنائه قبل أن يتم..» وفي «فيلادلفيا في البال» يفتتح العرض بقوله:

«هناك مُدن تستقبلُك بفتور..
وأنتَ تضع قدميكَ على بابها لتدخلَ..
ومُدن لا تشعرُ بوجودكَ حين تدخلُ
ومُدن.. تحس أنَّها تفتح ذراعيها لكَ
وتستقبلك.. وهي صامتة..
ومدن تحتضنكَ عندما تخطو أولى خطواتكَ
فيها وتغمركَ بالقُبَل..
كانت فيلادلفيا، مدينة التاريخ في أمريكا،
إذا ما تحدثنا عن تاريخ أمريكا الذي لا
يضرب في القدم أكثر من نيِّف ومئتي عام..
كانت هذه المدينة البيضاء، عاصمة بنسلفانيا
الفاتنة تستقبلنا وهي صامتة
ولكنها جعلتنا نشعر- منذ الخطوات الأولى-
أن كل ما فيها يرحب بنا بلغة شاعرة،
وليست اللغة الشاعرة غريبة عليها،
فقد أحسستُ منذ اجتزت أولى شوارعها
أن فيلادلفيا نفسها قصيدة مترامية الآفاق.
تملؤك طرباً ومتعة كلما أوغلتَ في قراءتها،
أعني.. في شوارعها الجميلة..»(٥)

ويكمل بالحديث عن متحفها الرائع الواقع على قمة الهضبة المطلة عليها، والذي أمضينا نهارنا كله بين طوابقه الثلاثة الغنية، ولا سيما في الطابق الخاص بالمشرق.

أتوقف عند هذه الكلمات وأنا آسفة لأنني لا أملك مزيداً من المساحة لأتابع هذه الجولة في أدب الرحلات عند سليمان العيسى.. وأرجو أن أعود إليه في وقت لاحق.

الهوامش

١- سليمان العيسى، كتاب الحنين، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، ٢٠٠٥م.
٢- سليمان العيسى، الأعمال الشعرية، المجلد(٥)، على طريق العمر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،١٩٩٦م.
٣- سليمان العيسى، ديوان العراق، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق،٢٠١٠م.
٤- سليمان العيسى، دفتر النثر، دار جداول، بيروت،٢٠١٢م.
٥- سليمان العيسى، مدن وأسفار، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، ٢٠٠٩م.

المراجع

١- مجلة عالم الفكر، المجلد١٣- العدد٤- ١٩٨٣م.
٢- الإنترنت: أدب الرحلات - دراسات ومقالات نقدية وحوارات أدبية- مشاهير الرحّالة في العالم.

جورج طرابيشي
المبدع والمفكر والمترجم

* أسعد طرابية
** مروان رضوان



تميز الكاتب والمترجم جورج طرابيشي بكثرة ترجماته ومؤلفاته حيث إنه ترجم لفرويد وهيغل وسارتر وبرهييه وغارودي وسيمون دي بوفوار وآخرين، وبلغت ترجماته ما يزيد عن مئتي كتاب في الفلسفة والأيديولوجيا والتحليل النفسي والرواية. وله مؤلفات هامة

* كاتب وعضو في الجمعية الكونية السورية. ** كاتب ومتخصص في العلوم السياسية.

العمل الفني: الفنانة وناء كريدي.

في الماركسية والنظرية القومية وفي النقد الأدبي للرواية العربية، حيث كان سباقاً في اللغة العربية إلى تطبيق مناهج التحليل النفسي عليها.

من أبرز مؤلفاته: «معجم الفلاسفة» و«من النهضة إلى الردة» و«هرطقات ١ و٢».

إضافة إلى مشروعه الضخم الذي عمل عليه أكثر من ٢٠ عاماً وصدر منه حتى الآن أربعة مجلدات في «نقد نقد العقل العربي»، أي في نقد مشروع الكاتب والمفكر المغربي محمد عابد الجابري. ويوصف هذا العمل بأنه موسوعي، إذ احتوى على قراءة ومراجعة للتراث اليوناني وللتراث الأوروبي الفلسفي وللتراث العربي الإسلامي ليس الفلسفي فحسب، بل أيضاً الكلامي والفقهي والصوفي واللغوي، وقد حاول فيه الإجابة عن هذا السؤال الأساسي:

هل استقالة العقل في الإسلام جاءت بعامل خارجي، وقابلة للتعليق على مشجب الغير، أم هي مأساة داخلية ومحكومة بآليات ذاتية، يتحمل فيها العقل العربي الإسلامي مسؤولية إقالة نفسه بنفسه؟

أهم ما يذكر في المسار الفكري لجورج طرابيشي هو انتقاله عبر محطات عدة أبرزها الفكر القومي والثوري والوجودية والماركسية لينتهي إلى تبني نزعة نقدية جذرية يرى أنها الموقف الوحيد الذي يمكن أن يصدر عنه المفكر، ولا سيما في الوضعية العربية التي يتجاذبها قطبان: الرؤية المؤمثلة للماضي والرؤية المؤدلجة للحاضر.

أولاً: من كتاب شرق وغرب أنوثة ورجولة

في مجتمع أبوي شرقي، متخلف متأخر، مشحون حتى النخاع بأيديولوجيا طهرانية، متزمتة، يغدو مفهوم الرجولة والأنوثة مفهوماً موجهاً لا للعلاقات بين الرجل والمرأة فحسب، بل أيضاً للعلاقات بين الإنسان والعالم.

بمعنى آخر تفترض الأيديولوجية الأبوية أنّ الإنسان هو المبدأ المذكر في العالم الذي هو المبدأ المؤنث.

بما أنّ علاقات الرجل بالمرأة في ظل الحضارة الأبوية كانت منذ آلاف السنين وما تزال علاقات سيطرة واضطهاد، فإنّها تسحب على علاقة الإنسان بالعالم.

فتغدو الحرب رجولة، والسلام أنوثة، والقوة رجولة، والضعف أنوثة، والسجن للرجال، والبيت للنساء. وحتى ألعاب الأطفال: فالصبيان تستهويهم المسدسات والبنادق البلاستيكية، والبنات يملن إلى الدمى والعرائس وأشغال الإبرة. وحتى المجلات المصورة: فالمراهقون يقبلون على

قصص المغامرات والبطولات والمطاردات السوبرمانية، والمراهقات يتهافتن على قصص الحب والعواطف والجنيات.

إنَّ الرجال هم صانعو الثورة، وصانعو التاريخ، كما أنَّ الفن والإبداع إطلاقاً، مهنة الرجال. إذا صدقنا فرويد، فإن التصعيد ميزة للرجال، بينما تقضي «الشهوة..» على النساء بدونية شبه أبدية، إنَّ علم النفس التحليلي يكرس ثنائية الرجولة- والأنوثة وبالتالي الفعل- الانفعال، الإيجاب- السلب.

وفي مضمار الأمراض النفسية تذهب الفرويدية إلى أنَّ السادية انتصار للمبدأ المذكر من حيث هو مبدأ فعل، وأن المازوخية من حيث هي مبدأ انفعال، انتصار للمبدأ المؤنث. وبالتالي تؤول العلاقات البشرية في السادية والمازوخية إلى علاقات قوة، علاقات سيطرة وخضوع.

كما يؤكد فرويد أنَّ هذه الثنائية تطال الأحلام أيضاً، «فالأسلحة المدببة، وجذوع الأشجار والقصب، تمثل العضو المذكر، بينما الخزائن والعلب والعربات والمدافئ تمثل العضو المؤنث في الحلم».

صحيح أن التحليل النفسي يقرر هنا حقيقة واقعة، ولكنه إذ يقرر الحقيقة الواقعة يكرسها، ووظيفة التحليل النفسي هنا تشبه اللغة، فاللغة لا تكتفي بتذكير الفعل (اللغة مذكرة) بل تتجاوز ذلك لتشحن المفردات الدالة على العلاقات الجنسية بمنطوق الثنائية. فجميع الألفاظ التي تدل على الجماع في اللغة العربية تنم عن علاقة قوة وسيطرة، فالرجل هو الذي يأتي المرأة، ولهذا يقال: غشيها، وطئها، دعكها، وسمها.. إلخ.

وقد عرفت ثنائية الرجولة والأنوثة ازدهاراً عظيماً في عصر الفتح والاستعمار والعنصرية. وليس من قبيل المصادفة أن يكون نعت «العذراء» قد أطلق على قارات ومناطق لم يتم فتحها من قبل المستعمر.

وليس من قبيل المصادفة أيضاً أن يكون مالك العبيد والمستكشف والفاتح والمستعمر والمستوطن قد سمي بـ«الرجل الأبيض». إنَّ علاقة المستعمِر بالمستعمَر، يفترض فيها أن تكون علاقة رجل بامرأة، أي فتح وسيطرة من جانب، ورضوخ واستسلام من جانب آخر، وفي الوقت الذي تؤكد فيه الدراسات الاجتماعية والنفسية على الفارق الجنسي الطبيعي بين البيض والسود. نجد مثالاً شبيهاً من العصر العباسي، حيث تمارس تقنية إخصاء العبيد، كما يقدم لنا مجتمع القنانة مثالاً آخر على تجنيس علاقات الاضطهاد الطبقي في منحه السيد الإقطاعي حق الليلة الأولى في عروس الفلاح.

يذكر فرانز فانون في كتابه «جلد

أسود وأقنعة بيضاء» بأن الرجل الأبيض، باغتصابه المرأة السوداء، يشعر الزنجي بأنه رجل مخصي، والزنجي بإقامته علاقات جنسية طوعية أو غصبية مع المرأة البيضاء، ينتقم من المستعمر ويثبت له أنه رجل مثله.

يصف حسنين البطل البرجوازي الصغير في رواية نجيب محفوظ «بداية ونهاية» مشاعره إزاء فتاة نقية البشرة من الطبقة الأرستقراطية، فيقول: هذه امرأة إذا ركبتها فقد ركبت طبقة بأسرها. ومن المؤكد أن جدل القهر الكولونيالي والاغتصاب الجنسي قد جعل الكثيرين من أبناء المستعمرات المقهورين والمخصيين نفسياً يعتقدون أنهم في حال ركبوا امرأة بيضاء البشرة، فهذا يعني أنهم ركبوا أمة بكاملها.

إنَّ الرجل الأبيض يعتقد أنَّ جميع نساء المستعمرات مباحات له، ويرد الرجل المستعمَر بتطرف مماثل: إنَّ كل امرأة بيضاء مشتهاة، ونقاء بشرتها دعوة دائمة إلى الاغتصاب.

إنَّ الرجل المستعمِر، يرخي العنان لجماح غرائزه، وشهواته الملجومة ما أن تطأ قدماه أرض المستعمرة. وكذلك يفعل الرجل المستعمَر، إذا ما قيضت له الأقدار أن يجيء إلى الدولة المتروبولية (المستعمِرة)، لأنه يريد أولاً أن يثأر لنفسه ولرجولته، ولأنه يعاني ثانياً من كبت جنسي شديد ناشئ عن الأيديولوجية الأبوية المتزمتة. وزوال الاستعمار، بشكله الاستيطاني والاحتلال المباشر، لا يغير كثيراً من طبيعة العلاقات بين المستعمِر والمستعمَر.

وكذلك الأمر ينسحب على عصر الإمبريالية (الاستغلال الاقتصادي غير المباشر) فالأمة المستعمَرة سابقاً ماتزال، بفعل عملية المثاقفة acculturation، أي استيراد ثقافة المتروبول، تحس إحساساً ساحقاً بدونيتها «المؤنثة» إزاء «رجولة» ثقافة الغرب وفحولتها.

إنَّ عملية المثاقفة، والتي تكون بين طرفين غير متكافئين، موجب وسالب، فاعل ومنفعل، مُلقَح ومُلقِح، تطرح نفسها على أنها بين قطبين مذكر ومؤنث. إنَّ المثاقفة لا توقظ في الطرف المتلقي إحساساً بالدونية المؤنثة بقدر ما تبعث فيه شعوراً مرهقاً بالخصاء الفكري والعنة الثقافية. وتحت وطأة هذا الإحساس الذي لا يطاق، يلوذ مثقف المستعمِرة أو المستعمَرة السابقة، بماضيه الحضاري الذي يعتقد أنه تعبير عن الرجولة.

لكن بعث الماضي الثقافي لا يمكن أن يكون كافياً. وإن ما يحتاجه مثقفنا هو المقدرة الحاضرة التي تمكنه من القبض على الروح التقنية الحديثة. على فرض أنَّ إحياء التراث القومي كافٍ ليستعيد رجولته

في نظر نفسه، إلا أنَّه بأمس الحاجة ليستعيد رجولته في نظر الطرف الفاعل في عملية المثاقفة بوصفها علاقة تحد وسيطرة وعنف وحتى اغتصاب.

يجب أن نذكر أنَّ المثقف المعني هنا هو المثقف «الشرقي» المغترب، المثقف الذي يدخل طرفاً متلقياً في عملية المثاقفة وهو في بلاد الغربة، في حاضرة الدولة المستعمرة سابقاً. إنَّ جميع الروايات العربية التي عالجت مشكلة العلاقة بين الشرق والغرب، ابتداءً من «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم مروراً بـ«الحي اللاتيني» لسهيل إدريس وصولاً إلى «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب الصالح، قد اختارت إطاراً مكانياً لها بين باريس ولندن. وكان الغرب غرباً في هاتين العاصمتين، وكان الشرقي ليس شرقياً إلا هائماً.

إنَّ أبطال هذه الروايات وبلا استثناء هم المثقفون الذين قد قدموا الغرب طلباً للعلم أو الأدب أو الفن. وكل رواية هي بمثابة تجربة ذاتية، حتى لو لم ترو بضمير الأنا، بل إنَّ الرسوم التي تصور بعض المشاهد من «عصفور من الشرق» تمثل توفيق الحكيم شخصياً، إذ يمثل نفسه بشخصية محسن، وهكذا فإنَّ الرواية العربية الحضارية تستحيل إلى ضرب من أدب الاعترافات.

وهذا المثقف أو هذا البطل الروائي هو على الدوام رجل. وإن موضوع العلاقات الحضارية لم يأخذ طريقه إلى الرواية النسائية. ثم إنَّ الخصاء لا يطال سوى الرجال وحدهم، لذلك فالمثقف الآتي من المجتمع الكولونيالي «التابع» يصدق لعبة المثاقفة، ويسلم بمنطقها.

إنَّه يعترف بتجنيس عملية المثاقفة، ويقبل لا شعورياً على الأقل بأن يقيم علاقة تساوٍ وتماه بين الثقافة والرجولة، وبالتالي تماه بين الثقافة والذكورة. فإحساسه بالخصاء الثقافي لن يزيده إلا تشبثاً بذكورته.

فلئن لم يكن رجلاً في مضمار الثقافة فليكن رجلاً في مضمار الرجولة الطبيعي. وهذا معناه، إن رده على عملية مثاقفته سيكون بسطوته الجنسية. يحملها أينما ذهب معربداً، أينما حل وارتحل، وعلى الأخص في أماكن الثقافة: في مدرجات الجامعة، في دور السينما، في صالات المعارض، وقاعات الموسيقى. لن يرى إلا المرأة، ولن يصغي إلا لموسيقى ساقيها، ولن ترتجف أرنبة أنفه إلا لرائحتها، ولن تطيب له إلا عاشقات الفكر والفلسفة، وإن لم يتوفرن فقاطعات التذاكر في شباك المسرح.

إنَّ طاقته الجنسية، وهو القادم من مجتمع متزمت، مختزنة في عروقه إلى حد الانفجار، فلا ينضب له معين. وإنَّ هذه الطاقة المختزنة تجعله ينقض على كل

امرأة تتاح له دونما تمييز وبلا اختيار. وبعد أن يتحرر من ذلك الضغط شبه الحيواني، ويفرج عن بعض مخزون طاقته، ويبدأ بالاختيار، هنا يأتي دور المثقفات، وعلى الأخص اللائي يتراءين له منيعات، محصنات، عازفات عن المرأة التي فيهن، مأخوذات إلى حد التصوف بعوالم الفن والشعر والعلم المحض.

فما دامت العلاقة بين الشرق والغرب هي بالضرورة علاقة مجنسة لأنها علاقة قوة وتحد، فمن المحال أن تتسع لمبدأين مذكرين. ويكفي أن يثبت أحد الطرفين أنه الذكر، حتى يكون قد قام بالبرهان على أنوثة الطرف الآخر. لكن المثقف الشرقي حتى بعد تقديمه البرهان على أنه رجل، يظل يشعر بالحاجة إلى إثبات أنوثة الغرب، وهذا بكل بساطة لأنّ دليله على رجولته كانت باءته الجنسية لا ثقافته.

وهكذا فإنه يرد على التحدي الغربي لرجولته الثقافية بإشهار سيف ذكورته، ثم إنّه يقيم وحدة بين الأنثى الغربية وبين الغرب، فيستحيل الغرب إلى مجرد فرج. شأنه في ذلك شأن بطل نجيب محفوظ، سيساوره شعور مزهو بأنه يركب أوروبة بكاملها كلما ركب فتاة أوروبية. وبذلك تكون جميع المعادلات قد قلبت، ولو بالوهم. وبذلك تكون دائرة الوعي الكاذب قد أغلقت بإحكام، لأنّ المثقف الشرقي يرد على الاستلاب باستلاب مماثل.

لقد تبنى المثقف الشرقي تصور الغربي، من حيث إنّ المثاقفة مجامعة. وشعر أنّه تلقى ضربة في صميم رجولته. وعندما تتاح له الفرصة فإنّه سوف يرد لا كمثقف بل كذكر. والأمر الذي جعله يسلك هذا السلوك هو الكبت الجنسي الخانق في مجتمعه المتزمت. وكما أنه قد وحّد بين قضيته وشهوته الجنسية، كذلك فإنه سيوحّد في الهوية بين الغرب والفرج. ولكن ما فاته في إطار وعيه لعلاقة الراكب والمركوب، هو عدم إدراكه بأنّ النضال لا يكون بتبني منطق رد الفعل السلبي أي منطق الظلم، حيث يقوم اعتباره على أنّ الغرب هو الذي بدأ والبادئ أظلم.

ما نستنتجه مما سبق: إنّ تجنيس العلاقات الحضارية بين الأمم يساهم في تأبيد عبودية المرأة في المجتمع المتخلف وفي تأبيد تخلف هذا المجتمع بالذات.

يجب أن لا يغيب عن بالنا أنّ منطق الرمز في الرواية العربية هو في الوقت نفسه رمز لمنطق: منطق رجال في عالم رجال وثقافة رجال ورواية رجال. إنّهم رجال شرقيون بامتياز.

ثانيا: من كتاب هرطقات

الهرطقة في المعجم اللاهوتي المسيحي

تقابلها البدعة في المعجم الإسلامي، ولكن على حين أنّ الهرطقة في المعجم الأوّل لا تعني سوى الخروج على العقيدة القويمة، فإنّ البدعة مشتقة في العربية من المصدر نفسه الذي تشتق منه كلمة إبداع، فكأن لا مبدع إلا أن يكون مبتدعاً أي خارجاً في محصلة الحساب على الإجماع والفكر الجماعي، ومن هنا الطابع «المهرطق» للدراسات المجموعة في هذا الكتاب والتي لا تقدم أجوبة بقدر ما تثير أسئلة وتعيد صياغة الإشكاليات، ومن هنا إشكالية الديمقراطية: هل هي ثمرة برسم القطف أم بذرة برسم الزرع؟ وهل هي محض آلية مرهونة بصندوق الاقتراع أم هي أيضاً ثقافة ومرهونة بالتالي بصندوق جمجمة الرأس؟

ومن هنا تكمن مفارقة الشرط الوجودي والمهني للكاتب، فمهما يكن من حرصه على الانتماء بضميره إلى أهل الجماعة، فلا خيار له إلا أن ينتمي بقلمه إلى أهل البدعة، هذا إن كان حريصاً على أن يرقى في نظر نفسه على الأقل إلى مصاف كاتب مبدع.

«إشكالية الديمقراطية في العالم العربي»:

هنالك فرق مفهومي بين الإشكالية والمشكلة، فالإشكالية لا تتحرى جواباً بقدر ما تعنى بصياغة السؤال وسوقه إلى مجال الوعي وبالتحريض على البحث والتحري عن جواب أو أجوبة، ونحن هنا ضد على منطق المعجزة المباطن لزوماً لكل أيديولوجيا خلاصية، نصوغ ونطور صياغة الإشكاليات التالية حول المسألة الديمقراطية في العالم العربي.

أولاً- مشكلة المفتاح والتاج:

هل الديمقراطية هي المفتاح السحري الذي نفتح به جميع الأبواب المغلقة، أم أنّ الديمقراطية هي على العكس من ذلك التاج الذي يتوج التطور العضوي للمجتمع المعني وينهض مقياساً على تطوره؟

وبعبارة أخرى: هل الديمقراطية شرط مسبق أم هي أيضاً نتيجة وحصيلة تطور مجتمع بعينه؟

من البديهي أنّه في أي صيرورة عضوية تاريخية – والديمقراطية سيرورة من هذا القبيل- لا يمكن فصل الشرط عن النتيجة والنتيجة عن الشرط، لكن النظرة الأيديولوجية الخلاصية تفسخ العلاقة الجدلية مابين الشرط والنتيجة، فالديمقراطية تعمل من منظور الأيديولوجيا الخلاصية كمطلق، فهي شرط لكل نتيجة لاحقة.

ثانياً- إشكالية البذرة والثمرة:

هل الديمقراطية ثمرة يانعة برسم القطف؟ أم بذرة برسم الزرع؟

عندما تستزرع الديمقراطية في غير تربتها فإنها تكون عرضة للموت أو للتحول إلى عشبة سامة إذا لم يضاعف كم مجهود الرعاية. إنَّ الأيديولوجية الخلاصية تصور الديمقراطية بأنها لا تقتضي جهداً بل تعفي من الجهد، إنَّها وصفة سحرية قادرة على انتشال المجتمعات العربية من هوة الفوات الحضاري المتعمقة، ونحن نرى بأن الديمقراطية شرط من شروط الإقلاع ولكنه شرط لازم من دون أن يكون كافياً، بل هو شرط مشروط.

ثالثاً- إشكالية مفتاح المفتاح:

إنَّ الديمقراطية قبل أن تكون مفتاحاً هي نفسها بحاجة إلى مفتاح، ولعلَّ بابها لا ينفتح إلا بعد أن تكون سائر الأبواب قد انفتحت أو بالتوافق معها.

«الفلسفة العربية المستحيلة»:

يرد جورج طرابيشي سبب استحالة وجود فلسفة عربية حديثة أو معاصرة إلى ثلاث مسائل أساسية:

أولاً- إنَّ الفلسفة المعاصرة نفسها، على الصعيد العالمي في أزمة، ومرد هذه الأزمة إلى تطور العلم بالذات، فبعد أن طرح العلم نفسه كأداة وحيدة للمعرفة والسيطرة على الكون راح مجال الفلسفة يتقلص، فتطور الفيزياء الرياضية قد أغنى عنها في معرفة الطبيعة والكون، وتطور علم الأحياء والتشريح قد وضع حداً للتفلسف في مجال خلقة الإنسان، وجاء مولد علم النفس ليستتقذ منها موضوعه الأثير في النفاذ إلى كنه النفس البشرية، وبالتالي يمكن القول بأن الثقافات الوحيدة المنتجة للفلسفة اليوم هي الثقافات المنتجة للعلم، وحسبنا أن نقرر أن الثقافة العربية غير منتجة للعلم حتى نفهم لماذا يتحتم أن يكون المتفلسفون العرب عالة سواء على الفلسفة الإسلامية القديمة أو الفلسفة الغربية الحديثة، فانتفاء شرط الإنتاجية العلمية لا يترك لهم من نصاب آخر سوى أن يكونوا في الفلسفة من المستهلكين، أي من المحاكين شرحاً أو ترجمة.

ثانياً- إنَّ الحضارة الغربية بحكم أسبقيتها في الحداثة أصبحت تتحكم بالزمان الثقافي للحضارات الأخرى، وعدا الخروج من التاريخ والسقوط في الهمجية لم يبق للمتخلفين اليوم بهذا العالم من مستقبل آخر غير حاضر المتقدمين، بالتالي فكل ما يمكن أن يفكر به المتحقون بالحداثة هو مفكر به مسبقاً، إضافة إلى أن كل ما يمكن

أن ننقد عليه الحضارة الغربية قد سبقتنا هي نفسها في نقده.

ونلاحظ في هذا السياق أنَّ الفلسفة النقدية التي يدعو إليها حسن حنفي تحت اسم «الاستغراب كرد على الاستشراق لا تعدو هي نفسها أن تكون فلسفة وكيلة، فمن دهن الفلسفة الغربية لا يفتأ هو نفسه يسقي نقده لهذه الفلسفة الغربية.

ثالثاً- إنَّ الفلسفة نبتة لا تزهر إلا في تربة العقل واستقلالية العقل، فالعقلانية هي الشرط الشارط لتمخض الفلسفة، ونلاحظ أنَّ العقلانية مازالت بعيدة عن أن تكون صاحبة الكلمة العليا في الثقافة العربية المعاصرة، ولا نعني بالعقلانية سوى هذا المبدأ البسيط والثوري معاً: إنَّه لا يجوز أن تعلو فوق سلطة العقل أي سلطة أخرى.

«الأنتلجنسيا العربية والإضراب عن التفكير»:

تمثل المناظرة التمثيلية التي جرت بين مفكر المغرب محمد عابد الجابري، ومفكر المشرق حسن حنفي على صفحات اليوم السابع عام ١٩٨٩م، مثالاً لأنتلجنسيا رافضة لأداء وظيفتها، أي أنتلجنسيا هي في حالة إضراب عن التفكير، وتقدم لنا ثالث حلقات هذه المناظرة التي دارت حول «العلمانية والإسلام» مثالاً تطبيقياً حول ما يمكن أن تعنيه حالة الإضراب عن التفكير.

وفي البدء من الضروري القول بأن كلمة «مناظرة» لا تنطبق على ما دار بين الرجلين من حوار، فكيف يعقل أن «يتناظر» مفكران، هما في الأساس متفقان بالموقف من العلمانية، فالجابري يتبرأ من العلمانية بحجة أن «الإسلام ليس كنيسة كي نفصله عن الدولة» كما يقول عنوان مداخلته، والثاني يغسل يديه من العلمانية بحجة أن «الإسلام لا يحتاج لعلمانية غربية» كما يقول عنوان مداخلة حسن حنفي.

إنَّ عنوان كل من المداخلتين ينطوي على قدر من اللاتفكير، فعنوان الجابري ينطوي في بنيته على المنطق الصوري: العلمانية هي فصل الكنيسة عن الدولة، الإسلام ليس فيه كنيسة، إذاً الإسلام لا يحتاج العلمانية. ويختم الجابري مداخلته بالقول: «العلمانية بمعنى فصل الدين عن الدولة غير ذات موضوع في الإسلام، لأنه ليس فيه كنيسة حتى تفصل عن الدولة أو تفصل الدولة عنها».

وكما في كل منطق شكلي فإنَّ العملية الاستدلالية يثبت فسادها ومن ثم خلوها من التفكير إذا أمكن الطعن في مقدمتها الكبرى أو الصغرى تمهيداً للطعن بنتيجتها، واستدلال الجابري قابل للطعن في مقدمته

الكبرى والصغرى تمهيداً للطعن بالنتيجة.

المقدمة الكبرى: العلمانية هي فصل الكنيسة عن الدولة.

المقدمة الصغرى: الإسلام ليس فيه كنيسة.

النتيجة: الإسلام لا يحتاج للفصل.

ونلاحظ أنَّ المقدمة الكبرى عند الجابري مبنية على حيلة شكلية، فليس صحيحاً تعريف العلمانية بأنها فصل للكنيسة عن الدولة، فالكنيسة هي حالة جزئية من حالات ذلك الكلي وهو الدين. وبالمنطق فحين تبني المقدمة الكبرى فمن الواجب كما يعلمنا المنطق أن تبنى من خلال الكلي الأكثر كلية، والجابري اختار أن يرد الكلي وهو الدين إلى إحدى جزئياته فقط أي الكنيسة، لأنه لو بنى محاكمته ابتداء من الكلي لأفلتت من يده النتيجة التي يتوخاها ولأخذت المحاكمة الشكل التالي: العلمانية هي فصل الدين عن الدولة، الإسلام دين، الإسلام يحتاج للفصل.

إنَّ الجابري يعرف سلفاً النتيجة التي يريد الوصول إليها ولم يكن أمامه سوى التلاعب بتعريف العلمانية ويزيحه بوصة أو بوصتين عن منطوقه الأكثر شمولية ليجعله يعني فقط فصل الكنيسة عن الدولة، لا فصل الدين عن الدولة.

ولنأتي للمقدمة الصغرى التي يفترض بها منطقياً أن تتصل بتقرير الوقائع أكثر مما تتصل بتقرير المبادئ، فمن البداهة أن الإسلام ليس فيه كنيسة ولكن من البداهة أيضاً وجود سلطة دينية في الإسلام، وصحيح أن الإسلام ليس فيه كهنوت لكنه ككل دين فيه رجال دين ووظيفتهم القيام بشؤون الدين، وصحيح أن وظيفتهم ليست كما في الكاثوليكية أن يكونوا وسطاء بين الإنسان وربه، ولكن وساطتهم لا غنى عنها بين الإنسان وشؤون دينه، وقد يقع خلاف حول وظيفتهم وجواز تسميتهم رجال دين لكن لا يمكن أن يقع خلاف على الواقع التاريخي لوجودهم فهم كانوا موجودين والآن هم موجودون أيضاً وليس ثمة ما يحمل على الاعتقاد أنهم لم يكونوا موجودين، فلا دين من دون رجال دين.

إذن، ليس في الإسلام كنيسة أو كهنوت، لكنه ككل دين فيه سلطة دينية، وبطبيعة الحال فالعلمانية لا تعني إلغاء السلطة الدينية بل تعني فقط فصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية، وتبدو الحاجة للفصل أكثر إلحاحاً في الحالة العربية، خاصة في هذه المرحلة حيث تجري عملية تسييس الدين وتديين السياسة. وباستطاعتنا أن ندرك عدم لزوم النتيجة التي ينتهي إليها الجابري ترتيباً على مقدمته الصغرى، ومن قبلها على المقدمة الكبرى المكافئة لها في

عـدم المطابقة، من خلال التذكير أن مفكراً مثل طه حسـين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» كان قد استنتج من المقدمة نفسها (الإسلام ليس فيه كنيسـة) نتيجة معاكسة تماماً لنتيجة الجابري، حيث رأى طه حسين بأنه ما دام لا يوجد في الإسـلام كنيسـة أو لاهوت وطالما لم تنشـأ فيه طبقة منفصلة ذات مصالح في سيطرة الدين على المجتمع فإن الفصل بين الدين والدولة سيكون أسهل على المسلمين.

والواقـع أننا لو أجرينـا مقارنة بين ما يقوله الجابري لإثبات عدم لزوم العلمانية مع ما يقوله الأصوليون، فستجد أنهم يصلون لنتيجة الجابري نفسـها ولكـن بصراحة ومن دون مـراءاة ولا يلجؤون لحيل المنطق، فالأصوليون يجرون المحاكمة التالية:

العلمانية هي فصـل الدين عن الدولة، الإسـلام دين ودولـة، فالإسـلام لا يحتاج للعلمانية. والواضح أن استدلالهم أقوى من استدلال الجابري لأنه على الأقل يقوم على مقدمة كبرى صـحيحة، في حـين أن نقطة ضعفه تكمن في مقدمته الصغرى.

إنَّ الجابـري يدعو لسـحب مصـطلح العلمانية من قاموس الفكر العربي وتعويضه بشـعاريّ الديمقراطيـة والعقلانية لأنهما تعبران عن حاجات المجتمـع العربي تعبيراً مطابقاً، ومن الغريب أن تصدر هذه الدعوة من مفكر لأن مهمته كمفكر هي أن يوسع – ما أمكنه – قاموس الفكر، لا أن يضيقه.

إنَّ الجابـري يمارس ضربـاً من العزل والتقطيـع والبتر للمفاهيم حينما يدعو إلى الاستعاضـة عن شـعار العلمانية بشعاريّ الديمقراطيـة والعقلانية، وعلى هذا النحو تتحول الحداثة إلى سوق للخردة نبتاع منها بأبخس الأثمان ما نشـاء، وندع ما نشـاء إذا تخوفنا من ارتفاع مـا في ثمن التكلفة. والواقع أن استبعاد الجابري للعلمانية أشبه بفعل من يريد أن يجعل كرسي الحداثة يقف على قائمتين بدلاً مـن ثلاث أو أربع، ومثل هذه العملية البهلوانيـة كان يمكن مع ذلك أن تكون ممكنة لولا أن المنشـار لا يستطيع أن ينشر قائمة العلمانيـة من دون أن ينشر بعضـاً من قائمتي العقلانية والديمقراطية بالذات.

إنَّ مبدأ المنشار كبديل عن مبدأ التفكير، هـو ما يعتمـده المناظر المفترض للأسـتاذ الجابـري، أي الدكتور حسـن حنفي، حيث يرى حنفي هو الآخر بأن «الإسلام لا يحتاج

علمانية غربيـة» لأن العلمانية منقولة إلينا من الغرب.

إنَّ حسن حنفي لو أنه مارس فقط التفكير اللاممتماسك المنطقي لكنا اعتبرنا ممارسته عينة أخرى من إضراب الأنتلجنسيا عن التفكير فقط، لكن هـو يتعدى ذلك إلى ما يمكن تسـميته مع جورج قرم بثقافة الفتنة أي ثقافـة التحريض الطائفي، حيث يرى حنفـي أنَّ كل العلمانيين كانوا من نصـارى الشـام الذين كان ولاؤهم الحضاري للغرب ولا ينتسـبون للإسـلام ديناً وحضارة، ومن المخجل حقيقة الرد على كلام حنفي.

إنَّ العلمانيـة لم تنقـل إلينـا مـن قبيل التغريب والتقليد البغاوي، وما يقوله حنفي عـن ربـط العلمانية بالتغريـب نقول نحن عكسـه هو الأصـح، ففي مصر و(+ (بنك: سـورية)+)، وعقب الاحتلالـين الإنكليزي والفرنسي، جاءت مبادرة رفع شعار العلمانية من قبل الوطنيين والقوميين، من مسـلمين ومسيحيين على حد سـواء، وذلك رداً على محاولة الاستعمار الضرب على وتر التفرقة الدينية وتطوير الحساسـيات المذهبية إلى «مسألة طائفية» تكون بمثابة رديف تبريري وتدعيمي للمسألة الكولونيالية.

«الذات العربية وجرحها النرجسي»:

«عـودة إشكاليـة الـتراث والحداثـة في الثقافة العربية»:

في مقـال نشـره سـيغموند فرويد عام ١٩١٧م، تحـت عنـوان «الجرح النرجسـي الكوني»، تحـدث عن جرح نرجسـي فريد يصـح أن نسـميه الجرح النرجسي الكوني، إذ قد نشـأ هذا الجرح بسبب الإذلال الذي تعرضـت له كبريـاء البشرية وعزة نفسـها الكونية ثلاث مـرات على التوالي من جراء تقدم العلم وتوالي كشوفه.

وقد كان أوَّل تلك الجروح التي منيت بها النرجسـية الكونية الجرح الكوسـمولوجي، وهو ذاك الـذي أحدثته نظرية كوبرنيكوس عندمـا قلبـت معادلـة الجاذبيـة الكونية وبدلت قطـب المركزية في النظـام الفلكي وقررت الحقيقة المؤلمة بالنسبة إلى عزة نفس البشرية وهـي: أن الأرض هـي التي تدور حول الشمس وليس العكس.

ثـم كان بعـد ذلك الجـرح البيولوجي، فالإنسـان الـذي تفاخـر بأنه من أصـل سـماوي وجد نفسـه مكرهاً وتحت ضغط البرهان العلمي على الاعتراف بأن السلالة البيولوجية التي ينحدر منها هي السـلالة الحيوانية.

أمَّـا ثالث الجروح النرجسـية فكان من

طبيعة سيكولوجية، وقد كان من فعل مؤسس علم نفس الأعماق، فرويد نفسه. فالتحليل النفسي مثل كذلك نظرية انقلابية، فكما أن الأرض لم تعد مركز الكون مع كوبرنيكوس، وكما أن الإنسان السماوي لم يعد مركز سلالته مع داروين، كذلك فإنَّ النفس البشرية لم تعد مع فرويد مركز ذاتها، فتحت سطح الوعي يكمن أوقيانوس اللاشعور.

وإضافة لهذه الجروح الثلاثة نضيف نحن جرحاً نرجسياً رابعاً، لا نتردد في وصفه بأنه جرح من طبيعة أنتربولوجية.

إنَّ صاحب نظرية الجرح النرجسي الكوني كان ابناً نموذجياً للحضارة الغربية، وبالتالي فإنَّ الإنسان المعني بتلك الجروح التي أنزلتها ثورة العلم الحديث ليس الإنسان بمطلقيته، بل الإنسان الغربي حصراً.

أمَّا الإنسان غير الغربي بالمقابل فكان كوبرنيكه بالأحرى هو الغرب عينه: فقد اكتشف نفسه متأخراً في مرآة الغرب المتقدم. وفي الحالة العربية، فإن هذا الجرح الأنتربولوجي كان مضاعفاً، فقد اقترن السؤال: لماذا تقدم الغرب؟ بآخر لا يقبل عنه انفصالاً: لماذا تأخرنا نحن العرب المسلمين؟

في الحالة العربية، نزع السؤال منذ البداية إلى أن يكون تراجيديا. إنَّ الجرح الأنتربولوجي العربي بالغ العمق، إنه جرح تقدم الآخر مع أنه كان في الوعي السائد، لحظة صدمة اللقاء مع الغرب، متأخراً. وجرح تأخر الذات مع أنَّها كانت في توهمها متقدمة.

إنَّ مفهوم التراث بل الوعي بوجود تراث بمعنى «ثقافة الأسلاف»، قد رأى النور هو نفسه عقب «صدمة اللقاء مع الغرب» ومن جراء الاحتكاك بثقافة الآخر، فإلى حين الحملة النابليونية على مصر، لم تكن كلمة تراث تعني إطلاقاً ما تعنيه اليوم، وبالإحالة إلى «لسان العرب»، فإننا نجد أنَّ كلمة تراث ما كانت تعني شيئاً آخر غير الإرث والميراث بالمعنى المادي للكلمة.

وبالعودة إلى مفهومنا عن «الجرح الأنتربولوجي»، فإننا نستطيع القول بأنَّ مفهوم التراث لم يفرض نفسه بالقوة التي فرض بها نفسه في الحقل التداولي للثقافة العربية الحديثة إلا على سبيل رد الفعل وكمحاولة واعية لتضميد ذلك الجرح.

فالتراث، بالكيفية التي وظف بها هذا المفهوم، هو رد فعل ثقافة ذات اكتشفت على حين غرة، في مواجهة ثقافة الآخر، أنَّها بلا ثقافة. أو فلنقل، إنَّه ردة فعل ثقافة اكتشفت على حين غرة، في مواجهة حاضر ثقافة الآخر، أنَّها بلا حاضر، فارتدت نحو ماضيها لتوصل ما انقطع.

وهكذا يكون الجرح الأنتربولوجي قد

اعتمل على مستوى قطيعتين: قطيعة العرب عن حاضر الغرب، وقطيعتهم عن ماضي العرب أنفسهم. وعلى هذا النحو، اقتحم ساحة الوعي العربي مفهومان تأسيسيان جديدان: الثقافة بالإحالة إلى الآخر، والتراث بالإحالة إلى الذات. وبين فكي كماشة هذين المفهومين لا يفتأ الوعي العربي منذ نحو قرنين من الزمن، يتقلب ويتخبط. فهو يريد نفسه في ثقافة العصر من دون أن يقطع مع تراثه، وهو يريد أن يحيي تراث ماضيه من دون أن يميت نفسه عن ثقافة العصر.

«العلمانية: مسألة سياسية لا دينية»:

ما يميز الخطاب العربي الحديث قدرته الهائلة على الاستدماج السريع للمصطلحات الأيديولوجية، فقبل قرن لا أكثر كانت اللغة العربية تجهل مئات المفاهيم التي باتت لها الغلبة في الخطاب العربي الحديث من قبيل القومية والأممية والرأسمالية والاشتراكية والليبرالية والفاشية والسريالية والبنيوية.. إلخ.

مفهوم واحد لم يأخذ طريقه إلى التبيئة: «العلمانية». وإن استطاع المصطلح أن يفرض نفسه في المشرق العربي حيث ثمة وجود لأقليات مسيحية، فاستعار من قاموسها اللاهوتي تعبير «العلماني»، بالتعارض مع «الإكليريكي»، فإنّه في المغرب حيث لا وجود لتلك الأقليات لم يفلح إلا في أن يلجأ إلى التعريب الحرفي، فبات يقال للعلمانية «لائكية».

وبغض النظر عن اللفظ ذاته، فإنَّ المفهوم لم يفلح قط في أن يفوز بحقوق المواطنة، ولقد استبيح المفهوم واللفظ معاً إلى درجة أنَّ مفكراً مثل محمد عابد الجابري طالب بسحب مصطلح العلمانية نهائياً من القاموس التداولي للفكر العربي.

وفي سياق المساءلة الجديدة لإشكالية العلمانية يأتي كتاب «العلمانية» لموريس باربييه مدرس مادة العلوم السياسية في جامعة نانسي الثانية. كتاب مميز، لأنه يفك أسر العلمانية من قيود الأيديولوجيا أولاً، وثانياً لأنَّه يتقدم بنظرية في العلمانية تتمتع بمستوى عالٍ من الأصالة، وذلك بقدر ما تربط بين العلمانية وبين ما يسميه م. باربييه «الحداثة السياسية».

ففيما يتعلق بتنظيم العلاقات بين الدولة والدين، ثمة صيغتان كبيرتان تتسع كل منهما لتمايزات وتباينات في الجزئيات: فإمَّا أن تكون الروابط موصولة وموثوقة بين الدولة ودين بعينه، يحكمها ويقودها (وتلك هي الثيوقراطية أو الحكومة الدينية)، أو تدعمه وتقوده (وتلك هي الدولة الطائفية)، وإمَّا أن يكون بين الدولة والدين انفصال متفاوت في حديته بحيث لا تتدخل الدولة

في مسائل الدين، ولا تمارس الطوائف أي تأثير مباشر على الشؤون العامة.

إنَّ الفصل التام بين الدولة والدين لا يقوم إلا في بلدان قليلة: فرنسا، الولايات المتحدة الأمريكية، المكسيك، تركيا. وكثيرة هي بالمقابل الدول التي تعرف في أوروبة بـ«نصف علمانية» مثل ألمانيا وبلجيكا وهولندا. فالدولة في ألمانيا مثلاً، حيادية لا تنتصر لدين على دين، ولاوجود فيها لدين دولة أو لكنيسة قومية، وهي بهذا المعنى دولة علمانية، ولكنها بالمقابل لم تبت صلتها بالكنائس، البروتستانتية والكاثوليكية حصراً، وتعتبرها كهيئات اجتماعية تابعة للقانون العام وتقر لها بحقها في التعليم الديني لأتباعها في المدارس العمومية.

وأمَّا بريطانيا فإنها تقدم نموذجاً لدولة «لا علمانية» من دون أن يعني هذا أنَّها دولة دينية. فالكنيسة الأنغليكانية مازالت لها في انكلترا صفة الكنيسة الرسمية، والملك أو الملكة هو رأس هذه الكنيسة. وتقدم الحكومة للكنيسة نصف كلفة صيانة مبانيها، وتعفي مداخيلها من الضريبة، والأساقفة الأنغليكانيون أعضاء شرف في مجلس اللوردات.

هذا فيما يتعلق بالواقع التطبيقي للعلمانية، أمَّا فيما يخص نظريتها فإنَّ الجديد الذي يقدمه كتاب باربييه هو افتراضه بأنَّ العلمانية لا تقتضي فقط فصلاً بين الدولة والدين، بل فصلاً أكثر جذرية ما بين الدولة والمجتمع المدني، مما يستلزم بدوره تشكل دولة حديثة مكلفة بالمصلحة العامة، وفي الوقت نفسه تشكل مجتمع يستطيع الأفراد في إطاره أن ينشدوا بملء الحرية مصالحهم الخاصة.

هذا الفصل بين المجتمع المدني والدولة هو ما يسمح بالتمييز بين الإنسان كفرد وبين المواطن، وحقوق المواطن هي تلك التي يحوزها الأفراد بصفتهم أعضاء في المجتمع المدني، ومن ثم فهي لا توجد، ولا يمكن أن توجد إلا بعد أن يتكون المجتمع المدني بافتراقه عن الدولة وبحيازته استقلاله أو سؤدده الذاتي.

إذن، فالانفصال بين الدولة والمجتمع المدني يشكل شرطاً أساسياً للعلمانية، فالدولة الحديثة الحقة توجد بذاتها ولذاتها من دون أن تكون بحاجة إلى دين، وينجم عن ذلك أنَّ العلمانية مسألة سياسية في جوهرها، لا مسألة دينية. وهذا معناه أنها مسألة تابعة للدولة لا للدين، وبالفعل إن الدولة هي التي تقرر دوماً وتفرض العلمانية فرضاً أحياناً. فالدولة الحديثة الناجزة هي الدولة العلمانية، وإذا كان قوام المسألة السياسية تكوين دولة حديثة منفصلة عن المجتمع المدني، فإنَّ العلمانية تبدو في هذه الحال

عنصراً تركيبياً أساسياً في هذه السيرورة، إذ من دونها لا يمكن أن توجد دولة حديثة حقاً وعليه فإنّ العلمانية مسألة سياسية أو جزء لا يتجزأ من المسألة السياسية.

«تذييل حول أصل كلمة علمانية باللغة العربية»:

هناك تصور شائع في الأدبيات العربية المعاصرة عن العلمانية مؤداه بأنّ هذا المصطلح جرى نحته في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ووقع خلاف حول إعجام العين في هذا المصطلح المترجم: أهو بالفتح (عَلمانية) نسبة إلى العالم، أم بالكسر (عِلمانية) نسبة إلى العلم.

ولكن التنقيب عن أصل المصطلح أتاح لنا أن نربطه باللاهوت المسيحي المكتوب بالعربية، وهذا منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي على الأقل.

ففي كتاب بعنوان «مصباح العقل»، وضعه الأسقف واللاهوتي القبطي ساويرس بن المقفع، والذي شغل منصب كاتب في الدولة الإخشيدية في العهد الفاطمي، وفي معرض الكلام عن الخلاف بين الطوائف المسيحية حول زواج الكاهن قال: «التزويج مختلف عندنا، لأنّ للكهنة شروطاً ذكرها الكتاب، وهي ألا يتزوجوا بأرملة ولا مطلقة ولا زانية. وليس للكاهن أن يتزوج بعد امرأته الأولى بغيرها، هذا بإجماع النصارى. وقد رأى المتقدمون بعد ذلك رأياً في الأساقفة، أمّا المصريون فرأوا أن يكون الأسقف، بالإسكندرية خاصة، بتولاً لم يتزوج في حال عَلمانيته».

وليس لنا على هذا النص سوى تعليقين:

الأول- إن استعمال ابن المقفع القبطي لكلمة علمانية من دون أن تكون به حاجة إلى شرحها، إنّما يدل على أنّه ليس أوّل من استعملها وعلى أنها كانت رائجة بالتالي في الحقل التداولي لرجال الكنيسة، وهذا معناه أنّ تاريخ نحت المصطلح يعود إلى أبعد من القرن الرابع الهجري، وربما إلى القرن الثاني الهجري الذي شهد بداية تعريب الكنائس المسيحية.

الثاني- نظراً إلى السياق الذي وردت فيه الكلمة في النص وهو التمييز في الأسقف بين طوره الدنيوي وطوره الكنسي، إذ يشترط فيه البتولية (عدم الزواج) «في حال علمانيته»، فلا مجال للشك في أنّ عين العلمانية ينبغي أن تعجم بالفتحة لا بالكسرة، لأنّها لا تحيل إلى العلم، بل إلى العالم أي الدنيا. وهذا هو أصلاً معنى الجذر اليوناني (لايكوس) واللاتيني للكلمة. فاللايكوس هو من ينتمي للشعب، إلى العامة، ومن ثم إلى الأميين، وليس إلى طبقة رجال الكهنوت الذين كانوا يحتكرون العلم في حينه.

خاتمة

يقول طرابيشي: إنَّ الجيل الذي أنتمي إليه، عاش وعشنا معه قطيعة كاملة مع التراث. لقد اتجه تفكيرنا واتجه بنياننا الذهني كله إلى الأيديولوجيات الغربية الحديثة التي تحولت كلها على أيدينا إلى كتب مقدسة سواء أكانت ماركسية أو قومية أو اشتراكية أو وحدوية. عشنا قطيعة تامة مع تراث كنَّا ننظر إليه على أنَّه ليس أكثر من كتب صفراء. بعد ذلك أمام فشل مشروعنا التحديثي وخيبته، إزاء فشل «ثورتنا» التي لم تنجح إلا في إحراقنا وإحراق نفسها، ثم أمام السقوط المدوي للأيديولوجيات، حدث تبدل أساسي، خصوصاً وأنَّ ذلك كله تلا هزيمة العام ١٩٦٧م، ثم امتداد أفكار التطرف والعنف، باسم الإسلام.

إنَّ هذا كله جعلني أنا شخصياً على الأقل أعيد النظر في موروثي الثقافي لأكتشف ما كان بيني وبين التراث من قطيعة. والحال إن هذه القطيعة بدت لعيني أكبر حين اضطرتني الحرب اللبنانية للرحيل إلى باريس هرباً وخصوصاً من الاقتتال الطائفي في لبنان الذي كنت أقيم فيه عند ذاك.

إزاء هذا كله راحت تتفاعل لدي، وعلى غير توقع مني، علاقتي مع التراث، إذ اكتشفت فيه بديلاً عن الوطن الذي غادرت. ومن هنا جاء اهتمامي بمشروع المفكر المغربي محمد عابد الجابري الذي كان أوَّل من طرح فكرة نقد العقل العربي، راغباً لنفسه أن يكون أبستمولوجياً (معرفياً) في نقده، متكئاً على المناهج الحديثة. لقد وجدت في مشروعه، أوَّل الأمر، نقيضاً للمشروع الذي كنت قد عشت عليه. غير أنَّ رحلة إعجابي بالجابري لم تدم طويلاً، إذ شعرت بسرعة أنَّ هذا المفكر أصاب العنوان لكنه أخطأ الهدف. أي إنه لم يقم بعملية النقد التي اعتقدناها. بل صادر عملية النقد في الوقت الذي كنَّا في أمس الحاجة إليها.

وفي المقابل اكتشفت هنا في الغرب، أنَّ هذا الغرب لم يبن نفسه إلا بقدر ما نقد نفسه. العقل الغربي صار متفوقاً وعالمي الحضارة حين مارس النقد الذاتي. أمَّا نحن الذين لدينا موروث لا يقل أهمية أو حجماً عن الموروث الغربي، فإننا لن نستطيع أن نباشر مهمة التحديث والوصول إلى النهضة المرجوة ما لم نقم بالعملية النقدية نفسها التي أخضع الغرب نفسه لها. لن نستطيع أن نخوض معركة الحداثة ونحن عراة من النقد الحقيقي.

فإذا قارنا بين حالنا وحال اليابان سنجد الفارق أساسياً: هم لم يصطدموا، حين بدؤوا نهضتهم بوجود الاستعمار في أراضيهم. اصطدموا بالتقدم الغربي وأرادوا أن يتقدموا ففعلوا. أمَّا نحن فإننا اصطدمنا

مباشرة بالاستعمار، وكان ذلك قبل اكتشاف التقدم. وبالتالي كان على المثقف النهضوي أن يهدم ويبني في الوقت نفسه، كان عليه أن يحارب الاستعمار ويبني النهضة. فضاع بين الأمرين، فلا استطاع، هو أن ينتصر على الاستعمار لاحقاً، ولا استطاع أن يبني نهضة فكرية نقدية حقيقية.

ونحن نعرف، من دون ذكر الأمثلة، أنَّ عشرات من المفكرين العرب كتبوا تحت وطأة هذا المأزق في شقيه. ونعرف أنَّ النقد لا يمكنه إلا أن يكون جذرياً. وأنا، بالنسبة إلي اكتشفت لاحقاً حاجتنا العربية الماسة إلى النقد. لكنني اكتشفت أيضاً أننا، في فكرنا العربي، كنّا كلما ابتعدنا عن الاستعمار، تزداد لدينا عقدة الانطواء والدفاع عن النفس، مما ولّد لدينا عصاباً جماعياً، لعل سببه الأحدث بالأساس، هو رضة حزيران. وأقول رضة لأنَّ الرضة أقسى من الصدمة. صدمة الحملة الفرنسية أوائل القرن التاسع عشر أيقظتنا من السبات وكشفت لنا الحاجة إلى التقدم والنهضة.

أمّا رضة حزيران ١٩٦٧م فكانت مخدرة، ذهبت بعقولنا، مما دفعنا إلى البحث عن حل وسط جملة أوهام لا وجود لها في الواقع. بل أقول إن هذه الرضة لم توصل المثقف العربي (لئلا أقول الإنسان العربي) فقط إلى عصاب جماعي، بل إلى ذهان جماعي.

من هنا نلاحظ كيف أنَّ كثراً من أبناء جيل القوميين - بل الماركسيين حتى - انتهوا متطرفين غيبيين، رضة حزيران كانت أقوى منهم.

وهنا أود أن أوضح فارقاً أساسياً بين جيلنا على علاته، وجيل اليوم المتطرف. في سنوات الخمسين من القرن الماضي، كنا جميعاً نقاتل الاستعمار وكانت ثورة الجزائر قدوة لنا في ذلك.

كنّا نقاتل ضد الاستعمار الغربي، لكننا كنّا منفتحين كلياً على التقدم الغربي، وعلى الثقافة الغربية. اليوم انقلبت الآية، غُضَّ النظر تماماً عن الاستعمار والاستغلال الغربيين لتنصبَّ الكراهية كلها على الثقافة الغربية. وفي رأيي إن هذا أخطر مقلب تعيشه أمتنا ومنطقتنا. إنَّ المثقف العربي مسؤول، ولو جزئياً، عن هذا الواقع الذي يحمل قدراً كبيراً من التناقض والازدواجية القاتلة، انطلاقاً من بعدين: بعد اللاوعي، حيث إنَّ هزيمة حزيران دمرت قدرته على رؤية الواقع وقراءته بشكل صحيح، فكان أن التجأ إلى آليات دفاع لا شعورية، وبعد ذلك البعد الواعي الذي ساهمت فيه إغراءات سلطة المال والامتيازات التي أغرقت الساحة واشترت النشر والإعلام والنشاط الجامعي، في شكل لا سابق له في تاريخ العرب أو الغرب.

لقد أنفق في العالم العربي عشرات بلايين الدولارات لخلق ثقافة مضادة للحداثة. وبالتالي فقد المثقف سيطرته على الواقع. في المقابل بحث عن خطاب يسيطر عبره، فوجد خطاب التراث، فأمسك به كما هو وأعاد إنتاجه، ولكن بشكل سيئ، يبدو أكثر ضآلة من الشكل الذي به اشتغل عليه تراثيون سابقون، بحيث لم نجد لدينا، مثلاً، من هو في مستوى السيوطي أو الشافعي عمقاً وفاعلية. رحنا نأكل على مائدة التراث، لكننا لم نأكل سوى الفتات.

ولعلني أستطيع أن أتحدث هنا، للتوضيح، عن عقدة قتل الأب. فنحن، إذ قاطعنا التراث طويلاً أيام ازدهار «الثورة» أتت هزيمة حزيران لتولد لدينا مشاعر التأنيب فاكتشفنا أننا كمن قتل أباه. وبدا لنا أنّ مشروعنا السابق لإيجاد بديل له قد سقط بدوره. وأتحدث هنا، طبعاً، عن جمال عبد الناصر، الذي أردته إسرائيل أولاً، ثم أرداه حلفاؤه. عبد الناصر كان يمكن أن يشكل بديلاً حقيقياً، لكننا ساهمنا في قتله، لنعود إلى أب مثالي كان هذه المرة: التراث.

أنا لا أقول هنا إنّ التراث ليس أباً. بل هو بالفعل أب بين الآباء، لكن المشكلة فينا لأننا اكتفينا بطلب حمايته لنا، فلم نؤد له خدمة، بل ساهمنا في موته هو الآخر. كان -ولا يزال- المهم أن نحييه فعلاً، بوسائل حديثة، لا أن نهرب إليه من الحداثة في قطيعة معها.

إننا محتاجون إلى التراث، ولكن أن نتقدم منه من خلال سلاح النقد وحفريات المعرفة ومناهج الحداثة. يجب أن نعيد إحياءه لا أن نبتعثه كما كان قبل ألف سنة. إذا أردنا حقاً إحياءه يجب أن نمكنه من أن يتعايش مع العصر، لا أن نكرره معيدين إنتاجه وكأن الزمن واقف من دون حراك.

يتوسل المثقفون العرب بين نزعتين: الذعر حتى الموت إزاء ذلك المخلوق، والإعجاب حتى التماهي معه. وما هذا إلا لأن المثقف العربي لا يزال -بشكل عام- فاقد الفعالية التاريخية، باحثاً عن آباء وهميين يحتمي بهم.

ولكن المسألة مسألة وعي، أمّا كيف سيعم هذا الوعي في المجتمع، فسيرورة طويلة قد تحتاج إلى أكثر من مئة سنة. أنا لست متفائلاً قبل انقضاء قرن بكامله.

قبل عقود كنّا نعتقد أنّ المسافة التي تفصلنا عن الحداثة، مجرد مسافة اقتصادية - تكنولوجية. اليوم، بتنا واثقين أنّها مسافة ثقافية - عقلية وهذه أخطر بكثير وأعمق بكثير من تلك التي كنّا نتوهمها، ونتوهم أننا نستطيع ردمها بقفزة واحدة.

لن يبقى المجتمع على حاله خلال قرن،

فالصورة التي أتصورها تتضمن صدامات ومذابح كالتي تحدث الآن في العراق، وكان سبق لها أن حدثت في لبنان والجزائر. كنَّا في الماضي نتحدث عن «القبرصة»، اليوم، الوضع أخطر ومرشح لمزيد من الخطر. اليوم نتحدث عن اللبننة ثم عن العرقنة، التي هي أخطر من اللبننة. وأنا واثق من أن من سيدفع الضريبة ليس المثقف بل المجتمع ككل، سيدفعها من دمه ودم ضحاياه. مهما يكن فإنَّ حال العراق ستنتج في نهاية الأمر شيئاً شديد السلبية. ففي العراق الآن حرب طائفية أكثر منها حرب تحرير أو حرب تطوير، إنَّها حرب طائفية مكشوفة، لو تفاقمت ستدفع كل المجتمعات العربية الثمن غالياً جداً.

كخلاصة لهذا كله نحن أمام مأزق جوهري: إنَّ المتطرفين باسم الإسلام، غزوا المجتمع كله من دون أن يطالبوا بالسلطة، اشتغلوا على المجتمع وهنا كمنت عبقريتهم، في المقابل نحن الذين، سواء أكنا قوميين أو ماركسيين وما إلى ذلك، كان أوّل ما سعينا إليه هو السلطة مستبعدين حتى مطالب مثل فصل الدين عن الدولة، حتى لا نصطدم بالمجتمع!! .. وإذا استمر هذا المأزق سيكون هناك دمار كبير كما حدث في العراق. عندها سيدفع المجتمع كلفة عالية.

المراجع

- التحليل النفسي لعصاب جماعي، جورج طرابيشي.
-شرق وغرب، أنوثة ورجولة: جورج طرابيشي.
- الإستراتيجية الطبقية للثورة: جورج طرابيشي.
- هرطقات: جورج طرابيشي.
- المدخل إلى علم الجمال (هيغل): ترجمة جورج طرابيشي.
- الحلم وتأويله (فرويد): ترجمة جورج طرابيشي.
- المقدمة وحياة المفكر وأعماله والخاتمة ومقالاته من المواقع الإلكترونية.

سياسة كل مجتمع هي الابنة الشرعية لثقافته

د. أحمد عمران الزاوي ✪



المتميزون فكرياً في كل مجتمع هم في كل زمن «المثقف» و«الأديب» و«الشاعر» والثلاثة يساهمون في الحراك السياسي ولكن لكل منهم موقعه ونشاطه.

قبل أن نلتقي بتحليل معاني هذه التسميات الثلاث. ولأنّ هذا المقال- ولو بالاختصار- يهدف إلى تحديد مساهمة كل من الثلاثة في المسار السياسي.

✪ أديب ومحام وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

وجب أن نتعرف على ما تعنيه كلمة السياسة.

فالسياسة: من السَّوْس والسَّوْس هو الرئاسة.

أنشد ثعلب:

سادةٌ قادةٌ لكل جميع
ساسةٌ للرجال يوم القتال

وفي الأثر: كان الساسة في بني إسرائيل «أنبياؤهم» لأنّهم هم الذين كانوا يتولون أمورهم كما يفعل الأمراء والولاة في الرعية.

والسياسة هي القيام بالأعمال لصالح المجتمع.

فالوالي يسوس الرعية. حتى إن: «سوف» أصلها -كما يقول اللغويون- «سو» والفاء زائدة.

هذا المعنى اللغوي «للسياسة» لم يختلف استخدامه في الواقع على مدى الأزمان سوى أنه عمَّ استخدامه في جميع الأنشطة الاجتماعية من البدء إلى القمة فسائس الدواب هو سائس، فلا تختلف مهنته عن سائس الناس إلا باختلاف الموقع.

مع التطور توزعت معاني هذه الكلمة وتنوعت المهمات بحسب المواقع والحضور في حياة الناس.

فرئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء والمحافظون ومديرو المناطق والنواحي جميعهم ساسة توزعت بينهم سياسة الناس على موقع مواقعهم السلطوية.

بعد ذلك: نعود إلى المقلع اللغوي الذي نبشت منه كلمات «المثقف» و«الأديب» و«الشاعر» ومدى علاقة الأصل اللغوي بالمهمات التي تكلف بها كل منهم.

فالمثقف:

من «ثقف» ومعناها «حَذِق».

فثَقَفَ الشيء يعني حذق به وظفر به.

وقد جاء في الآية ٥٧- من الأنفال ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أي إن ظفرت بهم، فشرد بهم مَن وراءهم، أي نكل بهم.[1]

ثم يندرج تحت معنى الثقافة تقويم الاعوجاج ومنه سُمي الرمح «المثقف» لأنَّ اعوجاجه وعقده قد أزيلت عنه فهو «مثقف» بعد أن مرَّت عليه عمليات التسوية.

وفي التعامل الحديث:

رجل ثقيف أي بيِّن الثقافة أي: اتَّسع اطِّلاعه حتى اشتمل على الكثير والمتنوع من العلوم.

وفي مقالة «أم حكم» بنت عبد المطلب ما يفيد هذا المعنى.

«إني حَصَانٌ فما أُكلَّم وثقافٌ فما أُعلَّم».

(الحَصَـان: معناها المتزوجـة إذ يعتبر الزواج حصناً مانعاً).

والأديب:

من الثلاثـي «أَدَبَ» وهـو «الدعاء» أي «النداء» فالصـنيع الذي يدعى إليه الناس يدعى مأدبة.

ولذلـك أطلق على كل دعوة إلى المحامد وإلى كل نهي عن القبائح.

قال طرفة:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى

لا ترى الأدب فينا ينتقر(٢)

وقال علي كرّم الله وجهه:

«أمّا إخواننا بنو أمية فقادة أدَبَة»، أي جمع أديب مثل «كاتب – كَتَبة».

وفي الحديث كما روى ابن مسعود:

«إنّ هـذا القرآن هو مأدبة الله في الأرض فتعلّموا من مأدبته».

فقد شـبّه القرآن بصنيع الخير والمنافع صـنعه الله للناس في القرآن ثم دعاهم إليه ومائدة الله هي العلم الذي دعاهم إلى السير وراءه.

«قُلْ سيرُوا في الأرْضِ فَانظُـرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ»(العنكبوت٢٠)

«يَرْفَـعِ اللهُ الَّذِيـنَ آمَنُـوا مِنكُـمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» (المجادلة ٥٨/ ١١)

«إنَّمَـا يَخْشَـى اللهَ مِـنْ عِبَـادِهِ الْعُلَمَـاءُ» (فاطر ٣٥/ ٢٨)

أمّا الشاعر:

فهو من الثلاثي شَعِر أي عَلِم.

وقد أطلق على نوع من التعبير غلب عليه لتشرُّفه بالوزن والقافية.

وفي الحقيقة: كل علم هو شعر.

ولكننا نقـول «غَلَبَ» على القول الموزون والمقفّى اسـم «الشـعر» من دون سـواه من العلوم التي استخرجت أسماؤها من صميم نشاطها.

فقد غلب اسم «الفقه» على علم الشرع.

وغلـب اسـم «العود» على المنـدل- أي الرائحة الذكية التي تضـادُّ وتطرد الرائحة الكريهة.

قال: «أبو الطيب» في كافور وقومه:

لا يقبض الموت نفساً من نفوسهم

إلا وفي يـده مـن نتنها عـود

لذلك قال الأزهري:

«الشـعر هو القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها».

فالقائل شـاعر والجمع «شعراء» وجمع الشعر «أشعار».

كمـا أطلقوا اسـم شـاعر على الفطين صـاحب الإحسـاس الرقيق والتأثر السريع بما يجري خـارج كيانه المـادي ولكن ذلك كان مـن باب «الإطـلاق» إذ يبقى التعريف بكلمة شـاعر خاصاً بمن يعبِّرون «بالقريض الموزون والمقفى» ولكن الشـعراء إذ ينصـب

اهتمامهم على مشاعرهم لا يولون لما يجري من أحداث الواقع من الاهتمام ذات الدرجة لذلك قال القرآن:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾

(الشعراء- ٢٦/ ٢٢٤- ٢٢٥- ٢٢٦)

لم يستثن غير ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾. (الشعراء ٢٦/٢٢٧)

فقوله: «الغاوون» أي غواة القوم الذين يستمعون إليهم.

وقوله: «في كل واد يهيمون» أي في كل لغو من اللغو يخوضون.

مدحاً وذماً مغلوباً بالهوى هائماً على وجهه في كل فنٍّ من الكلام والمعاني.

وقوله: «يقولون ما لا يفعلون» أي يحثون على أشياء لا يفعلونها وينهون عن أشياء يرتكبونها. و«استثناؤه» الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

قصد به الذين لم يُنسهم الشعر «ذكر الله» ولا «عمل الصالحات».

لذلك يتضح مما تقدم.

أنَّ مفاهيم «السياسة» و«الثقافة» و«الأدب» و«الشعر».

أخذت أسماءها استخراجاً من نشاطها وما يقوم به كلٌّ منها من عمل لا يشترك فيه غيره.

فالشاعر:

بالمعنى اللغوي، قد لا يكون أديباً وقد لا يكون مثقفاً.

كما أنَّ أيّاً من الأديب والمثقف لا يطلق عليه اسم الشاعر ما لم يخرج من مربعه ويبدل انتماءه تبديلاً حقيقياً.

الطبيعة المعطاء يستطيع أن يكون مثقفاً إذا حَذِق الأمور.

ولوكان شاعراً أو أديباً.

كذلك يستطيع المثقف أن يكون أديباً إذا تمتع بالأخلاق الواجبة في الأدب لأنَّ الثقافة:

هي مجموع المعلومات التي وفدت من الخارج.

والأخلاق: هي الصفات الكريمة التي تفد من الداخل.

فللثقافة والأدب بمفهومهما اللغوي ونشاطهما الحقيقي جو مستقل عن السياسة يمارسان فيه حريتهما الطبيعية واستقلالهما عن السلطة.

ولكن هذا الجو كان- وما يزال- يتعرض إلى هجوم سلطوي- يتخذ من الإغراء والرشوة أسلوب الجذب فإن استعصى صار الانتقال إلى الاعتقال ومن ثم إلى التصفية.

فرغبة السلطان منذ قديم الزمان أن

يتخلّى الأديب عن ثوابته الأخلاقية والفكرية وأن يتحول إلى كاريكاتوري يضخم الصغير ويصغر الكبير.

حينما يبلغ الأديب أرذل العمر الأدبي يتحول أدبه إلى مزمار لا تخرج منه غير أصوات الترويج والتأييد..[٣]

في الأزمنة الأخيرة[٤] كثر قول الزور لكثرة القائلين.

فأبناء الأزمنة السابقة الذين كانوا يعلنون أن الله لا يشاء إلا كما يشاء الخليفة وأنّ الأقدار هي من مطوياته لايختلفون كثيراً عن أبناء الأزمنة اللاحقة إذ مثلما كانت كلمة السابقين مطواعاً لمن في يده البؤس والنعيم والذل والعز والغنى والفقر هي حالها فيما تلا.

ولكن:

على الأدباء الحقيقيين الذين تمردوا على الاسترقاق تعقد الآمال وهم إن كانوا قلة فسوف تجتذب أشعتهم جماهير الصابرين لقد ضاقت مساحة الحرية الأدبية لأسباب عدّة منها:

أ- المساحة الكبيرة التي ملأتها السلطة المرتبطة مع أعداء الوطن.

ب- تحول الكثير من الأدباء إلى صنف التجار الذين يتاجرون بالكلمة فهم يلهثون دوماً وراء السعر الأعلى من دون أن يخطر على بالهم أنّ الأسعار مهما ارتفعت هي ثمن بخس[٥] لقاء ما يراق من كرامة الوطن والمواطنين وصفاء العين والضمير.

خاصة، إذا كان البائع عربياً والمواطن والكرامة العربية هما من يقع عليهما البيع.. وكان المشتري أجنبياً غاصباً يريد المزيد.

في هذا الزمن الذي هو من أردأ الأزمنة في تاريخ أمتنا منذ قرون.

لم تعد العمالة تمارس في الخفاء بل صارت «وقاحة جهيرة».

ولم يبق من حاجة إلى أفراد الاستعمار بالاتهام لأنّ وقاحة العميل المجرم اخترقت الحياء حتى آخر محطة فهو بجهارة وعلنية ينادي «تعالوا خذوني إن كنتم تقدرون».

كيف تتوافر القدرة لأخذه ومن حوله العشرات من بنادق الاستعمار؟

لم يبق من شك في أنّ هذا الزمن هو زمن الزنا القومي وأنّ الأمة تعاني من مواطنيها الزناة أكثر مما تعاني من الاستعمار.

فظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند

إنّ كوننا نتلقى كل شيء من الغير.

يبرّر للحقيقة أن تصنفنا في زمرة الشحاذين.

فالشحّاذ- بحكم موقعه- يربط محبته وولاءه بمن تلقّى منه.

يعتصرنا الألم ونحن نصف أنفسنا بالشحاذين ولكن ما العمل؟

الأمم الحضارية تجتاز الأزمنة بسرعة الضوء أمّا نحن فنسير ببطء السلاحف.

ما تزال حتى اليوم تتجاذبنا قوتان:

«السلفية» بشيخوختها وحكاياتها وأساطيرها.

و«المدنية» بثوبها الأرجواني وشبابها الطاغي.

كلتاهما تشد بنا ونحن مثل قطعة من القماش يوشك أن يمزقنا التجاذب من المحزن أنَّ الجانب السلفي ما زال إلى اليوم هو الغالب على مداركنا وهو الذي أيبس عروقنا وأصاب طموحنا بالصَّنميَّة وألقى بنا لقمة سائغة بين فكي الطمع والاستغلال.

منذ أكثر من خمسة قرون نعاني من عمى الألوان مرض خطير يلغي قدرة التمييز بين الطبائع والألوان.

- انهارت قوة محمد علي على أبواب إستانبول وأرغم على أن يعود ويتقوقع داخل حدود مصر.

- ولما تمت أعمال «فرديناند دي لسبس» وصارت القناة جاهزة لأن تكون ممراً برياً دولياً(1) وممراً بحرياً يربط بين القارات فيما هو يربط بوساطة البحر الأحمر بين «الأطلسي» و«الأبيض» و«الهادي».

بادرت بريطانيا فتملكت أكثرية أسهم السويس واستلمت سلطة الإدارة وأقصت مصر وقلّصت دورها القانوني وجعلت منها تابعاً مطيعاً لبريطانيا.

فحينما رفع أحمد عرابي راية الاحتجاج وتجمع تحتها بعض الشرفاء من شباب مصر الذين أرادوا أن تتنفس بلادهم بحرية(7) ولم يكن قد مضى على الوجود البريطاني أكثر من عشرين عاماً بادرت بريطانيا إلى تمزيق راية عرابي وتشتيت شمل رفاقه ونفيه عن مصر.

- وفي بلدان المغرب العربي.

قوبل الاكتساح الفرنسي بمباركة بريطانية مثلما قوبل الاكتساح البريطاني لمصر والقناة بمباركة فرنسا.

ففي بداية القرن التاسع عشر ارتفع العلم الفرنسي على عموم الجزائر ثم تمدَّد ونال استراحته في المغرب العربي وتونس.

- أمّا في الشرق العربي «سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن والعراق والجزيرة العربية والإمارات».

فقد تقاسمته (فرنسا وبريطانيا) لأنهما كانتا الأقوى في العالم آنذاك تساءلنا وتساءل سوانا.

لماذا كان هذا؟!

فجاء الجواب «واحداً» من جميع الجهات وبجميع الأصوات.

كان من القوة والضعف معاً.

فما كان لضعفنا أن يواجه قوتهم.

ومع أنَّ واحداً منا كان قد قال تلك الحكمة.

تأبى الغصون إذا اجتمعن تكسُّراً

وإذا افترقن تكسرت آحاداً

ذلك: لم نوله شيئاً من عنايتنا إذا مازلنا متفرقين بلداناً وجماعات ومصالح وجيوشاً وقوانين..

فأنظمة قوتهم وضعفنا هما حدا معادلة ما صرنا إليه.

والضَّعف- وإن جاء الثاني في الكتابة- فهو صاحب الدور الأساسي لأنَّ قوة الآخر أبرزها ضعفنا كما أن تفرقنا خلق فينا الضعف وجعل منَّا فريسة سهلة الاقتناص.

وبينما تتحدث سفن الفضاء عن الموانئ على شواطئ النجوم.

لا نزال نعيش الاختلاف كل عام حول «رؤية الهلال» و«لا يزال قسمنا الأكثر يعيش الطاعة لولي الأمر ولو كان عبداً كأن رأسه زبيبة» و«هل كان الإغواء في الجنة لآدم وحواء أم لحواء وحدها» و«وجوب التقيُّد بتقديم الرجل اليسرى عند الدخول إلى بيت الخلاء وتقديم اليمنى عند الخروج منه ووجوب قول الخارج من الكنيف الحمد لله الذي أذهب عنَّا الحزن وعافانا فيقول السامعون شوفيتم فيجيب الخارج عوفيتم».

هذا وأمثاله من العبث اللفظي الذي اعتبرناه من الأمور الدينية المفروضة مع الأمور الإلهية وهي غير ذلك بل هي حزمة من الآداب الاجتماعية مورست في زمنها وكان عليها أن تنطوي مع ذلك الزمن.

ولكن-بكلِّ حزنٍ وأسف- لا نزال نعيش بين حروف ذلك الزمن فلا نجد أي خلاص إلا فيه ولا رجاء إلا منه.

مما لا شك فيه أن الالتزام بمضمون الآية (٦٠) من الأنفال كان أساس منعتنا في ذلك الزمن العظيم فهو الذي حمى حدودنا الأخلاقية والجغرافية وأكسبنا مهابة الأمم منا.[٨]

ولكن ذلك الألق كسفته الرغبات والمصالح الدنيوية.

مع أن الله يصف الدنيا بأنها متاع الغرور.[٩]

والنبي (صلى الله عليه وسلم) إبعاداً عن التعلق بالدنيا أوجب الإكثار من الحديث عن الموت الذي هو نهاية الوجود الدنيوي فقال:

«أكثروا من ذكر هازم اللذات»

حديث شريف أو كما قال (صلى الله عليه وسلم).

وليس ذهابنا وراء لذات الدنيا فقط: بل ترافق ذلك مع الغرور القومي.

إذ نشر التابعون ومن شايعهم أننا بمقتضى التقييم الإلهي «**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**»[١٠] وأن هذا الاصطفاء من الله «لغة»

و«نبياً» و«كتاباً»، ثم لم يكتف المتناحرون بهذا الحد بل زعموا أنَّ النبـي (صلى الله عليه وسلم) بشّر بأن اللغـة العربية هي لغة أهل الجنة.

هذا التفاخر بعـث المشاعر القومية في الشعوب التـي اعتمدت الديـن الإسلامي فطرحت الفكر الشعوبي في ساحة الجدل.

فأكدوا:

- إنَّ خير أمة التي وردت في القرآن تعني بأنَّ العرب صاروا خير أمم ذلك الزمان التي لم تكن تأمر بالمعروف.

لأنَّ هذا التفضل اشترط الأمر بالمعروف والنهي عـن المنكر والإيمان بـالله والعرب لم يكونوا بهذه الأوصـاف قبل الإسلام ولن يكونوا خير أمة بتركها.

كما لن يحجب هذا التفضيل عن أية أمة أو شعـب يؤمن بالله ويأمر بالمعروف وينهي عن الفحشاء والمنكر.

- خلق الله الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا لا ليتفاخروا.[11]

و«الناس سواسية كأسنان المشط».

بالشعوبيـة بـدأ انهيـار الوحـدة في الصدور.

ثم بالإقليميـة والطائفيـة والعشائرية تتالى حتى صرنا إلى ما صرنا إليه.

فوحدة الكلمة «رأياً وهدفاً» هي القادرة على إعادة الاعتبار.

والوحدة تقتضي عدم التفاخر «بالجنس» أو «بالدين» أو «بالموقع الاجتماعي»..

حينما نظـم الشيخ إبراهيـم اليازجي بائيتـه المشهـورة توجـه بهـا إلى قاطني البلاد العربية من «عـرب وأكراد وتركمان وأرمن»[12]

لأنهـم جميعـاً يتكلمـون العربيـة لأن العربية صـارت نسباً جامعاً بعد قول النبي (صلى الله عليه وسلم): «ليست العربية بأب وأم العربيـة باللسان فمن تكلم العربية فهو عربي».

على هذا المبدأ بُنِيت «البائية» التي قال فيها الشيخ إبراهيم:

تنبّهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصتِ الرُكَبُ
لا دولـة لكـم يشتـد أزركـم
بها ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم في عيون الترك نازلة
وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

بعد هذا التوغل في أحشاء الماضي:

يجب أن نحدق في تلافيفه وزواياه بحثاً عن دور الثقافة والمثقفين.

لن نتتبَّع ما كان ينبغي أن يكون في سالف الأزمان.

بل سـوف نكتفي بالوقـوف على المدى المنظور.

تعيش أمتنا اليوم حالات قصوى من التشتت منها:

- الإقليمية والطائفية والعشائرية.
- الثوار والمجابهون والحياديون.
- المسوخ التي اعتمرت النفط وتقلدت الدُّولار.
- أقاليم تعاني من تزايد السكان ومن الحصار السياسي والاقتصادي في هذه الأجواء من التشرذم.

أين يوجد المثقف؟ بل أين يجب أن يوجد؟

ما مدى تأثره وتأثيره فيما هو سائد من فكر وسياسة؟

هل لا يزال على خُطا الأسلاف يوم كان لا يعلو أي صوت على صوت الخليفة الذي خلق الله فيه «كمال» الفهم والعلم والدين والحزم؟

أم بدأت نار القومية تلسع قدميه وتنتشر في ثيابه؟

الزمن الحالي.

لا يطلب من المثقف غير جهاد بالقلم وصدق بالمواقف.

على قلم المثقف أن يوقظ المواطن العربي من إغفائه الذي غيّبه عمّا يجري منذ قرون عدة وألاّ يتخذ من المواقف غير ما يقوي ثقة المواطن العربي بنفسه وقدرته على تجاوز الصعاب.

حينما ارتفعت ثلاثية الثورة الفرنسية(١٣) فوق فرنسا وأوروبة وامتلأت الآفاق بأصوات مطارق الصناعة الحديثة.

صرخ الشرفاء من مثقفينا. «هذه بضاعتنا في حروف جديدة».

ليس من اختلاف سوى أنَّ الثلاثية الفرنسية على السطور في حين أن ثلاثيتنا كانت في الصدور.

«كلمة حق تقولها في وجه الظلم والظالم تعدل العبادة» (حديث).

«الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره» (حديث).

«لا تقل عبدي وأمتي بل قل (أخي وأختي) فخوَلكم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يحمّله فوق طاقته وإن حمّله فليساعده» (حديث).

«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» (حديث).

«دخول الجمل في سُمِّ الخِيَاط أيسر من دخول الغني في الجنة..» (اقتباس من الآية -٤٠- من الأعراف).

قال شرفاء مثقفينا:

لقد تحقق لدينا حكم الشعب قبل أن يعرف العالم النظم الديمقراطية بأكثر من عشرة قرون.

عندما كان خليفتنا يقول: أيُّها الناس

وُلِّيت عليكم ولست خيركم أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي لديكم: كان يقول من مبادئنا الأخلاقية. وعندما قال الخليفة لعلي هل ساءك أنني ساويت بينك وبين خصمك حين قلت لك: قف إلى جانبه في مجلس القضاء؟ أجاب: بل ساءني أنك لم تساو فقد كنيتني وناديته باسمه.

كانت قناعة أبي الحسن بصواب ما يقول معتمدة على مبادئنا الأخلاقية.

أولى الواجبات على مثقفنا أن يمحوا انبهار العقل العربي بديمقراطية الغرب ومناعته وأن يبين له بالمنطق أن الذين استطاعوا في الأزمنة اليابسة أن ينثروا ورود الديمقراطية والعلم والمساواة على أمم ذلك الزمان في مقدورهم أن يضعوا القواعد الديمقراطية الجديدة.

حقوق الإنسان لم تكن جميع ما تفوقنا به بل كان بعضه إنَّ الحروف الأولى لأبجدية الصناعة والثقافة وضعت في هذه البلاد، أهرام مصر، وأبنية بعلبك، وبرج بابل، وأبنية تدمر، والحدائق المعلقة، وآثار ماري وأوغاريت وعلم التحنيط.

- وفي العصر الإسلامي الأوّل وضع جابر بن حيان أسرار الكيمياء وعلم الهيئة وسواها إذ ترجم الكثير من مؤلفاته إلى اللغات الأخرى.[١٤]

- الإدريسي أوّل من صنع مثالاً للكرة الأرضية.[١٥]

- الفارابي: الناقد الأوّل لجمهورية أفلاطون[١٦] والشارح المعدِّل لمنطق أرسطو.

- البتاني: أول من قاس السنة الشمسية.[١٧]

- أجدادنا الفينيقيون اكتشفوا أميركا قبل أن يخلق الله كولومبس بأكثر من أربعين قرناً وتركوا آثارهم على جباه الصخور العملاقة مكتوبة بلغتهم الآرامية القديمة.

- هم أوّل من رصد حنجرة الإنسان ووضع الحروف.

وفي جبيل صنعوا ورق الكتابة.

يجب على المثقف أن يزيل من الذهن العربي ما غرسوه فينا من «أزلية تقدمهم وتخلفنا وأبديته».

يجب على المثقف أن يستعرض أمام أشقائه العرب تلك الصفحات الخالدة.

لا لكي نذرف عليها الأقوال ولا لكي نستغني بها عن سواها بل لكي نتخذ منها محرضاً للتخلص مما نحن فيه والبدء بتشييد البناء الحضاري اللائق بأمتنا استرسلنا- ونعتذر- لسببين:

الأوّل: لأن القَلَم عربي ولأنَّ أكثر همومه هي هموم المواطن العربي.

الثاني: لنثبت أن الثقافة هي الأساس الذي قامت عليه السلطة في كل زمان وأن أي انهيار سياسي يسبقه الانهيار الثقافي.

الثقافة الأساس: هي التفوق في العلوم وقيام هذا التفوق مع نضج أخلاقي فالعلم الذي لم يبن على الأخلاق يقود إلى الطغيان والديكتاتورية والأخلاق من دون علم تخلق سلطة من القشور.

الهوامش

١- يجب أن نلفت النظر إلى السياق الذي يبدأ من الآية ٥٥ لأن منها ومن الآية ٥٦ يعرف السبب الذي برر النص على التنكيل والتشريد ففي الآية ٥٥: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ». والآية٥٦: «الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ». ثم تأتي الآية ٥٧: ومن ذلك يتبين أن التنكيل هو في من نقضوا العهد مرات عدة وليس في جميع الخصوم والدواب: كل ما يدب على الأرض.

٢- الجفلى: أي الدعوة عامة، وينتقر: أي ينعزل.

٣- الرذيل هو الدون من الناس وقيل هو الرديء. والرذيلة هي ضد الفضيلة (ابن منظور).

٤- نقصد أزمنتنا العربية.

٥- البخس هو القليل وسمي الحرام بخساً لأنه لا بركة فيه.

٦- الطريق البري هو الذي يصل بريطانيا بالهند وفرنسا بجاوا وسومطرة وهولاندا بأندونسيا.

٧- أحمد عرابي باشا عاش بين (٨٤١-١٩١١م) ضابط وطني ثار على الاتراك ثم فيما بعد دعا إلى تحرير البلاد من النفوذ الإنكليزي على مصر وسيطرته الكاملة على القناة فتدخل الإنكليز وقصفوا الإسكندرية ودخلوا القاهرة وحلوا الجيش المصري ونفوا عرابي باشا عن مصر في عام (١٨٨٢م) حيث بقي في المنفى حتى عام (١٩٠١م) وبقي في القاهرة حتى توفي فيها في عام (١٩١١م).

٨- «وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ..» (الأنفال- ٨/ ٦٠).

٩- (الحديد- ٥٧/ ٢٠).

١٠- (آل عمران- ٣/ ١١٠).

١١- (الحجرات- ٤٩/ ١٣).

١٢- الأكراد من الأصل الإيراني- هند أوروبي- ينزعون في «تركيا» و«العراق» و«إيران» و«سورية» والتركمان- قبيلة تركية، والأرمن- جماعة من أرمينيا.

١٣- بدأت في ١٤/٧/١٧٨٩م واستقرت في مجلس الإدارة منذ (١٧٩٥م) حتى (١٧٩٩م).

١٤- عاش بين ١٢٠-٢٠٠هـ ولد في طوس ودفن فيها ولكن لغته ومؤلفاته الخمسمئة كانت باللغة العربية هو الذي وضع اسم الكيمياء على هذا العلم حضر الزئبق والبوتاسيوم والصوديوم وماء الذهب والفضة وحامض الكبريت ودرس السموم وعلم التقطير والتذويب والتمويل والصهر المعدني والترشيح وبرع في الفلك والفلسفة والرياضيات والميكانيك والطبيعة وعلوم الدين صحب جعفر الصادق وأخذ عنه مبادئ علوم الكيمياء والفلك والدين. (الميسرة الإسلامية) حرف- ج-.

١٥- هو رحّالة مغربي ولد في سبتة برع في الهيئة والطب والجغرافيا عاش بين (١١٠٠-١١٦٥م).

١٦- هو من أعظم فلاسفة العرب توفي في عام ٩٥٠م ولد في فاراب وتوفي في دمشق أقام في مجلس سيف الدولة لقب بالمعلم الثاني له كتب عدّة منها «آراء المدينة الفاضلة» و«رسالة العقل» و«التوفيق بين أرسطو وأفلاطون» وغيرها.

١٧- هو أبو عبد الله محمد عاش بين عاميّ ٨٥٨- ٩٢٩م.

الذاكرة الكاذبة أو المصطنعة
قضية جدلية

د. محمد قاسم عبد الله ✿

شهدت الأوساط العلمية والسياسية والقانونية، منذ عام ١٩٩٠م، جدلاً واسعاً حول دقة وصدق ذاكرة الأطفال الذين تعرضوا لسوء المعاملة الجنسية sexual abuse. فمن جهة أولى، كان الجدل بين الباحثين والمتخصصين في علم النفس الذين شددوا على أنَّ الأطفال الذين تعرضوا لصدمة خلال حياتهم، سيعانون من فقدان ذاكرة كلي أو جزئي partly or fully amnesia لهذه الصدمة وذلك لفترة زمنية، حيث تستعاد الذاكرة فيما بعد من جديد إمَّا بشكل تلقائي أو عن طريق العلاج.

ومن جهة ثانية، يرى الباحثون والمتخصصون الذين شددوا على أن الذاكرة التي تمَّ استعادتها (تلقائياً أو بالمعالجة) هي ذاكرة كاذبة أو غير حقيقية، فهي ذاكرة خيالية أو مصطنعة fictitious ، وأنها نتيجة افتراضات علاجية متعلقة بالحدث الضاغط أو بالصدمة التي مرَّ بها الفرد، والتي لم تحدث إطلاقاً، إلا أنَّ المريض تقبلها على أنَّها حقيقة واقعية.

هناك عاملان جوهريان في صلب هذا الجدل: العامل الأوّل يتعلق بالعلم، والثاني يتعلق بالسياسة. إنَّ أكثر هذا الجدل ذو طبيعة سياسية، ولكن كل وجهة نظر من

✿ باحث وأستاذ الصحة النفسية، في جامعة حلب.

الوجهتين السابقتين، دعمت بإثباتات علمية. ويقول أرمسترونغ Armstrong (١٩٩٤م): «من النادر أن يعتبر الأدب العلمي أن القضية سياسية». وقد يأخذ الجدل العلمي القضية على أنّها سياسية الطابع، ولكن الرأي السياسي عادة يسهل فهمه، وهو بسيط، في حين أنّ العلم أكثر تعقيداً. ويعتمد الاتجاه السياسي على وجهتين أيديولوجيتين متعارضتين: الأولى، تتعلق بالأشخاص الذين يعتقدون أنّ الأطفال صادقون بشكل عام حين يقررون أنّهم تعرضوا لسوء المعاملة، وأنّ الراشدين هم أيضاً صادقون حين يشددون على أنّهم عالجوا ذاكرة هؤلاء الأطفال الذين تعرضوا إلى سوء المعاملة (الجنسية أو الجسمية) حين كانوا صغاراً أو في مرحلة سابقة.

الثانية: تتعلق بالأشخاص الذين يعتقدون أنّ عند الأطفال قابلية عالية للإيحاء، وبذلك فإنّ تقاريرهم عن حالتهم موضع شك، وأنّ الأطفال الذين تعرضوا إلى صدمات شديدة وخطيرة لا يمكنهم إيقاف أو كظم ذاكرتهم التي تمّ استعادتها حديثاً أو حين يصبحون راشدين. وبذلك فإنها ذاكرة تسمى «معتقدات كاذبة» false beliefs غرسها المعالجون النفسيون في أذهانهم.

تجدر الإشارة إلى أنّ جميع الاتجاهات أو وجهات النظر السابق ذكرها، إنّما تشترك بخاصية واحدة تجمعها، وهي أنّها جميعها لم تُشِرْ إلى أنّ المعالجين النفسيين يستعملون تقنيات الإيحاء التي تدفع المريض لكي يتذكر أشياء ربما لم تحدث إطلاقاً. كما أنّهم غير متأكدين ممّا إذا كان الأطفال صادقين أو غير صادقين يؤيدون أو ينكرون ذلك. وسنركز على الاتجاهات والنتائج العلمية عن طريق طرح أسئلة أساسية وتقديم الإجابات العلمية حولها.

حين يتعلق الجدل بالعلم، فهناك موضوعان رئيسان يواجهاننا: الأوّل هو الذاكرة، والثاني أثر العلاج أو التأثير العلاجي. ويتعلق الموضوع الأوّل بالإجابة عن الأسئلة التالية: هل يمكن شفاء وإعادة ذاكرة الأطفال الذين تعرضوا لسوء المعاملة بعد فترة طويلة من فقدانها؟

تعزى هذه الظاهرة لما يسمى «الإعادة أو الشفاء المتأخر للذاكرة» أو ما يسمى «الذاكرة المكبوتة أو المكظومة» أو كما يسميها ليندسي، وريد (Lindsay and Read ، ١٩٩٤) الذاكرة الوهمية illusory memory أو الذاكرة التي تمّ إحياؤها، أو الذاكرة التفككية كما سماها العالمان سبيجل وشيفلن (Spiegel and Scheflin ، ١٩٩٤).

يتعلق الجدل حول الذاكرة الكاذبة false memory بجانبين مترابطين هما:

١- وثوقية الأطفال وصدقهم بأنهم تعرضوا للإساءة والتحرش molested .

٢- وثوقية الراشدين وصدقهم وتأكدهم من أنّ هؤلاء الأطفال قد تعرضوا للصدمة trauma وخاصة سوء المعاملة الجنسية. ويتعلق هذان الجانبان بسؤال أساسي حول وثوقية وصدق الذاكرة عموماً، والمدى الذي يمكن أن يؤثر اجتماعياً.

يتعلق الاهتمام الثاني والأساسي بتأثير العلاج في الذاكرة. ينظر المعالجون النفسيون إلى دورهم على أنّه تسهيل لعملية استرجاع وتذكر الصدمة أو حادثة سوء المعاملة التي يتعذر بلوغها واسترجاعها حتى هذه اللحظة، حيث يركز المعالجون عبر عملهم التاريخي الطويل، على شفاء المريض أو الشخص وتخلّصه من المعاناة النفسية أكثر من اهتمامهم بدقة ما تمّ تذكره.

إنّ جوهر الجدل القائم بالدور الذي يلعبه تأثير العلاج في الذاكرة. ويتعلق الاهتمام بشكل خاص، بما إذا كانت الذاكرة التي تمّ استرجاعها وعلاجها لدى هؤلاء الأفراد متأثرة بحماس المعالج وما يغرسه في ذهن الفرد. ويعتقد بعض العلماء أنّ ذاكرة هؤلاء الأفراد التي تمّ استرجاعها بالعلاج النفسي هي تركيبات تخيلية أولية، وأنها مصطنعة أو مبتدعة created من قبل الراشدين في المخبر والجلسات العلاجية.

لقد بدأ العلاج الحديث للمرضى الذين تعرضوا لصدمات، والأشخاص الأكثر تعرضاً للصدمات، منذ ما يزيد عن قرن من قبل الروّاد الأوائل الذين درسوا الهستريا ولاسيما شاركو (١٨٨٧م) وجانيه (١٨٨٩م) وبروير وفرويد (١٨٩٣-١٩٨٥م). لقد أدار جانيه مختبراً لدراسة الهستريا تحت إشراف شاركو في مشفى سليبترير Salpetriere في فرنسا. وقد وضع نظريته في الهستريا في كتاب متميز عنوانه L.Automatisme Psychologue (١٨٨٩م).

وفقاً لجانيه، تعتبر الصدمة أو الرضة نتيجة أو محصلة لعدم القدرة على التعامل بفعالية، مع مواقف مهددة واقعية، أو عدم القدرة على مواجهة هذه المواقف بكفاءة. بعض الانفعالات، مثل الشعور بالعجز الكامل، تقوى وتزداد حين الاستجابة لمثل هذه المواقف المهددة. هذه «الانفعالات الشديدة والملتهبة» تتدخل في الذاكرة والوعي الطبيعي وتؤثر بهما. إنّ هذه الانفعالات هي التي تسبب تفكك أو انقسام dissociation الشعور أو الوعي الطبيعي بحيث تصبح أجزاء منه خارج نطاق تحكم الشخص وضبطه. وإحدى الآثار الهامة الناتجة عن ذلك، هي أنّ مجال الشعور الكلي سوف يصبح محدوداً وضيقاً.

ومن الآثار الأخرى الناتجة عن ذلك، أنّ

محتوى الذاكرة الجزئي الخاص بالصدمة سوف يبقى فعالاً ضمن ما يسمى «الأفكار الثابتة ما قبل الشعورية» أو «الاستقلالية». هذه الأفكار أو الخبرة المستقلة تحمل إمكانية التنشيط والعمل في مواقف معينة، أو إمكانية التأثير العنيف.

١- في الخبرة الشعورية ،كما في حالات السير أثناء النوم، وصعوبات الانتباه والتركيز، وفي ردود الفعل الهسترية التحويلية.

٢- وفي الذاكرة على شكل فقدان ذاكرة أو حدة الذاكرة.

إنَّ هدف العلاج وفقاً لجانيه، هو مساعدة المريض على التعامل مع الذاكرة المضطربة المتعرضة للصدمة، وإدخالها لتصبح ضمن مجال وعي وشعور صاحبها.

وتمر عملية المعالجة هذه بثلاث مراحل:

الأولى، تستهدف بناء علاقة مودة وألفة rapport مع المريض ومساعدته على تحقيق التوازن النفسي والثبات.

أمَّا المرحلة الثانية، فتستعمل فيها طرق التنويم المغناطيسي والكتابة الذاتية والأحلام حتى يتم إدخال هذه الذاكرة المضطربة الخاصة بالصدمة لتتكامل مع الانفعالات الذاتية في وعي وشعور صاحبها، وقد تستعمل القابلية للإيحاء التنويمي مباشرة لخفض الأعراض المرضية. وفي بعض الأحيان يتم نقل المعتقدات والانفعالات المترافقة بالصدمة عن طريق الإيحاء بحيث يحل محلها معتقدات وانفعالات إيجابية.

أمَّا المرحلة الثالثة، حالما يكون إدخال الذاكرة وتكاملها في مجال الوعي قد تمَّ جزئياً أو كلياً، يقوم جانيه بمساعدة المريض بلوغ الهوية الثابتة والمتزنة وتعزيز قدرته على الأداء والسلوك.

يعتقد جانيه، أنَّ الأعراض الهسترية تخدم كوظيفة من وظائف الدفاع، على اعتبارها تجعل ذاكرة الشخص خارج مجال شعوره ووعيه. وبذلك يرى جانيه أن الهستريا «هي اضطراب في عمل الذاكرة، أو خوف مرضي من الذاكرة». والهدف الأولي من العلاج هو استعمال التنويم لتسهيل عمل الذاكرة وتكاملها حتى تختفي الأعراض، ولو بقيت بعض الآثار في خلل الذاكرة. وبذلك فإنَّ تكامل الذاكرة هو الذي يقود إلى خفض الأعراض.

لقد كان تفسير جانيه وفرويد للهستريا يحمل الطابع العقلي والثقافي نفسه للعصر الذي عاشاه مشددان على الفكرة الأساسية القائلة بأنَّ «الذاكرة والعصاب لهما الجذر المشترك نفسه» وأنَّ المعالجة وتكامل الذاكرة هما أساس خفض الأعراض المرضية. كما يشتركان في القول بأنَّ الذاكرة المضطربة التي تعرضت لصدمة عند صاحبها

ستبقى خارج متناول وعيه وشعوره، بسبب الخبرة الصدمية والرضية التي تعرض لها الشخص.

أمّا بروير و فرويد فقد لخصا بحوثهما الإكلينيكية حول الهستريا في كتابهما المشهور «دراسات في الهستريا» عام ١٨٩٣م. وكما هو الحال عند جانيه، فقد اعتقد بروير وفرويد أنّ الأعراض الهسترية التي عانى منها مرضاهم الراشدات adult female patients كانت ناتجة عن أحداث ضاغطة وصدمات واقعية مررن بها خلال حياتهن الواقعية، عادة تكون على شكل مضايقات ومشاكل جنسية في مرحلة الطفولة ضمن العائلة. وتعرف هذه النظرة للاضطراب باسم «نظرية الإغراء» seduction theory. وكما هو الحال لدى جانيه، فإنّ بروير وفرويد شدّدا على أنّ المعالجة تتضمن كشف هذه الخبرات الجنسية المبكرة لأنّها الأساس في معالجة الأعراض الهستّرية. من هنا فإنّ الذاكرة المرتبطة بخبرات جنسية سرية في الطفولة تستمر وتتظاهر بأعراض هسترية لسنوات عديدة، حتى يتم إعادتها إلى مجال وعي صاحبها وشعوره وذلك عن طريق العلاج الذي يعتمد التنويم المغناطيسي والإيحاء وتفسير الأحلام.

في وقت لاحق، عدل فرويد وجهة نظره حول أسباب الهستريا وتخلّى عن نظرية الإغواء . في مقالاته الثلاث عن «الجنسية الطفولية» وفي كتاباته اللاحقة، طور فرويد نظرية أوديب، ولم يستمر طويلاً في نظرته السابقة التي رأى فيها أنّ المرضى الهيستريين قد عانوا خبرات رضية جنسية سابقة في طفولتهم، بل استبدل هذه النظرة بأخرى تقول، إنّ أكثر ما يتذكره الذين تعرضوا لسوء المعاملة الجنسية من المرضى الهيستريين في ذاكرتهم، هي منتجات خيالية ناتجة عن صراعات أوديبية oedipal conflict .

لقد رجع المحلل النفسي ماسون إلى كتابات فرويد غير المنشورة، وأكد بأنّ هذا الأخير قد رفض نظرية الإغراء فعلاً، ولكن السبب ليس قلة الأدلة العلمية لها. لقد كان فرويد قلقاً حول التطبيقات التخصصية والاجتماعية لنظرية الإغراء، لأنّ التحقق من صدقها على المشكلات الجنسية في الطفولة، يتطلب تقبلاً وترخيصاً من المجتمع الفيكتوري، وخاصة في العائلات الفيكتورية. ويؤكد ماسون بأنّ فرويد لم يكن يريد ببساطة الاستمرار بالتطبيقات السلبية لنظرية الإغراء ضمن تلك الظروف والبيئة الاجتماعية.

لقد لاحظ ماسون أنّ نظرية فرويد عن الإغراء قد لاقت تقبلاً ضعيفاً جدّاً من قبل رفاقه وزملائه الذكور، وأنّه كان غامضاً ويعرف بأنّ أية فرصة يملكها في دائرة

تخصصه تعتمد على اسمه وسمعته الجيدة في المجال الطبي. كيف يمكنه أن يتحدث عن سوء المعاملة الجنسية في مرحلة الطفولة، ويبقى محتفظاً بماء وجهه وسمعته؟ لقد أوجد الحل باستعمال مصطلح عقدة أوديب وصراعاتها والاعتماد عليه في التفسير.

لقد أعيد الجدل وأثير من جديد في كتاب ماسون المنشور، ولكن في سياق جديد هذه المرة، وذلك من خلال تقدير وتشخيص ومعالجة اضطراب الشدة النفسية ما بعد الصدمة post-traumatic stress disorder (PTSD) واضطراب تفكك الهوية dissociative identity disorder (DID). وكما قال بعض المؤرخين فإنّ التفسير المعاصر للتاريخ غالباً ما يقول لنا عن ثقافة المفسرين والمؤرخين وأوضاعهم أكثر مما يقول لنا عن التاريخ نفسه. وبذلك فإننا نتعلم الكثير عن ردود الفعل على كتاب ماسون حول وجهات النظر المعاصرة عن اضطراب الشدة النفسية ما بعد الصدمة واضطراب تفكك الهوية، والقليل عن أية نظرية من نظريات فرويد هي الصحيحة.

إنّ الحركات الاجتماعية التي ظهرت مع نهاية القرن التاسع عشر، لوقاية الأطفال وحمايتهم، قد وجهت الانتباه نحو المحاكم والمؤسسات الحكومية الهامة ذات الصلة.

عن مكاتب رعاية الأطفال ووقايتهم التي نشأت لحمايتهم من ظروف الاستغلال وسوء المعاملة بأشكالها المختلفة. وقد أشار بيهلمر Behlmer عام ١٩٨٢م، إلى أنّ الأطفال الذين أسيئت معاملتهم هم معروفون جيداً وكثر في العصر الفيكتوري وما بعده. وبذلك فإنّ هذه الحالات لم تكن منتشرة في عصر فرويد فقط وكانت بحاجة إلى تحليل وتفسير، ولكنها كما أشار «بيهلمر» إلى تردٍ خطير في الاهتمام العام بالطفل الذي أسيء معاملته بين عامي ١٩١٤ و١٩٦٠م.

البحوث المتعلقة بإساءة معاملة الطفل

لماذا انحدر الاهتمام العام بموضوع الأطفال الذين أسيئت معاملتهم بعد الحرب العالمية الثانية؟ يقول بيهلمر «إنّ الجروح المادية والنفسية التي أحدثتها الحربان العالميتان وطول الأزمة الاقتصادية وانتشارها قد أدت إلى تحويل الاهتمام الإنساني إلى طرفي المحيط الأطلنطي». مع أنّ نشوء المكاتب المختصة بوقاية الأطفال الذين أسيئت معاملتهم قد دفعت إلى الاهتمام بالمشكلة التي في طريقها إلى الحل.

الفترة الحديثة للاهتمام بالأطفال الذين أسيئت معاملتهم قد بدأت في الخمسينات،

حين قام الأطباء المختصون بالتصوير الشعاعي بتوضيح العلاقة بين أذيات الجمجمة لدى المواليد والأطفال وبين إمكانية حدوثها عمداً من قبل الوالدين اللذين أحدثاها في الأطفال. وبذلك فإنَّ هذه التقنيات بإمكانها أن تحمي هذه الحالات، ولكن الطبيب لم يستعملها لهذا الغرض حتى عام ١٩٦٢م مع صدور المقال الذي نشره طبيب الأطفال هينري كيمب Henry Kempe الذي كان يعمل في كلية الطب بجامعة كولورادو حينما تحدث عمَّا سماه «متلازمة الطفل الذي تعرض للعنف»، Battered child syndrome وقدَّم معلومات مفصلة وهامة عن الصدمة أو الرضة التي عانى منها الطفل الذي أسيئت معاملته.

في الفترة التي صدر فيها مقال كيمب في تموز عام ١٩٦٢م، تنبأت مجلة الرابطة الطبية الأمريكية أن «متلازمة الطفل الذي تعرض للعنف والإساءة ستكون سبب الكثير من الوفيات وأكثر مما نعهده عن الأمراض التي نعرفها مثل الليوكيميا (ابيضاض الدم)، والتليف المثاني cystic fibrosis والتي تمتد من تلك الناتجة عن العدوى والتسمم إلى تلك الناتجة عن اضطرابات في الجهاز العصبي المركزي». لقد دفع المقال الذي كتبه كيمب إلى الاهتمام بقضية إساءة معاملة الأطفال.

والاتجاه الذي تمَّ اعتماده كان يعتبر إساءة المعاملة على أنَّها اضطراب تشبه الأمراض الطبية الأخرى. ومنذ عام ١٩٦٠م تطورت الاهتمامات بهذه الحالة، وأصبح ينظر إليها على أنَّها مشكلة طبية مثلما هي مشكلة اجتماعية.

وفي عام ١٩٧٤م نشأت حركة سميت «الحركة الفيدرالية لوقاية ومعالجة الأطفال الذين أسيئت معاملتهم» وكانت تقدم خدماتها من قبل متخصصين في مختلف الميادين.

أمَّا التطور الآخر الذي حصل فهو تطوير برامج في مجالات:

١- القياس والتشخيص والتقدير والمعالجة لكل طفل تعرض لإساءة معاملة سواء كانت جنسية أم قسوة وعنف.

٢- البحث عن المذنبين أو المعتدين ومقاضاتهم.

ثم أصدرت المكاتب والمؤسسات التي تقدم خدماتها في هذا المجال، العديد من القوانين. وبذلك فقد أصبحت المسألة إضافة إلى كونها طبية، اجتماعية وقانونية وسياسية.

إنَّ الفشل في تطوير ووضع معايير لدراسة إساءة معاملة الأطفال جنسياً

ومعالجتهم قد دفع إلى الابتعاد عن الهدف الذي اتجهت إليه الحركات الناشئة.

لقد كان التركيز الأساسي على تحديد وتطبيق تقنيات المداخلة الوقائية والعلاجية ومنع تعريض الأطفال للخطر، ثم توجه الاهتمام إلى التركيز على صحة الادعاء بأنّ الطفل تعرض لإساءة المعاملة. كما أنّ الذي يبحث في مثل هؤلاء الأطفال يواجه بمهمتين متعارضتين:

١- تقويم الأخطار وتقديم المداخلات الإكلينيكية الضرورية.

٢- ثم التأكد من أن الادعاء كان صحيحاً.

من هنا بدأ التركيز على بحث مدى صدق ادعاء الطفل وموثوقية أقواله. وقد أشارت الأكاديمية الأمريكية للطب النفسي للأطفال والمراهقين بأنّ على الأخصائي والمعالج أن «يقرر ما إذا كانت حالة سوء المعاملة الجنسية للطفل قد حدثت فعلاً أم لا». ومن الآثار التي نتجت عن هذا الجدل، الرأي الذي قال بأنّ المقابلة المكثفة المستخدمة في البحث كثيراً ما تتضمن أسئلة موجهة أو أسئلة يساء توجيهها أو محرّفة بحيث تتحيز لما تقدم من ادعاءات.

إن تكتيك المقابلة والأسئلة يمكنها أن تدعم ما يسمى بالذاكرة الكاذبة، أو غير الصحيحة مما يلجأ إليه المحامون لتبيان درجة قابلية الطفل للإيحاء والتصديق وهو ما يؤكد أن شهادته غير موثوقة، وأنّ الادعاء يكون كاذباً.

الطب النفسي في القرن العشرين

يعتبر الجدل المتعلق بالذاكرة الزائفة أو الكاذبة حصيلة مجالين مستقلين من المجالات المهنية والتخصصية:

الأوّل: يتعلق بالبحوث المتعلقة بالصدمات والرضات ومعالجتها. ويتضمن هذا المجال المعالجة التخصصية للاضطراب والصدمة والاهتمام المتزايد بالاضطرابات التفككية، وكذلك حركة المعالجة المستندة إلى المساعدة الذاتية، وبحوث الأطفال الذين أسيئت معاملتهم.

والمجال الثاني: وهو الحركة العلمية المتزايدة في بحث الذاكرة والعمليات المعرفية أو العقلية. هذان الاتجاهان يشكلان أساس الحركة الاجتماعية الواسعة المتعلقة بحماية الأطفال ورعايتهم الصحية والاجتماعية. وقد أثرت كل واحدة من هذه الحركات والاتجاهات في تكوين الجدل الخاص بالذاكرة الكاذبة.

نشوء علاج الصدمة:

إنّ رفض فرويد لنظرية الإغراء قد أثر في دراسة الصدمة وسوء المعاملة حتى الحرب العالمية الثانية. والحدث الهام الذي

نتج عن الحرب هو الاهتمام المتزايد بعصاب الحرب ومعالجته، وبالمواطنين الذين عانوا من الأزمة وتأثروا بها، وكذلك الأحداث والإصابات. والاهتمام التخصصي والمهني الآخر في آثار الصدمة ومعالجتها، أدى إلى ظاهرة إكلينيكية خاصة بالصدمة والتعرض للرضات سماها ماردي هوروويتز: متلازمة استجابة الشدة النفسية أو الضغط النفسي Stress Response Syndrome والتي سميت حديثا اضطراب الشدة ما بعد الصدمة النفسية posttraumatic stress disorder. والعنصر الأساسي في نظرة هوروويتز لتكيف ما بعد التعرض للصدمة، هو الانتقال بين الخبرة المقتحمة أو المتطفلة، والتخدير العام في الاستجابة وسماه النموذج مزدوج الوجه biphasic model.

هذا النموذج الذي وضعه هوروويتز كان الأساس في تشخيص اضطراب الشدة ما بعد الصدمة الذي تبنته الرابطة الأمريكية للطب النفسي في دليلها التشخيصي والإحصائي للأمراض النفسية (DSM، ١٩٨٠).

وفقاً للذاكرة التي تمت معالجتها وشفاؤها لدى الأطفال المساء معاملتهم جنسياً، فقد كتبت الباحثات أنّ المجتمع الغربي الحديث قد مرَّ بثلاث فترات: الأولى وتسمى فترة الرفض أو النكران (وتمتد حتى عام ١٩٧٠م)، والثانية عصر الإثبات والصدق (من عام ١٩٧٠م حتى ١٩٩٠م)، والثالثة تسمى عصر العودة ثانية (منذ عام ١٩٩٠م). ففي أوائل السبعينيات كانت «مؤامرة الصمت» حول انتشار إساءة معاملة الأطفال بما فيها الإساءة الجنسية.

وقد زاد الحديث عن سوء معاملة الأطفال جنسياً من خلال البحوث والدراسات الهامة التي أجريت أوّلاً على يد العامل كينزي (Kinsey ١٩٥٣) وبعدها صدمة الاغتصاب rape trauma .

ومع نهاية السبعينيات ونشوء حركات العنف وسوء معاملة الأطفال، زاد الاهتمام العام وزاد الوعي الشعبي مما دفع لمزيد من الاهتمام برياض الأطفال والمدارس والانتباه الحذر الذي وجه بسبب آثار الصدمة السابقة على الأطفال.

منذ نهاية السبعينيات بدأ الاهتمام يتوجه نحو النساء والأطفال، وكان التركيز على سوء معاملة الأطفال جنسياً. والذي ساعد على ذلك البحوث الإكلينيكية والطبية التي أجريت على الأطفال الذين تعرضوا للإساءة الجسمية والعنف. ومن الكتب المهمة التي نشرت حول سوء معاملة الأطفال جنسياً، كتاب بتلر «مؤامرة الصمت» (عام ١٩٧٨م)، وكتاب فور وارد وباكس «خون

وتضليل الطهارة» (١٩٧٨م)، وكتاب مسلمان عن المحارم Incest (١٩٧٨م) وكتاب جيستس المعنون «المحرم المهدم» أو«التابو المنهار» The Broken Taboo (١٩٧٩م) وغيرها كثير.

وحالما صدرت هذه الكتب بدأت النظريات الاجتماعية والبحوث التي درست الدينامية العائلية للمحارم وآثارها النفسية، ووضعت النظريات الاجتماعية التي حاولت تفسير آلية انتشار هذه الظاهرة بين العائلات الأمريكية والأوروبية. وقد تبين أنَّ هذه النسبة قد بلغت ١٩٪ ثم ٣٨٪ على التوالي بين النساء في أمريكا، وأنَّ ٣٢٪من النساء في هولندا قد صرحن بأنهن كن ضحايا ذلك حين كانت أعمارهن ١٨ سنة.

لقد وصفت مقالة سويميت Summit (١٩٨٣م) المعنونة «متلازمة إساءة المعاملة الجنسية للأطفال» كيف تؤثر هذه الحادثة والصدمة في ذاكرة الطفل وإدراكه. ومع نهاية الثمانينيات وخلال التسعينيات عكست الآداب النفسية والطبية الانتباه إلى الفروق الفردية في الاستجابة للمحارم، مع الفهم المتزايد للآثار النفسية الطويلة الأمد للمحارم والوقاية من آثارها المرضية.

وقد حصلت أثناء ذلك تطورات هامة في المعالجة النفسية التي تدخل في الإطار العام لمعالجة اضطراب الشدة ما بعد الصدمة النفسية، وذلك حين تعرض الشخص لأي حدث ضاغط أو صدمة مثل الحرب، أو الاغتصاب أو سوء المعاملة الجنسية أو العنف الجسدي أو الحوادث.

تاريخياً تعود تقنية علاج هذه الحالات إلى بيير جانيه الذي وصف ثلاث مراحل لمعالجة اضطراب الصدمة النفسية:

١- الثبات ٢- معالجة الذاكرة وعملها
٣- إعادة التأهيل.

إنَّ المعالجة الحديثة لاضطراب الشدة ما بعد الصدمة قد احتفظت بالخطوط العامة لهذه المراحل العلاجية ولكن الاختلاف في التأكيد على كل مرحلة منها.

إنَّ إحدى أهم تطبيقات هذه التقنية العلاجية هو أنها تركز على سوء المعاملة عامة، إلا أنَّ العلاج النفسي المعاصر يركز على مايسمى كشف الذاكرة وتكاملها (هذه الذاكرة التي تعرضت للصدمة)، وقد وصفت الآن ضمن إطار علاجي أوسع بحيث أن ثبات الأعراض وتحسين القدرة على التعامل والتكيف coping ونمو الذات تخدم باعتبارها متطلبات ضرورية وهامة من أجل معالجة الذاكرة وعملها. والفرق الأساسي للعلاج ليس في كشف الذاكرة المصدومة بل نمو الذات ونمو العلاقات.

انبعاث الاضطرابات التفككية:

لقد شهدت الفترة التاريخية نفسها اهتماماً بالاضطرابات التفككية وخاصة دراسة اضطراب الشخصية المتعددة multiple personality disorder. وبرز نتيجة ذلك ما يسمى اضطراب الهوية الزائفة pseudo-identity disorder واعتبر اضطراب الشخصية المتعددة على أنه اضطراب الهوية الزائفة. وتفسير ذلك هو الاهتمام الواسع بالتنويم المغناطيسي والإيحاء، ولأن التنويم إحدى الطرق البارزة في عملية التداعي والارتباط، مما دفع إلى مزيد من الاهتمام بالظاهرة التنويمية وبفقدان الذاكرة، والتفكك، وخاصة من قبل المحلل النفسي الشهير أريكسون (١٩٧٠م) وقد قيل «إنّ طريقة أريكسون هي المجال الأسرع تطوراً في العلاج النفسي في العالم الغربي».

يصرح المرضى بالاضطرابات التفككية بالكثير من القصص والأحداث السادية في سوء المعاملة، وقد أشار جان كودرين عام ١٩٩٤م إلى مشكلة الصدق في قصص سوء المعاملة الجنسية السادية. وهناك العديد من المراكز المتخصصة في معالجة المرضى بهذه الاضطرابات نشأت منذ عام ١٩٨٠م. وقد أشار بعضهم إلى أن الذاكرة الزائفة التي تعرضت للصدمة قد أصبحت موضوعاً ثقافياً اجتماعياً لدى المجتمع الأمريكي الحديث منذ الثمانينيات.

إنّ الجدال الحالي حول الذاكرة لايمكن النظر إليه إلا من خلال خلفية الحركات الاجتماعية الواسعة في المجتمع والتي نشأ منها هذا الجدل. إنّ نشوء حركات المرأة ونظريات الأنوثة في الثقافة، قد لعبت دوراً رئيسياً في إعلاء صوت الناجين من سوء المعاملة الجنسية ومن الاغتصاب في المجتمع.

وقد ركزت النظريات الاجتماعية حول الأنوثة على بنية المجتمع بحد ذاته. وقد نشأ نتيجة ذلك تساؤل هام مفاده: مانوع المجتمع الذي يتيح لأكبر نسبة من الفتيات والأطفال الإناث ليكن ضحايا سوء المعاملة الجنسية والبدنية؟

وهناك العديد من التحديات التي واجهت بنية المجتمع النووي الأمريكي.

لقد أكد بعضهم أنّ الجدل الخاص بالذاكرة المزيفة هو محصلة ومظهر للتحدي الذي تواجهه الأسرة الأمريكية متوسطة المستوى الاجتماعي الاقتصادي.

من جهة ثانية فقد تطور عمل المتخصصين في تقنيات علاج الذاكرة لأهداف اقتصادية وصناعية، وخاصة بعد أن ركز الاتجاه الاقتصادي على ضرورة

تطبيق التقنيات العلاجية للأفراد الذين تعرضوا لصدمات نفسية خلال حياتهم.

نشوء متلازمة الذاكرة المزيفة أو الكاذبة.

كما نشأت جماعة سميت باسم «ضحايا قوانين إساءة معاملة الأطفال» Victims of Child Abuse Laws، فقد نشأت متلازمة الذاكرة الكاذبة والمزيفة False Memory Syndrome وقد عالج عدد من العلماء أطفالاً تعرضوا لسوء المعاملة الجنسية، وذلك في الجلسة الثانية من المعالجة، وقد تمّ شفاء ذاكرة العديد من الأطفال الذين تعرضوا للصدمة. وقد تمّ التوصل إلى النتائج التالية التي صدرت عن المؤسسة المتخصصة بمتلازمة الذاكرة المزيفة:

يمكن للناس أن يملكوا ذاكرة مزيفة.

- تحت بعض الظروف الخاصة يمكن للأفراد أن يأتوا بأشخاص آخرين يتيح لهم ذلك تذكر أشياء لم تحدث إطلاقاً.

- لا تعمل الذاكرة كشريط تسجيل، فالأشخاص يخزنون أحداثاً ويعيدونها ثانية على أنّها نسخة حقيقة وطبق الأصل عن الأحداث السابقة.

- إنّ مايتم استعادته في الذاكرة يرتبط جزئياً بالحالة الانفعالية للفرد وباهتمامه وميوله. فما يتذكره الناس يعتمد على الأشياء التي يفكرون بها حالياً وبالانفعالات التي يعيشونها.

- يمكن للشخص أو للمتخصص أن يملك توقعات ثابتة وراسخة، ويجاهد من أجل إثباتها وتأكيد صحتها.

- إنّ طريقة طرح السؤال يمكن أن تؤثر بما يتذكره الفرد ويقول بأنه يتذكره.

- إنّ أي شخص وحتى المعالج النفسي، يمكنه أن يفترض، ويفرض أفكاراً على المريض، من دون علم أو معرفة منه.

- التنويم المغناطيسي، وإميثيل الصوديوم، وتفسير الأحلام، وكتب المساعدة الذاتية، جميعها لايمكنها أن تزيد من دقة ما يتم استرجاعه وتذكره.

- الوضوح، والتفصيلات والانفعالات، جميعها لا يمكنها أن تعتبر مؤشراً على صدق ودقة ما يتم تذكره.

- إنّ أكثر الناس لا يتذكرون أي شيء حدث لهم قبل عمر معين أو سن محدد قبل سنتين تقريباً. وأن أيّ تذكر لأحداث تعود إلى ما قبل ذلك التاريخ (لأكثر من سنتين) سيتم تركيبها وستعمل بالاستناد إلى الأحداث الأخيرة التي مرَّ بها الفرد. من هنا يعتبر تذكر أحداث سابقة ومن الطفولة، موضع جدل ونقاش

- يعزى مصطلح الكبت وأنكف إلى

نظرية تتعلق بالإيقاف الفعال للذاكرة وكفها خلال المعالجة النفسية. وقد شدد فرويد على أن الكثير من الاندفاعات والرغبات يتم كبتها ومنعها من الظهور وبالتالي عدم تذكرها. وقد أكد على أن هذه الحالة تمثل مقاومة للعمل العلاجي. ولكن ليس بإمكاننا القول بأن كل ذاكرة تعرضت لصدمة سينطبق عليها هذا الكف والمنع.

الجدل حول الذاكرة الكاذبة:

يتركز الجدل حول الذاكرة في النقاط التالية: هل الذاكرة معصومة عن الخطأ؟ وهل يمكن للعلاج أن يحسن من ذاكرة الأفراد الذين أسيئت معاملتهم؟ ثم، هل العلاج يساعد أو يؤذي المرضى الذين تعرضوا لصدمة سوء المعاملة؟

هل الذاكرة عرضة للخطأ؟

إنَّ الجدل المتعلق بدقة الذاكرة بحاجة إلى مزيد من الفهم في سياق النظرية العامة للذاكرة. إنَّ المدافعين عن نظرية الأثر في الذاكرة trace theory يعتبرون أن الذاكرة البشرية تمثل نسخة مطابقة قليلاً أو كثيراً للحدث. ووفقاً لذلك تعتبر الذاكرة بمثابة شريط فيديو أو كاميرا سينمائية، وأنه يمكن العودة إليها.

بدءاً من العمل الأولي والمشهور لبارتيلت حول تذكر السرد القصصي المركب (١٩٣٢م) والذي ظهر ثانية في نظرية معالجة المعلومات المعاصرة حول الذاكرة، فقد سيطرت النظرية البنائية منذ عام ١٩٧٠م. ويؤكد أصحاب النظرية البنائية على أنه في كل وقت يوجد شيء ما يتم تذكره، وهذا الشيء يعاد تركيبه وبناؤه. وبينما يمثل التذكر الناجح كسباً في الذاكرة، فإنَّ بعض التفصيلات ستكون مختلفة تماماً في كل مناسبة.

من جهة ثانية، فقد اعتمد عدد من علماء النفس على نظرية الأثر Trace Theory في الذاكرة، كما في كتاب عنوانه «الذاكرة المتحررة أو غير المقيدة» Unchained Memory الذي يتضمن الدفاع عن جوهر نظرية الأثر في الذاكرة المصدومة أو التي تعرضت لصدمة، ومع ذلك فإنَّ هنا اتفاق على أنَّ تذكر التفصيلات المتعلقة بالأحداث يتشوه ويتأثر بعمل آليات الدفاع النفسية، كما أن واحداً من كل ثلاثة من المعالجين النفسيين الذين درسهم في قائمة مسح، يعتقدون بأنَّ الذاكرة تخضع للوظائف العقلية التي تشبه الكمبيوتر، وأنَّها تخزن الأحداث بدقة كما تحدث فعلاً في الواقع. وقد انتقد (كيليستروم) المعالجين النفسيين الذين يعالجون الأفراد الذين تعرضوا للصدمات النفسية والذين يعتقدون بأن الذاكرة الرضية (التي تعرضت للصدمة)

يتم إثارتها وبَعثها عن طريق مثيرات خارجية، بحيث أن مفهوم الإثارة يتضمن نظرية الأثر. وقد قال «إنَّ الذاكرة لا تحرض أو تثار إطلاقاً، ولكن يعاد بناؤها وتركيبها»، (Kihlstrom، ١٩٩٣).

يوافق عدد كبير من العلماء على نظرية إعادة البناء الجزئي للذاكرة، ووفقاً لهذه النظرية فإنَّ الخبرات والتجارب الشخصية الهامة يتم استرجاعها بدقة أمَّا التفصيلات الهامشية فليست كذلك، ويتفق عدد كبير من المعالجين على هذه لنظرية (Bass and Davis، ١٩٩٤).

إنَّ الجدل بين أصحاب نظريتي الأثر، وإعادة البناء قد أدى إلى موقفين متعارضين. ثم إنَّ أي رأي منهما هو الأوّل ومن الثاني. هل «الذاكرة الكاذبة» أم «الذاكرة التي عولجت وشفيت».

لقد سيطر تقويم دقيق للبحوث العلمية والدراسات الإكلينيكية المتعلقة بهذا السؤال. وقد حدا ذلك بالعلماء إلى القول إن هاتين النظريتين وهذين النوعين من الذاكرة ليستا متعارضتين، ولكنهما بدلاً من ذلك نوعان مختلفان للذاكرة.

إنَّ الكثير من الأدلة التي تدعم النظرية البنائية في الذاكرة قد أتت من الدراسات التي أجريت على معالجة الذاكرة السوية وخاصة تلك التي أجريت على طلبة الجامعات. وبذلك فإنَّ هذه النتائج لايمكن تعميمها على المرضى الذين يعانون من اضطرابات الشدة النفسية بعد الصدمة.

كما أنَّ جوهر نموذج معالجة المعلومات للصدمة الذي وضعه العالم هورويتس، هو أنَّ الصدمة بالتعريف، اضطراب وتشويه للمعالجة السوية للمعلومات، وبذلك فإنَّ الذاكرة التي تعرضت للصدمة قد جمدت مع الوقت. وتدعم الدراسات البيولوجية – العصبية وجهة نظر هورويتس بأنَّ الذاكرة الرضية يتم معالجتها بشكل مختلف عن معالجة الذاكرة السوية (Bremner، ١٩٩٥).

إنَّ الجدل المتعلق بمدى دقة أو عدم دقة الذاكرة، يمكن إيجازه في قضيتين أساسيتين:

١- خطأ الذاكرة the fallibility of memory

٢- قابلية الذاكرة للإيحاء the suggestibility of memory.

وبذلك يمكن أن نقول إنَّ الذاكرة البشرية عرضة لما يسمى أخطاء الإهمال والفقدان (وهو خطأ الذاكرة fallibility) وأنَّها عرضة لأخطاء العمل والتفويض (القابلية للإيحاء).

هناك عدد من الأدلة التي تدعم قابلية الذاكرة للخطأ والإهمال، وخاصة تلك

الأدلة القادمة من دراسة العلاقة بين عمل الذاكرة والإثارة الانفعالية. وفيها يتم تعريض الشخص لمواقف إثارة انفعالية ولمواقف عدم إثارة، ثم يتم قياس وتقويم ذاكرته. وقد تبين وجود فروق هامة بين ذاكرة الذين تعرضوا لمواقف الإثارة وبين الذين لم يتعرضوا لهذه المواقف. وبالاستناد إلى النظرية البنائية فقد أظهرت النتائج أنَّ نقصان أو زيادة عمل الذاكرة ضمن ظروف الإثارة الانفعالية مرتبط بالقدرة على الضبط أو التحكم.

وعلى الرغم من الاتفاق على أنَّ الإثارة الانفعالية تؤثر في عمل الذاكرة، سواء زيادة أو نقصان في التفصيلات الأصلية، فقد تمَّ الاستشهاد بهذه المعطيات عند دراسة شهادة شهود العيان في القضاء، وأنَّ الذاكرة ضمن ظروف الإثارة الانفعالية أو الصدمة النفسية عرضة للخطأ.

وبكلمة أخرى فإنَّ العلماء المختصين بدراسة الذاكرة يؤكدون على أنَّ مواقف الإثارة الانفعالية والصدمات النفسية تجعل الفرد عرضة للخطأ والإغفال كأن يتذكر القليل من المعلومات عن الحادث. وشدد بعضهم الآخر على أنَّ هذه المواقف قد تجعل الشخص يتذكر الكثير من التفصيلات الخاطئة (خطأ القابلية للإيحاء). ويذكر لينسي وريد أننا نحن الأسوياء في الحالات الطبيعية كثيراً ما نرتكب أخطاء في الذاكرة الذاتية (السيرة الذاتية) حتى من دون تعرضنا لمواقف انفعالية. وقد رجع لوفوتس إلى فقدان الذاكرة الطفولية ليبين أنَّ الراشدين الذين عولجت ذاكرتهم بسبب أحداث معينة، يعودون ثانية إلى سنوات مبكرة لمعرفة الأحداث التي تعرضت للنسيان.

إنَّ جوهر هذا الجدل بين العلماء المتخصصين بدراسة الذاكرة هو أنَّ المعالجين النفسيين الذين يعالجون اضطرابات الذاكرة والأفراد الذين أسيئت معاملتهم، هو أنَّ المعلومات عن الأحداث الماضية موضع تساؤل، وخاصة ما يتعلق بالذاكرة الذاتية أو السيرة الذاتية المعرضة للخطأ والتحريف.

ولكن يقع على عاتق هؤلاء المتخصصين التأكد من الحقيقة التاريخية لما يتذكرونه من أحداث خلال المعالجة. من جهة أخرى فقد وجد لوفيتس أنَّه لا توجد علاقة بين الاعتقاد بالذاكرة وبين دقتها أو عدم دقتها، فالمفحوصون لا يملكون اعتقادات قوية حول الذاكرة غير الدقيقة فقط، بل يرفضون أيضاً، تقبل فكرة أنَّ الذاكرة كانت خاطئة حين قدمت لهم تغذية راجعة عن عمل ذاكرتهم.

من جهة أخرى فإنَّ المدافعين عن دقة الذاكرة التي تعرضت للصدمة يؤكدون أنَّ

معظم النتائج التي تمَّ التوصل إليها كانت مستمدة من دراسات أجريت على طلبة الكليات والذين شاهدوا أفلاماً وأشرطة، وأنَّ هذه النتائج لايمكن تعميمها على المرضى المصابين باضطراب الشدة النفسية ما بعد الصدمة. بل إنَّ بعض هذه الدراسات توصل إلى نتائج معارضة تماماً حين تبين أنَّ هناك زيادة في عمل الذاكرة خلال المواقف الانفعالية وخاصة الحدث الضاغط.

وبالمقابل لايمكن الافتراض من خلال المعطيات المتاحة أنَّ الذاكرة عرضة للخطأ، وربما يكون الأمر كذلك (Brown، ١٩٩٥). ويؤكد هؤلاء أنَّ ذاكرة الأفراد الذين تعرضوا إلى سوء المعاملة، تكون ثابتة مع الوقت وأنَّه يتم استعادتها بدقة حتى لو تعرضت بعض التفصيلات للتشويه، فالذاكرة العادية عرضة للخطأ. وأنَّ معظم الدراسات التي أجريت على الذاكرة كانت مقيدة بإجراء قياس عمل الذاكرة بالنسبة للتفاصيل الصغيرة وليس بالنسبة للأحداث المهمة.

إنَّ عدم الاتفاق يتركز على ثلاث نقاط:

١- الجدل الذي لم يحل «unresolved debate» حول المعدل الأساسي للنسيان أو فقدان الذاكرة الناتج عن صدمة نفسية. ففي بعض الدراسات التي أجريت على الأطفال الذين تعرضوا إلى سوء المعاملة الجنسية تبين أنَّ معدل فقدان الذاكرة الجزئي أو الكلي لدى هؤلاء الأطفال قد بلغ بحدوده الدنيا ٤،٥٪ وحدوده العليا ٨٢٪ في الدراسات المختلفة. وبغض النظر عن صعوبة الحصول على درجات دقيقة عن فقدان الذاكرة الناتج عن الصدمات النفسية في الدراسات المختلفة، إلا أنَّ كل دراسة قد أكدت على فقدان ذاكرة لدى المرضى الذين تعرضوا لها.

٢- النقطة الثانية، تتعلق بعدم الاتفاق على تعريف فقدان الذاكرة، وخاصة أنَّ التقارير التي تتعلق بهذا الموضوع تمتد عموماً على طول خط متصل من فقدان الذاكرة الكلي إلى فقدان الذاكرة الجزئي، والذي يأخذ عدة أشكال: الأوّل، استرجاع ذاكرة بعض الذين تعرضوا إلى سوء المعاملة، ثم استرجاع ذاكرة الآخرين في وقت لاحق.

والشكل الثاني: الذاكرة التي تتجزأ حول أحداث معينة ونوعية.

والشكل الثالث: إعادة جمع معطيات ذاكرة من دون أي تأثير انفعالي أو من دون أية علاقة مع أعراض واضطرابات نفسية، حتى الوصول إلى عدم وجود فقدان للذاكرة. ويستخدم المدافعون عن الذاكرة المزيفة والكاذبة مصطلح الكف والكبت بدلاً من مصطلح فقدان الذاكرة الناتج عن صدمة.

٣- هناك عدم اتفاق حول آليات فقدان الذاكرة، والتي تمتد هي أيضاً، على طول

خط متصل، من الكف والكبت، إلى التفكك dissociation، إلى النكران denial، إلى التجزئة والانقسام splitting ثم النسيان العادي. إنَّ المدافعين عن الذاكرة الكاذبة، يرجعون الجدل إلى ما يسمى الكبت الخطير أو الكبت الشديد. ويذكروننا بأنَّ الفشل في تذكر الصدمة إنَّما يرجع إلى هذا الكبت والكف وليس إلى عوامل بيئية أو عوامل خاصة بالنمو، وأحياناً أخرى تكون ببساطة، مجرد نسيان عادي للأحداث، أو تجنب مدفوع.

وتعرف فرضية الكبت، هذا المصطلح بأنَّه «فقدان تام إرادي أو انتقائي لتذكر خبرات تتعلق بصدمة نفسية أو أحداث ضاغطة مع عدم الشعور أو المعرفة بأن الذاكرة المتعلقة بهذه الأحداث مفقودة» إنَّ المعارضين لهذا الاتجاه ينظرون إلى الكبت الشديد بشكل مختلف تماماً عن نظرة مؤيدي فقدان الذاكرة الناتج عن الصدمة.

يوضح عدد من العلماء أنَّ آليات الدفاع الأولية، التي يعتبر الكبت والكف أحد أنواعها، تعمل كسبب لفقدان الذاكرة الخاص بالصدمة. ويشير (تير) إلى أنَّ الكبت، والنكران، والكظم أو الكف، والتفكك، والإبدال أو الإزاحة، والانقسام، والنسيان البسيط، تساهم جميعها في فقدان الذاكرة الخاص بالصدمة (Terr، ١٩٩٤). وقد شرح (سيجل) كيف أنَّ آليات الانقسام والتفكك تساهم في فقدان الذاكرة المتعلق بالصدمة.

بينما يعتقد بعض المؤيدين للذاكرة الكاذبة، «أنَّ الجدل الجوهري يعود إلى صدق مفهوم الكبت»، فإنَّ المدافعين عن دقة وصحة الصدمة أو الرضة يشددون على أنَّ هذا الوضع الاختزالي يبسط تنوع العوامل المساهمة في فقدان الذاكرة المتعلقة بالصدمة.

هل الذاكرة قابلة للإيحاء؟

يتعلق الجدل الآخر الخاص بصحة الذاكرة ودقتها، حول قابلية الذاكرة للإيحاء suggestibility of memory.

إنَّ المدافعين عن الذاكرة الكاذبة، يقولون إنَّ بعض المرضى قابلون للإيحاء، وأنَّ الاختصاصيين الذين يعالجون المرضى من الذين تعرضوا إلى سوء المعاملة، بحاجة إلى أن يكونوا أكثر وعياً وتنبهاً لآثار الإيحاء العملية في العلاقة العلاجية. وقد يوحي المعالج أو الباحث بأحداث وأشياء لم تحدث إطلاقاً في الحياة الواقعية للشخص.

ويرى الخبيران سيسي ولوفتس حول قابلية ذاكرة الأطفال والراشدين للإيحاء، إنَّ «الذاكرة من دون أحداث، ليس نادراً» وخاصة إذا كانت المعلومات الموحى بها

والكاذبة قد كررت وأعيدت لمرات. إنَّ جوهر الجدل الذي يستند إليه المدافعون عن الذاكرة المزيفة هو أنَّ المعالجين النفسيين قد يدخلوا أو يغرسوا implant معلومات وذكريات كاذبة في مرضاهم، وأنَّ هؤلاء الأخيرين يعتقدون بصحتها وأنَّها حدثت لهم في الماضي. ويشدد (لوفتس وكيتشمان) أن هذه الذكريات الكاذبة تأتي من مصدرين: العلاقة العلاجية، والمواد التربوية مثل الكتب، والمحاضرات، وأخبار الإعلام، على الرغم من أنَّ بعضهم يقول بأنَّ الدور الإيحائي الذي تلعبه كتب المساعدة الذاتية، يفوق غيرها من المصادر.

تقدم النتائج التي تمَّ الحصول عليها من عدد من البحوث المتعلقة بقابلية الذاكرة للإيحاء، الكثير من الأدلة على أنَّ العمل العلاجي يغرس في ذاكرة الأفراد الذين تعرضوا لسوء المعاملة أحداثاً ومواداً تأتي من ثلاثة مصادر:

المصدر الأول، هناك كمية كبيرة من الدلائل على قابلية تعرض المعلومات المتعلقة بالأحداث السابقة- للإيحاء. ويشدد لوفتس على أنَّ الأطفال والراشدين قد أظهروا ذلك في الكثير من الدراسات. وقد حاول مع عدد من العلماء الآخرين تعميم هذه النتيجة على المعالجة النفسية وخاصة معالجة الذاكرة، مشددين على أنَّ هؤلاء المعالجين الذين يسألون المرضى غير متأكدين أو لا يعلمون أنَّهم يغرسون أفكاراً في ذهن مرضاهم عن أمور لم تتحقق أبداً. والخطر من وراء هذه الإيحائية كبير جداً وخاصة بالنسبة للمرضى أو الأفراد الذين تعرضوا لسوء المعاملة خلال حياتهم السابقة، (Loftus، ١٩٩٤).

المصدر الثاني لقابلية تعرض الذاكرة للإيحاء يأتي من التنويم المغناطيسي. فالمفحوصون الذين يخضعون لطريقة المعالجة بالتنويم المغناطيسي يوافقون ويتقبلون الأفكار التي يتم اقتراحها وعرضها عليهم أثناء الجلسات التنويمية، ويقتنعون فيما بعد بحدوث مثل هذه الإيحاءات الكاذبة أو المصطنعة على أنَّها حقيقة واقعة. وتسمى هذه الظاهرة: إنتاج الذاكرة الكاذبة تنويمياً hypnotic pseudo memory production. ويجادل المؤيدون للذاكرة الكاذبة بأن استعمال التنويم المغنطيسي مع الأفراد الذين تعرضوا إلى سوء المعاملة، يغرس في أذهانهم ذكريات وأفكاراً كاذبة.

المصدر الثالث لقابلية تعرض الذاكرة للإيحاء يأتي من الدراسات التي أجريت حول طريقة الاستجواب، وكذلك الإقناع القسري والذي يعرف بأنه غسيل المخ أو إعادة تشكيل الفكر والعقل. ويؤكد المدافعون عن الذاكرة الكاذبة بأن طرائق

الاستجواب التي يجريها البوليس وغيرهم تستخدم تقنيات وآليات إكراهية وقسرية، تمتد من برامج إعادة تشكيل الفكر إلى التحكم بالعقل لدى الجماعات الدينية والسياسية والعلاجية. ومن هذه المعطيات يؤكد أصحاب الذاكرة الكاذبة أنّ معالجي الذاكرة يستعملون عدداً من التقنيات التي تجمع بين التنويم المغناطيسي وتقنيات التأثير الاجتماعي لإقناع المرضى أو المفحوصين بتقبل معتقدات وأفكار أو ذكريات لم تحدث إطلاقاً (Olshe and Watters، ١٩٩).

بغض النظر عن هذه المصادر لقابلية تعرض الذاكرة للإيحاء، فإنّ المدافعين عن الذاكرة الكاذبة يؤكدون أنّ المعالجين النفسيين يغرسون في أذهان مرضاهم وذكرياتهم معلومات وأفكاراً كاذبة. إلا أنّ المؤيدين لصحة الذاكرة ودقتها على العكس من ذلك، فإنّهم يشددون على أنّه قد يتم غرس أفكار وذكريات معينة وغير صحيحة في ذهن المفحوصين، ولكن هذه الحالة ليست عامة ولا يجوز تعميمها على العلاج النفسي، وخاصة أنّه حتى الآن لا توجد دراسات حول تأثير الإيحاء في العلاج كما يقول براون (Brown، ١٩٩٥).

الأمر الثاني: بينما يؤكد المدافعون عن الذاكرة الكاذبة، إمكانية غرس أفكار وذكريات غير حقيقية، (تكوين أحداث كاملة(، كما يقول لوفتس Loftus، تخيل سيناريوهات مركبة بالكامل كما يقول سبانوس Spanos ، أو ذكريات كاذبة بكاملها، كما يقول Ofshe and Watters، فإنّ المدافعين عن صحة الذاكرة ودقتها وصحة تعرض أصحابها للصدمة، يقولون بأنّ معظم المعطيات والنتائج، على الأقل المتعلقة بخطأ المعلومات، تقود إلى إيحاءات معينة ولكن فقط بالنسبة للتفصيلات الهامشية وليس بالنسبة للمعلومات أو الأفعال المركزية أو الحقائق المركبة، وفوق ذلك فإنّ تصميم البحوث المطبقة حول تعرض الذاكرة للإيحاء قد وجدت أنّ هذه الآثار ليست قابلة للتعميم على جلسات العلاج والإيحاء العلاجي.

من جهة أخرى، فإنّ المدافعين عن صحة الذاكرة ودقة الرضة أو الصدمة التي تعرض لها المصابون باضطراب الشدة ما بعد الصدمة، يؤكدون أن العبارات المتعلقة بـ «ابتداع الذاكرة memory creation» أو «غرس الذاكرة في الذهن» تحدث تشويهاً أو سوء تمثيل البحث على قابلية المعلومات للإيحاء. وقد بينت معطيات عدّة أن النظرة القائلة بأنّ تمثل الذاكرة الأصلي يتبدل جذرياً بالإيحاءات التالية للحدث، هي نفسها نادرة الحدوث وضعيفة، مع أنّ هذه التغيرات قد تحدث أيضاً مع الجماعات

الفرعية والصغيرة من المرضى تحت ظروف معينة. إنَّ النقطة الأساسية التي يركز عليها المدافعون عن الذاكرة الكاذبة هي أنَّ الموقف العلاجي يبتدع أفكاراً وذكريات أحياناً، وربما لاتكون كاذبة بحد ذاتها. إلا أنَّ هذا القول غير ناضج ومبالغ به بالاستناد للمعطيات المتاحة. ومن الأفضل أن تكون الأسئلة مصاغة بشكل آخر أكثر فائدة، كمايلي:

نموذج الذاكرة الكاذبة أو المزيفة (المصطنعة):

هناك اتفاق عام حول الطريقة التي يمكن من خلالها للمعالج النفسي أن يوجد ويبتدع ذكريات كاذبة في الأفراد الذين أسيئت معاملتهم. وهناك نموذج ثابت في الآداب المتعلقة بالذاكرة، حول الآليات التي يمكن من خلالها للمريض أن يعتقد بالذكريات التي لم تحدث أبداً. ويتضمن النموذج سداسي الأجزاء حول الذاكرة الكاذبة العناصر التالية:

إيحاءات عن سوء المعاملة Suggestion of abuse

معتقدات المعالج Therapist's beliefs

التحيز المؤكد Confirmatory recovery

شفاء الذاكرة memory recovery

تقنيات نوعية في معالجة الذاكرة Specific memory recovery techniques

طرائق العلاج بالإيحاء Suggestive therapy procedures

سوف نتحدث عن كل عنصر من هذه العناصر باختصار:

إيحاءات عن سوء المعاملة:

كما تبين، فإنَّ عملية الإيحاء تبدأ أثناء جلسات التقويم التشخيصي والتقدير الأوّلي، حيث يقوم المعالج بالإيحاء للمفحوص عن سوء المعاملة، سواء بشكل صريح من خلال تفسير بعض الأعراض أو العلامات، أو ضمنياً من خلال تشخيص الحالة على أنَّها اضطراب الشدة النفسية بعد الصدمة.

إنَّ الكثيرين من المدافعين عن الذاكرة الكاذبة، حذرون في قولهم إنَّ مثل هؤلاء المعالجين يقدمون إيحاءات عن سوء المعاملة من دون قصد. وبينما يمكن للمعالج أن «يوحي بأفكار من دون قصد منه، ومن دون إرادته» وقد يوحي بذلك «من دون أن يكون على دراية ووعي بذلك»، يبقى المريض في كل الحالات، قد اقتيد بطريق خاطئ. وقد قال (يابكو): «يقدم المعالج إيحاءات هدفها خير المفحوص، على شكل معتقدات ثابتة

بأنه سوف يساعده، مما يدفعه ليعتقد بأنَّ سوء المعاملة قد حصلت وأن قدم سوء المعاملة هو التفسير الصحيح الذي يبرر الأعراض التي يعاني منها».

حين يتواصل المعالج مع مريض لم يتعرض مسبقاً لسوء المعاملة، ويعامله على أنَّه كذلك فعلاً، فإنَّ هذا يمثل أثراً مبدئياً بحيث أنه «يوجه انتباه المريض لتبني ذلك adopt abuse باعتباره إطاراً مرجعياً لتفسير المعلومات» كما يقول فيكتور (Vector، ١٩٩٤). ويؤكد (فرانكل) أنَّ مسألة الذاكرة الكاذبة هي نتيجة «للبحث المقصود والهادف عن قدم وتاريخ مثل هذه الصدمة». إنَّ مثل هذه الفكرة تصبح بمثابة الحدث الواضح الذي يفسر الأعراض المرضية والخبرات الانفعالية المنظمة لدى المريض.

معتقدات المعالج:

يعتبر المرضى مؤهلين وعلى استعداد لتبني فكرة سوء المعاملة، باعتبارها إطاراً مرجعياً للمعالج الذي يملك محددات واضحة حول الاضطرابات النفسية، أو مجموعة من المعتقدات الخاطئة عن سوء المعاملة والصدمة. ويقول بعضهم إنَّ استعمال مثل هذه الإيحاءات شائع، وخاصة لدى المعالجين الذين تعرضوا لسوء المعاملة في حياتهم. وبالنسبة لهؤلاء المعالجين يعتبر سوء المعاملة سبباً للكثير من مشكلات الراشدين، وأن دليل حدوثها يظهر من خلال الكبت الكامل لكثير من الذكريات.

يطبق الكثير من المدافعين عن الذاكرة الكاذبة «معتقدات المعالج» على أنَّها تلعب الدور المركزي في عملية الإيحاء خاصة حين يملك المعالج بعض ما يشير إلى حدوث ذلك فعلاً. ويوضح العالم (يابكو)، أنَّه حين يملك المعالج معتقدات غير متذبذبة unwavering فإنَّه بطريقة أو بأخرى سينقلها إلى المريض. ويؤكد (أوشي وونرز)، «أن معتقدات المعالج هي التي توجه المعالجة».

كيف يمكن لمعتقدات المعالج الثابتة عن سوء المعاملة أن تساهم في إيجاد ذاكرة كاذبة ومزيفة؟ يكون ذلك عن طريق إقناع المريض بقبول رأي المعالج على أنَّه حقيقة واقعة.

ويشدد الكثير من مؤيدي الذاكرة الكاذبة أنَّ معتقدات المعالج تلاقي القبول من خلال تغيير الاتجاهات والإقناع خاصة وأنَّ هذه الأفكار صادرة عن شخص ذي مكانة وموثوق به، ومركز سلطة في الوقت نفسه والذي يعمل لخير المريض.

شفاء الذاكرة:

العنصر المركزي الرابع في نموذج الذاكرة الكاذبة هو «شفاء الذاكرة» الذي

يقود إلى ذكريات كاذبة عن سوء المعاملة. ولشفاء الذاكرة تعريفات عامة وخاصة. فالتعريف العام يقدمه (سيسي ولوفيتس) حين يرجعون إلى «عمل الذاكرة» باعتباره الطريق المنطقي لحدوث الذاكرة الكاذبة. أمَّا (فرانكل) فيرجع إلى التقنيات العلاجية ليبين أن شفاء الذاكرة هو «تشجيع ثابت من أجل استرجاع الأحداث السابقة». أمَّا لوفيتس فيتحدث عن «الضغط الداخلي والخارجي من أجل التذكر» لتشجيع وتحريض مخزون واحتياطي الذاكرة. ويشدد هذا العالم على أنَّ تقنيات شفاء الذاكرة تضع العلاج في موضع يركز على إعادة بناء الذاكرة.

التقنيات النوعية في شفاء الذاكرة وعلاجها:

يمكن وضع الكثير من تقنيات العلاج النوعية للذاكرة ضمن نموذج الذاكرة الكاذبة. ويشدد أصحاب هذا الاتجاه وخاصة (أوشي ووترز، ١٩٩٤م) في انتقادهم لهذه التقنيات على أنَّها «تستعمل بشكل مكثف التنويم المغناطيسي، وعمل الأحلام وتفسيرها، والتخيل الموجه، والتي تشجع الظن والتخمين والتأمل» كما أنهم يصفون العملية التي يساعد من خلالها المعالج مرضاه على تخيل منظر سوء المعاملة. والنتيجة التي ستكون من وراء ذلك هي «تشويه مؤكد وفعال لقدرة المريض على التمييز بين ذاكرة الأحداث وذاكرة التخيلات» ويؤكدون أنَّ الاستعمال المكثف لبعض التقنيات مثل التنويم المغناطيسي، وتفسير الأحلام، والتخيل الموجه، والذاكرة الجسمية body memory تعمل على إيجاد تأثير إيحائي قوي.

تقنيات العلاج بالإيحاء:

العنصر السادس والأخير في نموذج الذاكرة الكاذبة هو تقنيات العلاج بالإيحاء. يصف (يابكو) من خلال ممارسته للتنويم المغناطيسي كيف أن افتراضات المعالج المسبقة تؤدي وظيفة الإيحاءات غير المباشرة. وأحياناً يكون المعالج بعض الإيحاءات التي تتيح للمريض أن يسد نقصاً fill in the blanks في موضوع ما. كما يبين بعضهم كيف أن إعادة تكوين الأفكار تحدث إيحاءات صريحة عن سوء المعاملة. وبالتالي فإنَّ علاج الذاكرة يشبه غسيل المخ، من خلال الإقناع القوي بما يتضمنه ذلك من ضغط بين شخصي تبادلي أو إشاعة من طراز قديم.

ويشدد (أوشي) على أن اجتماع التنويم المغناطيسي مع تقنيات أخرى ذات تأثير اجتماعي، مثل تقنيات الاستجواب، تقود إلى إنتاج ذاكرة كاذبة، خاصة إذا كانت الإيحاءات من النوع الذي يعاد تأكيد قوته.

ويصرح المرضى بأنهم «قد تمثلوا فكرة سوء المعاملة، وإعادة توضيح وفهم حياتهم السابقة وفق هذه الفكرة» ويعيشون الآن على أنهم أصحاب تجارب سابقة في سوء المعاملة.

على العكس من ذلك، يؤكد المدافعون عن صحة الذاكرة ودقتها، أنه لا توجد دراسات علمية عن التأثير الإيحائي للعلاج النفسي (Brown، ١٩٩٥)، وأن الحجة الكاملة التي يعتمدون عليها تستند إلى أدلة غير مباشرة، وبالتالي فهي تأملية فقط.

هل يسبب المعالجون أذىً وضرراً؟

الحجة الأخرى التي يعتمدها المدافعون عن الذاكرة الكاذبة، هي أن المعالجين النفسيين الذين يوحون بسوء المعاملة التي لم تحدث أبداً، يمكنهم أن يتسببوا بضرر وأذى ولكن من دون سوء نية. وقد شدد البعض على أن الألم الانفعالي في علاج الذاكرة هو بحد ذاته مؤذ. ويقول Dawes (١٩٩٤م) إن الآثار الناتجة عن التأكيدات التي لا مبرر لها أو المزعومة unwarranted assertions حول سوء المعاملة الجنسية في الطفولة، يمكنها أن تضعف ثقة الناس باستقلاليتهم وذاتيتهم، كما أنها تعزز لديهم مشاعر عدم الكفاءة. ثم عن نزعة التحويل المضاد للاعتقاد بذكريات سوء المعاملة على أنها حقيقة ماضية، يبعد الانتباه عن العمل من خلال التحول. ويشجع المعالجون مرضاهم على التعبير عن ذكرياتهم الوهمية حول سوء المعاملة من قبل أفراد الأسرة من أجل مواجهة مرتكبيها داخل أو خارج المحكمة (Yabko، ١٩٩٤). ويقول Dawes (١٩٩٤م): «حيث يكون هناك تعلم للوم، أو لكره شخص ما يكون هناك علاجاً».

يعتقد بعض المدافعين عن صحة الذاكرة والصدمة، أن المواجهة مع المرتكب المزعوم يعتبر شرطاً ضرورياً للعلاج. وإنه في الكثير من الحالات يتم تشجيع المواجهة أو القطع والإيقاف المفاجئ الذي يحدث أذىً وضرراً أكثر مما يحدث أثراً إيجابياً، لأن المرضى في مثل هذه الحالة يكونون قد عاشوا الصدمة مرة ثانية. ويعتبر الكشف والإفصاح disclosure غير مفيد كمحاولة من أجل توضيح الذكريات، وكثيراً ما يمثل الكشف غير الناضج مقاومة للعمل العلاجي. لذلك كثيراً ما يتحفظ المعالجون النفسيون حول المواجهة أو الإيقاف المفاجئ.

التمييز بين التقارير الصادقة وغير الصادقة:

إن من الصعب تقويم حالة سوء المعاملة بالاستناد إلى ذكريات سوء المعاملة التي تمَّ علاجها. وينتقد مؤيدو الذاكرة الكاذبة،

المعالجين النفسين الذين يستندون إلى مجرد أقوال مرضاهم عن الحدث، ليعتبروا ذلك على أنَّه حقيقة واقعة. ويؤكدون بأنَّ الشك يجب أن ينتابنا حين يبني المعالج النفسي معتقداته على المعايير التالية:

١- حقيقة أن الذاكرة قد تحسنت من خلال الظروف الخارجية وأنَّه لا تتضمن استرجاعاً مباشراً وواعياً.

٢- الانفعالية في تفصيلات الذاكرة، والثقة بها، ووضوحها.

٣- حقيقة أنَّ الذاكرة قد تمَّ إحياؤها واسترجاعها عن طريق تقنيات المعالجة النفسية

كيف يمكننا أن نقرر ما إذا كانت الذاكرة التي شفيت وصرحت بهذه التعبيرات، على أنَّها صحيحة أو كاذبة. ويشدد هؤلاء على أنه من الخطأ الافتراض بأنَّ «هناك بعض المعايير لقياس الحقيقة وكشفها، ضمن الكثير من القضايا المزعومة التي يكون مبالغاً بها أو مشوهة». وقد أجرى سيسي (١٩٩٤م) دراسة بين فيها أنَّه حتى الخبراء في العلاج النفسي والقانون، غير قادرين على التمييز بين تصريحات الذاكرة الكاذبة وتصريحات الذاكرة الحقيقية. ولذلك يشدد أصحاب الذاكرة الكاذبة على أنَّ الذكريات التي تمت معالجتها يجب أن تؤخذ بجدية حتى يكون هناك تعاون مستقل وغير تابع.

عموماً، إن حل صدق الذاكرة، ليس العمل المركزي أو الضروري في العلاج. ويرى المعالجون وعلماء النفس أنَّ دورهم في مساعدة المرضى على الإحساس والشعور بالأعراض التي تضايقهم وتقلقهم، وتكوين «حقيقة قصصية» ربما لاتكون متناسبة ومتجانسة مع الحقيقة التاريخية. إنَّ مساعدة المرضى في تكوين الوعي بذكريات سوء المعاملة، لها فائدة إكلينيكية، حتى لو لم يكن التصريح حقيقة كاملة. وتحدث المشكلة الحقيقية عندما يأخذ المريض فعلاً مشروعاً أو سوء معاملة مكشوفة لدى العامة، وبذلك تقوى القضية المتعلقة بالصدق.

الخلاصة: ما هو الشيء المشترك بين التقارير والمواقف التي صرحت بها الجمعيات والروابط العلمية المتخصصة؟

أولاً - ترفض جميعها موقف الذاكرة الكاذبة أو المزيفة، التي تبين أنَّ الذاكرة المكبوتة غير موجودة.

ثانياً - يوافق الجميع على أنَّ موقف الذاكرة الكاذبة القائل بأن المعالجين النفسيين قد يؤثرون بشكل جوهري في ذكريات مرضاهم، وأنَّه يجب عليهم أن يكونوا حذرين ومقاومين لمثل ذلك، خاصة حين التعامل مع الأطفال الذين تعرضوا لصدمة سوء المعاملة الجنسية.

ثالثاً - يشدد الجميع على أنّ على المعالجين النفسيين ومنذ البداية، أن يدعموا الحاجات العقلية لمرضاهم بغض النظر عن صحة ما يقولونه حول سوء المعاملة.

رابعاً- يبين الجميع أنّ التصريحات والعبارات السياسية التي يطلقها كلا الفريقين تتجاوز ما تقوله لنا الآداب والبحوث العلمية، وأنّها لاتمثل هذه البحوث والآداب أصلاً.

خامساً- يؤكد الجميع على ضرورة مواصلة الدراسة في هذه القضايا الهامة والحساسة.

المراجع

١- زياد القطب وأحمد الكفراوي (١٩٩٩م) الانفعال والذاكرة وارتباطهما بالدماغ. مجلة العلوم، المجلد١٥٩ العددان: ٢، ٣. الكويت.

٢- محمد عبد الله (٢٠٠٣م) سيكولوجية الذاكرة. مجلة المعرفة. العدد٢٩٠، الكويت.

٣- محمد قاسم عبد الله (٢٠١٢م) مدخل إلى الصحة النفسية. دار الفكر، عمان.

٤- مصطفى بصل (١٩٨٦م) علم النفس الفيزيولوجي. منشورات جامعة دمشق.

٥- كيرلاند مايكل وريتشارد لوبوف (٢٠٠١م) كيف تقوي ذاكرتك. دار الفاروق للنشر: مصر.

6- Alpert,J.(1987). Trauma, dissociation and clinical study as responsible beginning, Consciousness and cognition, 4, 124129-.

Armstrong,L.(1994). Rocking the cradle of sexual politics.MA; Addiction-Wesly.

Brown,D. (Sources of suggestion and theier applicability to psychopathology. In Alpert,J.: Sexual abuse recalled (61100-).

مواقع أثرية
في منطقة اللجاة في جنوب سورية

د. خليل المقداد *



في منتصف السبعينيات من القرن الماضي قمت بأول زيارة عمل لبعض المواقع الأثرية في قلب منطقة اللجاة برفقة بعثة أثرية تتبع إلى كلٍ من المعهد القومي للبحوث العلمية الفرنسي وجامعة السوربون الأولى في باريس والمعهد الفرنسي لآثار الشرق الأوسط حيث

* باحث في الآثار.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

كنت باحثاً علمياً فيه. وكان برنامج البعثة يندرج ضمن دراسة المواقع الأثرية في جنوب سورية ومن ثم التنقيب والترميم والدراسة العلمية لهذه المواقع بالتعاون مع المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية.

وفي مطلع القرن الحالي تطور عمل البعثة ليزداد عدد أعضائها وتتشعب مجموعاتها وتتعدد مواقع العمل لتشمل منطقة حوران كاملة بمعنى جنوب سورية التي تتبع إلى محافظات درعا والسويداء ومن ثم القسم الجنوبي من محافظة ريف دمشق ومحافظة القنيطرة. ثم أضيف إلى عمل البعثة دراسة السكان وتطور حوران (سورية الجنوبية) من العصر النحاسي إلى مطلع العصر الإسلامي.

وقد باشرت البعثة الأثرية عملها تحت إدارة البروفيسور جان ماري دانتزر، وكان العمل يتمركز في البداية على التنقيب بشكل جوهري في مدينة بصرى الأثرية وكذلك الحفريات الأثرية في موقع سيع الأثري بالقرب من مدينة قنوات إلى الشمال الشرقي من مدينة السويداء بحوالى ١٥كم. ثم تمخض عن هذا البرنامج تشكيل مجموعة مهمتها متابعة العمل في خربة الأمباشي- والنمارا في القسم الشرقي من منطقة جبل حوران والتي تعرف باسم منطقة الصفا والكراع والتي تعود إلى عصريّ البرونز القديم والوسيط.[1]

وفي ربيع عام ١٩٨٩م عندما كنت رئيساً لدائرة آثار درعا وعلى أثر الزيارات المتكررة للمواقع الأثرية في منطقة اللجاة وخاصة موقع سحر الذي كان يلعب دوراً مركزياً هاماً كمقر ديني وسياسي وإداري لذلك قررنا العمل في الموقع ودراسة المسرح والمعبد الأثري وكذلك دراسة المواقع المجاورة. وعلى إثر ذلك أيضاً وبموجب المقتضيات الضرورية قررنا نقل ما تبقى من المنحوتات والقطع الأثرية التي كانت في موقع المعبد والأبنية المجاورة له إلى مقر المتحف الوطني في مدينة درعا لتتم دراستها وتوثيقها ومن ثم عرضها في المتحف.

منطقة اللجاة[2]: تعتبر منطقة اللجاة جزءاً من جنوب سورية المكون من سهل دمشق المنبسط ومناطق الجولان وحوران بقسميها السهل والجبل والصفا والكراع، وتتميز المنطقة بتكوينها الجيولوجي بأنَّها ذات طبائع متغايرة وغير متجانسة وتشكل تاريخياً قلب بلاد الشام. وتختلف هذه المنطقة عن المناطق الغربية والجنوبية والشمالية من جنوب سورية كونها تمتلك أراضي غنية بالأمطار وتسمح في زراعات صيفية موسمية من قمح وحبوب وخضراوات. كما أنَّ الظروف الطبيعية المختلفة كلياً وبكثرة

جعلت من هذه المنطقة إقليماً ذا طابع مميزة وواضحة، كما أنَّ المنطقة كانت دائماً مختلفة عمَّا يجاورها، ولذلك نجد أن هذا التنوع البيئي كان له تأثير أكيد على طبيعة الاستقرار والاستيطان البشري واستغلال واستثمار الأراضي، وكان هذا الاستقرار والاستيطان دائماً متميزاً بالأصالة والتطور لدى الفئات البدوية والزراعية.(٣)

وتأخذ منطقة اللجاة شكل المثلث ذي الأضلاع المتعرجة حسب موقعها الجغرافي وتكوينها الجيولوجي. بحيث يأخذ طول الوتر أو الامتداد الطولي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حوالي ٧٠كم، وامتداد القاعدة من الشرق إلى الغرب حوالي ٤٥كم.

وقد حرم التشكيل الجيولوجي المنطقة من تواجد السكن القديم بالمقارنة مع ما يحيط بها من مناطق، لذلك جاء إعمارها من قبل العنصر البشري في وقت متأخر يعود وحسب الدراسات الأثرية الحديثة إلى عصور البرونز والنحاس والحديد وغيرها.

وفي العهود الكلاسيكية تزايد النشاط البشري في المنطقة وتشعب كثيراً؛ وكانت بعض هذه النشاطات تشكل عائقاً أمام النهضة العمرانية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي كانت تتمتع بها المناطق المجاورة بما فيها نشاطات السلطات الإدارية المحلية أو على مستوى الممالك والإمارات والإمبراطوريات. لذلك دفعت هذه الأمور تلك الجهات إلى اتخاذ العديد من الإجراءات من أجل درء الخطر القادم من المنطقة من جهة وكذلك لبناء مجتمع مكون من العديد من القرى والمدن يكون صلة الوصل بين السكان داخل منطقة اللجاة والمناطق المحيطة بها. وقد تمحورت هذه النشاطات ضمن ثلاثة منطلقات أساسية على الشكل التالي:

١- إعمار المنطقة من الداخل: لقد نتج عن ذلك بناء العديد من المواقع التي وجدت في مناطق تتوافر فيها سبل الحياة من المكان الآمن والقدرة على بناء المساكن وتوفر المياه وإنتاج بعض المزروعات في المناطق الصغيرة والصغيرة جداً، إلا أنَّها كانت تسد الحاجة في حال الضرورة، وكذلك تساعد على حياة السكان الذين يشكلون مجتمعاً رعوياً وشبه زراعي. يضاف إلى ذلك استغلال الكهوف والمغاور الطبيعية المتواجدة وبكثرة في مواقع متفرقة وبأحجام وأبعاد متباينة على أنموذج مغارة عريقة التي تعتبر الأكبر من بينها حتى الآن.

وقد سكنت العديد من المواقع داخل اللجاة وعلى حوافها وأطرافها من كل الجهات، إلا أننا نلاحظ أن المواقع كانت تتكاثر في منطقة على حساب منطقة

أخرى، ومن هذه المواقع التي وجدت في داخل منطقة اللجاة وفي الوسط تقريباً: داما- ودير داما- كوم أبو سلمى- منارة الشريف. وعلى حافتها الجنوبية الشرقية: دير الأسمر- كوم العزابات- أم العلاق - كوم الرمان- كوم السوان الغربي- كوم الرقة- بورد وبرد سو- جعران- اللبوة- خربة الصوفان- كوم التين- كوم الصوان الشرقي.

ومن الطرف الغربي والشمالي الغربي: - تل محجة- محجة- قيراطة - مسيكة - الزبير والزباير- عاسم- حامر - زبية - صور اللجاة- أيب الجنوبية وأيب الشمالية- كريم الجنوبي وكريم الشمالي وبينهما تل عزيزة- كوم سماح. ومن الحافة الشمالية: المسمية - الطف - شعارة الغربية وشعارة الشرقية- خربة التين- سحر اللجاة وسحر خالكو ومدفن سحر- همان- حوش حماد- قلعة سما -خراب كوسيرات - كوم مرتجلا[٤]- تل براك- المخنج.

أمّا على الحافة الشرقية فنجد القليل من المواقع وهي: خربة المرصرص- خربة كسيفة- رجم العيس- متون- سويمر إضافة إلى بعض المواقع التي لم يتم التأكد من تسمياتها والموزعة على امتداد وادي اللوا المحاذي لمنطقة اللجاة من الجهة الشرقية.

أمّا من الجهة الجنوبية فيحاذيها وادي أبو الذهب حيث أقيمت على مساره بعض المواقع مثل: نجران- مبنى البرج- كفر اللحف.

٢- المسالك والطرقات وطرق تراجان الحربي (فيا تريانا):

نظراً لصعوبة الولوج إلى داخل منطقة اللجاة بسبب تكوينها وتركيبها الجيولوجي لذلك كانت وعبر التاريخ ملجأً لمن يستطيع أن يتحمل الظروف القاسية ويقبل بخشونة العيش، والتأثير السلبي على سكان المدن المجاورة أو السلطات المحلية والمركزية، لذلك كان ينصّب جهد تلك السلطات على تأمين وسائل المواصلات التي تؤدي إلى داخل هذه المنطقة، إلا أنّها كانت تصطدم بالكثير من العقبات والمعوقات.

وفي هذه المناسبة نود التذكير أنّ السكان الذين كانوا يتواجدون في العديد من المواقع التي ذكرت في هذا البحث كانوا يتنقلون على الأقدام في قطع المسافات خاصةً وأنّ معظمهم كان يعتمد على رعي قطعان الغنم والماعز حصراً مع خلو المنطقة من رعي البقر أو الإبل أو غيرها من الحيوانات الأخرى. ومع ذلك فقد عمل سكان الداخل على تأمين بعض المسالك عن طريق تعزيل بعض الصخور في المنخفضات ومسيلات المياه

مما سهل عليهم ركوب بعض الدواب مثل الحمير أو نقل حاجياتهم على ظهورها.(٥)

ومنذ النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد وعلى أثر تزايد وجود الأنباط في المنطقة وزحفهم نحو منطقة دمشق وتشكيل المملكة النبطية وانتقال عاصمتها من مدينة البتراء إلى مدينة بصرى اهتم الحكّام الجدد بالمنطقة كونها تشكل قلب المحاور التجارية التي كانت تسلكها قوافلهم، لذلك أخذوا في تأمين أكبر قدر ممكن من المسالك للولوج إلى داخل المنطقة وتقليص المسافات بين أطرافها المتباعدة.(٦)

وقد اعتمد هؤلاء على خبرة السكان القدامى في هذه المنهجية بحيث كانت تؤخذ المنخفضات والمسيلات الطبيعية كممرات آمنه بحيث يتم التقاط الصخور والعوريات وكتل الحجارة الصغيرة لردم المنخفضات والهُوى البسيطة ومن ثم الوصول إلى تسويات منتظمة. وكانت الغايات متعددة من ذلك وعلى رأسها الوصول إلى أماكن تواجد المياه الجوفية في العديد من الآبار الداخلية أو الأحواض التجميعية التي تحتفظ بمياه الأمطار لعدد لا بأس فيه من أيام السنة.

وبالطبع فهذه المظاهر الموسمية تكون قليلة الديمومة في بعض المواسم لذلك كانت تتم تهيئتها بوساطة العديد من المسالك التي كانت تتخذ كمعابر للمياه بوساطة سلاسل حجرية أو قنوات صغيرة لجر المياه نحو المنخفضات التي تأخذ أشكال البرك المتواجدة في معظم مناطق جنوب سورية، وكما هو الحال في البرك التي مازالت موجودة في مدينة بصرى وغيرها.

وبالطبع فلم تكن هذه المنهجية جديدة على الأنباط الذين تعايشوا مع هذا الواقع في جنوب منطقة الأردن وخاصة في مناطق وادي موسى ووادي عربة وكذلك منطقة النقب في فلسطين وغيرها. والجدير بالذكر أن هذه الابتكارات وجدت حتى في منطقة البادية والمناطق الصحراوية والتي مازالت نماذجها معروفة حتى الآن في منطقة جاوا(٧) شمال الأردن والهبارية وخربة الأنباشي شرق جبل حوران أوالتي عرفت بمناطق تواجد القبائل العربية التي تعتمد على الرعي مثل الصفائيين والإيدوميين.

ولم يقتصر الأمر على هذه المنهجية خاصة بعد أن تزايد إعمار المنطقة وتكاثر عدد السكان القاطنين أو المتجولين في العديد من المواقع لذلك فقد اقتضت الضرورة حفر الآبار في العديد من المواقع المجاورة للغطاء الصخري الفسيح أو تحت البلاط البازلتي الذي يسمح بحجز المياه على شكل برك كمستنقعات صغيرة في المنخفضات الطبيعية الموجودة في الفقاعات البازلتية. وهذه البرك أو المستنقعات تُملأ

بوساطة ارتفاع السطح الحقلي المائي الجوفي المغذى بوساطة الحوض المنسكب، وكذلك بوساطة جريان مياه الأمطار والتي تكون غزيرة دائماً في فصل الربيع. كما نجد أيضاً أنَّ المياه تسير وتتجمع في منخفضات عميقة من البازلت فوق منخفضات تتجاوز مساحتها الهكتار. وهذه الحافظات تكون سريعة الزوال في نهاية فصل الصيف أو فصل الخريف، والسبب في ذلك أنها تبدأ في التعرض إلى التبخر الكبير منذ شهر أيار.

وقد أثبتت الدراسات الميدانية أن هذا النظام الطبيعي للحقول المائية الجوفية تحت البازلت يتمركز بشكل جوهري في القسم الشمالي الغربي من منطقة اللجاة. وإنَّه لمن المؤكد وجود بروز تحت البازلت في هذا المكان يسمح في حفظ وحجز منفذ من مسيلات صغيرة قادمة من التلال الواقعة إلى الشمال الغربي من السهل الشمالي. وتوجد أيضاً بحيرتان موسميتان ظاهرتان في هذا السهل، واحدة منها في الجنوب من قرية أم القصور، والثانية في مصرف وادي اللوى بين بويضان ومسيل المياه المغلق من أجل استغلال واستثمار المياه لإرواء الأراضي الزراعية الموسمية وخاصة الحبوب وعلى رأسها الشعير في هذه المنطقة.

وهذه الوسائل المائية كانت تسمح للسكان بالاستقرار خلال فترات محددة من السنة حول المستنقعات والمنخفضات أو خلال كامل السنة بالقرب من. الآبار أو مواقع انبثاق ينابيع المياه وهذه الآبار ساعدت في تثبيت السكان لدرجة بلوغ الاستقرار الدائم والهام كما يؤكد ذلك حجم التجمعات السكنية. وكبرهان أكيد على ذلك، المساحة الكبيرة التي بلغت حوالى ٦٠هكتاراً من الأراضي التي استثمرت من قبل سكان قرية الشرائع في عصر البرونز القديم الأول. كما وجدت مواقع سكنية استثمرت مناطق بلغت أراضي كل واحدة منها حوالى ٣٠ هكتاراً، ومناطق أخرى صغيرة بلغت أراضيها حوالى ٤ هكتار مثل تل مساعد المحصن.

وكان الإنجاز الأكبر الذي شهدته منطقة اللجاة هو مد الخط الحربي الذي اخترقها من وسطها والذي عرف باسم طريق الإمبراطور تراجان (فيا تريانا) أو خط الرصيف. وبالطبع فمن المتوقع أن هذا الخط كان له قدماً قبل وصول الرومان إلى المنطقة على حساب المملكة النبطية في ربيع عام ١٠٦ب.م. في زمن الإمبراطور تراجان. وكان يتميز عصره بالنهضة العمرانية على مستوى مدينة روما العاصمة وعلى مستوى الإمبراطورية التي أخذت في زمنه أقصى امتداد لها في قارات العالم الثلاث.

ومن ضمن منهجية تطوير الإمبراطورية

كان ربط المناطق المحيطة بحوض البحر الأبيض المتوسط بشبكة من الطرقات السرية والمحصنة إضافة إلى ربط منطقة سورية بالجزيرة العربية والبحر الأحمر، ولذلك فقد تمّ تنفيذ الطريق السريع الذي أخذ بدايته من مدينة دمشق مخترقاً اللجاة بدءاً من مدينة المسمية شمالاً ومبنى البرج جنوباً مروراً بمدينة السويداء ثم عرى- المجيمر- أجمرين- بصرى- إلى عمان وانتهاءً في مدينة العقبة على البحر الأحمر والذي يعرف في الأردن حالياً باسم الطريق الملكي.(٨)

والشيء المذهل في الأمر والذي تبين بعد دراسة مسار هذا الطريق بوساطة الصور الجوية والأقمار الصناعية أنه أخذ استقامة دقيقة في مساره داخل منطقة اللجاة من الشمال إلى الجنوب، وهذا يؤكد على المستوى العالي في المعرفة لدى سكان المنطقة واستخدامهم الطرق العلمية في تنفيذ المشاريع الكبرى. والدليل على ذلك اعتماد الإمبراطور على المهندس الدمشقي أبولودور الذي نفذ معظم مشاريع الإمبراطورية.

وكان يتطلب شق الطريق العديد من الإجراءات مثل توفير الحراسة وأبراج المراقبة والبريد وتوفير المياه وغيرها من الضرورات الملحة، وبالطبع فكان من المهام الضرورية لهذا الطريق نقل القوات الضاربة وخاصةً فرق الفروسية التي كانت تعتمد على نقل العربات الحربية ومنها قاذفات المنجنيق. وكذلك نقل البريد السريع وإقامة الكتائب العسكرية التي تؤمن المواقع في المنطقة وتوفير الأمن والحماية ومنها على سبيل المثال الكتيبة التي كانت تقيم في منطقة المسمية والتي ما زال بناؤها قائماً حتى الآن.(٩)

ومن المعروف أن تأمين البريد ووصوله بالسرعة القصوى إلى كافة مناطق ومدن الإمبراطورية كان من المسائل الهامة لدى كبار المسؤولين، لذلك كانت تتخذ جميع التدابير التي تساعد على ذلك، ومن المرتكزات الهامة لهذا الغرض تربية الخيول الأصيلة والسريعة التي كانت تستعمل لهذا الغرض؛ فلو أخذنا على سبيل المثال نقل طرد بريدي من مدينة دمشق إلى مدينة بصرى ضمن مسافة خط نظر تبلغ مئة كم لوجدنا أن الحمولة تصل ضمن مدة لا تتجاوز الساعتين تقريباً، ولهذا السبب كانت تشاد الشاخصات الكتابية التي تحدد المسافة على طول الطرقات، وكانت معظمها تكتب فوق أعمدة أو ألواح حجرية بارزة بلغة مزدوجة.

والسبب في ذلك أن سرعة الفرس أو الحصان السريع تبلغ كحد أدنى ٥٠كم

في الساعة لذلك كانت تقام على مسار الطرقات السريعة مراكز لتبديل الخيول بحيث يكون الحصان أو الفرس وحامل البريد متأهباً وفي الجاهزية القصوى عند وصول القادم وعند التبديل وعند الإقلاع. ومن هنا فقد بنيت العديد من المراكز المحصنة بالأبراج المنيعة والحماية المكثفة داخل منطقة اللجاة وخاصة على مسار هذا الخط الإستراتيجي، ومن هذه المراكز التي مازالت قائمة حتى الآن منارة الشريف التي تتوسط منطقة اللجاة بدقة تقريباً.

٣- بعض المدن والمواقع الداخلية والمحيطة بمنطقة اللجاة:

ومن ضمن منهجية تطوير وإعمار المنطقة من الداخل والخارج فقد اقتضى الأمر توفير شبكة طرقات بين المواقع التي أصبحت مأهولة من الداخل وبناء أو تعزيز القرى المحيطة حتى أصبح قسم منها متطوراً لدرجة الوصول إلى المدينة مثل مدن: إزرع- بصرى الحرير- محجة- خبب- شقرا- المسمية- شهبا- أم الزيتون- لاهثة- براق إلخ. أمّا بالنسبة إلى المواقع التي تقع في الداخل فقد تمت تهيئة طرقات بالمنهجية نفسها التي ذكرت عند الحديث عن الطريق الإمبراطوري الذي يخترق اللجاة والذي عرف باسم (فيا تريانا).

وقد تمّ مؤخراً تعبيد هذه الطرقات حيث أصبحت سالكة وتسير عليها السيارات العامة منذ عشرات السنين، وقسم منها غير معبد. ومن هذه الطرقات الطريق القادم من موقع خبب باتجاه الجنوب الشرقي من اللجاة مروراً بموقع عريقة ووصولاً إلى نجران ومجدل ثم السجن وأخيراً إلى مدينة السويداء. ويتفرع عن هذا الطريق تفرعات عدّة جميعها تأخذ اتجاه الجنوب ومنها الطريق المتفرع بين موقع المطلة وينتهي في قيراطة، ثم المتفرع من موقع مجدل مروراً في المسيكة وينتهي في بصرى الحرير، ثم المتفرع الثالث ويبدأ من موقع الدامة مروراً في جرين ثم حران ثم الدويرة ثم طعارة ليرتبط أخيراً بالطريق الواصل بين مدينة بصرى الحرير والدور، والطريق الرابع ينطلق من موقع عريقة مروراً في نجران، وهذا الطريق الذي تكلمنا عنه قبل قليل له تفرع آخر يتجه شمالاً من عريقة إلى موقع صميد مروراً بموقع خرسا ثم مجادل وينتهي في موقع أم الزيتون، ويتفرع منه عند موقع خرسا طريق يقود إلى موقع رقم ثم دير داما ويتقاطع مع الطريق الإمبراطوري في هذه المنطقة ثمّ يتابع المسار حتى موقع الدامة.

وأخيراً وفي أقصى المنطقة الشمالية من اللجاة يوجد تفرعان ينطلقان من مدينة المسمية أحدهما يأخذ اتجاه شمال شرق

وصولاً إلى موقع براق والآخر يأخذ اتجاه جنوب شرق وصولاً إلى موقع الطف. أمَّا بالنسبة إلى الحافة الشمالية الغربية فقد تمَّ اختراقها بوساطة طريق يربط كلاً من موقع خبب والمسمية مروراً في الشرائع ويتفرع عنه طريق يقود إلى موقع كريم. أمَّا الحافة الشرقية لمنطقة اللجاة فقد تمَّ تنفيذ طريق سهل وخال من المعوقات الطبيعية والذي أصبح لاحقاً طريقاً معتمداً يربط بين مدينتيّ دمشق والسويداء.

دراسة بعض المواقع الأثرية في منطقة اللجاة:

تل براك: ويقع في الجهة الشمالية الشرقية من المنطقة ويحاذي تقريباً الطريق الواقع بين مدينتي دمشق والسويداء. وهو عبارة عن تل يعود إلى عصر الحديد المتأخر. ويتمركز على هضبة طبيعية. وفي قمته يوجد برج روماني بني لاحقاً. ويعتبر هذا الموقع من المراكز الهامة التي سكنها الإنسان في فترات ما قبل التاريخ، ثم استمر التطور في الموقع إلى عصر البرونز الوسيط. ويعتبر التل صلة الوصل بين حافة المسكوبات والحمم البركانية والسهل الزراعي. ولهذا ما زالت موجودة في الحقول الزراعية في هذا القطاع دلائل تشير إلى وجود سد مائي طويل يحاذيه بركة صناعيّة. كما يحيط بالتل العديد من المساكن المنتشرة فوق مساحة تقدر بأكثر من ٥٠ هكتاراً ومنها قرية مسورة داخل أسوار رباعية الشكل ومبنية بحجارة منتظمة ومحكمة النحت. وبالطبع فهذه الكثافة السكانية تؤكد على وجود المياه الدائمة والينابيع التي كانت متوافرة في المنطقة.

وقليلاً إلى الغرب من الموقع توجد المنطقة التي تحيط بكوم ماسج والذي يعتبر من المواقع الهامة الأولى للاستيطان البشري والتي تعود إلى فترة ما قبل التاريخ؛ وهو أيضاً عبارة عن تل محصن يعود إلى عصر البرونز الوسيط، مع احتمال وجود تأسيس يعود إلى عصر البرونز القديم الرابع. وقد توضع التل مباشرة على حافة مسكوبات الحمم في اللجاة ويمتد في تواصله مع القطاع الزراعي الشمالي.

الشرائع: ويحتاج هذا الموقع إلى العديد من الدراسات المستفيضة لما قدمه من غنىً كبير في المعطيات الأثرية، وأهم ما يجب ذكره في هذا الخصوص التحويطات والتسويرات الكبيرة من الحجارة التي من المرجح أنَّها تعود إلى العصر الحجري الأخير (النيوليتيك) إضافة إلى وجود بقايا من قرية تعود إلى عصر البرونز القديم الأول مكونة من بيوت ذات صدور مزدوجة للمنازل وقد توضعت فوق سطح يتسع لحوالى ٦٠ هكتاراً

مغلق بوساطة جدار على شكل سور يقع بين القطاعات والمنخفضات من أجل المياه وتحصين السهل الزراعي المحيط بالموقع إضافة إلى العديد من المساكن التي مازالت قائمة بما فيها الأبواب والنوافذ الحجرية. كما يظهر مخطط الأبنية أو هياكل الأبنية وبناء المداميك الحجرية فوق بعضها البعض بشكل منتظم في بناء المساكن التي تكون قد أخذت الأشكال الهندسية من مساكن ذات هياكل بنائية مستطيلة أو ذات زوايا ومن الداخل تكون مستديرة في بعض الأحيان وحسب الغرض المنشود من البناء.

وإلى الشمال، من هذا الموقع توجد بعض التلال، ومنها تلان محصنان ومرتفعان ويعودان إلى عصر البرونز القديم الرابع وعصر البرونز الوسيط مازالا في حالة جيدة، ويحيط بكامل هذه المواقع مقبرتان واحدة من الشرق وأخرى من الغرب حيث يوجد العديد من القبور والتي مازالت واضحة مثل المقابر الدائرية ونصف الدائرية وربع الدائرية وهذه النماذج من القبور هي النماذج التي كانت أكثر تداولاً.

كوم التين والمنطقة المحيطة به: وإلى الجهة الجنوبية الشرقية من المواقع السابقة توجد قرية ذات حجم كبير تعرف باسم كوم التين وتعود معظم أبنيتها الحالية إلى العهود الهلّينستية ومن ثم الرومانية والبيزنطية، وهي على شكل مزارع متناثرة ومساكن ذات حجرات وصالات بنيت أسفل الأرض. وقد اعتمد سكانها منذ القدم على الزراعة وخاصةً زراعة الحدائق التي تمت تهيئتها على سفوح المنحدرات، وفي الأعلى تبنى أبراج حماية وحراسة، ومنها برج ذو مركز مسور مع معبد وجدران خارجية طويلة على شكل سور يحيط بالقرية أيضاً.

وبالطبع فهذا التنظيم والكثافة السكانية والمجموع المتكامل من المباني السكنية يؤكد على أهمية المجموعة المتكاملة للموقع. ومن جهة أخرى فإنَّ الاستثمار والسكن بقي مستمراً بشكل متواصل. وبهذه المناسبة نشير هنا على سبيل المثال إلى وجود تل صغير يعود إلى عصر البرونز الوسيط في خراب القصيرات بالقرب من هذه المواقع ويوجد حالياً على امتداد الطريق القادم من الشرائع إلى هذه القرية.

كما لابد من الإشارة إلى أن الكثير من المواقع والمساكن التي تتواجد في هذا القطاع والذي يعرف باسم قطاع شعارة والتي تعود إلى الفترة الرومانية والوسيطة قامت على حساب مبانٍ تعود إلى فترات تاريخية أقدم.

وعدما نتجه نحو الجهة الجنوبية الغربية من منطقة الشرائع وبعد تجاوز كوم السما بمسافة نجد أنفسنا في منطقة تتوسط

الجهة الغربية من منطقة اللجاة. وتعتبر هذه المنطقة الأغزر والأكثر تواجداً للمواقع السكنية بعد منطقة الشرائع. والشيء الملفت للنظر أننا نجد التجمعات السكنية في هذا القطاع متقاربة جداً وخاصةً في قرى كريم الشمالي وكريم الجنوبي وآيب بحيث لا يبتعد الموقع عن الآخر أكثر من ١كم.

وتتميز معظم أبنية تل العزيزية الذي يتوسط العديد من المواقع هنا ومنها كريم الشمالي وكريم الجنوبي بأنها تعود إلى الفترة الرومانية مع العلم أنَّ هذا التل يعود إلى العصر البرونزي الوسيط بسبب تواجد الكثير من اللقى الأثرية المتنوعة والتي تعود إلى ذلك العصر وخاصةً اللقى الفخارية والتحصينات الجدارية. أمَّا باقي التجمعات فهي عبارة عن تجمعات صغيرة ومتفرقة تعود في تاريخها إلى عهود وعصور متفرقة.

كما تتميز المنطقة الواقعة بين كل من موقع كريم الشمالي وكريم الجنوبي بوجود سلسلة من الأبراج التحصينية. وفي هذا الصدد نذكر أن هذه الأبراج تكون متعددة الأغراض والوظائف، وقد أكدت الدراسة الهندسية والأثرية إلى أنَّ البرج كان يقوم مقام المسكن أو القبر بمعنى الضريح أو كبرج عسكري للمراقبة والدفاع. ونلاحظ أيضاً أن هذا البرج عندما تكون مهمته جنائزية يكون محاطاً بالعديد من القبور التي تبنى على نهج القبور التي بنيت بالحجارة المنتظمة يعلوها بناء مخروطي الشكل[10]. وقد تمَّ العثور بين هذه القبور على مقبرة تعود إلى العصر البرونزي القديم.

كما وجد بالقرب من موقع كريم الجنوبي بناء محصن بني لأغراض عسكرية في الفترة الهلّينستية ثم تمَّ تدعيمه وتقويته في الفترة الرومانية خاصة بعد أن أصبح موقعاً سكنياً تطور تدريجياً منذ عصر البرونز القديم الأول حتى العهد الروماني ومن ثم مازالت بعض المباني مسكونة حتى هذا التاريخ. وقد تميزت المساكن هنا بأنها تأخذ شكل الأبنية المستطيلة ذات الحجم الكبير مع فسحات منزلية تتجمع حولها المساكن بشكل مترابط لتكون بناءً يتميز بالتحصين القوي بحيث تكون الحجرات مغلقة من الخارج وتفتح نحو الداخل. كما نلاحظ في هذا القطاع في بعض الأحيان وجود منازل ذات زوايا دائرية تعود في تاريخها إلى فترات زمنية غير محددة ويزداد تواجد هذه المنازل عند أحواض المياه، كما تتميز بوجود أسوار دائرية كبيرة تحيط بها معاقل لأغراض عدّة، وهذا ما يؤكد على التواصل الزمني في سكن هذه المواقع.

وليس بعيداً عن هذه المواقع جنوباً نجد تجمعات سكنية شكلت قرى عرفت

باسم آيب الشمالي الذي تحيط به العديد من المواقع التي تعود في تاريخها إلى العهد الهلّينستي حيث تمّ تشكيل قرية كبيرة ذات أبنية تحصينية على شكل مبانٍ سكنية ومنازل مغلقة كما هو الحال في قرى كريم المجاورة لها. وينطبق هذا الأمر على قرية آيب الجنوبية وخربة الولي. وجميع هذه المواقع بنيت على أرضية تعود إلى عصر البرونز القديم الأول والتي تتميز مساكنها بالصدر المزدوج ذي الأبعاد المتسعة والجدران المستقيمة والزوايا القائمة، إلا أنه وللأسف فقد تعرضت الكثير من هذه المباني إلى الهدم ونقل حجارتها لتوظيفها في أبنية حديثة أو لتوظيفها في رصف أرضية الطرقات الحديثة التي تمّ تنفيذها في المناطق القريبة من هذه المواقع.(١١)

أمّا بخصوص موقع خبب والمواقع المحيطة به فإنها تعود كما هو الحال في إعمارها إلى عصور البرونز وخاصةً المواقع السكنية التي بنيت فوق مرتفعات بسيطة تشرف على كوم الرمان الذي يشكل تلاً ذا حجم كبير ومحصناً يعود إلى عصر البرونز الوسيط حيث مازالت تشاهد رمبة المدخل حتى الآن واضحة، ونظراً لأهمية الموقع الإستراتيجية فقد تمّ بناء تحصينات واستحكامات دفاعية قوية ومصفحة بكتل حجرية كبيرة تمت تقويتها وصيانتها منذ العهد النبطي واستمر ذلك حتى الفترة الرومانية، وقد أخذت بعض هذه التحصينات الشكلَ المستدير، وقد تمّ التقاط العديد من اللقى الأثرية في هذه المواقع مثل البلطات الصوانية المستديرة والمفلطحة وأدوات حجرية تعود إلى العصر الحديدي مثل الشفرات وأدوات كانت تستعمل لأغراض عسكرية، كما تمّ التقاط العديد من اللقى التي تعود إلى العصر الحجري المتأخر إضافة إلى العديد من الكسر الفخارية التي تعود للعهود الكلاسيكية.

سحر: يتميز موقع سحر بأنه الأغنى في الأبنية الأثرية التي مازالت بقاياها الأصلية موجودة حتى الآن، كما أنّها تتميز بمنظرها الخلاب فوق كتل الصخور النافرة، ولذلك يجد الزائر لهذا الموقع المتعة وهو يسير فوق هذه الفقاعات الصخرية والعديد من القطاعات التي تقع داخل الأغطية البازلتية ضمن منطقة اللجاة لمدة لا تقل عن ساعتين سيراً على الأقدام بعد أن يترك موقع الطف بمسافة ٢كم تقريباً ثم ينحرف باتجاه الشرق مباشرةً، والسبب في ذلك عدم توافر أي مسلك يقود إلى الموقع.

ولو أخذنا موقع سحر كخط نظر نجده يدخل بمسافة لا تقل عن ٨كم داخل القطاع البازلتي. وكما ذكرنا سابقاً فقد تمّ ارتياد الموقع من قبل العديد من

العلماء والمختصين في الآثار، كما تمت له دراسة مبدئية متواضعة من خلال بعثة بتلر للمنطقة حيث شرح بشكل لابأس فيه الحالة التي كان عليها الموقع والآثار الموجودة، ومن أهمها المسرح والمعبد اللذان يعودان إلى العهد النبطي حيث يعاصر معبد سحر معبد الإله بعل شامين (إله الشمس) في موقع سيع بالقرب من مدينة قنوات إلى الشمال الشرقي من مدينة بصرى العاصمة النبطية في تلك الفترة بمسافة حوالى ٣٠كم.(١٢)

أمّا بخصوص المسرح فهو في الحقيقة عبارة عن جزء من المعبد وظيفة والتصاقاً ومنهجاً عمرانيــاً، وهو بذلك يعبر عن تلك المنهجيــة التــي كانت موجــودة في منطقة الجزيرة السورية أو بلاد ما بين النهرين في تلك الفترة والتي ما زلنا نشاهدها في مدينة دورا أوروبس على الفرات بالقرب من مدينة دير الزور، وكذلك الأمر في معبد بعل شامين في حــوران، وهذا يعنــي أنَّ المعبد كانت له وظيفة شعائرية دينية وليست مسرحية.

كمــا تمَّ الكشف في الموقــع عن العديد مــن الأبنية الأثرية التي تعــود إلى الفترات الكلاسيكية مثل المنــازل السكنية والهياكل المعماريــة الأكثر قدماً ومنهــا مكان يسمى مدفن السحر، وهو عبارة عن حلقات كبيرة من الحجــر تعود إلى عصــر الحديد. كما وجــدت تحويطات حجرية كانــت تستعمل من قبل السكان الرعاة لإيوائهم مع قطعان الغنم، وقد وجــد في منطقة اللجاة العديد من التحويطــات التي تشابهها وخاصةً تلك الموجودة في مواقع كــريم والمنطقة الواقعة بين الشرائع ورجم ناجية..إلخ.

كمــا تمَّ الكشف في منطقــة سحر عن قرية تعود إلى عصــر البرونز القديم الأوَّل مكونة من حوالى ١٥ منزلاً من ذات الصدور المزدوجة والمشابهة لتلك المساكن التي تكلمنا عنهــا في المواقــع السابقة وهــذه المساكن منتشــرة في محيط هضبــة تمَّ اكتشافها في المنطقــة ظهرت جميعها وهــي تحيط ببئر مهيأ يفسر وجود سكن استقر قليلاً في هذا الموقــع القاسي والصعــب والمعزول. كما تمَّ العثور أيضاً على بعض القبور التي تصنف بمنهــج قبور- الأبراج. ومــن أجل الحفاظ على هذا التــراث فقد قمنــا بنقل العديد مــن القطــع الأثرية إلى متحــف درعا منذ عــام ١٩٩٠م وقد تمت دراستهــا وصيانتها وعرضها في المتحف.

كوم مرتجلا: سمي الموقــع بهذا الاسم نسبــةً إلى أسماء الأميــرات السوريات مرثا وجوليا نسبــةً إلى الأميــرة السورية جوليا دومنا، ولذلك تمَّ إدغام الاسمين تحت اسم مرتجــلا. وتقع هــذه القرية علــى مسافة قصيرة قليلاً إلى الشمــال من موقع مدفن

سحر حيث تمَّ الكشف عن نتوء محصن على حافة سهل داخلي مهيأ للزراعة. ويتميز هذا الموقع بغناه بالعديد من المساكن التي تعود إلى عصور البرونز الوسيط وعصر الحديد. وقد تمَّ بناء السور الشرقي للموقع على شكل معقل يحيط بهياكل سكنية كبرى تشابه تلك الموجودة في الشرائح. وعلى حافة هذا الموقع يوجد موقع ثانٍ على حافة اللجاة وهو موقع المخنج. وهذا الموقع عبارة عن نقطة محصنة مع سور وهياكل بناء داخلية مستطيلة، وقد تمَّ التأكد من خلال الملتقطات الأثرية أن هذه المواقع بنيت بشكل متزامن وتعود في معظمها إلى عصر البرونز الوسيط.

المدوره: ويجب الإشارة أخيراً وريثما تتم دراسة بعض المواقع الأخرى إلى أنه وإلى الجنوب من الموقع الأخير يوجد توضع هام آخر وهو قرية المدوره التي توضعت فوق ربمة صغيرة كمدخل مع تحويطات كبيرة مغلقة وجدران مزدوجة الحيطان، ومنازل نصف مدفونة. ومن دون شك فهي بذلك تشكل قرية تعود إلى عصر وسيط ولكنها ربما تكون قد توضعت فوق موقع أقدم. ويحيط بهذه المساكن العديدة من البقايا المتناثرة من الأبنية الأثرية مثل القبور والكتل الحجرية المنحوتة والتي تعود من دون شك إلى أبنية منتظمة والتي تؤكد على أهمية المساكن والسكان في هذا القطاع والذين ينتمون إلى المجتمع الزراعي والرعوي.

استنتاج مؤقت:

أصبح من المؤكد على ضوء الدراسات الأثرية المتوافرة حتى الآن أن منطقة اللجاة والتي تشكل قلب منطقة جنوب سورية عبارة عن كتلة صخرية متباينة ومتغايرة عن بقية المناطق المجاورة، وهذه المنطقة لم تكن كما وصفها الرحالة والمستشرقون في القرون السابقة على أنها منطقة تواجد للعصاة وقطاع الطرق وإنَّما كانت عبارة عن منطقة ذات تواجد سكاني لا يختلف عن سكان المواقع المجاورة، فقد واكبتهم بالإعمار والحضارة والنهضة العمرانية والتنظيمية بشكل يتناسب مع الظروف الجغرافية التي وجدوا فيها.

وهذا المسار التاريخي والحضاري لم يقتصر على عصر أو مرحلة تاريخية محددة وإنَّما واكب مسار التاريخ والحضارات المجاورة، فنجد على سبيل المثال تواجداً سكانياً واستثماراً للمنطقة يعود للعصر الحجري المتأخر وهو مستمر حتى الآن، وقد تمَّ توثيق ذلك بالدلائل والوثائق الأثرية. أمَّا بخصوص الفترات التي تعود إلى العصر النحاسي فما زالت الدراسات مستمرة لتوثيق هذه المرحلة بشكل جيد خاصة في ضوء وجود بعض الدلائل التي توجد في مكان ولاتوجد في مكان آخر، ونعني بذلك المواقع التي تقع في الجهة الغربية من

منطقة اللجاة وخاصة تلك المجاورة لسهل دمشق وسهل الجولان.

كما أصبح من المؤكد أن المكتشفات الأثرية وغير الأثرية باتت لافتة للنظر وغير متوقعة نوعاً ما على هذا المقياس المدروس والذي يؤكد الكثافة الكبيرة للسكان والاستغلال المكثف والمتسع لهذه المساحات في هذه الفترات مع الافتراض الأكيد للإمكانية النادرة التي كانت تستخدم في تجربة الاستثمار الجيد للأراضي الزراعية ذات الامتداد الواسع جداً والذي يمكن أن يكفي هذه التجمعات السكنية وبمساحة تبلغ حوالى ٦٠هكتاراً على سبيل المثال في الشرائع وحوالى ٢٠ هكتاراً في كريم الجنوبي وغيرها الكثير الكثير.

أمّا بالنسبة إلى الفترات الزمنية التي تعود إلى عصريّ البرونز القديم والوسيط فقد تمّ التأكد من إصرار السكان في المحافظة على المواقع مع التطوير المتقدم لنماذج التحصين واستثمار وتخزين المياه، وإنَّ اكتشاف قرى هامة تحيط بكوم ماسيج على سبيل المثال إنما يدل أيضاً على عمل هام في فهم المنشآت السكنية في هذه الفترات والأخذ بعين الاعتبار البعد الهام في إعمار المنطقة بالمساكن والمنشآت السكنية للمجموعة البشرية التي يتشكل منها المجتمع داخل منطقة اللجاة والتي وصلت إلى مرحلة لم يصبح أو يستوجب الأمر أن تكون محددة على سطح أو أرضية مغلقة بالأسوار.

ولهذا فقد شعر السكان أنه أصبح من المستوجب عليهم أيضاً الاندماج في القطاعات والمناطق المجاورة وعدم الانغلاق والخروج في نشاطهم العمراني إلى خارج الأسوار، وهذا الأمر أصبح يتماشى مع العديد من المناطق والمواقع التي يتشابه فيها الاستقراء نوعاً ما مع هذه المنطقة سواءً كان الأمر في سورية أو خارجها، إلا أنه لمن المؤسف أن الكثير من هذه الدلائل قد اندثرت أو تهدمت أو نقلت أو جرفت أثناء عمليات التطوير الزراعي-واستصلاح الأراضي الحديث أو الممارسات الزراعية المتبدلة خلال القرون الماضية.

وعلى ضوء هذه المستجدات التي ذكرت أعلاه يصبح من الصعوبة بمكان تحديد هوية بعض المواقع أو القرى التي تكون قد تشكلت عن طريق المساكن المتناثرة هنا وهناك أو المساكن والتحويطات شبه المتناثرة فوق أرضيات متناثرة وحسب مقتضيات المواقع، وهذا الأمر هو الذي تعرضت له العديد من التجمعات السكنية وخاصةً تلك التي تعود إلى عصر البرونز القديم الأول أو التي تسبق ذلك. وفي هذا الصدد فلا بد من التذكير بالنتائج الهامة التي تمَّ الكشف عنها في العديد من التجمعات السكنية والتي تعود

إلى عصر الحديد وهي الفترة التي توسع السكن فيها كما توسعت المناطق، ولذلك فهذا الأمر يؤكد أن هذا الاستثمار والسكن المنتشر وبمساحات كبيرة يدل على التفاعل والتزامن الملحوظ مع المناطق الريفية في جنوب سورية.

وهذا الأمر يرتكز بشكل مبدئي على النتائج الأولية للاستكشاف الأثري في القطاع الشمالي من منطقة اللجاة والذي يظهر الاحتمالية الكبرى للمنطقة كقطاع جغرافي جيد حافظ على بقايا جيدة من المواقع التي تعود إلى العديد من العصور الزمنية ويؤكد على غنى المعطيات المقدمة وحقيقة جودتها التي مازالت محافظة عليها ومرجعيتها إلى العديد من المواقع المختلفة والتي تؤكد أن منطقة اللجاة ذات أهمية في الاحتمالية المنظورة في فهم وإدراك مسار التاريخ وبشكل أكثر شمولية للمنطقة في سورية الجنوبية.

وبالطبع فهذا ما أكدته النتائج الأولية للاستكشافات المبدئية في القطاعات التي تمّ تحريها في المواقع المذكورة من المنطقة والتي دلت على غنى المخزون الأثري والتاريخي للمنطقة وعلى احتمالية الوجود الأكيد لهذه الظواهر في كامل المنطقة التي لم يتم ارتيادها وخاصةً فيما يتعلق بالتجمعات السكنية في فترات ما قبل وقبيل الفترات الكلاسيكية، وقد وضع هذا الأمر موضع الاهتمام من قبل السلطات الأثرية السورية والدولية.

الهوامش

١- أودعت جميع التقارير العلمية لدى المديرية العامة للآثار والمتاحف في دمشق ونشر قسم منها في الحوليات الأثرية العربية السورية.

٢- يرجع بعض العارفين تسمية اللجاة إلى مصدر اللجوء إليها؛ بمعنى الهرب من الخطر المداهم سواء أكان الفار فرداً أو جماعة، كما تسمى أيضاً النجاة للغرض نفسه.

3- Abel. F.M. Geographie de la Palestine. Paris , 1967.

٤- تعود هذه التسمية إلى مقولة تداولها سكان المنطقة القدامى إلى اسمي الأميرتين السوريتين مرثا وجوليا، ولذلك تمّ إدغام هذين الاسمين تحت كلمة مرتجلا.

5- Dunand. M. La voie romaine du Ladja. MAIBL. Paris. 1930.

٦- خليل المقداد- بصرى عاصمة الأنباط- دار عكرمة للنشر والطباعة- دمشق- ٢٠٠٣م.

7- Helms. M. W. Jawa. Lost of black desert. ITHACA. New- Yorrk. 1981.

٨- خليل المقداد- حوران عبر التاريخ- دار حوران للنشر والطباعة- دمشق- ١٩٩٦م.

٩- خليل المقداد- الفرق العسكرية الرومانية وتواجدها في بلاد الشام- مجلة المعرفة السورية.
١٠- خليل المقداد- الأبنية الجنائزية (القبور- الأضرحة- المدافن).
11- Dentzer. J. M. Development et culture de la Syrie du sud. Hauran I.
12- Butler. h. G.PAES.2A. Syrria. The Princeton university archeological expedition to Syria in 19041905- and 1909. leyden. 1919.

المصادر والمراجع

- الحوليات الأثرية العربية السورية. منشورات وزارة الثقافة- المديرية العامة للآثار والمتاحف- دمشق.
- الأطلس السياحي السوري- منشورات وزارة السياحة- دمشق- ١٩٨٩م.
- خليل المقداد- حوران عبر التاريخ- دار حوران للنشر والطباعة- دمشق- ١٩٩٦م.
- خليل المقداد- بصرى عاصمة الأنباط- دار عكرمة للنشر والطباعة- دمشق- ٢٠٠٣م.
- خليل المقداد- الفرق العسكرية الرومانية وتواجدها في بلاد الشام- مجلة المعرفة السورية.
- فيليب حتي- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين- بيروت- ١٩٥٨م.
- Abel. F.M. Geographie de la Palestine. Paris ,1967.
- Abel. F.M. Histoire de la Palestine. Paris ,1952.
- Butler. h. G.PAES.2A. Syrria. The Princeton university archeological expedition to Syria in 19041905- and 1909. leyden. 1919.
- Dentzer. J. M. Development et culture de la Syrie du sud. Hauran I.
- Dubertret. L. et Dunand. M. Les gisement ossiferen de Khirbet el umbachi et Hebariye (SAFA) et les installation correspondent. AAS. tom IV- V 1954. pp 59- 76.
- Dunand. M. La voie romaine du Ladja. MAIBL. Paris. 1930.
- Helms. M. W. Jawa. Lost of black desert. ITHACA. New- Yorrk. 1981..

تاريخ العولمـة

د. جهاد ملحم ✿



ليست مهمة سهلة البحث في ظاهرة معقـدة كالعولمة وتحديـد فيمـا إذا كانـت جديدة أمّ قديمة، كونها تقع خارج نطاق حقل الدراسات الأكاديمية الراسخة حالياً. ولأنَّ العولمـة الحالية نتاج رأسـمالي بامتيـاز عممته سطوة التكنولوجيا الرهيبة، تصبح وجهة نظر المفكرين الغربيـين حـول الموضـوع أساسـية وحاسـمة. وقـد اسـتندت في هـذا البحث

✿ أستاذ العلوم في جامعة تشرين - سورية.

على رؤية مانفريد ستيجر[1] Manfred B. Steger من خلال مؤلفاته التي تلقى اهتماماً عالمياً متزايداً، خصوصاً كتابه الموجز الذي يحمل عنوان «العولمة».

عندما نسأل شخصاً عادياً في أحد شوارع لندن، نيويورك، بانكوك، القاهرة، دمشق، أو ريو دي جانيرو عن ماهية العولمة، فمن المرجح أن يتضمن جوابه تلميحات إلى منظومات اقتصادية وسياسية متشابكة تغذيها تقنيات حديثة مثل الحاسبات الشخصية، الإنترنت، الهاتف الجوّال، أجهزة الفاكس، الكاميرات الرقمية، الأقمار الاصطناعية، الطائرات النفاثة، وناقلات البترول العملاقة. لكن هذا الجواب هو جزء واحد من الحقيقة فقط، إذ إنّ التكنولوجيا ليست العامل الوحيد الفاعل في الميدان. ومع ذلك، سيكون من الجنون إنكار أنّ هذه الاختراعات الجديدة لا تلعب الدور الحاسم في صناعة التحولات الاجتماعية العالمية ومضاعفتها وتوسيعها وتكثيفها.

فالإنترنت، على وجه الخصوص، أخذ على عاتقه وظيفة حيوية في تسهيل العولمة من خلال خلق صفحة تواصل عالمية بين ملايين الأفراد والمنظمات والأحزاب. مع أنّ هذه التقنيات في معظمها حديثة لا يتجاوز عمرها ثلاثة عقود، فإنّها أحدثت شعوراً عاماً لدى أولئك المراقبين بأن العولمة بمفهومها المعاصر هي ظاهرة حديثة حقاً.

ولكن، في الوقت نفسه، يؤكد التعريف العام للعولمة على الطبيعة الحركية للظاهرة. فتعزيز العلاقات على نطاق واسع والتزايد العام في إدراك أنّ الروابط العالمية التي تتعمق هي جميعها عمليات تدريجية وذات جذور تاريخية.

فعلى سبيل المثال، فإنّ المهندسين الذين طوروا الحاسب المحمول والطائرة النفاثة وقفوا على أكتاف مخترعين سابقين صمموا المحرك البخاري، التلغراف الفونوغراف، محالج القطن، التلفون، الطابعة، محرك الاحتراق الداخلي، والتطبيقات الكهربائية. وهذه المخترعات بدورها، تعود بوجودها إلى اختراعات تقنية أبكر مثل التلسكوب، الإبرة المغناطيسية، النواعير، طواحين الهواء، البارود، المبرقة وسفن عابرة للمحيطات.

لكي نسلّم بالسجل التاريخي كاملاً، يجب العودة حتى إلى ما هو أبعد من إنجازات اجتماعية وتكنولوجية هامة جداً مثل إنتاج الورق، تطور الكتابة، اختراع العجلة، تدجين الحيوانات المتوحشة والبراري، ظهور اللغات، وأخيراً، الهجرة البطيئة لأجدادنا الأفارقة عند نشوء الجنس البشري إلى كافة القارات.

هل العولمة ظاهرة جديدة؟

يعتمد جواب ما إذا كانت العولمة تشكل ظاهرة جديدة على مدى رغبتنا في توسيع السلسلة السببية التي أنتجت تلك التقنيات الحديثة والترتيبات الاجتماعية التي يقرنها معظم الناس بهذه الكلمة النمطية الطنّانة. ويرد القسم الأوّل من الباحثين عن قصد البعد التاريخي للعولمة إلى العقود الأربعة التي تلت الثورة الصناعية بهدف الإمساك بالميزات المعاصرة لها. في حين يرغب القسم الثاني في توسيع نطاقها الزمني ليشمل التطورات الجذرية التي حصلت في القرن التاسع عشر.

أمّا القسم الثالث فيجادل بأنّ العولمة تعبّر فعلياً عن استمرارية وانتشار العمليات المعقدة التي بدأت مع صدور الحداثة والنظام الرأسمالي العالمي قبل حوالي خمسة قرون. ولا تزال قلة قليلة من الباحثين ترفض إرجاع العولمة إلى فترات زمنية بعينها تُقاس بالعقود أو بالقرون، إذ تقترح، بدلاً من ذلك، أنها مسار عملية قد نمت وترعرعت منذ آلاف السنين.

من دون شك، تحتوي كل واحدة من وجهات النظر المتنافسة على تبصر عميق مهم. يقدّم مؤيدو المقاربة الأولى دليلاً انطباعياً حول وجهة نظرهم يفيد بأن التوسّع المثير والتسارع في التغيرات العالمية منذ أوائل عام ١٩٧٠م يشكّل قفزة نوعية في تاريخ العولمة. في حين يؤكد مؤيدو وجهة النظر الثانية على صحة العلاقة الوثيقة بين الأشكال المعاصرة وانفجار التكنولوجيا المعروفة بالثورة الصناعية. أمّا ممثلو وجهة النظر الثالثة فيشيرون بدقة إلى دلالة انضغاط الزمان والمكان الذي حصل في القرن السادس عشر.

وأخيراً، يعرض مؤيدو وجهة النظر الرابعة بدلاً من ذلك حجة حصيفة عندما يصرون على أن أي تفسير شامل للعولمة بحق يسقط سريعاً بشكل يثير الشفقة من دون لحظ الحراك المستمر والتطور في تاريخ البشر على كوكب الأرض.

ومع أنّ الجدول الزمني القصير الذي سنعرضه بالضرورة هو جزئي وعمومي، إلا أنّه يعطي انطباعاً جيداً أن العولمة قديمة قدم الإنسان نفسه.

هذا الجدول التاريخي المختصر يعين خمس فترات تاريخية مميزة منفصلة عن بعضها البعض بتسارع مهم حصل في مسار التغيرات الاجتماعية إضافة إلى تزايد مداها الجغرافي.

ضمن هذا السياق، يجب أن نضع في أذهاننا أنّ أي جدول زمني ليس من الضروري أن يتضمن كشفاً خطياً للتاريخ، ولا أن يعزز وجهة النظر الأوروبية المركزية

له. فتاريخ العولمة بما فيه من مدهشات غير متوقعة، انعطافات عنيفة، فواصل مفاجئة، وانقلابات مثيرة، يجب أن يشمل جميع التجمعات السكانية الرئيسية وثقافاتها على كوكبنا الأرضي.

على هذا النحو، يجب علينا أن نمسك عن فرض الأفكار الحتمية وغير القابلة للعكس حول ظاهرة العولمة. وفي كل الأحوال، من المهم ملاحظة أنّ حدوث التطورات التكنولوجية المثيرة والقفزات الاجتماعية في التاريخ أدى إلى تكثيف هذه العمليات وانتشارها عالمياً إلى سويات جديدة.

إنّ مقاربة الجدول الزمني المختصر عن العولمة مع هذه الملاحظات الماثلة في الأذهان، تمكننا من تقويم كل مرحلة ومدى استمرارية الظاهرة نفسها.

الفترة الواقعة ما بين ١٠٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد

دعنا نبدأ بمخطط تاريخي مختصر عن العولمة حوالي ١٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد حين وصلت مجموعات صغيرة من الصيادين والمهاجرين إلى مرتفعات أمريكا الجنوبية. فقد أشرت هذه الحادثة إلى نهاية سلسلة طويلة من استيطان كامل القارات الخمس بدأت من سلفنا الأفريقي الشبيه بالإنسان (إنسان نياندرتال) قبل أكثر من مليون سنة مضت. مع أن بعض الزمر الرئيسية من الجزر في المحيطين الأطلسي والباسيفيكي لم تُستوطن حتى أزمان حديثة، إلا أنّ التشتت العالمي لأجناسنا البشرية كان قد حصل فعلاً.

العبور الناجح لبدو أمريكا الجنوبية استقر على مآثر مهاجرين أسلافهم السيبيريين الذين عبروا Bering Strait إلى أمريكا الشمالية قبلهم بألف عام.

في هذا الطور المبكر من العولمة، كانت الاتصالات بين آلاف الصيادين والزمر السكانية خلال العالم محدودة جغرافياً وكانت عرضية أيضاً في معظم الأحيان. تغيّر هذا النمط المتلاشي من التفاعل الاجتماعي بشكل دراماتيكي قبل حوالي ١٠٠٠٠ سنة مضت عندما أخذ الجنس البشري الخطوة الحاسمة في تأمين طعامه بنفسه.

ونتيجة لعدة عوامل، بما فيها تكاثر طبيعي للنباتات وحيوانات ملائمة للتدجين إضافة للفروق القارية في المساحة وحجم المناطق المأهولة، لم يكن هناك سوى مناطق محدودة فقط من الأراضي الأوراسية الهائلة أو قريبة منها، ملائمة لنمو الزراعة.

توزعت هذه المساحات بين الهلال الخصيب، شمال وسط الصين، الشمالي الغربي من الهند أفريقيا الجنوبية، وغويانا الجديدة.

مع الزمن، فإن الفائض الغذائي الذي أمّنه هؤلاء المزارعون الأوائل والرعاة قاد إلى تزايد في عدد السكان، نشوء قرى مستقرة، وبناء بلدات محصنة، الأمر المرتبط بسيادة النمط الزراعي للإنتاج في هذه المرحلة من تطور المجتمع البشري.

تحولت عصابات البدو الرحّالة إلى قبائل مستقرة، وتجمعات رئيسية، وفي الأخير، إلى ولايات قوية قائمة على إنتاج محاصيل زراعية. فالطبيعة اللامركزية والمتماثلة للصيادين والتجمعات السكانية استُبدلت ببُنى اجتماعية بطريركية طبقية إلى أعلى حد يقودها رؤساء ورجال دين (كهنة) تمّ إعفاؤهم من الأعمال اليدوية الشاقة.

علاوة على ذلك، لأوّل مرة في التاريخ الإنساني، تصبح هذه المجتمعات الزراعية قادرة على إعالة صنفين اجتماعيين لا يساهم أعضاؤهما في الإنتاج الزراعي. تتألف الطبقة الأوّلى من اختصاصيين في الأعمال الحرفية متفرغين لها تماماً يوجهون كامل طاقاتهم المبدعة باتجاه اختراع تقنيات حديثة، مثل أدوات فعّالة مصنوعة من الحديد وحلي جميلة مصنوعة من معادن نفيسة، قنوات ري معقدة، مصنوعات الفخار والسلال المعقدة، وأبنية تذكارية ضخمة.

أمّا الطبقة الثانية فتتألف من موظفين إداريين، وجنود سيلعبون فيما بعد دوراً رئيسياً في احتكار وسائل القوة لصالح الحكام، في الحساب الدقيق للفائض الغذائي الضروري لنمو الدولة المركزية واستمرارها، في إحراز المزيد من الأراضي، في ترسيخ طرق التجارة الرئيسية، وفي الاستكشاف المنهجي للأراضي البعيدة.

وعلى كل حال، كانت العولمة محدودة جداً معظم أوقات ما قبل التاريخ. أمّا أشكال التقنية القادرة على التغلب على المعوقات الاجتماعية والجغرافية الموجودة فكانت غائبة إلى أبعد الحدود؛ إذ إنّ تأثيراتها المتبادلة على مناطق متباعدة لم تصبح ملموسة بعد.

وفي نهاية هذا العصر فقط أخذت الأشكال التي تُدار مركزياً في مجال الزراعة، الدين، الدواوين، الحرب، تتشكل ببطء كمحركات رئيسية لأنماط مكثفة من المتبادلات الاجتماعية التي تتضمن زيادة عدد المجتمعات في مناطق متعددة من العالم.

ما قبل الفترة الحديثة (من ٣٥٠٠ قبل الميلاد إلى ١٥٠٠ بعد الميلاد)

تزامن اختراع الكتابة في بلاد ما بين النهرين، مصر، ووسط الصين في الفترة ما بين ٣٥٠٠ و٢٠٠٠ قبل الميلاد تقريباً

مع اختراع العجلة في جنوب غربي آسيا. مشيرة إلى انتهاء فترة ما قبل التاريخ، ارتقت هذه الاختراعات المتميزة إلى واحدة من تلك الدوافع التقنية والمجتمعية التي نقلت العولمة إلى سوية جديدة.

يعود الفضل في نجاح التوجه شرق-غرب المحور القاري الرئيسي الأوروبي الآسيوي إلى الخاصة الجغرافية التي سهلت الانتشار السريع للنبات والحيوان الملائم لإنتاج الغذاء على خط العرض نفسه، مما سمح لهذه التقنيات الجديدة أن تنتقل إلى أجزاء بعيدة من القارة خلال عدة قرون فقط. وسوف تتضح أهمية هذه الاختراعات في تقوية صيرورة العولمة.

من بين أشياء أخرى، عززت العجلة ابتكارات بنيوية تحتية مثل عربات تجرها خيول وطرقات دائمة تسمح بعمليات نقل الناس والإنتاج الزراعي والأمتعة بطريقة أسرع وأكثر فاعلية.

إضافة لانتشار هذه الاختراعات والأفكار، فقد سهّلت الكتابة إلى حد كبير تناسق الأنشطة الاجتماعية المعقدة وشجعت على تشكل تجمعات كبيرة. من بين هذه الوحدات الحضارية ذوات المساحة الضخمة التي نشأت في تلك الفترة، فإن حضارة الأنديز (Andes) في أمريكا الجنوبية هي الوحيدة التي تدبرت مسألة تحولها إلى إمبراطورية الإنكاش (Incas) الجبارة من دون منافع أيٍّ من العجلة أو الكتابة.

وهكذا كانت فترة ما قبل العصر الحديث فترة الإمبراطوريات. مع نجاح بعض الولايات في ترسيخ السيطرة على ولايات أخرى، فإنّ تجمعات محلية كبيرة ناشئة شكّلت أساس الممالك المصرية، الإمبراطورية الفارسية، الإمبراطورية المقدونية، الإمبراطوريتين الأمريكيتين للأزتيك والإنكاش، الإمبراطورية الرومانية، الخلافة الإسلامية، الإمبراطورية الرومانية المقدسة، إمبراطورية غانا الأفريقية، مالي، وسونغاي، والإمبراطورية العثمانية.

جميع هذه الإمبراطوريات عزّزت توسيع ومضاعفة النقل إلى مسافات طويلة وتبادل الثقافة، التقنية، البضائع، والأمراض. الأكثر ثباتاً والأكثر تطوراً تقنياً من بين هذه التكتلات المختلطة كانت من دون شك الإمبراطورية الصينية. نظرة متفحصة لتاريخ هذه الحضارة يظهر بعضاً من هذه المظاهر الحركية للعولمة.

بعد قرون من الحروب بين العديد من الولايات المستقلة، استطاع جيش إمبراطورية الكن (Qin)، في عام ٢٢١ قبل الميلاد، أن يوحّد بشكل نهائي أجزاء كبيرة من شمال شرق الصين.

وفي حوالى العام ١٧٠٠ الذي أعقب تلك

الفترة، فإن سلالات حاكمة متعاقبة معروفة مثل الهان (Han)، التانغ (Tang)، اليوان (Yuan)، والمينغ (Ming) حكمت إمبراطورية دعمتها سلطة إدارية امتد تأثيرها إلى مسافات بعيدة مثل جنوب شرق آسيا الاستوائية، البحر المتوسط، الهند، وأفريقيا الشرقية. وقد حفّزت الإنجازات الفنية الباهرة والفلسفية اللامعة مكتشفين جدداً في حقول أخرى من المعرفة كعلم الفلك، الرياضيات، والكيمياء.

واشتملت القائمة الطويلة من الاختراعات التي حصلت في الصين خلال فترة ما قبل العصر الحديث على المحراث ذي الشفرة المصلوبة، أدوات هندسية مائية، البارود، استخراج الغاز الطبيعي، البوصلة، ساعات ميكانيكية، ورق، طباعة، قماش حرير مطرز وافر، وتقنيات أعمال معدنية معقدة. بناء أنظمة ري ضخمة تتألف من مئات القنوات الصغيرة عزّزت الإنتاجية الزراعية المحلية.

في حين كانت تؤمّن في الوقت نفسه أفضل أنظمة النقل النهري في العالم. عزّز تصنيف القوانين وتثبيت الأوزان، وأدوات القياس، وعملية سك العملة من توسيع التجارة والمهن، وسمح تزايد حجم العربات التي تجرها الأحصنة وطرق المواصلات لتجار أول إمبراطورية صينية إنجاز سلسلة من التصميمات السياسية الحاسمة التي أوقفت الإبحار (الملاحة عبر البحار) وشرّعت رسمياً الانسحاب من تطوير تقنيات إضافية. وعلى هذا النحو، أوقف الصينيون الثورة الصناعية لإمبراطوريتهم وهي في مراحلها الأولى، وهو تطور سمح لدويلات أوروبية أصغر بالصعود كمحركات تاريخية أولية تقف خلف تكثيف العولمة.

باتجاه نهاية فترة ما قبل العصر الحديث، كانت شبكة التجارة العالمية القائمة في حينه مؤلفة من دوائر تجارية عديدة متداخلة ربطت بين المناطق الأشد كثافة سكانية في أوراسيا وشمال شرق أفريقيا. على الرغم من أنّ القارتين الأسترالية والأمريكية كانتا لا تزالان مفصولتين في حينه عن هذا النسيج المتسع في الاقتصاد، السياسة، والثقافة، فقد نجحت أيضاً إمبراطوريتا الأزتيك والإنكاش في تطوير شبكة تجارة رئيسية في محيطهما الجغرافي.

إنّ وجود هذه الشبكات المتشعبة التي تتبادل الاقتصاد والثقافة حفّزت كتلاً بشرية على الهجرة، والتي، بالمقابل، أدت إلى تزايد إضافي في عدد السكان ونمو سريع في مراكز المدن.

ومن خلال المعارك الثقافية الحاصلة، تحولت الديانات ذات الأهمية المحلية إلى ديانات عالمية كتلك التي نعرفها اليوم كاليهودية، المسيحية، الإسلام، الهندوسية،

والبوذية. لكن مع تزايد الكثافة السكانية وانتشار كثيف للتواصل الاجتماعي على مسافات أضخم سهّل أيضاً انتشار أمراض سارية جديدة مثل الطاعون الدبلي.

إن وباء الطاعون الضخم الذي ضرب العالم في منتصف القرن الرابع عشر، على سبيل المثال، قتل ثلث سكان كل من الصين، الشرق الأوسط، وأوروبة. وفي كل الأحوال، هذه النتائج غير المرغوبة لانتشار عمليات العولمة لم تصل إلى مظهرها الأكثر رعباً إلى أن حصل الصدام الحاسم للقرن السادس عشر بين العالمين القديم والجديد، حين ارتكب الغزاة الأوروبيون جرائم خطيرة أدت إلى قتل حوالي ١٨ مليون نسمة من سكان أمريكا الأصليين.

أوائل العصر الحديث (١٥٠٠-١٧٥٠م)

أصبح مُصطلح الحداثة مرافقاً لمشروع التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر في تطوير علم موضوعي، في إنجاز شكل عالمي للأخلاق والقوانين، ووضع أنماط منطقية من التفكير والتنظيم الاجتماعي متحررة من اللاعقلانية التي كانت سائدة في كل من الأساطير، العقائد، والنظم السياسية المستبدة.

تشير عبارة «العصر الحديث»، في حينه، إلى الفترة الواقعة ما بين عصر التنوير وعصر النهضة. خلال هذين القرنين، فإنَّ أوروبة ونظمها الاجتماعية قامت بدور المحفز للعولمة. مع مساهمة ضئيلة في ميدان التقنية وإنجازات حضارية أخرى حصلت قبل ١٠٠٠ عام من ميلاد المسيح، فإنَّ أوروبيي شمال شرق جبال الألب استفادوا كثيراً من انتشار الابتكارات التكنولوجية الحاصلة في الأجواء الثقافية الإسلامية والصينية.

وعلى الرغم من التأثير السياسي المتضائل للصين والضعف الاقتصادي الملحوظ للهلال الخصيب بعد ٥٠٠ عام، لم تنجح القوة الأوروبية في الدخول إلى أعماق أفريقيا وآسيا. بدلاً من ذلك، حوّل الأوروبيون رغباتهم في التوسع باتجاه الغرب، يبحثون عن طريق بحري جديد مُربح إلى الهند. ساعدهم في مساعيهم مثل هذه الاختراعات كالطباعة الآلية، طواحين الهواء والماء البالغة التعقيد، أنظمة بريدية شاملة، تقنيات تجارية بحرية مُحسّنة، وأدوات ملاحية مُطوَّرة.

أضف إلى ذلك كله التأثير الهائل لحركة الإصلاح الديني البروتستانتية[٢] وفكرة الليبرالية السياسية التي أدت إلى حكومة مقيّدة دستورياً، وأصبحنا متأكدين من هوية القوى الأساسية التي تقف خلف القفزة

النوعية التي عززت بشكل كبير التدفق البشري والثقافي والاقتصادي بين أوروبة وأفريقيا والأمريكيتين.

كان لنشوء المراكز المدنية الأوروبية إضافة إلى مؤسسات تجارية متنوعة تابعة لها عامل إضافي قاد إلى تقوية النزعات باتجاه العولمة خلال أوائل العصر الحديث. مجسدين القيم الفردية الجديدة مع تراكم مادي غير محدود، الأمر الذي مكّن المقاولين الاقتصاديين الأوروبيين من وضع الأساس لما سيطلق عليه الباحثون فيما بعد النظام الرأسمالي العالمي.

على كل حال، هذه الرأسماليات الناشئة لم يكن لها أنّ تنجز التوسع العالمي لمشروعها التجاري من دون دعم أساسي من حكوماتها التابعة لها. فالملكيات الأسبانية، والبرتغالية، والهولندية، والفرنسية، والإنكليزية جميعها وضعت في الحسبان الموارد والثروة في العالم الجديد المكتشف ومن ثم بناء سوق تجاري عابر للحدود يقدم فوائد لها أكثر مع شركاء التجارة الخارجيين.

ومع أوائل ١٦٠٠م، تمّ تأسيس شركات وطنية ذات رأسمال مشترك مثل شركتي الهند الشرقية البريطانية والألمانية لأهداف واضحة هي تأمين نقل تجاري مربح عبر البحار. مع نمو هذه الشركات المبتكرة في الحجم والمنزلة، اكتسبت مقدرة تنظيم معظم الصفقات الاقتصادية عبر القارات، في عملية إنجاز مؤسسات اجتماعية وعادات ثقافية مكّنت أخيراً الحكومات الرأسمالية من وضع هذه المناطق تحت حكم سياسي مباشر.

وأمّا التطورات المرتبطة بالموضوع، مثل تجارة الرقيق عبر الأطلسي وفرض انتقال سكاني ضمن الأمريكيتين، نتج عنها معاناة وموت الملايين من غير الأوروبيين بينما جاءت المنافع الضخمة لصالح المهاجرين البيض وأوطانهم الأصلية.

ومما لا شك فيه، إنّ الحروب الدينية في أوروبة كان لها نصيب في استيطان أراضي بلاد القوقاز وتهجير سكانها.

علاوة على ذلك، ونتيجة لهذه النزاعات المسلحة الطويلة، فإنّ التحالفات العسكرية والترتيبات السياسية عانت تعديلات مستمرة. وفي النهاية على خطا معاهدة سلام ويستفاليا(٣) (The Peace Of Westphalia)، نشأت عام ١٦٤٨م ولايات وطنية مستقلة وذات سيادة كإطار حديث للحياة الاجتماعية. مع اقتراب فترة الحداثة المبكرة من نهايتها، أخذت علاقات التبادل بين الولايات المحلية تتضاعف وتزداد كثافة.

الفترة الحديثة (١٧٥٠-١٩٧٠)

مع نهاية القرن الثامن عشر، بدأت أستراليا وجزر الباسفيك بالاندماج التدريجي بالشبكة الأوروبية المسيطرة على السياسة والاقتصاد والتبادل الثقافي. مواجهين بشكل متزايد بقصص عن «المختلف» وصور لا عد لها عن «الآخرين»، أخذ الأوروبيون وأسلافهم في قارات أخرى على عاتقهم دور الحراس العالميين على القوانين والأخلاق كما يرونها.

على الرغم من ادعاءاتهم المستمرة في الريادية الحضارية، بقي هؤلاء المستعمرون، وما يثير الغرابة غير مدركين لممارستهم العنصرية والشروط المرعبة لعدم المساواة التي وجدت سواء ضمن مجتمعاتهم الخاصة بهم أو بينهم وبين الآخرين. وقد كسب المشروع الرأسمالي الغربي موقعاً قوياً نتيجة تمويله بجدول مستمر من المواد ومصادر الثروة الموجودة بشكل طبيعي في تلك البلدان.

بعدئذ بدأ المقاولون ونظراؤهم من الأكاديميين، مع جسارة في مقاومة سيطرة الحكومات القوية، بنشر فلسفة الحرية الفردية وتبرير المصلحة الشخصية بنسبهما إلى العقل والمنطق وتمجيد فضائل نظام الرأسمال العالمي المفترض أنه قائم على أعمال مرتبطة بالعناية الإلهية للتجارة الحرة ويدها الخفية.

نورد فيما يلي مقطعاً من «البيان الشيوعي» الشهير الذي يشير إلى تغير نوعي في العلاقات الاجتماعية التي دفعت العولمة إلى سوية جديدة في فترة الحداثة، والذي صاغه الراديكالي الألماني كارل ماركس مع رفيقه الإنكليزي فريدريك إنجلز عام ١٨٤٧م:

«إن اكتشاف أمريكا مهّد الطريق لصناعة جبارة خلقت بدورها سوقاً اقتصادية عالمية حقاً. لقد وسّعت الأخيرة بشكل معتبر التجارة، الملاحة، والاتصالات البرية. وهذه التطورات، بالمقابل، سببت اتساعاً إضافياً في الصناعة.

لقد سار نمو كل من الصناعة، التجارة، الملاحة، وطرق السكة الحديدية جنباً إلى جنب مع نمو البورجوازية والرأسمالية التي دفعت إلى الوراء الطبقات الاجتماعية للعصر الوسيط.. متمددة على كامل الأرض تحدوها رغبة عارمة لسوق اقتصادية لا حدود لها لتصريف منتجاتها، لم يكن لدى البرجوازية خيار سوى الاستيطان في كل مكان؛ تعهد في كل مكان؛ إقامة علاقات في كل مكان..

ومع التحسن السريع في آلات الإنتاج، راحت البرجوازية تستخدم أنماطاً مريحة

باستمرار للمواصلات لجرّ كل الأمم إلى الحضارة - حتى البربرية منها.. بإيجاز كلي، إنها تخلق عالماً على صورتها».

على أرض الواقع، تزايد حجم التجارة العالمية بشكل مثير ما بين عامي ١٨٥٠ و١٩١٤م. وتحت تأثير أنشطة البنوك متعددة القوميات، تدفقت البضائع ورؤوس الأموال عبر الحدود بشكل حر نسبياً عندما أتاح الجنيه المعتمد على الذهب للعملات الوطنية القائدة مثل الجنيه البريطاني والجلدر الهولندي بالتداول العالمي.

كما أخضعت معظم الدول القومية الأوروبية أجزاء كبيرة من جنوب الكرة الأرضية لحكم استعماري مباشر، حرصاً منها على اكتساب مصدر ثروة خاص بها. وصلت تجارة البضائع إلى نسبة من الدخل الوطني الكلي تعادل ١٢٪ من إنتاج الدول الصناعية عشية الحرب العالمية الأولى، وهي سوية لم تتحقق حتى عام ١٩٧٠م.

سهّلت عملية تسعير المنتجات عالمياً من تجارة المواد المهمة مثل الحبوب، القطن، ومعادن مختلفة. ولمعت أسماء شركات تجارية ظهرت للوجود مثل مشروب الكوكاكولا، مشروبات الكامبل (Campbell) الروحية، ماكينات الخياطة سينجر (Singer)، وطابعات رمينغتون (Remington). ومن أجل تثبيت وإظهار عالمية هذه الشركات، أطلقت وكالات صحافة عالمية أوّل حملات ترويج تجارية عابرة للحدود.

ومع ذلك، فقد لاحظ ماركس وإنجلز أنّ نشوء البرجوازية وتزايد العلاقات المترابطة عالمياً لم يكن ممكناً من دون الثورة العلمية والتكنولوجية التي تفجرت في القرن التاسع عشر.

بلا ريب، فإنّ المحافظة على هذه المنظومات الصناعية تطلبت مصادر قدرة جديدة مثل الكهرباء والبترول. كما أنّ الاستخدام غير المنظم لمصادر الطاقة أدى إلى فناء أعداد هائلة من الحيوانات والنباتات إضافة إلى تسمم مناطق بأكملها.

ومن الجانب الآخر، نجحت وسائل النقل الحديثة في القرن العشرين مثل السكك الحديدية، السفن الآلية، وطيران عابر للقارات في قهر آخر العقبات الجغرافية أمام تقوية البنية التحتية الحقيقية للعولمة، ومخفضة في الوقت نفسه من تكاليف عمليات النقل.

اكتملت هذه الابتكارات في وسائل النقل مع التطور الهائل في تكنولوجيا الاتصالات. قدّم التلغراف وامتداده فيما وراء الأطلسي عام ١٨٦٦م مثالاً على تبادل المعلومات بين نصفي الكرة الأرضية.

علاوة على ذلك، مهّد التلغراف الطريق أمام ظهور الهاتف والاتصالات الراديوية

اللاسلكية، وهذا بدوره حفّز على نشوء شركات اتصال جديدة مهمتها صياغة شعارات إعلانية للاحتفال بولادة عالم متحد اتحاداً لا فكاك منه.

أخيراً، عزّز توزيع هذا الكم الهائل من الصحف والمجلات، الأفلام، والقنوات التلفزيونية إلى أبعد مدى من تزايد الإدراك بعالم تتقلص مسافاته بسرعة هائلة.

شهدت الفترة الحديثة أيضاً انفجاراً سكانياً غير مسبوق. ففي حين تزايد عدد السكان بشكل متواضع من ٣٠٠ مليون عند ميلاد المسيح إلى ٧٦٠ مليون في عام ١٧٥٠م، وصل عدد سكان العالم إلى ٣.٧ مليار نسمة عام ١٩٧٠م، وهو يقارب الآن تسع مليارات نسمة.

كثّفت الموجات الوافرة من الهجرات من التبادل الثقافي الموجود وبدّلت في الأنماط الاجتماعية التقليدية. فالبلدان المألوفة في استقبالها للمهاجرين مثل الولايات المتحدة، كندا، وأستراليا استفادت من ميزة هذه الزيادة.

مع أوائل القرن العشرين، دخلت هذه البلدان مرحلة العالمية كقوى يُحسب لها حساب. وفي الوقت نفسه، قدّمت مساهمات مهمة للسيطرة على تدفقات الهجرة الكبيرة تلك، من خلال عملية اختراع أشكال جديدة من السيطرة البيروقراطية وتطوير تقنيات مصممة لتجميع معلومات حول جنسيات المهاجرين ومنع دخول غير المرغوب بهم.

عندما تسارعت عمليات التصنيع وتعززت التباينات في الثروة وأصبحت الفوارق فوق الحدود المحتملة، بدأ كثير من الناس في النصف الشمالي من الكرة الأرضية ينظمون صفوفهم سياسياً في حركات عمالية وأحزاب اشتراكية عديدة.

وعلى كل حال، فإنّ دعواتهم المثالية لتضامن طبقي عالمي ذهبت من دون تجاوب فعّال. وبدلاً من ذلك، كسبت الأيديولوجيات الوطنية خيال ملايين الناس حول العالم.

لا يوجد أدنى شك على تعاظم المنافسة بين الدول مع ظهور القرن العشرين نتيجة للهجرات الكبيرة، التمدن، المنافسة الاستعمارية، والتزايد في تحرير التجارة العالمية. بلغت الفترة التالية من التطرف القومي أوجها في حربين عالميتين مدمرتين، رافقه انكماش اقتصادي طويل، وإجراءات عدائية ضد التنظيمات السياسية المتعصبة.

ومع سقوط دول المحور في عام ١٩٤٥م وتحرر الدول من الاستعمار المباشر، انتعشت تدريجياً عمليات تدفق الأفراد عبر العالم وزاد حجم التبادل الاقتصادي والتجاري بين الأمم بشكل هائل.

كما أنّ ظهور نظام سياسي جديد

راسخ للدول الوطنية تحت وصاية الأمم المتحدة، عزّز الآمال في إمكانية نشوء حكومة ديمقراطية عالمية. لكن، مع حلول عام ١٩٥٠م، سرعان ما تبخرت مثل هذه الآمال العالمية عندما قسمت الحرب الباردة الدول إلى معسكرين متخاصمين لمدة أربعة عقود: المعسكر الرأسمالي الإمبريالي بزعامة أمريكا، والمعسكر الاشتراكي الشمولي بزعامة الاتحاد السوفييتي. ولأوّل مرّة في تاريخ الجنس البشري، كانت أطراف الصراع العالمي قادرة على تدمير الحياة على الأرض فيما لو نشبت حرب بينها.

الفترة الراهنة (من ١٩٧٠م حتى الآن)

أصبح مؤكداً لدى الجميع أنّ الابتكارات المثيرة، توسّع العلاقات المتبادلة على مستوى العالم وتسارعها والتغيرات الحاصلة فيه منذ أوائل عام ١٩٧٠م، تمثّل قفزة نوعية أخرى في تاريخ العولمة. لكن ما الذي يحصل تماماً؟ لماذا ما يحصل يسوّغ خلق كلمة طنانة لم تأسر خيال العامة فحسب، لكنها أحدثت أيضاً مثل هذه الردود العاطفية المليئة بالتناقضات؟ هل العولمة شيء جيد أو سيّئ؟ أو هي الاثنان معاً؟ ليس سهلاً إعطاء الجواب المناسب لهذا السؤال الحاسم في التاريخ البشري الحديث. ومع أنّ مصطلح العولمة يطبق على الفترة المعاصرة، يجب أن نضع في الذاكرة أنّ القوة المحركة لهذه العمليات بدأت فعلياً قبل آلاف السنين.

الهوامش

١- يشغل ستيجر وظيفة أستاذ دراسات العولمة ومدير مركز أبحاث العولمة في جامعة RMIT في أستراليا، وهو أيضاً زميل مرتبة عليا في مركز أبحاث العولمة في هونولولو من هاواي، وعضو جمعية خريجي قسم العلوم السياسية التابع لجامعة هاواي في مانوا.

٢- حركة إصلاحية بدأت في الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر، ومن ثم تحولت إلى حركة عقائدية مستقلة. من أبرز مؤسسيها الراهب الألماني مارتن لوثر، الذي كتب الوثيقة الشهيرة التي تحتوي على خمسة وتسعين مبدأ في معارضة التعاليم الكاثوليكية وعلقها على باب كنيسة القلعة.

٣- هي سلسلة من الاتفاقيات وقعت خلال عام ١٦٤٨م في أونسبروك ومونستر في ولاية ويستفاليا. أنهت هذه الاتفاقيات حرب الثلاثين عاماً في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وحرب الثمانين عاماً بين إسبانيا وجمهورية الدوتش، اعترف بموجبها الأسبان باستقلالية جمهوريات الشعوب الناطقة بالألمانية.

هل الكون منظومة معلوماتية؟

المهندس: فايز فوق العادة ○

بعد قرن ونيف من طرح مصطلحي المادة والطاقة، برز مؤخراً مصطلح جديد هو مصطلح المعلومات. هل يقف هذا المصطلح يا ترى على قدم المساواة مع المصطلحين السابقين؟

إنَّ المادة هي الأرض التي نسير عليها، هي الهيئات التي تشكلها أيدينا، هي السيارات التي تنقلنا. أمَّا الطاقة فهي ما نستمتع به عندما نتعرض لأشعة الشمس في يوم بارد، إنَّها الآلام التي يستشعرها أحدنا إذا احترق إصبعه بعود ثقاب. تُظهر المادة والطاقة الطبقة السطحية من الكون. أمَّا المعلومات فهي العمق الكوني الشامل والمحير. إن المعلومات جزء من الكون كالمادة والطاقة، وهي تتعلق بشكل من الأشكال بالعلاقة المتبادلة بين المادة والطاقة. إنَّها نشاط داخلي ذاتي، لكنها حقيقية التواجد وفعلية، شأنها شأن المادة والطاقة. إننا لا نستطيع مقارنة منتج مادي كالسيارة بمنتج فكري يُخط على صفحات كتاب.

لقد اقترن بروز مصطلح المعلومات مع اختراع الحاسوب كما ولد مصطلح الطاقة إثر اختراع الآلة البخارية. تمَّ تجريد مفهوم الطاقة بعد اختراع أجهزة الطاقة. إنَّ الطاقة هي منظومة معلوماتية تذهنية. يمثل الحاسوب والآلة البخارية امتداداً

○ رئيس الجمعية الكونية السورية.

تلقائياً للنشاط الفكري للكتلة الجمعية لبني البشر.

على الرغم من أوجه التشابه بين الطاقة والمعلومات فهناك فارق أساسي. إنَّ أحداً منّا لا يستطيع تقديم كمية من الطاقة بشكل معزول، لا بل إنّه يعجز عن تحسس الطاقة مباشرة كما يفعل عندما ينغرس دبوس بإصبعه. كذا هو شأن المعلومات، إنها تبدو بالغة التجريد مالم تُصب في الفعل الواقعي. إذ ذاك تفقد تعريفها كمعلومات لتصبح مجرد تحولات مادية وحسب. لكن الطاقة، وكما أشرنا، تتخلل أحاسيسنا فننعم بطاقة الشمس أو نتألم من لهب عود ثقاب. ألا تحمل المعلومات الميزة نفسها، فهناك معلومات مفرحة وأخرى محزنة.

نستطيع النظر إلى المادة باعتبارها الحامل الأساسي للمعلومات. تنتقل المعلومات بوساطة النبضات الكيميائية وعبر السطوح الميكانيكية وفي ثنايا المجالات الكهرومغناطيسية. نستطيع تجزئة المعلومات إلى رزم فيزيائية ممكنة القياس.

لايوجد موقف محايد من المعلومات، إنَّ الإبداع إضافة معلوماتية إلى الخافية الإنسانية التاريخية، وهو قبلاً معاناة جمالية. كانت المعاناة الجمالية أوّلاً عندما ثَبّت المبدعون القدماء رسوماتهم على جدران الكهوف.

هكذا تلتقي الطاقة والمعلومات، لكنهما تفترقان في سياق آخر. عندما نقطع التيار الكهربائي عن دارة الإضاءة في غرفة لا يبقى أي شاهد يؤكد أنَّ كمية من الطاقة الكهربائية كانت قد زُودت إلى الغرفة. لكن الطاقة المتحدرة من محطة الطاقة تملك بمعنى من المعاني حقيقة فيزيائية ثابتة. أمَّا الفكرة المنظومة فسرعان ما تتلاشى بصمت صاحبها ولايبقى هناك من شاهد فيزيائي يثبت أنَّ الفكرة قد قيلت فعلاً.

إذا انقلبت شجرة في غابة من دون أن يتواجد راصد ينقل أخبارها، فهل تكون قد انقلبت فعلاً!

يتعلق الأمر بتعريف البنية المعلوماتية في نظرية المعرفة. البنية المعلوماتية أنموذج ذهني يختزل الماضي والمستقبل فيما ندعوه الآن. المعلومات وفق ذلك هي لحظة الآن الخلاقة. إنَّ بمقدورنا أن نحفظ المعلومات والطاقة، فالمعلومات يُمكن أن تخزن في وسط مادي، بالمثل تُدّخر الطاقة الكهربائية في البطاريات. تُستنفد الطاقة لدى استخدامها، أمَّا المعلومات فيمكن أن يُستفاد منها من دون توقف.

نتساءل هنا فيما إذا كان لأي من المصطلحات الثلاثة: المادة والطاقة والمعلومات، أولوية على المصطلحين الآخرين. نعيد قراءة قانون نيوتن للفعل ورد

الفعل: (يؤثر كل جسم مادي في جسم آخر بقوة تساوي وتعاكس تأثير الجسم الآخر في الجسم الأول). يرتكز هذا القانون على مبدأ انخفاض الطاقة، فلو لم تكن صيغة القانون كذلك إذن لرجح فعل أحد الجسمين على فعل الجسم الآخر ولبذل عملاً متزايداً خارقاً بذلك مبدأ انخفاض الطاقة. يُشتق مبدأ انخفاض الطاقة بدوره من ضرورة التناظر الزمني للقانون الفيزيائي أي صلاحية القانون في الماضي كما في المستقبل.

كان الزمن هو السياق الفعلي للأحداث. أدى اختراع الساعة، وهي منظومة معلوماتية فعلية، إلى تجريد مفهوم الزمن وإسباغ سمتي الاستمرار والسرمدية عليه. غدا الشعور بالزمن أشبه بإيقاع سرمدي مستمر بعد انتشار التذوق الموسيقي. إنّ الزمن معلومات لأنّه موسيقي والموسيقى إيقاع كوني داخلي. يمثل الزمن خصائص الاستمرار والسرمدية والتجانس، بينما يعكس القانون الفيزيائي مبدأ النظام وهي كلها معايير معلوماتية.

لابدّ من أن نشير هنا إلى خلاف أساسي بين المعالجة المعلوماتية في الحاسوب والمعالجة المناظرة في الدماغ. ففي حين أن الحاسوب يُنجز الحسابات وحسب، يقوم الدماغ ببناء النماذج. وعلى الرغم من أنّ الدماغ يُغيّب هذه النماذج لحين الحاجة إليها، فإن الحاسوب يحتفظ بكل المعلومات في سوية واحدة تجعلها جاهزة عند أية لحظة. لذا تحدد السعة المعلوماتية للحاسوب بالحجم الفيزيائي لمكوناته، بينما لا تتوقف قابليات الدماغ على حجمه.

يعجز الحاسوب عن الاحتفاظ بالمعلومات مالم تمتثل مكوناته لمخطط نظامي صارم. إن أي خلل في هذا المخطط يفضي إلى فقدان كم كبير من المعلومات. هذا إلى أنّ توسيع إمكانات الحاسوب يعني بالضرورة أن يتوافر مخطط نظامي آخر لايقل صرامة.

على العكس، إنّ توسيع المعلومات والبنى المعرفية في سوية الفكر الإنساني يقضي بوجوب حدوث خلل في النظام الذي ترتكز عليه قاعدة معرفية سابقة. قد يؤدي ذلك إلى تبدد بعض المعلومات، لكنه شرط رئيسي لابدّ منه لإحداث طفرة جديدة تؤمن الانتقال إلى سوية معرفية مغايرة. لايعمل الحاسوب إلاّ عندما يتحقق مبدأ الجاهزية المعلوماتية فلابدّ من تلقين الحاسوب كل المعلومات الضرورية لمعالجة قضية معطاة.

على العكس، لايعمل الدماغ إلاّ عند تغييب المعلومات في الخافية أو اللاوعي، إذ يستحيل تسجيل كل المعلومات التي يحوزها إنسان في دماغه. إنّ الدماغ أصغر بحجمه من طبع كامل المحصلة المعلوماتية فيه. لايستعيد الدماغ إلى ساحة الوعي إلاّ المعلومة الضرورية عند لحظة معينة.

يفضي تنظيم المادة والطاقة إلى تخليق كميات متزايدة من المعلومات. بدورها تخلق المعلومات مادة وطاقة منظمتين تفتحان آفاقاً جديدة للمعرفة. نجد في الرقاقات الحاسوبية وجزيئات الـDNA أمثلة متميزة. تُفعّل الجزيئات الأخيرة ظاهرة الحياة، فمن دون الحياة تغدو المعلومات والجزيئات أشبه بكتاب مطوي لايجد من يقرأه.

نؤكد على ذلك، إذ لا انفصال بين المعلومات وبين المعنى. المعلومات في هذا الإطار تمثّل عملية خلق متجددة. يجب ألاّ نخلط عملية الحصول على المعلومات ومعالجتها بالمعلومات بحد ذاتها. هناك معلومات صرفة: مجرد مصطلح كالمادة الصرفة أو الطاقة الصرفة.

إنّه مصطلح تحليلي مجرد أشبه بالعدد. علينا أن نتذكر أنَّ العدد غير موجود في الطبيعة. إنَّه نحت عقلي مفارق. نخلص مما تقدم إلى نتيجة مفادها أنَّ المعلومات لاتصبح معلومات إلاّ عندما يتم تمثلها. إنْ كانت الطاقة هي المقدرة على إنجاز عمل فالمعلومات هي المقدرة على تحول مجموعة إلى النظام أيّ قلبها إلى منظومة. أوَليست الكينونة المادية الطاقية بحد ذاتها بنية معلوماتية؟

نُجمل فيما يلي القوانين الأساسية للمعلوماتية:

القانون صفر: تؤول أية منظومة معلوماتية إلى التفكك والاندثار والاختلاط من دون تمييز بالهباءات الكونية.

القانون الأوّل: تخضع المعرفة والفوضى إلى قانون الانحفاظ التالي: الفوضى+المعرفة= ثابت.

القانون الثاني: لاتبلغ أية منظومة معلوماتية حدّ الكمال، إذ تقترن وعلى الدوام بهامش من الفوضى والريبة واللاأدرية بسبب ازدياد الأنتروبي أي الفوضى.

إنَّ الأنتروبي مصطلح رياضي مجرد آخر يعبر عن انعدام النظام. إنَّ هذا القانون هو أهم قانون كوني إلى جانب قانون الجذب الثقالي. يحاول قانون الجذب الثقالي تحقيق النظام المطلق بضم الأجسام الكونية إلى بعضها. على العكس يسعى القانون الثاني إلى تفكيك البنى الكونية، وهي بنى معلوماتية، وبعثرتها. يُعزى دوران أي جسم في الكون حول نفسه إلى تنازع هذين القانونين.

القانون الثالث: لايوجد حدّ فاصل على صعيد الكون بين المنظومات المعلوماتية وبين المنظومات الفيزيائية. لعلَّ المنظومة المعلوماتية هي ذاتها المنظومة الفيزيائية.

نستنتج مما تقدم أن المعلومات هي البنية الداخلية للكون، إنَّها الكون. إنَّ كل قانون فيزيائي هو مصادرة معلوماتية وكل

حركة هي فعل معلوماتي. إنَّ المجموعة غير المنظمة في الكون احتمالها أكبر، أمَّا المعلومات فاحتمالها أقل. إنَّ العمل الخلاق المفيد هو الذي يخفض الأنتروبي ويزيد المعلومات بالتالي. يعني استمرار العمل المفيد الخلاق تفجراً دائماً لمعلومات مستحدثة تبدو وكأنها آتية من معين لا ينضب.

إنَّ الحد الأعلى النظري للمعلومات مستحيل، إنَّه غير موجود. المعلومات هي المحاولة الكونية لتجاوز الفوضى. بذا نستطيع تصور الكون باعتباره العمل المفيد الخلاق. ينبث هذا العمل في كل الثنايا والتفاصيل. مثلاً: تصنف الكلية بشكل مستمر جزيئات الدم طاردة الجزيئات الضارة. إنَّها تحول الطاقة إلى معلومات.

نتخيل حالة المعلومات صفر، أي لانهاية من الأنتروبي، عندما تتكون المنظومة من جسيمات أساسية ليس فيها نظام ظاهر أو باطن. إنَّها حالة صفر للمادة أيضاً. ولو توافرت الطاقة فلن يكون هناك نظام. لذا لا داعي لوجود قوى الطبيعة.

إنَّ مهمة هذه القوى إنجاز النظام عندما تتوافر المعلومات والطاقة. إنَّها الحالة الأولى للكون، باعتبار أن الكون منظومة معلوماتية نصوغها الآن وهنا. لانَستثني الحياة، فاستثناء الحياة هو التناقض. لكن دعونا نستثني الحياة خطأً للخطة كي نصف الوضع الأوّل، وهو وضع فيزيائي بحت، بأنَّه نظام كامل. إنَّ الحياة لاترسم حدوداً في عملية بناء النظام، إنَّها تحول طاقة الشمس المبعثرة والمشتتة إلى بروتينات أي إلى نظام ولاشك أنَّها تفعل شيئاً مماثلاً بطاقات النجوم الأخرى.

نواجه في بحثنا حدين: الحد الأوّل هو الكون المنحدر إلى الفوضى، والحد الثاني الحياة الذاكرة. إنَّنا إذ ندمج الحياة بالذاكرة نعترف باستحالة فصل الحياة عن الذاكرة. تسعى الحياة الذاكرة إلى النظام، والحياة الذاكرة أوّلاً، لأنَّ الفوضى كمفهوم هو نظام أبدعته الحياة الذاكرة. إنَّ أهم ما في الكون كمنظومة معلوماتية أنَّه عودي البنية ذلك أن مكوناته تُعرف بذواتها، وهو متماثل ذاتياً، فالهيئة اللولبية للمجرة هي الهيئة اللولبية ذاتها للإعصار ولجزيء الـ DNA وللشعر المصفف على خلفية الرأس وللمسار الصاعد للنبات المتسلق.

نختزل الكون باعتباره تفاعل المعلومات مع المادة والطاقة لتشكيل البنى. إن كانت هناك مادة مع طاقة من دون معلومات لاستحالت الهيئة وانعدام المعنى. يعني وجود المادة مع المعلومات من دون طاقة تبلوراً عند درجة حرارة الصفر المطلق وتجمداً للسيالة الزمنية.

الصفر المطلق هو الحد الأدنى الممكن لدرجات الحرارة في الكون وهو يساوي تقريباً ٢٧٣درجة تحت الصفر المئوي. يتوقف كل حدث عند الصفر المطلق. ماذا لو توافرت المعلومات والطاقة وكان الكون عارياً عن المادة. تنتشر إذ ذاك جسيمات الطاقة في كون مظلم صامت يعدم أي تعريف. إنَّ الزمان والمكان كلاهما مدى معلوماتي كوني. لاغرو فيما نرى من توسع الكون، ذلك أنَّ تنظيم المادة في حجم أكبر يحتاج معلومات أكثر. يتعمق المدى المعلوماتي الكوني مع تمدد الكون أي يتوافر المزيد من الآنات والأمكنة.

لقد شغل مفهوم الطاقة الكامنة أذهان العلماء. عندما يرتفع جسم عن سطح الأرض تزداد طاقته الكامنة الثقالية، وحيثما يقطع الإلكترون مسافة أطول في دارة، تتعاظم طاقته الكامنة الكهربائية. يمكن أن نفسر الطاقة الكامنة على أساس المعلومات، ذلك أنَّ ازدياد التباعد يحدد المكان أكثر كما ويحتاج معلومات أكبر. عندما تتباعد المجرات تزيد طاقاتها الكامنة وتتناقص طاقاتها الحركية. يعكس ذلك حقيقة الجنوح الذي أتينا على ذكره ألا وهو الجنوح إلى زيادة المعلومات. كلما اكتشفنا مجرة ازدادت معلوماتنا.

إن كان الكون منظومة معلوماتية، فهو أشبه بآلة بخارية حيث تلعب قوانين وثوابت الطبيعة دورة بنيوية الآلة. على الرغم من أنَّ الحرارة طاقة فوضوية، إنَّها طاقة من دون معلومات، فإنَّ بنيوية الآلة الممثلة للمعلومات هي التي تصل بالآلة إلى المردودية المطلوبة منها. كذا هو شأن البنيوية الذاكراتية الكونية. إنَّ غياب البنية ضمن بنية يعني وجود معلومات، كمثل ضرورة وجود فراغات بين الكلمات لإضفاء المعنى.

هكذا عندما يترك إلكترون فجوة حينما يغادر ذرة، فإنَّ الفجوة تتجسد في هيئة معلومة. بالتالي إنَّ الفضاء في الذرة والكون هو معلومات. يعني ذلك أنَّ الكون مطوي على كل معلوماته السابقة. من هنا كان الكون الذاكراتي. إنَّنا غارقون في موج متلاطم من المعلومات. حتى إذا تحدثنا عن طاقة جسم فحديثنا معلوماتي الطابع.

إنَّ النظرية الموحدة التي يسعى إليها العلماء لدمج القوى الكونية، يجب بالضرورة أن تكون نظرية عن المعلومات، ماذا لو تصورنا الكون كبنية من وحدات معلوماتية أولية تتحول ضمن اشتراطات خاصة إلى مادة وطاقة. نستطيع إذ ذاك أن نجدد رؤيتنا للتظاهرات الكونية.

لاتتقيد الوحدات المعلوماتية بسرعات محددة. إن تسارعت نحو سرعة الضوء حدث انزياح دوبلر نحو الأحمر، وإن انخفضت سرعاتها مقتربة من سرعة الضوء

فإنَّها تنقل المعلومات الخاصـة بكينونات لا نسـتطيع مكاشـفتها، ذلك أننا لاندرك إلاَّ سرعة الضوء والسرعات الأدنى.

هنـا نجد مكاناً لتعريـف المادة العاتمة في الكون. وفق نظرية النسبية العامة تحني المادة المتصـل المكاني الزمـاني، إنَّها تقدم المعلومات لفعـل ذلك ولاشـك. إنَّ حقيقة امتصـاص أو إطلاق فوتونـات الطاقة قد تكون لها علاقة بتوليد الوحدات المعلوماتية الأوليـة. يوظـف العلماء المـكان والزمان كمرجعين في دراسة الكون.

لانسـتطيع فهم الزمان والمكان من دون مرجع أي تنظيم، ووفق فرضيتنا: معلومات. إنَّ المرجع المنظم أي المعلومات هو الأسـاس في كل قياس فيزيائي. كيف ننظر إلى الثقب الأسود حيث يختفي المكان ويتوقف الزمن. لعلَّ الثقب الأسـود هو الحالـة المعلوماتية الصفرية لراصد بعيد عن الثقب. إذا أبحرنا أبعد من ذلك، تقودنا تصـوراتنا إلى أكوان مغايرة حيـث المادة سـالبة الكتلة والطاقة سالبة، وبدورها المعلومات سالبة أيضاً.

المراجع

1- Fraser; Gordon (Editor), The New Physics For the Twenty- First Century,2006, Cambridge University Press.

2- Bohm; D and Hiley; B.J., The Undivided Universe,1993, Routledge- London.

3- Dyson; Freeman, Infinite in All Directions, 1988, Harper& Row, U.S.A.

4- George; H.H., Philoso phical Foundations of cybernetics, 1979, Abacus Press, U.K.

تقنيات نظم المعلومات لمواجهة الأزمات والكوارث

● وهدان وهدان

نشأت المعلوماتية كعلم في أواخر ستينيات القرن الماضي بعد أن كانت مزيجاً من التطبيقات التي يحتكرها المهندسون في التطبيقات والتي تمحورت حول مراكز الحاسبات التي كانت تتمتع باستقلالية وتقوم بشكل أساسي في تقديم الخدمة للمستثمرين، وقد غلبت على المعلومات قبل أن تنشأ كعلم صفة الإدارة المرادفة للعلوم الأخرى، لكن تعقيدات الحاسبة من جهة وتقيد التطبيقات والتقنيات المعلوماتية المستجدة من جهة أخرى أدى إلى فرض اختصاص المعلوماتية على الدراسات الجامعية وعلى الصناعة أيضاً، وابتدأت تنشأ أقسام الهندسة هندسة الحاسبات في الجامعات، كما ابتدأت شركات البرمجيات وشركات صناعة الحاسبات بالازدهار من خلال ذلك وبشكل كبير يمكن أن نشبه ما حدث للمعلوماتية بما سبق حدوثه للالكترونيات عند استقلالها عن الهندسة الكهربائية، ولايزال البعض يصنف المعلوماتية كعلم في إطار الهندسة الإلكترونية، كما ويصنفونها كأداة في إطار العلوم الرديفة للعلوم الأخرى.

إنَّ هذا التصنيف أصبح قديماً وإنَّ المعلوماتية تطورت واستقلت عن معظم العلوم على الرغم من ارتباطها بالهندسة الإلكترونية وتطور الإلكترونيات. ومن أهم الأحداث التي حدثت في السنوات الأخيرة هي اندماج الأساليب التقليدية في معالجة المعلومات

● كاتب وباحث سوري.

مع الأجهزة والمعدات الحديثة والتي أدت إلى تسارع عمليات معالجة المعلومات بدقة متناهية وسرعة هائلة تتماشى مع التزايد المستمر لحجم المعلومات المتداول.

نظم المعلومات

يعرف نظام المعلومات بكونه عبارة عن مجموعة من العناصر ذات صلة فيما بينها تهدف إلى المساهمة في تنظيم أسلوب اتخاذ القرار ورفع مستوى الكفاءة الفعالة لنظام وطبيعة الأداء، ويتم ذلك بتقديم المعلومة وتوافرها في صور متعددة حسب طبيعة الموقف، وبما يتناسب مع اختلاف شخصية ونمط المنظمة والقيادات المسؤولة عن اتخاذ القرار بها.

وقد تطور علم بحوث العمليات كتطبيق لتكنولوجيا الحاسب الآلي بحيث أمكن تنفيذ نماذج المحاكاة للوصول إلى الحل الأمثل لمواجهة مشكلة أو أزمة بعينها كما يحددها المتخصص طبقاً للمعايير التي يضعها متخذ القرار، ونتيجة لهذا التطور في نظم المعلومات، فقد أصبحت تشكل أسس التخطيط المسبق لدعم اتخاذ القرار في مراحل معالجة الأزمات والكوارث عن طريق استنباط نماذج التنبؤ والمحاكاة التي تساعد في اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب. وتعتبر المعلومات من الموارد الهامة مثل رأس المال والأفراد وغيرها من الموارد التنظيمية.

ويميز المورد المعلوماتي بأنه لا يكتسب قيمته من شكله المادي الملموس ولكن بما يمثله أو يعبر عنه، ويستخدم الباحث أو المدير أو متخذ القرار المورد المعرفي في إدارة وتوجيه هذا المورد لتحقيق الهدف المطلوب في الوقت المناسب.

وإدارة الأزمة شأنها شأن أي نشاط إداري يتطلب القيام به توافر البيانات الخام والمعلومات. وتعتبر الوظيفة الأولى في نظام المعلومات هي جمع البيانات التي نحتاجها من مختلف المصادر.

البيانات والمعلومات

تعرف البيانات بأنها تمثل مجموعة من الحقائق أو الأفكار أو المشاهدات أو الملاحظات أو القياسات، حيث تكون في صورة أعداد أو كلمات أو رموز كي تصف فكرة أو موضوعاً «أو حدثاً» أو هدفاً أو حقيقة ما.

وتكون البيانات إما في صورة عددية أو إحصائية أو وصفية. والمعلومات هي البيانات التي تمَّ إعدادها لتصبح في شكل أكثر نفعاً «للفرد مستقبلاً». وتقدم المعلومة إمَّا في شكل جداول أو رسوم بيانية ومنحنيات أو مؤشرات تجمع أكثر من بيان وتكون غالبا ناتجة عن عمليات حسابية على البيان الخام، حيث تتحدد جودة المعلومة بقدرتها على تحفيز متخذ القرار ليتخذ موقفاً معيناً.

مفهوم النظام

تعني كلمة «النظام» باليونانية، الترابط العضوي بين الأجزاء المختلفة، والإنسان نظام يتكون من نظم فرعية عدة، مثل الدورة الدموية والدورة التنفسية والدورة الهضمية.

وعلى هذا فإن النظام هو مجموعة من العناصر أو الأجزاء أو العمليات أو الوظائف المرتبطة فيما بينها تؤدي وتنجز وظيفة متكاملة محققة هدفاً محدداً.

وتعد وظيفة إعداد وتنظيم المعلومات للاستخدام، عنصراً هاماً في الصراع الدائر حالياً لاستغلال الوقت، حيث يذهب جزء غير قليل من الوقت في أعمال التسجيل والبحث والاستيعاب للمعلومات.

ويقدر الوقت الذي ينفقه المديرون سواء في إعداد المعلومات أو توصيلها إلى الآخرين بحوالي ٨٠٪ من الوقت الكلي المنفق على أعمالهم وتوجد هذه المعلومات في العديد من المصادر ذات الصور المختلفة كالتقارير، والخطط والتحليل الخاص بموقف معين وغيرها.

وقد بدأ استخدام الحاسب الآلي في تنظيم وإعداد المعلومات عام ١٩٥٤م في إعداد قوائم الأجور والمرتبات بالولايات المتحدة الأمريكية.

كما أصبح الحاسب الآلي أداة فعالة ووسيلة ضرورية لزيادة كفاءة وفاعلية نظم المعلومات، ويعزى ذلك إلى:

١- سهولة تطبيق التكنولوجيات المتطورة المرتبطة بالتطبيقات المختلفة لنظم المعلومات على الحاسب الآلي، التي يستخدمها محلل ومصمم نظم المعلومات في دعم اتخاذ القرار.

٢ - قدرة الحاسب الآلي على توفير طريقة منظمة ومتماسكة وأسلوب منهجي مرتب يعبر عن مجموعة معينة من المفاهيم المعدة مسبقاً من قبل محلل مصمم النظم.

تصنيف نظم معلومات الحاسب

ويمكن القول إن نظم المعلومات المرتبطة بالحاسب الآلي هي تلك النظم التي تستخدم أجهزة وبرمجيات الحاسب الآلي وقواعد البيانات والإجراءات والأفراد لتجميع وتحويل وإرسال المعلومات في المنشأة أو المؤسسة بغرض حل المشاكل الروتينية أو دعم متخذ القرار بالبدائل اللازمة لمواجهة الأزمات الطارئة وغير المتوقعة. هذا ويمكن تصنيف نظم معلومات الحاسب الآلي إلى:

- **نظم معالجة المعاملات:** ظهرت هذه النظم في منتصف خمسينيات القرن الماضي، حيث ينصبُّ عملها على تجميع وتشغيل البيانات. وتعتمد على الحاسب الآلي في معالجة وتحليل العمليات المالية للمؤسسات بحيث يتم تسجيلها وتبويبها وتلخيصها، أي إنَّه يمكن بطبيعة الحال استخدام هذه النظم لأداء المهام الهيكلية والاعتيادية. ومثل هذه النظم لا تخدم

متخذي القرار حيث تخدم بصفة أساسية المستويات الإدارية الصغيرة.

- نظم المعلومات الإدارية: يوفر نظام المعلومات الإداري الأساس اللازم لتكامل المعلومات من حيث إعدادها وتنظيمها واستخدامها وتخزينها، فعادة ما يحتوي نظام المعلومات على العديد من التطبيقات والبرامج الخاصة بالعديد من الأفراد والمتخصصين الذين يعملون في مجالات مختلفة داخل المؤسسة.

وقد ظهرت نظم المعلومات الإدارية في منتصف ستينيات القرن الماضي بهدف توفير المعلومات اللازمة لمستوى الإدارة الوسطى لمساعدتها في إتمام وظائفها من تخطيط ورقابة واتخاذ قرارات تحتاج إلى قدر من الخبرة والتقدير الشخصي.

- نظم المكاتب الآلية: هي النظم المساعدة في إتمام الأعمال المكتبية داخل المؤسسة، وتعتبر برامج معالجة الكلمات مثالاً واضحاً على هذا النوع من النظم. وهي ببساطة تساعد على إتمام الأعمال المكتبية بصورة أوضح ولا تستخدم بطبيعة الحال في دعم اتخاذ القرار.

- نظم دعم اتخاذ القرار: وهي نظم معلومات تعتمد على الحاسب الآلي بهدف تقديم المساعدة على اتخاذ القرارات المتعلقة بالمهام شبه الهيكلية، عن طريق الدمج بين عناصر قاعدة البيانات والنماذج الكمية (الإحصائية، الرياضية، بحوث العمليات)، إضافة لأخذ وجهة نظر متخذ القرار. ويمكن تصنيف القرارات التي يتم دعمها بوساطة هذا النوع من النظم إلى نوعين هما:

١ - القرارات البنائية: وهي تلك القرارات الفورية التي تتخذ استجابة لسياسات مختلفة معدة مسبقا يتم تغذيتها مما يسمى «قاعدة قرارات»، ويمكن القول بأن القرارات البنائية (المبرمجة) هي التي لها إجراءات قرار سابق التجهيز.

٢ - القرارات غير البنائية: وهي تلك التي تتخذ للتعامل مع المشاكل غير المحددة والمتشابكة أو غير الهيكلية حيث يمكن تحديد جزء من المعاملات بدقة والجزء الآخر ذو طبيعة احتمالية يكون من الصعب تحديده والتعرف على سلوكه غالباً، ومن ثم لا يمكن إعداده مسبقا وذلك لندرة القرارات أو عدم وضوحها أو لسرعة تغير هذه القرارات. كما أنها تأخذ في الغالب وقتاً «كبيراً» من متخذ القرار.

خصائص نظم دعم القرار

١ - تساعد متخذي القرار في تنفيذ المهام شبه الهيكلية.

٢ - تعتمد على التفاعل البشري - الآلي عن طريق تقديم الإمكانيات الاستفسارية للحصول على إجابات لسلسلة من الأسئلة على غرار «ماذا.. لو؟» التي يضعها مصمم النظام لطرح السيناريوهات البديلة أمام متخذ القرار.

٣ - تقدم نظم دعم القرار الدعم لكل المستويات الإدارية وخاصة الإدارة العليا.

٤ - تقدم نظم دعم القرار الدعم في مجال القرارات المستقلة أو القرارات التابعة التي يتطلب القرار الواحد أن يتخذ بأكمله نتيجة التشاور والتفاعل بين مجموعة من الأشخاص.

٥ - تمكّن نظم المعلومات متخذ القرار من إيجاد حلول للمشاكل محل الدراسة وأيضاً اختيار عدد من الحلول المختلفة مع الاحتفاظ بنشاطه الأساسي وهو التحكم والرقابة على عملية اتخاذ القرار.

٦ - تجمع نظم دعم القرار بين قواعد البيانات والنماذج الرياضية والإحصائية.

٧ - توفر نظم دعم القرار الدعم اللازم في مختلف مراحل اتخاذ القرار، بدءاً بالإدراك وتحديد المشكلة إلى مرحلة الاختيار النهائي لأفضل البدائل.

٨ - يجب أن تكون نظم دعم القرار مرنة بحيث يمكن تعديلها بحيث تتلاءم مع الظروف المحيطة.

مزايا نظم دعم القرار

١ - إمكانية اختبار أكبر عدد من البدائل.

٢ - الاستجابة السريعة للأوضاع غير المتوقعة.

٣ - توفير الوقت والتكلفة.

٤ - إمكانية تجربة أكثر من سياسة مختلفة للحل.

٥ - إمكانية الوصول إلى قرارات موضوعية تأخذ في الاعتبار وجهة نظر متخذ القرار.

٦ - زيادة فاعلية عملية اتخاذ القرار.

٧ - تضييق الهوة بين مستويات أداء متخذي القرار.

مراحل دعم اتخاذ القرار

تمر عملية دعم اتخاذ القرار بثلاث مراحل مختلفة تمّ توضيحها بنموذج الخبير البريطاني «هربرت سيمون» كأساس لعملية دعم اتخاذ القرار، حيث يمكن استخدام هذا النموذج لوصف القرارات السريعة والقصيرة المدى إضافة إلى القرارات الإستراتيجية طويلة المدى. وينقسم نموذج «سيمون» إلى ثلاث مراحل رئيسية هي: مرحلة الاستخبارات، مرحلة التصميم، ومرحلة الاختيار:

المرحلة الأولى: الاستخبارات، وتبدأ مرحلة الاستخبارات لعملية دعم القرار من خلال مبدأين هما:

- **اكتشاف المشكلة:** ويقصد به التعرف على أي شيء لا يتفق مع الخطة السابق تحديدها أو مع المعايير القياسية الموضوعة. وبالتالي يكون الهدف الذي يسعى من أجله متخذ القرار واضحاً.

- **السعي إلى الفرص المتاحة:** ويعني إيجاد بعض الظروف التي تبدو أنها تقدم لمتخذ القرار لتحقيق عائد أفضل.

وبعد اكتشاف المشكلة وصياغتها في المرحلة السابقة فإنَّ المشكلة التي لها حل وحيد لا تعد مشكلة في ذاتها بل هي حقيقة لابدَّ من التسليم بها.

أمَّا إذا كان للمشكلة أكثر من حل فإنَّ وجهات النظر بشأنها تتعدد وتتباين قوة وضعفا. وخلال هذه المرحلة يجب على متخذ القرار أو المساعدين له إعداد ملخص عام عن الحلول البديلة الممكنة، مستعيناً في ذلك بالأساليب العلمية الحديثة، وأدوات التصميم المستخدمة في علوم إدارة وتحليل وتصميم النظم.

والجزء الهام في عملية اتخاذ القرار هو استخراج البدائل: ومهمة استخراج البدائل عمل خلاق وإبداع يمكن تعلمه. والعملية الإبداعية تتطلب وجود معارف دقيقة لمجال المشكلة وحدودها إضافة إلى الدوافع لحل المشكلة.

ويمكن تعزيز الإبداع بوساطة وسائل مثل السيناريوهات، التفكير العقلي، قوائم الاختبار، وقوالب عملية القرار. وتحتوي مرحلة تصميم نظام دعم القرار على عدة خطوات: تبدأ بالتخطيط ثم البحث وتحليل النظام ثمَّ الوصول إلى تصميم وتكوين النظام وأخيراً تنفيذ البرامج ومتابعة التغيرات للخروج بالتعديل المطلوب، نتيجة دروس وحقائق التنفيذ الفعلي.

أمَّا المرحلة الثالثة «الاختيار»، فتعتبر هذه المرحلة هي جوهر عملية اتخاذ القرار حيث يواجه متخذ القرار مجموعة بدائل متعددة، ويجب اختيار أحدها الذي سيطبق ويلتزم به أفراد المنظمة أو المؤسسة.

وقد يبدو ذلك سهلاً ولكن في الواقع توجد صعوبات كثيرة تجعل من مرحلة الاختيار عملية معقدة ومن ذلك: تعدد الأفضليات، عدم التأكد، تعارض المصالح، الرقابة، اتخاذ القرار الجماعي.

نماذج التنبؤ والمحاكاة ونظم دعم القرار

إنَّ جوهر نظم دعم اتخاذ القرار هو التنبؤ والإنذار المبكر وصياغة السيناريوهات المبنية على نماذج المحاكاة، حيث تقوم نظم دعم القرار بعمل المزج بين البيانات المتاحة مع الرؤى الشخصية لمتخذ القرار، ويتم كله داخل بوتقة من النماذج الرياضية للتنبؤ والمحاكاة. وفيمايلي نعرض السمات العامة والتطبيقات المختلفة للنموذجين:

- **نموذج التنبؤ:** وتلعب نماذج التنبؤ دوراً هاماً في إمداد متخذي القرار بالتنبؤات والمعلومات الهامة بوقت كاف قبل وقوع الأزمات الناتجة عن المخاطر، سواء أكانت مخاطر ناتجة عن ظواهر طبيعية أو كانت بفعل الإنسان ولكنها غير متعمدة.

وتلعب الأساليب الكمية (الرياضية والإحصائية) وتكنولوجيا الحاسب الآلي وكذلك تكنولوجيا الاتصالات والاستشعارات

عن بعد دوراً أساسياً في عملية التنبؤ، حيث تتيح هذه التكنولوجيات إمكانية القياس والمراقبة والرصد وبالتالي إمداد فريق دعم القرار بالتحذيرات والتنبؤات بالأزمات الممكن حدوثها.

ومن ثم يمكن تجنب الآثار السلبية أو أخذ الاحتياطات اللازمة للتخفيف من المخاطر. وغالباً ما تستخدم الطرق الإحصائية في تحليل ودراسة قاعدة البيانات التاريخية المتاحة والاستفادة منها في التنبؤ باحتمالات حدوث أزمات مشابهة في المستقبل.

- **نموذج المحاكاة:** ومن ناحية ثانية توجد استخدامات أخرى للنماذج الرياضية من خلال صيانة السيناريوهات اللازمة لعمل مجموعة من البدائل التي يمكن لمتخذ القرار اختيار بديل منها. والمثال على ذلك هو عمل سيناريوهات للسيول المدمرة باستخدام نماذج هيدروليكية ذكية تقوم بمحاكاة شكل السيل والجريان السطحي له، مع إمكانية استخدام عمليات الاستشعار عن بعد التي يمكن أن تعطي معلومات مؤكدة عن أنواع السحب وأماكن تجمعها وتحركها وخصائصها المختلفة. ويمكن من خلال دراسة هذه السيناريوهات بوساطة متخذ القرار، الوقوف على حجم وامتداد المخاطر الناتجة عن مختلف السيناريوهات وتقدير الوقت اللازم لمواجهة الأزمة الناتجة عن مثل هذه المخاطر. وتقوم مثل هذه النماذج على منهجية الحل المرضي، بمعنى أنها لا تسعى إلى إيجاد الحل الأمثل.

نظم دعم القرار الجماعي

نظام دعم القرار الجماعي هو نظام تفاعلي مبني على الحاسب الآلي ويقوم بتسهيل إيجاد الحلول للمشاكل المتشابكة غير المهيكلة. وتتميز عملية اتخاذ القرار في هذه الحالة بأن متخذي القرار يعملون معاً كفريق متكامل يجمعهم اجتماع أو مؤتمر ما أو مشكلة بعينها والغرض هو الوصول إلى قرار موحد يجمع بين الخبرات المختلفة. فهناك طرف يعنى بالإجراءات المتعلقة بخسائر الأرواح، وآخر يعنى بالإجراءات الأمنية، وثالث يعنى بالتعويضات المالية والشؤون الاجتماعية، أو الجانب الإعلامي لأزمة ما.

وكل هؤلاء يعملون في إطار الأزمة المنوط بهم مسؤولية اتخاذ القرار اللازم لمواجهتها. ولضمان التنسيق لابدَّ من أن تكون هناك أداة واحدة فقط تقدم الدعم لهم جميعاً وهي في حالتنا هذه نظام دعم القرار الجماعي. ويهدف إلى إيجاد بيئة عمل فعالة لمتخذي القرار المشتركين في إدارة أزمة ما. ويتسم نظام دعم القرار الجماعي بالخصائص التالية:

١ - نظام جماعي وليس فردياً.

٢ - يستخدم تكنولوجيا الاتصالات استخداماً مكثفاً.

٣ - يهدف إلى الحد من السلوكيات السلبية كالاستهتار بالوقت ومحاولة فرض الرأي.

٤ - يهدف إلى دعم السلوكيات الإيجابية كالمشاركة في الرأي وتحفيز التفكير العلمي.

ويتألف نظام دعم القرار الجماعي من مجموعة من المكونات المادية المختلفة، التي من أهمها:

١ - غرف اتخاذ القرار.

٢ - شبكة اتصال لاتخاذ القرار.

٣ - تكنولوجيا عقد المؤتمرات عن بعد.

٤ - اتخاذ القرار عن بعد.

ويعتبر نظام دعم القرار الجماعي امتدادا لنظام دعم اتخاذ القرار التقليدي في اتجاه دعم أكثر فاعلية. ومن ثمّ فإن النظام الجماعي هو نظام دعم اتخاذ قرار، مضافاً إليه التعديلات الآتية:

- تدعيمه بشبكة مكثفة للاتصالات.

- تدعيمه بوسائل لزيادة الفاعلية. والمشاركة الفكرية من خلال نماذج للاقتراح والترتيب والدرجات، تهدف جميعها للوصول إلى رأي موحد عام.

- تدعيمه بوسائل تأمين مصداقية واعتمادية أكثر من التي يوفرها نظام دعم القرار الفردي.

إدارة الأزمات والكوارث

وفي محاولة من المتخصصين لدعم متخذ القرار بنظم المعلومات والوسائل والإجراءات التي تضعه في أتم الاستعداد للمواجهة الفورية للمواقف الطارئة والأزمات، نشأ علم إدارة الأزمات، ويعد من العلوم الحديثة التي فرضت نفسها على واقع عالمنا المتحضر الذي تزايدت تعقيداته وتناقضت مصالحه مع الانطلاقات الهائلة في المجال التكنولوجي وسبل الاتصالات، والذي أدى بدوره إلى تحطيم الفاصل الزمني بين الفعل ورد الفعل مما وضع متخذ القرار في خيار وحيد وهو أن يكون دائماً مستعداً للمواجهة الفورية للمواقف الطارئة والأزمات واتخاذ القرارات المناسبة المؤقتة والمدعمة بالوسائل التكنولوجية الحديثة.

وهناك العديد من الأزمات التي تواجه المجتمع إمّا بصفة دورية أو بصفة عشوائية. وبالنظر إلى هذه الأزمات نجد أنّها قد تسببت في الماضي في خسائر وأضرار كثيرة للفرد والمجتمع سواء من الناحية الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية والإدارية.

ولا يخفى على أحد أن تعرض المجتمع للأزمات يهدد بصورة واضحة التنمية سواء في جانبها المادي أو البشري، حيث تسبب الأزمات بمختلف أنواعها خسائر في المنشآت والمرافق العامة والممتلكات والثروات البشرية والطبيعية. وتقلل كل هذه الخسائر من فرص

التقدم في مسار التنمية حيث تؤثر بصورة مباشرة وغير مباشرة على الثروة البشرية للمجتمع وما تمثله من ركيزة أساسية من ركائز الحركة التنموية.

مفهوم الأزمة والكارثة

الأزمة عبارة عن خلل يؤثر تأثيراً مادياً على النظام كله، كما أنّه يهدد الافتراضات الرئيسية التي يقوم عليها النظام. ويتطلب وجود الأزمة توافر شرطين أساسيين هما:

١ - أن يتعرض النظام كله للتأثير الشديد إلى الحد الذي تختل معه وحدته.

٢ - أن تصبح الافتراضات والمسلمات التي يؤمن بها أعضاء المؤسسة أو المنظمة موضعاً للتحدي لدرجة أن يظهر لهم بطلان هذه الافتراضات، بمعنى أنّ الأزمة في جوهرها تهديد مباشر وصريح لبقاء كيان المنظمة واستمرارها. وقد تحدث أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية على المستوى القومي تعرف كل منها طبقاً لمجالات العمل المخصص.

أمّا الكارثة فهي الحالة التي حدثت فعلاً وأدت إلى تدمير وخسائر جسيمة في الموارد البشرية والمادية. وأسبابها إمّا طبيعية أو بشرية. وعادة ما تكون غير مسبوقة بإنذار. وتتطلب اتخاذ إجراءات غير عادية للرجوع إلى حالة الاستقرار. وقد تؤدي الكارثة إلى ما يسمى بالأزمة، والعكس صحيح فقد تؤدي الأزمات إلى كوارث إذا لم يتم اتخاذ القرارات والإجراءات المناسبة لمواجهتها.

مراحل تطور الأزمة

- نشأة الأزمة: وهي المرحلة التي تبدأ فيها الأزمة تلوح في الأفق، إذ يداهم متخذ القرار إحساس بالقلق. ويستطيع متخذ القرار في هذه المرحلة، بخبرته ونفاذ بصيرته، أن يفقد الأزمة مرتكزات نموها من خلال تنفيس الأزمة ومحاولة تجميدها.

- نمو الأزمة: إذا تطورت الأزمة بعد ميلادها نتيجة عدم قدرة متخذ القرار على القضاء عليها فإنها تنمو بحيث لا يستطيع متخذ القرار أن ينكر وجودها أو تجاهلها. وهنا يجب عليه التدخل الإيجابي من أجل إفقاد الأزمة عوامل تطورها.

- تفاقم الأزمة: وتصل الأزمة إلى هذه المرحلة نتيجة عدم دراية متخذ القرار بأبعاد الأزمة محل الاعتبار واستبداده بالرأي وانغلاقه على نفسه، أو عدم التخطيط المسبق لها. ومن ثم تزداد قوى المجتمع المتفاعلة مع الأزمة حيث تغذي الأزمة بقوى تدميرية إضافية. ونادراً ما تصل الأزمات إلى هذه المرحلة فيما عدا الأزمات الناتجة عن كوارث طبيعية مفاجئة وسريعة التطور.

وتتفاقم الأزمة لعدة أسباب، أهمها:

١-سوء التخطيط والإدارة.

٢- عدم دقة الحكم على الأحداث وعدم توفر معلومات كافية عن عواملها وأسبابها.

٣- سوء الأداء وعدم وجود إجراءات أمنية أثناء الأزمة وبعدها.

٤- انزعاج صانع القرار تحت ضغط الأزمة أو عدم الثقة في اختياراته.

٥- عدم تناسق وتكامل أفراد منظومة صنع القرار.

٦- حدوث تغيرات خارجية أو داخلية في المؤثرات على الأزمة.

٧- عدم الاستخدام الأمثل للموارد المعلوماتية والاقتصادية والبشرية المتاحة.

أنواع الأزمات

- **أزمات داخلية**: من أخطر الأزمات التي تواجه دولة ما، تلك الأزمات التي تمس كيانها الداخلي وتهدد أمنها القومي وتؤدي بطريق غير مباشر إلى وجود ما يسمى بإستراتيجية الإسقاط من الداخل.

وتحدث نتيجة سعي الدول الخارجية إلى تحقيق مصالحها عن طريق غير مباشر عبر أدوات الدولة مستغلة طبيعة الظروف القائمة والمحيطة بالشعب. وينقسم هذا النوع من الأزمات بدوره إلى نوعين هما:

أزمات ذات طابع عدائي، مثل أعمال العنف أو الإرهاب أو التخريب.

وأزمات ذات طابع غير عدائي مثل الكوارث الطبيعية التي تصيب البلد كالفيضانات والأعاصير والزلازل.

- **أزمات خارجية**: وهي الأزمات الناتجة عن سعي دولة ما إلى إحداث تغيير حاد ومفاجئ في الوضع الدولي الراهن، مما يشكل تهديداً للأمن القومي لدولة أخرى يمكن أن ينتج عنه ردود أفعال قد تؤدي إلى حدوث صراع مسلح.

- **أزمات الصراع المسلح والإرهاب الدولي**: وتنشأ أثناء الحرب نتيجة التغيرات السريعة أو الحادة في موقف أحد الجانبين. ومن أمثله ذلك: دخول أو خروج طرف جديد في الصراع المسلح، أو استخدام أسلحة جديدة ومتطورة ذات فاعلية عالية ولم تكن تستخدم من قبل.

أما أزمات الإرهاب الدولي، فهي تلك الأزمة الناتجة عن ممارسة الجماعات السياسية والحكومات للتأثير على خصومها لتحقيق أهداف سياسية كبديل للحرب التقليدية، إذ إنها أكثر حركة وأكثر قوة. ويشكل أثر الإرهاب أزمة فعلية حيث تتمكن المجموعات الإرهابية من المساومة على القيم السياسية والمادية للمجتمعات والتأثير على مصالحها القومية.

أما أنواع الأزمات من حيث المصدر فهي:

- **أزمات طبيعية**: وهي تلك الأزمات الناتجة عن كوارث طبيعية وهي أكثر الأزمات شيوعاً وأكثرها خطراً على الإنسان لكونها خارجة عن إرادته. وتتسم بالفجائية والعمق والشدة إضافة إلى كونها ذات زمن حدوث عشوائي.

- **أزمات صناعية**: مثل حوادث التسرب الإشعاعي أو الكيماوي وتتسم بتأثيراتها

المادية والمعنوية القوية وصعوبة السيطرة عليها واتساع مجالها.

التخطيط لإدارة الأزمات

هي تلك العملية المنظمة والمستمرة التي تهدف إلى تحقيق أقصى كفاءة ممكنة في توجيه الإمكانيات والموارد المتاحة، للتعامل الفعال مع الأزمات المحتملة ومواجهتها في جميع مراحلها، مع الاستعداد لمواجهة المواقف الطارئة غير المخططة التي قد تصاحب الأزمة، والتخفيف من آثارها ثم توجيهها لتحقيق المصالح القومية. فالتخطيط هو العامل الأساسي لنجاح عملية إدارة الأزمات حيث يساهم التخطيط الجيد في منع حدوث أزمة وتلافي عنصر المفاجآت المصاحب لها.

ويتيح التخطيط لفريق العمل بإدارة الأزمات القدرة على إجراء رد فعل منظم وفعال لمواجهة وإدارة الأزمة بكفاءة عالية. ويجب أن يعتمد التخطيط على:

١-خلفية تاريخية عن الأزمة وبيانات تاريخية عن أزمات مماثلة.

٢ - أهداف المصالح المشتركة في الأزمة ومدى شرعيتها وتأثيرها على المصلحة العامة.

٣ - إمكانية وقدرات الأطراف ومدى فاعليتها لتحقيق الهدف.

٤ - السمات الشخصية والاتجاهات لقادة وقيادات الأطراف.

وتعتمد إدارة الأزمات على شقين رئيسين هما:

-حصر العداءات المحتملة والعوامل التي تساعد على نشوبها والحصر التاريخي للأزمات والعوامل المسببة لها والدروس المستفادة منها.

- تعظيم القدرات لمجابهة الأزمات.

وترتبط الإدارة الجيدة للأزمات بقدرة المجتمع على إدارة الأزمة أو إيجاد وسيلة لتفاعله الإيجابي معها. ويختلف أسلوب وأدوات إدارة الأزمة طبقا لطبيعة المرحلة التي تمر بها الأزمة.

مراحل الأزمة

وتمر معظم الأزمات بخمس مراحل هي: مرحلة اكتشاف مؤشرات الإنذار المبكر، ومرحلة الاستعداد والوقاية، ومرحلة احتواء الأضرار والحد منها، ومرحلة استعادة النشاط، ومرحلة التعلم:

-**المرحلة الأولى**، اكتشاف مؤشرات الإنذار المبكر:

١ -إنشاء أساليب اكتشاف إشارات الإنذار للأزمات المحتملة.

٢ - إنشاء مركز تلقي ومتابعة إشارات الإنذار المبكر.

٣ - تكوين فريق داخلي لاختبار الإجراءات المتبعة.

٤ - تحفيز المبادرة الشعبية من جانب الجماهير لمكتشفي إشارات الإنذار.

٥ - وصف الوظائف الرسمية المستخدمة في هذا النظام.

٦ - وضع هيكل للتقارير التي سيستخدمها مركز إدارة الأزمات.

-المرحلة الثانية، الاستعداد والوقاية:

١-فحص الأزمات.

٢ - فحص اعتيادي دوري وصيانة المعدات المستخدمة في المواجهة.

٣ - وضع إرشادات فنية رسمية وإجراءات استخدام أدوات إدارة الأزمات من حيث تحليل المخاطر وتحديد درجات شدتها ومداها بطريقة هيكلية.

-المرحلة الثالثة، احتواء الأضرار:

١-الحصول على المعلومة اللازمة.

٢ - تحديث القدرات البشرية على احتواء الأزمة.

٣- اختبار الإجراءات المتبعة من خلال التنفيذ الدقيق لها.

٤ - تقييم وتقدير القائمين على احتواء الأزمة.

-المرحلة الرابعة، استعادة النشاط:

١- تحديد المستوى الأدنى من المهام، الخدمات، المنتجات المطلوبة لمزاولة الأعمال كما كانت عليها قبل الأزمة.

٢ - تحديد الأطراف المعنية بمرحلة استعادة نشاط المنظمة أو المؤسسة.

٣ - تحديد وسائل استعادة الثقة بالنفس.

٤ - تحديد أهم الأعمال المطلوبة لاستعادة النشاط.

٥ - تدبير الموارد اللازمة لاستعادة النشاط بدرجة الثقة المطلوبة.

-المرحلة الخامسة، التعلم:

١-مراجعة الأزمات السابقة ومقارنتها بالأزمة الأخيرة.

٢ - تصنيف الإجراءات والأعمال التي تمّ تنفيذها طبقاً لجودتها.

٣ - مراجعة وتحديث أسلوب إدارة الأزمات من واقع الأزمة الأخيرة.

٤ - اتباع أسلوب الوصف الذهني مع فريق مراجعة الأزمات بغرض تحديد وعرض الدروس المستفادة بصورة رسمية.

نظم المعلومات ومواجهة الأزمات

وقد لوحظ أن هناك صعوبة في تناول وإدارة الأزمات بالطرق التقليدية، وكان من الضروري الاستفادة من الطفرة الهائلة في تكنولوجيا المعلومات في استنباط طرق بديلة متطورة لإدارة الأزمات.

والجدير بالذكر أنه قد انتشرت تكنولوجيا نظم المعلومات الجغرافية انتشاراً واسعاً وسريعاً على المستوى العالمي، خاصة في الدول المتقدمة خلال السنوات القليلة الماضية، كإحدى الوسائل الهامة المستخدمة في دعم اتخاذ القرار في المجالات المختلفة. فعلى سبيل المثال يمكن الاستفادة من جميع

هذه الجهود والإمكانيات في بناء نظام معلومات متكامل للإنذار المبكر والتبؤ بمخاطر السيول، حيث تعتبر السيول وما يترتب عنها من أخطار من أهم مشاكل البيئة الطبيعية في البلدان العربية.

وقد ازداد وضوح مشكلة السيول إثر المحاولات الجادة للتنمية والتوسع العمراني الذي واكب الطفرة الأخيرة في عملية التقدم، إضافة إلى أن عملية جريان السيول بشكلها الحالي تمثل فقداً لكميات من الماء تعتبر هذه المناطق في أشد الحاجة إلى كل نقطة منها. ويهدف هذا النظام إلى توفير سبل دعم اتخاذ القرار لإدارة الأزمة المطروحة وفي مراحل تطورها المختلفة باستخدام تكنولوجيا نظم المعلومات الجغرافية وذلك من خلال:

١-تحديد كميات الأمطار الممكن هطولها من واقع البيانات المناخية للمحطات الأرضية.

٢- استنباط نماذج استنتاج شبكة الجريان السطحي مع تحديد الممرات الطبيعية للسيول والأحواض الهيدرولوجية للوديان من واقع الارتفاعات الأرضية.

٣ - دراسة الامتداد الجغرافي للمخاطر والتهديدات المسببة لغرق أو جفاف الأراضي أو تلف الممتلكات والمرافق والمنشآت الحيوية.

٤ - إمكانية التنبؤ المستقبلي بالسيول من واقع البيانات المناخية.

٥ - تحديد بدائل المواجهة.

٦ - إيجاد آلية للإنذار المبكر والتنبيه المرئي والمسموع.

وأخيراً نقول بأن المعلومات ستظل الدعم الأساسي لصانعي ومتخذي القرار. إنَّ تطور تكنولوجيا صناعة المعلومات والطفرة الكبيرة في أساليب نقلها وتداولها والإمكانيات الهائلة للحاسبات الآلية بمختلف أشكالها، وظهور التطبيقات الجديدة ونظم المعلومات ودعم اتخاذ القرار.. كل ذلك سيساعد كثيراً في الوصول إلى القرار الأفضل في الوقت المناسب للتعامل مع الأزمات والكوارث والحوادث الطارئة.

الحياة في عالم كمومي

موسى ديب الخوري ✪

لماذا معرفتي محدودة؟ ولماذا حجمي محدود؟ ما هو السبب الذي كان لدى الطبيعة لكي تجعلني بهذا الحجم، ولتختار هذا الرقم دون سواه، ضمن اللانهاية من الحجوم والأرقام التي ليس ثمة سبب فيها يجعلها تختار هذا من دون ذاك؟

باسكال، «أفكار»

ثمة تعارض يسكن اليوم عالم الفيزياء الحديثة ويثقل على تطورها كما وعلى تعليمها وفهمها. ذلك أن ما نسميه فيزياء الحياة اليومية، أي على المستوى الجهاري، هو في العمق أكثر تعقيداً بكثير من العالم الصغائري ومن العالم ما فوق الجهاري. فالذرة والنجم النيوتروني وحتى الكون نفسه هي كينونات أكثر بساطة ربما من قطرة ماء أو كسرة زجاج أو كأس من الرمل.

كذلك، فليس من السهل أبداً إدراج مفاهيم الفيزياء من أجل تفسير الظاهرات الأكثر عادية بالنسبة لنا بشكل تام ومقنع. مع ذلك، وكما سوف نرى، فإنَّ أفكاراً أساسية في الفيزياء، تتعلق بالطبيعة العميقة للأشياء، يمكن أن يتم التعبير عنها بطريقة بسيطة بحيث توضح لنا جوانب أساسية من العالم على مستوانا.

لنأخذ على سبيل المثال السؤال التالي:

✪ كاتب وباحث ونائب رئيس الجمعية الكونية السورية.

«ما الذي يحدد حجم الكائن الإنساني؟ أو بشكل أعم حجم الكائنات على كوكبنا (أو على كوكب آخر)؟» وعلى عكس ما يمكن أن نعتقد، فإنَّ البيولوجيا التي هي بالتعريف علم فهم الطبيعة ووظيفة المتعضيات الحية، لا تلعب أي دور أساسي في تقديم الإجابة. بل إن أفكاراً فيزيائية عامة جدّاً ستكون كافية لتحديد مستوى حجم الكائنات أو تحديدا القياس الأعظمي للكائنات الحية على الأرض.

ومن دون الدخول في تفاصيل دراسات كثيرة إنّما بسيطة نسبياً وغير معقدة[1]، يمكن استخلاص حجم الكائنات فعلا من قياسات فيزيائية، قياسات تناسب المتوسط الهندسي بين الأطوال الذرية والكوكبية. بعبارة أخرى، يقع الإنسان في حجمه بما يتناسب مع حجم الذرات المكون منها وحجم الكوكب الذي يعيش عليه.

إنَّ هذا الحجم يقع بين لانهايتين، حيث يكون تطوره جامعاً لعالمين لامتناهيين في صورة عالم جهاري. ترى، هل عالمنا المألوف يظل حقيقياً وموضوعياً وسط هذا الاتصال العميق مع عوالم الكبير والصغير؟ وماذا لو كانت قوانين العالم الجهاري لا ترتكز، وكذلك حجمنا، على ظاهرات بيولوجية أو فيزيائية كلاسيكية بل تتأسس في الجوهر على مبادئ عوالم غريبة وغير مألوفة أقل ما توصف به بأنها كمومية؟

قد يكون من الغريب جدّاً أن نستطيع الحصول على نتائج تخص حجم الكائن الحي من دون اللجوء إلى الفيزياء الكمومية التي تحكم الظاهرات الذرية التي ترتكز عليها بنانا. وفي الحقيقة فإنَّ الجواب ببساطة هو أنَّ الأفكار الكمومية ماثلة وليست غائبة في الدراسات التي اعتمد عليها العلماء، لكنها مبطنة في قلب الحجج نفسها. لأنه عند الحديث عن المستوى الذري فإنَّ النظرية الكمومية هي التي تحدد مستوى هذا العالم حجما وطاقة. بل وهذه النظرية هي التي تلعب الدور الأعمق فيما يتعلق بالقوى الأساسية التي تحكم جمع الذرات.[2]

ولكن ألا توجد حدود بين العالمين الكمومي والذري؟

في كتب الفيزياء، تصف النظرية الكمومية الجسيمات والذرات والجزيئات، وباختصار العالم الصغائري، لكنها تترك المجال للفيزياء الكلاسيكية عند الحديث عن سقوط تفاحة أو عن الأشخاص والكواكب. فلابد بالتالي أنَّه توجد في موضع ما بين الجزيئات والتفاحة مثلا حدود تنتهي عندها الغرابة الكمومية وتبدأ السمة المألوفة للسلوك الذي تصفه الفيزياء الكلاسيكية.

إنَّ الفكرة السائدة بأنَّ الفيزياء الكمومية قاصرة أو محدودة بالعالم الذري وما تحت الذري هي فكرة شائعة بين عموم الناس. لكن هذا التقسيم للعالم الفيزيائي ليس سوى خرافة. فقلة من الفيزيائيين ينسبون اليوم للفيزياء الكلاسيكية الأهمية نفسها التي للفيزياء الكمومية.

وفي نظرهم فإنَّ الفيزياء الكلاسيكية ليست سوى مقاربة ضرورية في عالم هو عالم كمومي على المستويات كافة.

إنَّ تمييز الظاهرات الكمومية على مستوانا الجهاري لا يكمن في الحجم أو الكبر الذاتي للمنظومات، إنَّما في الطريقة التي تتفاعل بها هذه المنظومات فيما بينها.

لقد ضاعف الفيزيائيون منذ نحو عشر سنوات التجارب التي تظهر فيها الآثار الكمومية على المستوى الجهاري، بحيث بات من الواضح أنَّ هذه الظاهرات ترافقنا في حياتنا اليومية الجهارية أكثر بكثير مما كنا نظن. بل وتكشف أبحاث حديثة أنَّ هذه الظاهرات يمكن أن تلعب دوراً هاماً وأساسياً على مستوى خلايانا. لا بل إنَّ المختصين أنفسهم في مجال الفيزياء الكمومية بدأوا يعيدون النظر فيما تقوله الفيزياء الكمومية حول الطبيعة.

إنَّ السلوكات الكمومية تتجاوز كل ما نعتبره حساً سليماً: وهي تجبرنا على إعادة النظر برؤيتنا للكون وعلى تبني وجهة نظر أو رؤية جديدة غير مألوفة للطبيعة من حولنا، على أكثر من مستوى.

قطة ميتة. حية

تدرس الجسيمات في الكتب المدرسية كحالات كمومية عندما تكون معزولة ومفردة، أمَّا عندما تكون كثيرة العدد فإنَّها تصبح حالة كلاسيكية من الفيزياء الإحصائية.

إنَّ هذه النظرة خاطئة كما يشير الفيزيائيون الكموميون، وتعود بوادر هذه الرؤية إلى إحدى أشهر التجارب العقلية في عالم الفيزياء، أي تجربة قطة شرودنغر.

ففي عام ١٩٣٥م، تخيل النمساوي إرفينشرودنغر تجربة عقلية تبين الارتباط الجوهري بين العالمين الدقيق والجهاري بحيث لا يمكن فصلهما بحاجز أو حد واضحين.

وضمن سيناريو التجربة يتم الإغلاق على قطة في حجرة تحتوي على زجاجة من غاز مميت وعلى عداد للإشعاع وعلى ذرة مشعة. فإذا كشف العداد عن وجود إشعاع في الغرفة فإنَّه يطلق آلية ميكانيكية تكسر زجاجة السم وتقتل القطة في الحال.

إنَّ العداد هو جهاز جهاري لا يستطيع أن يقيس سوى إحدى حالتين محتملتين

للـذرة: «متحللة» أو «غـير متحللة». ولكن، في العـالم الكمومي، يمكن للـذرة أن توجد في حالـة تجمع بين الحالتين معـاً، التحلل وعدم التحلل. وهذا ما يسمى في الميكانيك الكمومي بالحالة التراكبية.

وهكذا، إذا كانت الذرة المشـعة موجودة في هذه الحالـة التراكبية، فإنّ وجود الآلية التي تكسر زجاجة السـم تفترض أنّ القطة موجـودة في حالة تجمع بين إمكانية الحياة وإمكانية الموت، تماماً كما هي حالة تراكب ذرة تجمـع بين التحلل واللاتحلل. لكن على الرغـم من حذاقة جهاز أو تجربة شرودنغر العقلية، فإنها تبقى تجربة نظرية غير قابلة للتطبيق. لكنها تثبت على الأقل من حيث المبـدأ أنّ الغرابـة الكمومية على مسـتوى المنظومـات الدقيقة تتصـل مع المنظومات الجهاريـة. مع ذلك يُطرح السـؤال البريء التالي، السـؤال الجوهري بالأحرى: لماذا لا يرى الناس سـوى قططاً ميتة أو حية فقط، ولا يرون قططاً ميتة وحية في آن معاً؟

إذا كان يبـدو أن الفيزياء الكلاسـيكية تصف العالم بشكل جيد فذلك أن التفاعلات المعقدة لجسـم ما مـع محيطه تـؤدي إلى الاختفاء السريع للفرادات الكمومية ضـمن هذه التفاعلات. فالمعلومة المتعلقة بصـحة قطـة مثلا، تعـود سريعا إلى وسـطها على شـكل فوتونـات وتبادل في الحـرارة. فكل ظاهـرة كمومية يمكن أن تتضـمن حالات متراكبـة للمنظومـة التي تشـهد التفاعل (ميتـة أو حيـة)، لكن هـذه الحالات تميل للاختفـاء. إنَّ الهـروب الدائـم للمعلومة باتجاه الوسـط المحيط هو الآلية الأساسية التـي تُدمَّر بها الحالات الكمومية التراكبية أو تنهار، وهي صيرورة تدعى «فك الترابط décoherence».

والمنظومـات الكبيرة أكثر عرضـة لفك الترابـط مـن المنظومات الصـغيرة، وذلك ببسـاطة لأنَّها تترك لمعلومات أكثر بكثير أن تفلت منها. ولهذا يميـل الفيزيائيون لربط النظريـة الكمومية بالعالم الصـغائري. مع ذلك، وفي حالات كثيرة، فإنَّ خسارة المعلومة من قبـل منظومة كبيرة يمكن أن يتم كبحها أو إيقافهـا، مما يثبت عندها كلية حضـور الظاهـرات الكموميـة علـى المسـتويات الصغائرية والجهارية معاً.

إنَّ الظاهـرة الكموميـة بامتياز هي ما نسميه التشابك intrication، الذي يحول مجموعة من الجسـيمات المعزولة إلى كل لا ينقسـم. وقد تمَّ إدراج هذه التسمية في عام ١٩٣٥م من قبل شرودنغر في المقالة نفسـها التي ناقش فيها تجربة القطة.

إنَّ خصائص منظومات من الجسيمات في الفيزياء الكلاسيكية يمكن أن تعود دائما إلى خصـائص فردية للعناصر التي تؤلفها.

ولكن ليس هذا هو الحال في منظومة كمومية تشابكية. وهكذا يكون لمنظومة مؤلفة من جسيمين متشابكين سلوك مدهش: فحتى لو كان الجسيمان بعيدين كثيراً عن بعضهما بعضاً فإنهما يستمران في السلوك كما لو كانا قسمين من كينونة واحدة غير قابلة للانقسام. وهذا ما قاد آينشتاين للحديث عن «الأثر الشبحي عن بعد».

السبينات المتشابكة

يتحدث الفيزيائيون عادة عن تشابك زوج من الجسيمات الأولية، مثل إلكترونين أو فوتونين. إن إحدى خصائص الإلكترونات هي ما يعرف بعزمها الحركي (أو الزاوي) الذاتي (بمعنى الجوهري والباطن في الجسيم)، وهو ما اصطلح على تسميته اللف الذاتي أو «سبين».

ولقياس سبين إلكترون يجب بداية اختيار اتجاه، ثم تحديد اتجاه السبين بالنسبة للمحور المختار. لنفترض أن لدينا إلكترونين يسلكان وفق ما تتوقعه الفيزياء الكلاسيكية. ولنجعل أحد الإلكترونين يدور في اتجاه عقارب الساعة حول محور أفقي، والإلكترون الآخر يدور في الاتجاه المعاكس حول المحور نفسه. وبهذه الطريقة يكون السبين الكلي، أي مجموع اللفين الذاتيين للإلكترونين، يساوي الصفر. وبما أنَّ محوري دوران الإلكترونين يظلان ثابتين في الفضاء فإنَّ نتيجة القياس سوف تتعلق بالزاوية بين اتجاه القياس ومحور دوران الإلكترونين. فإذا قسنا اللفين الذاتيين وفق محور أفقي سوف نرى أنهما يدوران في اتجاهين متعاكسين. بالمقابل، فإن قياساً في الاتجاه العمودي لن يكشف عن دوران في كل من حالتي الإلكترونين.

أمَّا بالنسبة للإلكترونات الحقيقية، أي الكمومية، فإنَّ الأمور مختلفة تماما. إذ من الممكن أولا تحضير منظومة من إلكترونين في حالة يكون فيها مجموع السبين معدوماً، حتى من دون أن نكون قد خصصنا الحالة الفردية لكل من الجسيمين. وعندما نقيس سبين أحد الإلكترونين نجد لا على التعيين إمَّا أنَّ الإلكترون يدور في اتجاه عقارب الساعة أو بعكس اتجاه عقارب الساعة. فكما لو كان الإلكترون يقرر بنفسه بأي اتجاه يدور.

مع ذلك، أياً كان اتجاه القياس المختار فإننا نلحظ أنَّ اللفين الذاتيين المقاسين يكونان دائما متعاكسين. فكل شيء يجري كما لو كان قياس لأحد اللفين يجبر اللف الذاتي الآخر على اتخاذ القيمة المعاكسة له. فكيف يقوم اللفان الذاتيان بتبادل المعلومات أو بالتشاور فيما بينهما للحفاظ على هذه النتيجة؟ لا يزال ذلك أمراً غامضاً.

بالمقابل، فإن قياس سبين أحد الجسيمين في الاتجاه الأفقي لا يمنع من الحصول أيضاً على نتيجة في الاتجاه العمودي، الأمر الذي يوحي بأنه ليس للجسيمات محاور دوران محددة. وبكلمة واحدة، فإنَّ نتائج القياسات على الإلكترونين يتم ضبطها بطريقة لا تفسرها الفيزياء الكلاسيكية.

كانت معظم الإثباتات التجريبية على ظاهرة التشابك تشتمل بضعة جسيمات قليلة لا أكثر. أمّا المنظومة المؤلفة من عدة جسيمات أو من جسيمات كثيرة فمن الصعب عزلها عن محيطها أو بيئتها. فلمركباتها أو مكوناتها احتمالية أعلى بكثير على التشابك مع جسيمات غير مضبوطة من المحيط، الأمر الذي يدمر ارتباطاتها المتبادلة الأصلية.

بعبارة أخرى، ووفق المصطلحات التي تصف فك الارتباط، فإنَّ الكثير من المعلومات تفلت من المنظومة في البيئة المحيطة، الأمر الذي يعطي للمنظومة سلوكاً كلاسيكياً غير كمومي. نفهم بالتالي أنَّ الصعوبة الرئيسية بالنسبة لجميع الذين يحاولون استثمار التشابك، كما على سبيل المثال في محاولة بناء حاسوب كمومي، هي صعوبة الحفاظ على التشابك.

في عام ٢٠٠٣م، أثبتت تجربة أن منظومات أكبر في الحجم يمكن أن تظل متشابكة عندما نستطيع الحد أو إحباط هرب المعلومة. فقد وضع غابرييل آيبلي G. Aeppli، من جامعة كوليج في لندن قطعة من فلوريد الليثيوم في حقل مغنطيسي. واستنتج أن السبينات تنتظم بسرعة أعلى مما هو متوقع.

ووفقاً للباحثين فإنَّ التفسير الممكن الوحيد هو أنَّ حالة تشابك جهارية قد تشكلت ابتداء من حالات فردية من السبينات لنحو ١٠^٢٠ ذرة تشكل قطعة الملح...

أنجز فريق آيبلي تجاربه في درجات حرارة منخفضة جداً لا تتجاوز بضعة ميلي كالفن فقط، وذلك من أجل تجنب آثار فك الارتباط للتهيج الحراري. ومنذ ذلك الحين برهن ألكسندر مارتينز دو سوزا Alexandre Martins de Souza ورفاقه، من المركز البرازيلي للبحوث الفيزيائية في ريو دي جانيرو، بالعمل على مواد مثل كربوكسيلات النحاس، على إمكانية الحصول على تشابكات جهارية في درجة الغليان بل وأعلى منها.

ففي المنظومات التي درسوها كان التفاعل بين السبينات قوياً جداً بحيث يحبط التهيج الحراري.

وفي حالات أخرى كان من الممكن الحصول على تشابك جهاري بوساطة قوة خارجية تعدم آثار التهيج الحراري. وهكذا فقد خلق

الفيزيائيون التشابك في قلب منظومات أكبر فأكبر وأعلى حرارة دائماً، بدءاً من الإيونات المأسورة في فخ حقول كهرومغنطيسية وحتى الذرات فائقة البرودة.

إنّ هذه المنظومات كافة تشبه منظومة قطة شرودنغر. لنأخذ ذرة أو أيوناً. إنَّ إلكتروناتها يمكن أن توجد قرب النواة أو بعيداً عنها، أو الحالتين معاً. فمثل هذا الإلكترون يتصرف بالتالي كما الذرة المشعة الموجودة في قفص قطة شرودنغر، والتي تكون في آن واحد في حالة تحلل وفي حالة عدم تحلل.

تستطيع الذرة، بشكل مستقل عما يفعله الإلكترون، أن تتحرك على سبيل المثال نحو اليسار أو نحو اليمين. وتلعب هذه الحركة دور القطة الميتة أو الحية. وقد توصل الفيزيائيون باستقطاب الذرة بوساطة الليزر مزاوجة حالات موضع الإلكترون وحركة الذرة. فعلى سبيل المثال، يمكن التدخل بحيث إذا كان الإلكترون قريباً من النواة، فإنَّ الذرة تنتقل إلى اليسار، وإذا كان الإلكترون أبعد عن النواة، فإنَّ الذرة تنتقل إلى اليمين. وهكذا فإنَّ حالة الإلكترون تكون متشابكة مع حالة حركة الذرة، بالطريقة نفسها التي يكون فيها التحلل الإشعاعي متشابكا مع حالة القطة. وبالتالي يمكن أن يكون لدينا حالة تشابك مع تراكبات، حيث يتم استبدال القط الميت والحي في آن واحد بذرة تنتقل في آن واحد نحو اليمين ونحو اليسار.

تنقل تجارب أخرى على مستويات أكبر هذه الفكرة الأساسية، بحيث أنَّ عدداً هائلاً من الذرات توجد في حالة تشابك، وهو أمر مستحيل في الفيزياء الكلاسيكية. والحال أنَّه إذا كان بالإمكان إعطاء حالة تشابك لمواد صلبة حتى عندما تكون كبيرة وحارة، فلن يعود ثمة ما يمنعنا من التساؤل حول إمكانية وجود تشابك أيضاً في الكائنات الحية.

أحد الأمثلة على هذه المتعضية الكمومية نجده لدى نوع من العصافير يسمى أبو الحناء Erithacusrubecula، وهو عصفور صغير مدهش، يهاجر في كل سنة بين إسكندينافيا وأفريقيا الاستوائية. ويبدو أن هذا الطير الصغير المميز ببقعة حمراء يقطع مسافة نحو ١٣٠٠٠ كلم من دون صعوبات تذكر، ومن دون أن يضيع. فكيف يفعل ذلك؟

هل يملك طير أبو الحناء نوعاً من بوصلة داخلية؟ في السبعينيات من القرن الماضي، أسر الزوجان وولفغانغ Wolfgang وروزويثا إيلتشكو Roswitha Wiltschko، من جامعة فرانكفورت في ألمانيا، طيور أبي الحناء كانت قد هاجرت إلى أفريقيا ووضعوها في أقفاص ضمن حقل مغنطيسي

صنعي. واستنتج الزوجان أنَّ هذه الطيور لا تلحظ انقلابات اتجاه الحقل المغنطيسي -حيث لم تكن الطيور تميز بين الشمال والجنوب- بل كانوا حساسين لميلان الحقل المغنطيسي الأرضي، أي للزاوية التي تشكلها خطوط الحقل مع سطح الأرض.

وفي الواقع تبين أنَّ هذا هو كل ما تحتاجه هذه الطيور لكي تعرف كيف تتوجه وتعود إلى موطنها. ولكن ما كان مثيراً في التجربة أن طيور أبي الحناء التي تم عصب عيونها لم تعد تتبع الحقل المغنطيسي. هذا يعني أنَّه إذا كان لدى طيور أبي الحناء بوصلة داخلية ما فلا بد أن تكون داخل عيونها أو لها صلة بعيونها.

في عام ٢٠٠٠م اقترح فيزيائي مهتم بالطيور المهاجرة، هو ثورستن ريتز Thorsten Ritz، تفسيراً لذلك فكانت المرة الأولى التي يتم فيها الإشارة إلى التشابك الكمومي. ووفق هذه الفكرة المستلهمة من أعمال لكلاوس شولتن Klaus Schulten، فإنَّ الشبكية في عين طير تتضمن جزيئاً يمثل فيه إلكترونان زوجاً متشابكاً من اللف الذاتي يكون مجموعه معدوماً.

في النموذج النظري لريتز، عندما يمتص جزيء فوتوناً ضوئياً مرئياً، فإنَّ الإلكترونات تتلقى ما يكفي من الطاقة لكي تنفصل وتصبح بالتالي حساسة للحقل المغنطيسي الأرضي. فإذا كان الحقل المغنطيسي مائلاً، فإنَّه يؤثر بطريقة مختلفة على الإلكترونين، خالقاً على هذا النحو خللاً أو عدم توازن يغير من رد الفعل الكيميائي الناجم عن الجزيء.

إنَّ آليات كيميائية تترجم هذا الاختلاف على شكل دفقة عصبية، يحولها دماغ الطير إلى صورة للحقل المغنطيسي الأرضي. وهكذا فإنَّ الطير مزود بجهاز توجّه جهاري، إنَّما لا ينتج عن الفيزياء الكلاسيكية ولا يعبر عنها.

على الرغم من أنه لا يوجد سوى براهين فردية على وجود هذه الآلية، قام كل من كريستوفر روجرز Christopher Rogers وكيمينوري مايدا Kiminori Maeda، من جامعة أكسفورد، بدراسة جزيئات مشابهة للتي درسها ريتز، وبينا أن التشابك بين إلكتروناتها تجعلها حساسة للحقول المغنطيسية. ووفق حسابات فلاتكو فدرال Vlatko Vedral وفريقه من جامعة أكسفورد، فإنَّ الآثار الكمومية تدوم في عين الطير مدة ١٠٠ميكروثانية تقريبا.

وفي هذا الإطار فإنَّ هذه المدة تعتبر فترة طويلة، فالرقم القياسي الأطول المسجل في بقاء منظومة صنعية من السبينات الإلكترونية المتشابكة لا يتجاوز مدة ٥٠ميكروثانية...

ويقول العلماء إنهم يجهلون حتى الآن كيف تستطيع منظومة طبيعية الحفاظ على هذه الآثار الكمومية طوال هذه المدة، بل لعل الإجابة على هذا السؤال بالذات تقدم حلاً للعلماء في كيفية حماية الحواسيب الكمومية من آثار فك الارتباط.

من جهة أخرى، لا يجهل البيولوجيون أنَّ قوانين كمومية توجد بالضرورة في أساس كيمياء الكائن الحي، فالحموض النووية والبروتينات والأنزيمات وكل مكونات الحياة يمكن أن تمثل بوساطة كريات تربط بينها روابط على شكل عصي صغيرة ربما أو وصلات.

إنَّ الصيرورات البيولوجية التي تحرك مجمل هذه الكينونات هي عبارة عن تفاعلات وتحولات في تجمعات الذرات الأساسية المكونة لهذه الجزيئات. فكل خلية من خلايانا تستمد جوهر وجودها بالتالي من استقرارية المادة الأساسية المكونة لها. وهو أمر لا يمكن تفسيره إلا في إطار الفيزياء الكمومية، التي تحدد ما هي الروابط الكيميائية وما هي كثافتها المطلوبة من أجل استمرار هذه الكينونات.

غير أنَّ البيولوجيين ينظرون حتى الآن نظرة آلية لهذه التركيبات المحكومة بقوانين نظرية الكم الغريبة، ويعملون مثل المهندسين على تطبيق التراكيب الأساسية في فهم التحولات والتفاعلات، من دون اعتماد قوانين فيزياء الكم في بناء جسر أو ناطحة سحاب.

وفي الحقيقة كان الجميع يظن حتى وقت قريب أنَّه بإمكان المهندس كما البيولوجي تخطي هذه القوانين الغريبة التي تظل محصورة وفاعلة على مستوى الجسيمات الدقيقة!

ألم يكن إرفينشرودنغر هو نفسه من ساهم في فصل العالم الجهاري عن العالم الكمومي، وأكد أنَّ النظرية الكمومية لا تتعلق بالكائن الحي في كتابه «ما هي الحياة؟» وأنَّ الجزيئات يجب أن تظل هي المستوى الأدنى لوصف العالم البيولوجي.

غير أنَّ ذلك كله يتغير اليوم كما لو بلمسة ساحر. ما يطرح لغزاً جديداً: إذ كيف نفسر انبثاق وظهور آثار كمومية في قلب الكائنات والمتعضيات الحية؟ في حين أن هذه القوانين الغريبة التي تحكم عالم اللامتناهي في الصغر لا تنطبق على العالم الجهاري، باستثناء طبعاً تلك القطة الشهيرة الحية والميتة في آن واحد وهي في علبتها! لكن الأمر لا يتوقف عند ظاهرة الطيور المهاجرة، فقد تتالت الاكتشافات حول أصالة الظاهرة الكمومية في قلب العالم الحي.

التركيب الضوئي، وظاهرات حيوية أخرى، كمومياً

إنَّ التركيب الضوئي، وهو الآلية المعقدة التي تحول النباتات بوساطتها الطاقة الشمسية إلى طاقة كيميائية، هو صيرورة بيولوجية أخرى تقدم كمثال يمكن أن يكون التشابك لاعباً أساسياً فيها. ففي الخلايا النباتية، يطلق الضوء في النبتة إلكترونات، حيث تأخذ هذه الإلكترونات كلها طريقها نحو مركز للتفاعل تطرح فيه طاقتها وتطلق التفاعلات الكيميائية الضرورية لخلايا النباتات. ونعرف أنَّ الفيزياء الكلاسيكية لا تفسر الفعالية شبه الكاملة لهذه الآلية.

أجريت تجارب كثيرة مؤخراً من قبل فرق علمية عدة، بينها فريق غراهام فلمينغ Graham Fleming وموهانساموفار Mohan Samovar، من جامعة كاليفورنيا في بيركلي، أو فريق غريغوري سكولز Gregory Scholes، من جامع تورنتو، تدعم فكرة أنَّ المردود المرتفع للتركيب الضوئي لا يمكن تفسيره إلا بوساطة خصائص كمومية.

مثال آخر على فعالية الفيزياء الكمومية في عالم البيولوجيا يتبدى لنا في دراسة الأنزيمات. فما هو السر الذي تعتمده الإنزيمات لكي تستطيع إدارة مليارات التبادلات الكيميائية الضرورية لحياة المتعضية؟

فمن غير الإنزيمات ستكون كيمياء الحياة عطالية ببساطة. لأنَّ المتعضيات الحية هي معامل حقيقية للتفاعلات الكيميائية تتحول فيها مليارات مليارات الجزيئات باستمرار في تبادلات بين الذرات أو المجموعات الكيميائية. ولا غنى عن الإنزيمات في هذا الغليان في قلب المتعضية الحية. فعلى الرغم من أنَّها لا تتغير خلال الصيرورات الكيميائية لكن أثرها يسمح للأجسام المتفاعلة بتجاوز حدود طاقية تفصل بين الحالات البدئية والنهائية، مع تسريع هذا التفاعل بشكل كبير. يشبه ذلك إلى حد بعيد عندما نمسك بمقود دراجة طفل ونشدها معه مما يعطيه دفعاً لا بأس به يتجاوز معه تلة أو صعوداً أو حاجزاً ما. غير أنَّ جزءاً من نجاح الإنزيمات في هذا العمل يعود إلى أثر كمومي يسمح لجسيم بأن يقوم بلعبة تخطي الحواجز، وهو ما يعرف بالأثر النفقي.

وينتج الأثر النفقي عن الطبيعة الموجية لجسيم كمومي. ففي حين يكون من المستحيل على جسيم نقطي أن يقفز فوق حاجز عالٍ جداً بالنسبة له، فإنَّ قرينه أو أناه الكمومية، بما هو يتحرك مثل موجة تمتد في المكان، له احتمالية غير معدومة

بأن يوجد وراء هذا الحاجز الذي لا يمكن اجتيازه.

فالكرة الكمومية إن جاز التعبير لا تجتاز الحاجز فعلياً، بل تكون بحظوظ واحتمالات لا يمكن إهمالها وراء الحاجز ببساطة. وهذا الأثر بات معروفاً تماماً في الفيزياء الكمومية بحيث أنّ العلماء اخترعوا مجهراً يعمل وفق الأثر النفقي، ويسمح برؤية سطح بدرجة أقل من حجم ذرات السطح.

مع ذلك لم يكن يخطر في بال أحد أن الأثر النفقي يمكن أن يلعب دوراً في التفاعلات الكيميائية في قلب الخلايا الحية. لكن هذا ما بدأ يطرح فعلياً منذ عام ١٩٨٩م بعد ما حققته جوديث كلينمان Judith Klinman من جامعة بيركلي في الولايات المتحدة. فقد درست هذه الكيميائية وظيفة إنزيم يسمى alcool déshydrogénase (ADH)، نجده على سبيل المثال في الكبد، ووظيفته هو تفكيك جزيئات الكحول بإجبارها على التخلي عن أيون من الهيدروجين، أي عن بروتون، وهو جسيم موجب الشحنة يشكل نواة الذرة.

وبينت قياسات تتعلق بالحرارة وعوامل أخرى أنّ هذا البروتون مرّ بالأثر النفقي خلال هذا التحول. وأدت هذه الفرضية إلى تفسير فعالية الإنزيمات في تسريع التفاعلات بين الجزيئات. فلو اقترب جزيئان من الإنزيم المناسب، فإنّه يسهل التبادل بينهما كما لو بفعل سحر، بفضل الأثر النفقي حيث يترك أحدهما بروتوناً للإنزيم فإذا به ينتقل مباشرة نحو الجزيء الثاني. وتتم العملية خلال وقت قياسي جداً!

كان إثبات هذا الانتقال على يد جوديث كلينمان غير متوقع أبداً. فالبروتون ثقيل نسبياً وفعالية الأثر النفقي تتناسب عكساً مع كتلة الجسيم المعني. وإن كنا نعرف هذا الأثر بالنسبة للإلكترون بحيث ينتقل بين موضعين طاقيين، لكنه لم يكن معروفاً بالنسبة للبروتون الذي يزيد ٢٠٠٠ مرة في كتلته عن الإلكترون. لكن منذ هذا الاكتشاف حصلت اكتشافات أخرى على يد فرق بحث أخرى. تقول جوديث كلينمان: «أعتقد أن التطور قد انتخب بروتينات إنزيمية بحيث يسهل تموضعها النشط، حيث تجري التفاعلات الكيميائية، الأثر النفقي للبروتونات»، وتضيف:

«أصبح لدينا نتائج حديثة تميل إلى تأكيد ديمومة أو طول مدة الأثر النفقي بالنسبة لنقل ذرات أثقل، مثل ذرات الكربون والأكسجين». غير أنّ إحدى الصعوبات التي تواجه حسم المسألة هي أنّ كل هذه التجارب لا تسمح برصد مباشر للأثر النفقي. وقد اقتُرحت طرائق عدة لمحاولة رؤية هذا الأثر بشكل مباشر.

يقول داميان لاج Damien Laage من قسم الكيمياء في إيكول نورمال l'Ecole normale في باريس: «يجاهد الأخصائيون اليوم في سبيل تحديد دور الأثر النفقي الدقيق في عملية التحفيز التي يقوم بها الإنزيم. ومن غير المحتمل أن يكون هذا الأثر هو المسؤول ١٠٠ ٪ عن التحفيز الإنزيمي نفسه، لكن لا شك بأنه يساهم فيه وأنه عامل أساسي فيه».

وحاسة الشم، كمومياً!

تشير الأبحاث الحديثة إلى أن حاسة الشم ترتكز على هذا الأثر النفقي أيضاً. فمع أن مستقبلات الشم كانت معروفة منذ التسعينيات، لكن أحداً لم يكن يفهم حتى اللحظة وظيفتها وكيفية عملها. غير أنَّ دراسات عديدة بدأت تشير مؤخراً إلى أن التفسير يأتي من جانب العالم الكمومي! ومن دون الدخول في التفاصيل، يشير مارشال ستونهام Marshall Stonham ورفاقه الذي بدأ الاهتمام بالموضوع في عام ٢٠٠٧م إلى أنَّ المسألة تبدو مؤسسة علمياً بشكل جيد على الرغم من وجود نقاط كثيرة تحتاج إلى إيضاح، وهو ما يحاول القيام به، محاولاً وضع نموذج كامل يتضمن الجزيء الحامل للرائحة والمستقبلات.

ومن المهم الإشارة إلى أعمال Markus Arndt من جامعة الفيزياء في فيينا الذي يحاول وضع أسس نظرية للتفسير الكمومي للحاسة الشمية. وقد تمكّن مؤخراً فريق من الباحثين اليونان من القيام بتجربة هامة في هذا المجال، حيث بينوا أنَّ ذبابة تستجيب بشكل مختلف لرائحة جزيء بحسب ماإذا كانت ذرات هيدروجين قد استبدلت بذرات ديتريوم الأثقل، وبالتالي كان التواتر الاهتزازي في المستقبلات العصبية مختلفا. إنَّه مؤشر إضافي للاعتقاد أن لدينا في نهايات أنفنا مجاهر حقيقية ذات أثر نفقي.

البيولوجيا الكمومية

في العالم الكمومي يسلك جسيم الطرق كافة في آن واحد، حيث يكون كل طريق متأثراً باحتمالية معينة. إنَّ الحقول الكهرمغنطيسية الموجودة في قلب الخلايا النباتية يمكن أن تستجر الإبطال المتبادل لبعض هذه المسارات وتدعيم مسارات أخرى، مما يقلص من حظوظ أن يقوم الإلكترون بانعطاف أو تغيير لمساره بشكل غير اقتصادي، ويزيد من الحظوظ بأن يكون موجهاً مباشرة باتجاه مركز التفاعل.

إنَّ تشابك حالات التموضع (أي الطرقات التي يسلكها الإلكترون أو المسارات) الممكنة لا يدوم سوى جزء من الثانية ويؤدي إلى تدخل جزيئات لا تحتوي على أكثر من ١٠٠٠٠٠

ذرة. ترى هل توجد أمثلة أخرى على تشابك أوسع وأكثر ديمومة في الطبيعة؟ نحن نجهل ذلك، لكن السؤال بات مطروحاً وهو مثير جداً بحيث يحرّض انبثاق علم جديد كل الجدة باتت له بعض مراكز الأبحاث في الجامعات الكبرى: البيولوجيا الكمومية.

لم يكن ثمة معنى بالنسبة لشرودنغر أن تكون القطة حية وميتة في آن واحد. فكل نظرية تقوم بمثل هذه النبوءة لا يمكن أن تكون سوى نظرية ناقصة أو تحمل عيباً ما. وقد تقاسمت أجيال من الفيزيائيين هذه الحالة المزعجة، معتقدين أنّ النظرية الكمومية لا تطبق على المستوى الجهاري. وفي الثمانينيات من القرن الماضي اقترح روجر بنروز Roger Penrose على سبيل المثال، من جامعة أكسفورد، أن تكون الجاذبية هي المسؤولة عن حالة انتقالية من الفيزياء الكمومية إلى الفيزياء الكلاسيكية فيما يتعلق بأجسام أكبر من ٢٠ ميكروغرام. أمّا جيانكارلو غيراردي Giancarlo Ghirardi وتوماسو ويبر Tomaso Weber من جامعة ترييستا، مع ألبرتو ريميني Alberto Rimini من جامعة بافيا، فكان رأيهم أن الجسيمات كثيرة العدد تعتمد مباشرة وآنياً سلوكاً كلاسيكياً.

على أية حال لم يستطع العلماء في الحالتين تقديم تفسير واضح لحدود ما بين العالمين الكمومي والجهاري. وتأتي الاكتشافات الحديثة لتؤكد أن فضاء العالم الكمومي لا ينحصر فقط في إطار الجسيمات الدقيقة.

حدود قابلة للإزالة

فكما رأينا، تشير تجارب كثيرة بالأحرى إلى أن الحدود بين العالم الكلاسيكي الجهاري والعالم الكمومي الصغائري لم تعد حدوداً جوهرية، وهناك ما يكفي من الوقائع التجريبية الحاذقة لإزالة هذه الحدود كلياً. إنّ عدداً قليلاً جداً من الفيزيائيين يرى اليوم أنّ الفيزياء الكلاسيكية تفرض نفسها بالفعل على مستويات معينة أياً كانت. بل على العكس تماماً، فإنّ الشعور العام لدى غالبية الفيزيائيين هو أنّه لو جاءت نظرية أكثر فعالية لتحل محل النظرية الكمومية فإنّها ستبين أن العالم أكثر تعارضاً مع ما هو بديهي في تصورنا أو فهمنا الكلاسيكي من كل ماراأيناه حتى الآن حول العالم الجهاري.

وبالتالي، فإنّ حقيقة أن النظرية الكمومية تطبق على المستويات كافة بما فيها الجهارية أمر يجبرنا على مواجهة التساؤلات التي يطرحها تفسير هذه النظرية نفسها. فنحن لم نعد نستطيع حصرها في مجرد تفاصيل لا تعني سوى التجارب على مستوى الجسيمات الأولية. وعلى سبيل

المثال، فإنَّ المكان والزمان هما مفهومان جوهريان في الفيزياء، لكنهما لا يلعبان في الفيزياء الكمومية سوى دور ثانوي. فالتشابك هو الظاهرة الكمومية الأساسية. وهي تربط بين منظومات بلا مراجع مكانية أو زمانية. فإذا كان هناك فعلاً حدود يجب رسمها بين العالمين الكمومي والكلاسيكي، فيمكن الاعتماد على الإطار الزماني المكاني الكلاسيكي لكي نزود النظرية الكمومية بإطار مماثل. ومن دون هذا التحديد - وخاصة لأنَّ العالم الكلاسيكي غير موجود أصلاً- فإننا لا نعود بحاجة إلى هذا الإطار. بل يكون علينا بالأحرى البحث عن تفسير للمكان والزمان كظاهرتين تنبثقان بطريقة أو بأخرى من فيزياء أكثر جوهرية خالية من الإطار الزمكاني.

ربما تساعدنا هذه الفكرة لاحقاً في التوفيق والجمع بين الفيزياء الكمومية والنظرية النسبية العامة لآينشتاين، التي تصف الثقالة وفق مصطلحات هندسة الزمكان. وتفترض النسبية العامة أنَّ للأجسام مواضع محددة تماماً ولا تكون أبداً في أكثر من موضع في آن واحد، الأمر الذي يتعارض مع الفيزياء الكمومية. ويرى فيزيائيون كثيرون اليوم ومنهم ستيفن هوكنغمن جامعة كامبردج أنَّ نظرية النسبية يجب أن تخلي الساحة لنظرية أعمق منها لا يكون ثمة مكان فيها للمكان والزمان. فالزمكان الكلاسيكي سينشأ في هذه النظرية الجديدة عن تشابكات كمومية عبر صيرورة فك الترابط.

إنَّ التطبيقات التي يمكن أن تنشأ عن واقع أنَّ أجساماً جهارية تسلك وفق القفزات الكمومية هي تطبيقات تصل حد الهلوسة في مفهومنا الكلاسيكي، بحيث تضع الفيزيائيين أنفسهم في حالة معقدة من التشويش والدهشة...

نحو علم جديد أم نظرية جديدة؟

التركيب الضوئي، النشاط الإنزيمي، بنى الحموض الريبية النووية، آليات الشم وحس الاتجاه لدى الطيور المهاجرة، بل وأسس تطور الحياة وبقائها... لعلَّ على البيولوجيا أن تواجه اليوم ثورة في المفاهيم الكمومية في عقر دارها. ولا بد بالتالي من طرح السؤال حول نتائج مثل هذا «التشابك». هل نرى في ذلك علامة، بعد سيادة طويلة لعلوم البيوكيمياء، على تغيير جذري في المفاهيم والأفكار يمكن أن يقود مجمل البيولوجيا إلى عالم الميكانيك الكمومي؟ أم أنَّ الأمر لا يتعلق سوى ببعض مظاهر الكائن الحي، الهامة بالتأكيد، إنَّما المحلية وفق المصطلح الفلكي؟

الأمر المؤكد هو أنَّ مجموعات بحثية

وفرقاً من العلماء في مخابر الأبحاث والجامعات قد انطلقوا منذ بضع سنوات في أبحاث المغامرة التي باتت تعرف بالـ«حيوية الكمومية» (bioquantique). يقول ماركوس أرندت: «لا يمكننا حتى الآن الحديث عن علم جديد أو مجتمع علمي جديد، لكن الواقع بات يفرض نفسه، إذ إنَّ العديد من العلماء المعروفين ينضمون يوماً بعد يوم لدراسة الظاهرات الكمومية في الصيرورة البيولوجية». ويدل على ذلك تضاعف المؤتمرات الدولية العلمية خلال السنوات الأخيرة حول هذا الموضوع.

ويقول أليكس شين Alex Chin من معهد الفيزياء النظرية في جامعة أولم بألمانيا: «بدأ انتشار هذا الموضوع في عام ٢٠٠٧م مع نشر بحث غراهام فلمنغ Graham Fleming حول رصد ظاهرات كمومية مرتبطة بالتركيب الضوئي لدى النباتات». وكان لنشر هذا الموضوع أثره المباشر على الصناعة حيث استفاد منه مباشرة صانعو ألواح الطاقة الشمسية! وتؤكد إليزابيث ريبر Elisabeth Rieper من مركز التكنولوجيا الكمومية في سنغافورة: «لقد نجم عن انتشار البحوث الحيوية- الكمومية مقاربة متعددة الاختصاصات ذات غنى كبير نتوقع له أن ينتج اكتشافات وأفكاراً جديدة».

والحقيقة أن الأبحاث الجديدة تعيد طرح أفكار قديمة، لأنَّ اللقاء بين العالمين البيولوجي والكمومي كان مطروحاً خلال القرن العشرين. وكانت هناك محاولات جادة لسبر بعض المفاهيم التي يمكن إيرادها تحت مسميات «الطاقة الحيوية» أو التخاطر أو حتى الوعي. لكن هذه المقاربات المبكرة تركت خوفاً لدى العلماء في تلك الآونة من المزج بين المناحي السرانية والعلم.

كان أربعة فيزيائيين معروفين قد حاولوا المزاوجة في القرن الماضي بين البيولوجيا والفيزياء الكمومية. وأولهم كان نيلز بور. وكان طرحه أشبه باستعادة غريبة في ثلاثينيات القرن العشرين لأفكار كانت معروفة في القرن التاسع عشر حول «الطاقة الحيوية» كان العلماء ينسبونها آنذاك للمادة الحية مقابل المادة العطالية، فكان نيلز بور يقارن العلاقة بين الجسم والروح مع ثنوية الجسيم- الموجة المميزة للعالم اللامتناهي في الصغر.

ثم جاء النظري السويسري يورغفروليش JurgFrohlich الذي اقترح في عام ١٩٦٨م أنَّ نمط اهتزازات الأغشية في الخلايا يمكن أن يكون مرتبطاً بظاهرات كمومية مشابهة لطرح آينشتاين- بور حول الحالة الحدية للمادة حيث تصبح الجسيمات كافة غير قابلة للتمييز فيما بينها.

بعد نحو عشرين سنة، أكد الحائز على

جائزة نوبل للفيزياء بريان دافيد جوزفسون Brian David Josephson أنه على غرار الجسيمات المتشابكة، يمكن لمتعضيتين منفصلتين مكانياً أن يكون بينهما اتصالات «داخلية» متبادلة، ومن هنا كان اعتقاده بالتخاطر. وفي السنة التالية اقترح الرياضي والفيزيائي الشهير روجر بنروز Roger Penrose أنَّ اللاتحديدية الكمومية يمكن أن تفسر انبثاق الوعي الإنساني والمسار الحر، مع تلمسه في الوقت نفسه لوجود تكاثفات مادية مماثلة في قلب العصبونات تشبه تلك التي ذكرها فروليش.

ويعلق على هذا التاريخ الفيزيائي نيكولاس جيزان Nicolas Gisin بالقول إن شهرة هؤلاء العلماء لم تمنح لآرائهم هذه مصداقية كافية بحيث لم تعتبر من العلم. حتى استطاع فريق أسترالي في عام ٢٠٠٩م البرهان أن تكاثفاً للمادة وفق فروليش إذا وجد لا يمكن أن يتشكل سوى في درجة حرارة تتراوح بين ١٠٠٠٠٠ و١٠ مليون درجة.

وفيما يتعلق بالتخاطر، فلم تنجح أي تجربة علمية حتى الآن في إثبات وجوده. أمَّا بالنسبة للقوة الحيوية، فقد تجاوزتها البيوكيميا بكثير. بل إن الظهور الحديث للفيزياء الكمومية في معادلات الحياة يذكرنا بأن المادة الحية كما المادة العطالية تتألفان من الجوهر نفسه.

أمَّا اليوم فقد تغيرت المفاهيم، وأصبحت علوم الحياة أكثر نضجاً لتقبل الميكانيك الكمومي في مبادئ الحياة نفسها. يقول ألكسي غرينبوم AlexeiGrinbaum من مخبر الأبحاث حول علوم المادة في Saclay: «يتأتى الاختلاف الكبير اليوم من أن الأبحاث حول الروابط بين الكائن الحي والميكانيك الكمومي يقودها التطور الأداتي، الذي يسمح برصد الجزيئات وما دون الجزيئات». فلم تعد هذه الأفكار ترتكز على الحدس أو التوقع. بل يؤكد ألكسيس شين قائلاً:

«لقد بات لدينا اليوم نماذج نظرية تسمح بالقيام بتنبؤات كمومية قابلة للاختبار والرصد». وباختصار، يمكن القول إن البيولوجيا الكمومية أصبحت منهجاً علمياً بكل ماتعنيه الكلمة من معنى.

علينا من جهة أخرى أن ندرك مدى اتساع هذه الظاهرة. ففي حين تزداد التجارب التي تكشف عن رسوخ الميكانيك الكمومي في البيولوجيا، فإن هذه الأخيرة مدعوة للاستجابة على المدى الطويل ربما للأفكار والمبادئ الكمومية، أم أن ذلك كله لا يمس سوى بعض الظاهرات الاستثنائية في علوم الحياة؟

يرى بول ديفيس Paul Davies من جامعة أريزونا «أنه لا يزال من المبكر أن نعرف إذا كانت الحياة تستثمر فعلاً بعض

القوانين الكمومية هنا وهناك، أم على العكس إذا كانت الفيزياء الكمومية تلعب دوراً مركزياً في الكائن الحي». مع ذلك يتفق الفيزيائيون عموماً على ضرورة المضي قدماً في هذه التجارب.

أمّا نيكولاس جيزان الأخصائي بالميكانيك الكمومي فيتساءل: «إذا توصلنا مثلاً إلى التأكيد بشكل نهائي أن التركيب الضوئي يستخدم خصائص كمومية،، فذلك سوف يكون هاماً جدّاً في مسيرة العلم. وسيكون من المدهش أن تظل مثل هذه المشاهدة أمراً معزولاً وسط التقدم العلمي وتفسيره. ولهذا قد يكون من المهم تصور إدخال مناهج الميكانيك الكمومي على طلاب دراسات البيولوجيا المتقدمة التي لا تزال حتى الآن علما جهاريا كلاسيكيا. وبعبارة أخرى، إنّها دعوة لفتح النموذج paradigme العلمي للبيولوجيا على مناح وأنماط جديدة».

يبقى إذاً إقناع الأخصائيين بالكائن الحي بضرورة وفائدة هذا التطور العلمي. لأنه إذا جمعت البيولوجيا الكمومية حتى الآن الكيميائيين والبيوفيزيائيين والفيزيائيين الكموميين، فلابد من الاعتراف أنّ البيولوجيين هم الغائبون الكبار عن هذه الساحة وعن هذا المجتمع العلمي الوليد. والسبب ليس فقط تأهيلهم الذي يبعدهم عن العالم الكمومي. يرى ميشيل مورانج Michel Morange مدير مركز كافاي لتاريخ وفلسفة العلوم في المدرسة العليا في باريس أسباباً أعمق لهذا الابتعاد:

«إنني أعترض على فكرة أن يكون الميكانيك الكمومي هو مفتاح كل ما لا نفهمه في البيولوجيا. ويمثل هذا الموقف نوعا من التقليصية... ومن المهم الإشارة إلى أن إرفينشرودنغر كان في الثلاثينيات من القرن الماضي أحد أئمة الميكانيك الكمومي وكان يعارض هذا الميل للجمع بين العلمين».

مع ذلك يضيف هذا البيولوجي:

«لا شك أن الميكانيك الكمومي يستطيع أن يساعد في فهم بعض جوانب الظاهرات البيولوجية. ولهذا فإنّ هذه الأبحاث هامة جداً». أمّا دافيد هولكمان من قسم البيولوجيا في المدرسة العليا في باريس، والأخصائي في النمذجات الرياضية في البيولوجيا، فهو أكثر تحفظاً:

«إنّ البيولوجيا هي عبارة عن وحش خرافي، والميكانيك الكمومي فيها ليس أكثر من إبرة صغيرة يمكن استخدامه لتفسير بعض الجوانب الخاصة منها». لكن هذه التحفظات البيولوجية لا تمنع أن تأكيدات تجريبية هامة تحققت خلال السنوات الأخيرة. وأصبح يوجد للمرة الأولى براهين موثوقة تجعلنا نعتقد بأن الميكانيك الغريب

الذي أسسه هايزنبرغوشرودنغر يساهم مباشرة في وظائف الكائن الحي.

أمَّا من حيث الجوهر، فلا بد من القول إنه ليس ثمة ما هو غريب في فكرة أن تستطيع الحياة إيجاد المزايا في تحريض صيرورات كمومية. تقول إليزابيث ريبر: «بينت نتائج كثيرة خلال السنوات العشرين الأخيرة فيما يتعلق بالمعلومات الكمومية أنه من الأفضل في مواضع كثيرة التعامل مع حالات كمومية بالأحرى من حالات كلاسيكية. وبالنتيجة سيكون من المدهش ألا يستفيد منها الكائن الحي الذي قضى مليارات السنين في تطوير وتحسين صيروراته وتفاعلاته». وتوضح ذلك جوديث كليمان من بركلي قائلة:

«أعتقد ببساطة أن الكائن الحي يستخدم الخصائص الفيزيائية الممكنة كافة من أجل تحسين وظيفة ما». ولِمَ لا تكون هذه الخصائص من الميكانيك الكمومي... وكيف يمكن أن يكون قد فات التطور وسعته المدهشة هذه الإمكانية الهائلة ولم يستفد منها؟

مع ذلك هناك تحديات كثيرة. والمشكلة أنَّ الفيزيائيين أنفسهم لم ينجحوا حتى الآن في ضبط هذه الهندسة الكمومية تماماً. ومع أنهم تعلموا كيف يخلقون حالات مادية في حالات مختلفة، لكنهم يعون بالمقابل هشاشتهم خاصة مع تغير الظروف المناسبة التي يضعونها لنجاح تجاربهم.

فعندما ترتفع درجات الحرارة مثلا أو تصبح التفاعلات مع الوسط المحيط أكثر فأكثر كثافة، يصبح من الصعب التحكم بنتائج التجربة الكمومية. والحياة لا تتفق جيداً مع درجة حرارة قريبة من الصفر المطلق. في حين أن المنظومات البيولوجية نادراً ما تكون معزولة عن محيطها، بل على العكس تماماً.

هذا إضافة إلى أنَّ الأخصائيين لا يعرفون بعد كيف يمكن لصيرورات كمومية أن تستمر لأكثر من عدة نانوثانية وعلى مسافات أكثر من بضعة نانومتر في الكائن الحي. كيف يمكن لظاهرات محدودة نظرياً على مستوى الجسيمات أن تظهر على مستوى الجزيئات، بل وعلى المستوى الجهاري؟ كلنا يعرف أننا لا نستطيع الذهاب إلى العمل بالمشي في كل الطرقات المؤدية إليه في آن واحد من أجل الوصول في الوقت المناسب، في حين أنَّ هذه الميزة في تراكب الحالات لا تطرح أي إشكال على مستوى الجسيمات. فبأية طريقة عجائبية نجحت الطبيعة في تطوير هندسة كمومية بهذه الفعالية؟

تظل هذه الأسئلة مفتوحة. وتوحي دراسات حديثة أنَّ آليات تفاعل مع المحيط يمكن في بعض التصورات الدقيقة أن تحفظ حالة كمومية من الانهيار. إنَّ المنظومات

البيولوجية تكون غالبا ضـــمن شروط بعيدة عـــن التـــوازن الترموديناميكـــي، لأنّ ذلك يسمح لها بتبادل المادة والطاقة مع المحيط. ويمكن لهذه الشروط أن تســمح أيضـــا أن تبرد حجوماً دقيقة في قلب المتعضية، حيث يمكن لصيرورات بيولوجية كمومية أن تنشأ بسهولة. وهو ما يمكن أن يعطي للفيزيائيين طرقا جديدة لاستثمار العجائب الكمومية. بل ويفتح ذلك الباب للدهشـــة بشكل خاص أمام حـــذق الطبيعة القادرة على اســـتثمار مصـــادر العالم كافة، حتـــى في أدق حالاتها وأكثرها غرابة!

الهوامش

1- Théorie quantique et échelles macroscopiques, Adapté du Bulletin de l'Union des Physiciens JMLL,août 2009.

2- Jean-Marc Lévy-Leblond & Françoise Balibar, Quantique (Rudiments), Masson, 1997 ; chapitre 1,«Le domaine quantique».

المراجع

- Disproof of Bell's Theorem; Clifford Algebra Valued Local Variables
- Par Joy Christian (Perimeter and Oxford) http://www.arxiv.org/abs/quant-ph/0703179/
- Decoding Reality: The Universe as Quantum Information. VlatkoVedral. Oxford UniversityPress, 2010.
- Entangled Quantum State of Magnetic Dipoles. S. Ghosh et al. in Nature, Vol. 4254, pages 4851-; September 4, 2003. Preprint available at arxiv.org/abs/cond-mat/0402456.
- Entanglement in Many-Body Systems. Luigi Amico, Rosario Fazio, Andreas Osterloh and VlatkoVedral in Reviews of Modem Physics, Vol. 80, No. 2, Pages 517576-; May 6, 2008.
- Le monde quantique; Les Dossiers de la Recherche, N° 29, Novembre 2007
- Michaël Brooks, Reality Check, NewScientist 23 juin 2007 p. 30.
- «L'étoffe de la réalité Cassini», David Deutsch; 2003. Traductionfrançaise de The Fabric of Reality, 1997.
- «Observing the progressive decoherence of the meter in a quantum measurement», M. Brune, E. Hagley, J. Dreyer, X. Maître, A. Maali, C. Wunderlich, J.M. Raimond et S. Haroche,Phys. Rev. (1996).

يوم التبدل في منهجية التفكير العلمي

إبراهيم سلوم ✿



يُعدّ اليوم العاشر من أيلول ٢٠٠٨م يوماً مشهوداً على صعيد البحث العلمي. ففي ذلك اليوم صفّق ٩٠٠٠ عالم فيزيائي يمثلون ٣٣ دولة من مختلف أنحاء العالم ويعملون في المركز الأوروبي للأبحاث النووية (سيرن) الذي يتخذ من مدينة جنيف مقراً له ابتهاجاً لنجاح أوّل تجربة علمية لفهْم كيفية نشوء الكون. وقد تمت هذه التجربة من خلال إطلاق حزمة من ملايين البروتونات ضمن جهاز دائري

✿ مترجم وباحث سوري.

مخصص لتصادم البروتونات ببعضها بعضاً يدعى (هيدرون) الموضوع على عمق ١٠٠م تحت الأرض وبطول ٢٧كم على جانبي الحدود السويسرية الفرنسية وذلك في أكبر محاولة من نوعها لمحاكاة الظروف التي ارتبطت «بالانفجار الكبير» (Big Bang) الذي يقول العلماء، وعلى رأسهم العالم الفرنسي سيمون لابلاس (١٧٤٩-١٨٢٧م)، بأنه هو الذي قاد منذ قرابة ١٤ مليار سنة إلى نشوء الكون. وخلال هذه التجربة تمكنت البروتونات من قطع المسافة الممتدة على طول الجهاز الصادم للبروتونات (هيدرون)، ووصلت إلى النقطة النهائية المحددة لها بسرعة توازي سرعة الضوء، أي بحدود ٣٠٠ ألف كم/ثا. وهكذا أتيحت الفرصة أمام العلماء كي يتفرجوا على قلب الانفجارات الكبيرة الناجمة عن تصادم البروتونات على شاشة أحد أجهزة الكمبيوتر ومن ثم تسجيل البيانات المتأتية من هذه التجربة على أمل معرفة كيف كانت المادة عند بداية الكون.

في الواقع، لقد مرّ تاريخ طويل على البشرية وهي تبحث عن أسرار المجموعة الشمسية ومعرفة كيف تكونت الحياة. ولقد قال يوماً رئيس الوزراء الفرنسي الأسبق فرانسوا فييون في العام ٢٠٠٨م: «إنّ كبار الفلاسفة وكبار المتصوفين وكبار الشعراء لم يتوقفوا أبداً عن التأمل في أسرار المادة، وسرّ خلق العالم الذي نعيش فيه، وهما مسألتان متشابكتان لم يتوقف البشر عن الافتتان بهما».

وتتابعت العلوم وتعددت النظريات بتعدد الحضارات في هذا الاتجاه. وعلى الرغم من الدرجة التي بلغها التقدم العلمي لا يزال موضوع نشأة الكون في حيّز النظريات التي لم تصل بعد إلى مرحلة اليقين، ومؤخراً بدأ العلماء يعكفون على دراسة نظرية العالم الفرنسي «سيمون لابلاس» (١٧٤٩-١٨٢٧م) التي سطّرها في كتابه الشهير «النظام الكوني» ويتفحصون مضامينها. والجدير بالذكر إنّ هذا الكتاب كان قد نال اهتمام الإمبراطور نابليون بونابرت، ما دفعه إلى أن يدعو المؤلف إلى مكتبه للتباحث معه بشأن هذه النظرية في نشوء الكون، التي تنص على أنّ المنظومة الشمسية تولدت منذ قرابة ١٤ مليار سنة من كرة دائرية سديمية ملتهبة، ثم انفجرت بشكل هائل إلى ذرات من الأجسام الملتهبة التي تكونت منها الأرض وسائر الكواكب. وخلال اللقاء قدّم لابلاس كتابه هذا إلى الإمبراطور كهدية له. وفيه يرى أنّ الكون كان في البدء كرة سديمية شديدة الكثافة، ملتهبة وحارة جداً. ثم دارت هذه الكرة الحارة عبثاً في الفضاء عصوراً لا تُعد ولا تُحصى حتى انفجرت بشكل كبير إلى ذرات من الأجسام الملتهبة التي

نسميها نجوماً، ثـم بدأت تتقولب فخرجت منهـا الكواكب وبردت. ومـا الشمس سوى نجم من تلك النجوم المشعة. بعض من هذه النجوم حدث فيها عامـل التجمد فتكونت منها الأرض وسائـر الكواكب السيارة. وفي فـترة زمنية لاحقة امتـدت الأصقاع البرية على كوكـب الأرض، وتجمعـت البحار في مقراتهـا، وتغضّن وجـه الأرض فأصبح جبـالاً شامخـة ومهاوي عميقـةً. ومن كتل الغيوم السوداء هطلت أمطار غزيرة فغمرت قشـرة الأرض المائعة حيـث انطلقت نطفة الحيـاة في عروقها دافعةً جارفـةً بالحياة بفضل القوة الديناميكية التي ترسلها أشعة الشمس. وهذه النطفة بدأت بمخلوق واحد هو الخليـة الواحدة التـي تسبح في البرك والمستنقعات مثـل الأميبيا، لا يعرف الموت كما نعرفـه. وكان الموت لا يدركه إلا بوقوع حادثـة خارجية: يجـفّ المستنقع أو يلتهمه مخلـوق أكبر منـه أو تنزل عليـه صاعقة. لقـد كان مسلحاً ضد المـوت، وكان ينمو لا ليشيخ ويهرم بل إلى طفولة جديدة، فينقسم عندمـا يبلغ غاية نمـوه، ويصبح مخلوقين. وكثيراً ما كانت تتكيـس هذه الخلية بحيث لا يؤثـر فيها الحـرّ ولا الصقيع. وهذا ما نصادفـه اليـوم في أكيـاس الأميبيا ضمن مخابـر التحاليل الطبيـة. (ولقد عُثر على مثل هذه الخلية في أواخر القرن الفائت في القطـب الشمالي التي تعود إلى أكثر من ١٢ ألف سنة، وتمكن العلماء من زرعها ومن ثم إعادتهـا إلى الحياة). ثم أخذت هذه الخلية تتطـور وتنقسم على ذاتهـا، وبدأ ما يسمى بالكائـن المتعدد الخلايا، وكانت منها خلايا مختصة بالبراز، وأخرى مختصة بالهضم. ثم حدثت نقطة التحول بظهور أعضاء تناسلية أي حاملـة لبذور الحيـاة، وحدث بالضبط التكاثر.

ومنـذ ذلـك الحين بـدأ المـوت يغتال الكائنات الحية الراقية ويصيبها بالشيخوخة والذبول، كما يحدث في مملكة النحل حيث تموت الذكور بعد تلقيح الملكات.

إذن، فالحياة بدأت بخلية واحدة، وهذا الكائن الحـي له توجهاته التلقائية للحفاظ على بقائه، فهو يسبح ضد التيار، وفي النبات يصعد فـوق الجاذبية، وفي الطيور يطير في الهواء، وفي الأسماك يغوص في الماء، أي إنه يتلون ليتلاءم مع الوسط. ومن هذه الكائنات الحية تسلسـل الإنسان والحيـوان معاً في فـترة لاحقة. مع التأكيد على أن الحيوانات المختلفة الشكل تنحدر كلها من أصل واحد: فتطـورت الأرجل والزعانـف عندما حين نزلت إلى البحر فأصبحت أسماكاً، والأذرع إلى أجنحة حين حاولت غزو الجو.

ولقـد وُجـد في الثعبان أرجـل ضامرة مختفية في هيكله العظمـي، بدليل أنّه جاء

من سلالة تمشي على أربع أرجل. مع التنويه إلى أنَّ عدد أصابع اليد في القرد وفي الإنسان وفي الفئران هي خمسة، وأنَّ فترة الحمل عند القرود /٩/ أشهر، وفي الحيتان أيضاً، وأنَّ الرضاعة لجميعهم تدوم سنتين.

وفي الإنسان وُجدت فقرات الذيل كما في القرود لكنها التحمت بعدما فقدت وظيفتها، مثلها مثل الزائدة الدودية التي لها فائدة جمة عند الأرنب الذي يأكل الحشائش لأنها تقوم بعملية هضم البرسيم وتحوّله إلى سكر أي تحول اليخضور إلى الغلوكوز.

وعندما أقلع الإنسان عن أكل الحشائش وأصبح آكل لحوم بامتياز ضمرت الزائدة الدودية لديه وأصبحت بقية منقرضة. أمَّا كيف نشأت هذه الخلية؟ فهناك احتمال أن تكون المذنبات هي التي شكلت الماء على الأرض، فتكونت الحياة البحرية، وأنَّ الأجسام الغازية الصادرة عنها هي التي نشرت الجزيئات العضوية في الأرض. ومع الزمن الطويل تحولت هذه الجزيئات إلى أوّل كائن عضوي هو الخلية الحية، ما يدل على أن المذنبات هي التي نقلت بذور الحياة إلى الأرض.

وفي عصرنا الحاضر يعتقد عالم الفلك الأمريكي المعاصر «كارل ساغان» (١٩٣٤م) بصحة هذا الاحتمال ويقول: «إننا خُلقنا جميعاً من بقايا النجوم، ذلك أنَّ النجم يتألف أصلاً من غازات متكاثفة، حيث يمثل غاز الهيدروجين القسم الأعظم والأكبر منها، وهو الذي يمكن أن يتحوّل إلى مركَّبات كيميائية أكثر تعقيداً وتطوراً إذا ما وُضع في شروط مناسبة من حرارة وضغط، وبالتالي إلى مرحلة الأشكال الحياتية المختلفة التي نراها في عالمنا الأرضي، والتي تتألف أساساً من الخلية الحية. وهذه الخلية تتوزع مع بقية الخلايا الأخرى مسؤوليات العمل: فمنها ما يهتم بجمع الغذاء، ومنها ما يقوم بتمثيله، ومنها ما يطرحه خارج الجسم».

وبعد دراسة عميقة لنظرية لابلاس تبين لهؤلاء العلماء أنَّ هذه النظرية المسماة (الانفجار الكبير) هي أقرب النظريات رجاحةً بالمقارنة مع النظريات الأخرى لتكوّن النظام الشمسي. فقد اعتبرها الفيلسوف الإنكليزي برتراند راسل (١٨٢٧-١٩٧٠م) من أصحّ النظريات العلمية التي تُحدثت عن نشوء الكون لا بل أكثرها مطابقة للحسابات الرياضية والدراسات الفيزيائية والأقرب افتراضياً إلى ما حدث بالفعل منذ ١٤ مليار سنة. وكان قد سبقه إلى ذلك العالم البلجيكي والكاهن جورج لوميتر (١٨٩٤-١٩٦٦م) الذي قام بصياغة أفكاره العلمية استناداً إلى نظرية لابلاس والأخذ بكل تفاصيلها الدقيقة.

وهكذا لما أصبحت نظرية «الانفجار

الكبير» موضع قبول من قبل معظم علماء عصرنا فقد حاول هؤلاء الوصول بها إلى مرحلة اليقين العلمي. وكانت البدايات الأولى حين التقى ٩٠٠٠ عالم من مختلف أصقاع العالم في مدينة جنيف السويسرية في أواخر أعوام الثمانينيات من القرن الفائت وقرروا إنشاء ما يُسمى «بالمركز الأوروبي للأبحاث النووية» (سيرن) وذلك من أجل مواصلة أبحاثهم العلمية وإنجاز تجربة تحاكي «الانفجار الكبير» الذي تحدث عنه لابلاس.

وقد أجمع هؤلاء على فكرة أن مثل هذه التجربة العملاقة تتطلب إجراء تصادم بين البروتونات، مما قد يساعد على تقديم المفاتيح لفَهْم ما حصل خلال الانفجار الكبير. ومنذ ذلك الحين تولدت لديهم فكرة إنشاء جهاز يتم في طوقه تصادم بين البروتونات. إلا أن هذه الفكرة لم تتجسد إلا في مطلع العام ١٩٩٦م حين رصدوا ميزانية مالية قدرت أولاً بـ١،٣ مليار دولار أمريكي. ولكنّ بعد أن قطع المشروع شوطاً واسعاً ازدادت التكاليف حتى وصلت إلى ١٠ مليارات دولار في عام ٢٠٠٨م، وهو العام الذي شهد ولادة أضخم جهاز تصادمي للبروتونات الذي يشهده الإنسان.

والجهاز المذكور هو عبارة عن آلة جبارة لم يسبق للإنسان أن بنى مثلها بحيث أن استهلاكها من الكهرباء مساوٍ لكل مقاطعة جنيف. أمّا طوق الألياف المعدنية الموجودة فيه والأكثر دقةً من شعرة الرأس فهي تشكل طولاً أطول من المسافة بين الشمس والأرض بـ١٠ مرات.

وبعد مرور ١٣ عاماً انتهى العمل بهذا الجهاز العملاق الذي تمّ وضعه تحت الأرض على عمق ١٠٠م بطول يبلغ ٢٧كم على جانبي الحدود السويسرية -الفرنسية. تبلغ درجة الحرارة فيه ٢٧١،٣ درجة تحت الصفر أي أكبر بقليل من درجة الحرارة في الكون الخارجي الذي تبلغ درجة الحرارة فيه ٢٧٠،٤° تحت الصفر. لكنّ أثناء عملية تصادم البروتونات وانفجارها في داخل الجهاز ستصبح درجة الحرارة أكبر بمئة ألف مرة منها في مركز الشمس. كما سيجبر مجال مغناطيسي في الجهاز وهو أقوى بمئة ألف مرة من المجال المغناطيسي لأرض البروتونات على أن تنتظم هذه الأخيرة في مدارها وتبقى ثابتة فيه. ومن أجل ذلك تمّ وضع مغناطيسيات ضخمة جداً وشديدة الجاذبية يبلغ عددها ١٦٠٠ مغناطيس من أجل منع البروتونات من الابتعاد عن خط الانحراف الدائري أثناء عملية الاصطدام ببعضها بعضاً.

وبعد أن اكتمل بناء هذا المشروع العملاق حانت ساعة الصفر. وكان ذلك في اليوم

العاشر من أيلول ٢٠٠٨م. ففي ذلك اليوم شغّل العلماء جهاز تصادم البروتونات حوالي الساعة السابعة والنصف صباحاً بتوقيت غرينتش، وضخوا أوّل حزمة من البروتونات في طوقه البالغ طوله ٢٧كم. وبعد انتظار دام حوالي خمس ثوان فقط حصلوا على المعطيات التالية، أولاً: كَشَفَ ضوء على شاشة أحد أجهزة الكومبيوتر أن الحزمة دخلت فعلاً في الجزء الأوّل من الطوق. ثانياً: التمعت نقطتان على الشاشة نفسها للدلالة على أن البروتونات تمكنت من قطع المسافة الكاملة الممتدة على طول الجهاز ووصلت إلى نقطة النهاية المحددة، وذلك حين حلّقت ملايين البروتونات في فضاء هذا الطوق الدائري فحققت بذلك الهدف الرئيس للعلماء.

وعلى الفور امتلأت أرض قاعات مبنى المركز الأوروبي للأبحاث النووية بالسدادات الفلينية لقناني الشمبانيا ابتهاجاً بهذه المناسبة الثمينة التي يجب شرب نخبها بكل نشوة. لقد كانت لحظة عظيمة. حيث كانت غرفة المراقبة مزدحمة بالعلماء الذين أخذوا بالتصفيق، وأكثرهم من الولايات المتحدة الأمريكية ودول الاتحاد الأوروبي ومن الهند، واليابان، وروسيا، وتركيا، والسعودية، ولكن تحت إدارة أوروبية يشرف عليها العالم الفرنسي روبير إيمار. ومباشرةً سجلت أجهزة الكومبيوتر تفاصيل هذه التجربة، وقام ٩٠٠٠ عالم بتحليل كافة المعطيات التي شاهدوها والمعلومات التي دونوها من أجل وضع نظرية لابلاس (الانفجار الكبير) موضع التطبيق.

وضمن هذا السياق يقول مدير المركز العالم الفرنسي روبير إيمار: «لقد صفّق الجميع حتى في الولايات المتحدة الأمريكية عندما قام مئات العلماء بالرقص في شيكاغو وهم في البيجاما في مختبر الجزيئات بمدينة شيكاغو الأمريكية، وذلك بعد أن شاهدوا على شاشة الحواسب الإلكترونية «الانفجار الكبير» الذي حصل في يوم ٢٠٠٨/٩/١٠م تحت بحيرة «ليمان» على الحدود السويسرية -الفرنسية، والذي كان ناجماً عن ضخّ أعلى حزمة من البروتونات في طوق أكبر جهاز صادم للبروتونات في العالم ومن ثم تسريعها في اتجاه واحد. وبهذا يكون قد تحقق الهدف الأوّل من هذه التجربة الرائدة. أما الهدف الثاني فسيكون في ضخ حزمة ثانية من البروتونات في الاتجاه المعاكس بحيث يتم التصادم فيما بينهما بطاقة قدرها ٤٥٠ غيغا إلكترون فولت، وبسرعة تقارب سرعة الضوء، وهذا ما سيحصل في يوم ٢٠٠٨/١٠/٢١م، أي بعد مرور أكثر من شهر على التجربة الأولى. وهذه التجربة التي ستحصل عمّا قريب وهي جدّ ضرورية لأنّها

ستساعدنا على اكتشاف جزيئات إضافية ناجمة عن عملية تصادم البروتونات، والتي لم ترصدها بعد البشرية مثل: جزيئة «هيغز»، وجزيئة «الثقوب السوداء». ومن المعلوم أنّ جزيئة هيغز (نسبةً إلى عالم الفيزياء البريطاني بيتر هيغز) هي الحلقة المفقودة في نموذج الجزيئات التي تتألف منها المادة، والتي فُقدت أثناء الانفجار الكبير الذي حصل منذ ١٤ مليار سنة. وتنبع أهمية هذه الجزيئة من كونها المسؤولة عن منح الكثافة أو الكتلة للمادة، ومن دونها سيصبح الكون فوضى وبلا أي نظام حيث تتطاير جميع أجزائه بسرعة مقاربة لسرعة الضوء.

ومن دون هذه الكتلة لم يكن يتسنى للنجوم والكواكب في الكون التشكل على الإطلاق، كما ولا يمكن مطلقاً أن تبدأ الحياة على الأرض. وعلى هذا النحو لا يكتمل تصور العلماء عن بناء المادة من دون اكتشاف هذه الجزيئة المفقودة، ونحن نأمل في مركز (سيرن) أن تفتح لنا هذه التجربة التي ستحدث في ٢١/١٠/٢٠٠٨م احتمال العثور على هذه الجزيئة، وهو احتمال كبير نسبياً بعد أن يتم التصادم الجبهوي بين البروتونات في جهاز التصادم (هادرون).

كما ستفسح لنا هذه التجربة المرجوة اكتشاف جزيئة أخرى هي «الثقوب السوداء» التي تمتلك قوة جاذبية هائلة بحيث تبلع كل ما حولها من مادة وكل ما يقترب منها في هذا الكون، حتى الضوء نفسه لا يستطيع الإفلات من جاذبيتها. وهناك من العلماء ما أطلق على هذه الثقوب السوداء تسمية «المقبرة الكونية» لكل نجم أو كوكب فَقَد وظيفته من حيث الدوران حول محوره أو حول الكواكب الأخرى فَهَرِم وشاخ ودُفن في هذه الثقوب السوداء التي يوجد أحدها في مجرتنا ونطلق عليه اسم «درب التبانة» الذي تشكل على أثر وقوع الانفجار الكوني الكبير.

كما تفتح لنا هذه التجربة باباً لمعرفة «المادة السوداء» الغامضة التي يعتقد أنّها تملأ أرجاء الكون وكأنها غمامة لا تُرى لكنها تلف الكون، وتشكل ٧٥٪ من كتلته، في حين أن المادة المرئية من الكون لا تمثل إلا نسبة ٤٪. كما ستسمح لنا هذه التجربة بمعرفة التقلبات المناخية التي تشهدها كرتنا الأرضية من أعاصير وعواصف وزلازل ليصار إلى تفادي أخطارها. وأخيراً معرفة ما يحصل من تسخين حراري بدأ يتجلى الآن في ذوبان قمم من الجبال الجليدية في قطبي الكرة الأرضية، وهي ظاهرة بدأت تثير القلق لدى العلماء نظراً لما لها من تداعيات مناخية خطرة جدّاً على عالمنا الأرضي».

وضمن هذا السياق تقول تارا شيرز

أستاذة الفيزياء الجزيئية في جامعة ليفربول: «سوف نتمكن من إمعان النظر في المادة أكثر من قبل وذلك بعد إجراء تجربة ٢١/١٠/٢٠٠٨م، وسوف ندرس على ضوئها مكونات الكون التي تتألف بحسب معرفتنا من المادة العادية المتمثلة بالمجرات والغازات والنجوم والكواكب التي تشكل نسبة ٤٪ من مجموع الكون.

أمّا بالنسبة لباقي أجزاء الكون فتتشكل من المادة السوداء بنسبة ٢٣٪ والطاقة السوداء بنسبة ٧٣٪، ونأمل أن يقدم لنا جهاز صادم البروتونات في ذلك اليوم المفاتيح لفهم طبيعة هذه المادة السوداء الغامضة جداً.

إنّ الطبيعة قد تفاجئنا وعلينا أن نكون مستعدين لكشف النقاب عن أي شيء تطرحه أمامنا».

وبدوره، أشار العالم الفيزيائي الأمريكي «ديفيد جروس» الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام ٢٠٠٤م: إلى «أن جزيئة هيغز لن تكون بالتأكيد الاكتشاف الأول الممكن معرفة كنهها فوراً. وتتوقع فرق الباحثين أن تستغرق معرفة حقيقة هذه الجزيئة نحو خمس سنوات».

طبعاً؛ لم تكن التجربة القادمة لتخلو من منغصات ومخاوف من أنّها قد تؤدي إلى وقوع حادثة كارثية غير مقصودة. وإذا نجحت التجربة الأولى يوم ١٠ أيلول في إطلاق حزم البروتونات داخل الجهاز المسرع في اتجاه واحد، إلا أن أعصاب العلماء سوف لن تكون في حالة استرخاء في يوم ٢١ تشرين الأول حين سيحصل التصادم بين حزمة تسير داخل الجهاز، وبين أخرى تسير بالاتجاه المعاكس، وبسرعة هائلة تقدر بسرعة الضوء (٣٠٠ألف كم/ثا). إذ إنه عند التصادم بين حزم هذه البروتونات ستندفع حرارة هائلة تفوق آلاف المرات قوة الشمس وحرارتها، وستصبح أنابيب الجهاز أكثر النقاط سخونةً في المجرة الكونية التي نتواجد الآن فيها.

ولعلَّ هذه الحرارة الخيالية هي التي تثير الذعر عند العلماء الذين يخشون من أن تنفلت تلك التجربة من السيطرة فتجّر ويلات لا تستطيع البشرية تحمّل نتائجها، إذ قد تحمل نهاية الكرة الأرضية وتبددها غباراً تحيطها موجات عظيمة من الطاقة فتصبح أشبه بثقب أسود.

وفي موازاة ذلك، هناك من العلماء الذين يعملون خارج مركز «سيرن» من يرى أن التصادم بين البروتونات عند طاقة كهذه قد يحدث ثقوباً سوداء مصغرة، ولربما تسقط هذه الثقوب السوداء إلى مركز الكرة الأرضية وتأخذ بامتصاص المادة ومن ثم ابتلاع الكرة الأرضية. في حين اعتقد البعض الآخر أنه ربما قد يظهر ما يشبه الأنفاق

الخُلدية التي تسمح بحركة معاكسة لسير الزمن، وبالتالي إلى فقدان الأرض لمدارها الذي تدور فيه لتصبح بعدها هائمةً على وجهها في هذا الكون الفسيح، مما سيساهم في جرّها إلى الثقوب السوداء التي تبعد عنها ٢٠ ألف سنة ضوئية ودفْنها هناك.

واستناداً إلى هذه المخاوف قامت محكمة حقوق الإنسان في مدينة ستراسبورغ الحدودية الفرنسية، ومركز المجلس الأوروبي، والبرلمان الأوروبي بتلقي الشكاوى من مجموعة العلماء والأشخاص الذين طالبوا بفرض الحظر على تشغيل جهاز تصادم البروتونات الكبير «هادرون»، وعلى رأسهم «اوتو رويسلير» العالم الألماني المتخصص بنظرية الهيولى، الذي يؤكد على أن التجارب المخطط لها ولا سيما تجربة ٢١/١٠/٢٠٠٨م قد تؤدي إلى نشوء ثقوب سوداء تؤدي إلى نهاية الأرض ودفنها في المقبرة الكونية.

بيد أنَّ علماء الفيزياء الذين أجروا التجربة الأولى رفضوا هذه المخاوف مثل عالم الفيزياء البرتغالي نيقولا دي خروت الذي قال: «إنَّ الجهاز التصادمي الجسيمي آمن، وإنَّ أي إشارة إلى أنَّه قد يمثل خطراً على الكرة الأرضية هي محض خيال، وأنا أستبعد فكرة أن الدخول إلى العالم المجهول وصنع ثقوب سوداء ضئيلة الحجم قد يهدد بتدمير كوكب الأرض».

كما ويستبعد كبير الباحثين الروس في معهد البحث العلمي للفيزياء النووية بموسكو الدكتور ألكسندر أكينفينوف في حديث أجراه مع قناة «روسيا اليوم» حدوث مثل هذا الخوف بقوله: أمَّا فيما يتعلق بمخاوف بعض العلماء من أن هذه التجربة قد تمثل خطراً على الكرة الأرضية، فهذا مَحْض خيال لأنَّ هؤلاء يرتكزون في مخاوفهم على أنَّ الكثافة العالية للطاقة والحرارة العالية التي تنتج عن تصادم البروتونات قد تؤدي إلى تشكل ثقوب سوداء وهي من فيزياء الكون.

ولكنْ وبحسب الطريقة المتبعة فإنَّه لا توجد إمكانية لحدوث مثل هذه الأخطاء لأنَّ الثقب المجهري الأسود سيختفي تلقائياً، وأنه من غير الممكن أن ينمو المجال المغناطيسي في الثقب حتى يستطيع ابتلاع كوكب كامل بالشكل والمضمون».

ويقاسمه الرأي نفسه العالم الروسي «فيكتور سافرين» نائب مدير معهد البحث العلمي للفيزياء النووية بموسكو ومنسق مشروع «تصادم الذرات الكبير(هادرون)» عن الجانب الروسي في مركز (سيرن): «إنَّ الثقوب السوداء التي يُزعم أنَّها قد تظهر أثناء تشغيل هذا الجهاز ما هي إلا تجريد حسابي لا يمتّ بأية صلة إلى الثقوب السوداء الناجمة عن انهيار الشموس الكبرى.

إنَّ مثل هذه التصورات الهوجائية مرتبط بعدم فَهْم هذه الظواهر. وتنطلق من هنا تساؤلات عديدة، وقد يصعب على الرأي العام التفريق بين العالم الأكبر (الماكروي) والعالم الأصغر (الميكروي) حيث المسافات والأوقات أقل بمليارات المرات منها في العالم الأكبر.

وبطبيعة الحال تختلف قوانين وجود أجسام ما في العالم الأصغر اختلافاً بيّناً. ولذا فإن هذه الظواهر لا تؤثر أي تأثير على العالم الأكبر، وليس لها من حيث المبدأ أية صلة إلا صلة الحلول الحسابية بالثقوب السوداء والمجرة والكون.

إنَّ المعادلات نفسها تطبّق في كلتا الحالتين، ومع ذلك فإن طاقة تصادم البروتونات التي ستحدث في الجهاز ضئيلة بتقديراتنا خلافاً للأرقام المهوّلة. وحتى وجود تلك الثقوب السوداء لم يؤدِ على أية حال إلى ضرر بليغ أو أية كارثة، وذلك لوجود أجهزة مغناطيسية تحافظ على سير البروتونات وتوجهها. كما تُستخدم الكوابل عالية التوصيل المبردة حتى الصفر المطلق بوساطة الهليوم السائل.

وفي حال تسخن الهليوم بسبب ما تفقد قدرته على التوصيل العالي، ويقوم التيار بشدة هائلة بتسخين تلك الموصلات حتى بلوغ درجة الحرارة الخارقة فإنَّ الأمر قد يتسبب بطبيعة الحال في وقوع كارثة ما، ولكنّ هذا سوف لن يحدث خلال التجربة النهائية، وذلك لوقوع هذا الجهاز وطاقمه على عمق ١٠٠ متر والسيطرة الدائمة عليه باستخدام الأجهزة التقنية الخاصة. ولهذا السبب لن تحدث أية عواقب خطيرة على الناس.

ولو وقعت كارثة ما أو انفجار، لا سمح الله، فلن يتضرر أحد على نطاق شامل بل سيقتصر الخطر على الجهاز نفسه فقط».

ولقد شاءت الصدفة أنّه في يوم ٢٠٠٨/٩/١٩م وبينما أراد العلماء إجراء اختبار نهائي لجهاز تصادم البروتونات قبيل التجربة الضخمة التي كان من المقرر لها أن تجري يوم ٢١ تشرين الأول للتأكد من سلامته وجهوزيته، حدث خلل في الأجهزة المغناطيسية الخاصة بتبريد الجهاز حين تسرب غاز الهيليوم الناتج عن توصيلات خاطئة بين اثنين من المغناطيسيات الهائلة للجهاز إلى داخل النفق، مما تسبب بارتفاع درجة الحرارة نحو ١٠٠° في هذه الأجهزة التي تحتاج إلى إبقائها في ١٠٩° فوق الصفر، وهي الدرجة المطلوبة من أجل السماح لها بتحريك حزم الجزيئات حول الدائرة الكهربائية.

كما تسبب بجعل الأجهزة المغناطيسية تصاب كلها بالخلل، مما أدى إلى توقف

الجهاز عن عمله، وبالتالي إلى استبعاد تنفيذ تجربة ٢١ تشرين الأول ٢٠٠٨م. وقد استدعى القائمون على المشروع استدعاء عناصر مكافحة الحرائق بعدما تسرّب طنّ من غاز الهيلوم إلى النفق الذي يحتضن مقر «المركز الأوروبي للأبحاث النووية من أجل إخماد الحريق ثم الترتيب على إيقاف تجربة ٢١ تشرين الأول إلى حين إصلاح الخطأ الفني بشكل تام الذي قد يتطلب فترة لا تقل عن نصف عام.

ولدى سؤال مدير المركز روبير إيمار عمّا حصل، وهل كان متوقعاً حدوثه أجاب: «إنَّ حدوث هذا الخطأ جاء بمثابة الصدمة النفسية لنا. وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ نجاح التشغيل الأوّل للتجربة يُعتبر شهادة حسن سلوك على سنوات قضيناها في التحضير الدقيق، وعلى مهارة الأطقم التي قامت ببناء وتشغيل نظام دواسة الوقود بداخل المختبر.

ليس لدي أدنى شك في أننا سنتغلب على تلك العقبة بالمقدار نفسه من الصرامة والتطبيق. وإنَّ مثل هذه المشكلات المتعلقة بجسيمات دواسات الوقود هي مشكلات رائجة الحدوث خلال مرحلة تثبيتها.

لي ثقة قوية بقدرة علمائنا على إعادة عمل الأجهزة المغناطيسية، فهؤلاء قادرون على صنع المعجزات، وقد يتمكنون من إعادة تشغيله في غضون بضعة أسابيع قليلة».

ومن المثير للدهشة أنَّ الخلل الفني الذي طرأ على الجهاز يوم ٢٠٠٨/٩/١٩م تزامن في اليوم نفسه مع اصطدام كوكبين مشابهين لكوكب الأرض بشكل مباشر في الفضاء الخارجي تمّ كشفه من خلال أجهزة التلسكوب الجبارة، الأمر الذي دفع ببعض المترددين من العلماء في «المركز الدولي للأبحاث النووية»، إلى أن يعبروا عن تشاؤمهم حيال نجاح تجربة ٢٠٠٨/١٠/٢١م. أولاً: لظهور مثل تلك الظاهرة الكونية والتي قد تنذر بشر مستطير. وثانياً نتيجة لما لاقوه من انتقادات ومن شكاوى تقدم بها السكان المقيمون بالقرب من مكان الانفجار للتعبير عن خوفهم من نتائجه المدمرة على حياتهم وممتلكاتهم. حتى إن قسماً منهم غادر مقر سكنه على الحدود الفرنسية -السويسرية ليبحث عن مكان آخر للإقامة يكون أكثر أماناً، بينما تقدم البعض الآخر بإحالة هذا الموضوع إلى القضاء لتدارك أي عطل أو ضرر قد يلحق بهم خلال إجرائها.

وبالفعل، بحلول ربيع عام ٢٠٠٩م أي بعد مضي حوالى ستة أشهر تم إصلاح العطل الفني بفضل إصرار العلماء على إنجاز التجربة مهما كثرت الانتقادات وعلت الأصوات ضدها، وذلك حين وضع العلماء أنابيب تبريد عملاقة تحتوي على ١٢٠ طناً

من غاز الهيليوم الساخن التي تسير بمحاذاة جهاز تصادم البروتونات، يدفعها جهاز يعمل بضغط عالٍ تصل قوته إلى ١٣ ألف أمبير، مما يجعل التبريد يصل إلى ٢٦١° تحت الصفر، وهذا ما يضمن سير التجربة بأمان كبير. وفي ٣٠ آذار ٢٠٠٩م تمت تجربة تصادم البروتونات وكان نجاحها مذهلاً.

وهذا ما دفع لاحقاً بمدير المركز روبير إيمار إلى أن يعبر عن انطباعاته بقوله: «كما كنت أعتقد فإنَّ علماءنا أظهروا قدرتهم على صنع المعجزات من خلال إصلاح العطل الفني الذي حصل.

أعود فأقول إنَّ جهاز تصادم البروتونات «LHC» سوف يغيّر من نظرتنا إلى العالم، ومهما كانت الاكتشافات التي ستخرج بها فالخلاصة تكمن في أنَّ هذه التجربة ستزيد من إدراكنا نحن البشر بشكل كبير ومن فهمنا لأصول الكون ونشأته.

ومن الملاحظ أنه ظهر لدينا جزيئة بعد عملية تصادم البروتونات أطلق عليها اسم «أوبيرا» (Opera)، وهي أسرع من الضوء الذي تبلغ سرعته ٣٠٠ألف كم/ ثانية. فضلاً عن أنَّها تنطلق بسرعة تفوق سرعة الصوت أيضاً.

بعضٌ منا يعتقد بأن الكون نشأ في عملية انفجار كبير فلربما ينتهي أيضاً بانفجار كبير في آخر الأزمة كأن يصطدم نيزك سائر على غير هدى في الفضاء ويرتطم بكوكب الأرض ويقضي على الحياة فيها مثلما حصل قبل ٦٥مليون سنة، حين سقط نيزك وقضى على الديناصورات وعلى ٧٠٪ من أشكال الحياة التي كانت تعيش على كوكب الأرض.

ولهذا السبب فلا عجب إن شاهدنا الإنسان الحالي يستعد الآن للسفر إلى كوكب المريخ وغيره بعد أن أقام منذ منتصف عام ٢٠٠٨م أوّل محطة دائمة في الفضاء تخلصاً من هذا الهاجس الذي يسيطر على عقله وفكره في أنَّ الحياة ستنتهي يوماً ما على سطح الأرض، ومهما يكن الحال تبقى هذه التجربة أفضل وسيلة لفهم عناصر الكون ونشأته.

واللافت للنظر أنه منذ أن تمّ الإعلان عن نجاح التجربة الثانية بادر العالم البريطاني الشهير ستيفن هوكينغ (١٩٤٢م) أبرز علماء الفيزياء النظرية على مستوى العالم إلى إصدار كتاب بعنوان: «المشروع العظيم» في العام ٢٠١٠م، وفيه يتحدث عن قيمة نظرية الانفجار الإنجاز الكبير المسؤول عن نشأة الكون الذي وصفه بالتلاقي الفيزيائي الهائل الذي مهد منذ قرابة ١٤ مليار سنة لنشوء الكون، وعن العلاقة بين الثقوب السوداء.

وهناك باحثة سعودية تدعى «ابتسام باخريس» تشارك في هذه التجربة الضخمة، وتحمل شهادة بكالوريوس في الفيزياء من جامعة جدة، وماجستير من الولايات المتحدة، وتتابع دراسة الدكتوراه في جنيف. وهي أوّل باحثة سعودية تنضم «للمركز الأوروبي للأبحاث النووية»، بحيث يقوم دورها على تمثيل المعلومات بعد حدوث الانفجار.

وها هي تعلن عن قناعتها بالانفجار الكبير بقولها: «لقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)). وهذا معناه، أن الماء والأرض كانا شيئاً واحداً، ولهذا السبب لا مانع من أن نسخّر العلم في فهم ما حولنا، ونرجع للقرآن الكريم لنزداد علماً على علم»، بحسب رأيها.

المشروع يتحول إلى أغنية:

ومن نافلة القول إنَّ هذا المشروع لاقى ترحيباً موسيقياً على الإنترنت لدى مجموعة من الشبان الذين يعملون في المختبر حين سجلوا أغنية مصورة كَتبتْ كلماتها العالمة الأمريكية «كيت ماكالباين» البالغة من العمر ٢٧ سنة، والتي تعمل متدربة في المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية.

وأثار شريط الفيديو المرافق للأغنية ومدته نحو خمس دقائق اهتماماً كبيراً على موقع «يوتيوب» وبعض المواقع الأخرى على نحو لم تكن تتوقعه المؤلفة التي قالت: «إنَّ هدف الأغنية يصبّ في خدمة العلم، وأعتقد أنَّها قد تجد لها قبولاً في المناهج المدرسية التي تدرّس مادتي الفيزياء والكيمياء.

مع التنويه إلى أن أكثر لقطات الشريط المسجل لهذه الأغنية قد صوّرت في الكهوف الواسعة تحت الأرض التابعة للمركز الأوروبي للأبحاث النووية (سيرن) عند الحدود الفرنسية – السويسرية. ولقد جاء في كلمات الأغنية ما يلي:

نفق تحت الأرض بطول سبعة وعشرين كيلومتراً.

مصمم بهدف إطلاق البروتونات.

دائرةٌ تمر عبر الأراضي السويسرية والفرنسية.

ثلاثة وثلاثون دولة تشارك في هذه المبادرة العلمية.

الأشياء التي تكتشفها ستضربك على رأسك.

نحن نفكر في الأبعاد لأننا نعيش في ثلاثة أبعاد فقط.

ولربما تكون هناك أبعاد أخرى، فسوف نرى ذلك مستقبلاً».

المراجع

١- قناة (فرنسا ٢٤) الفضائية: «العلماء في مهمة تاريخية لكشف أسرار الكون»، تاريخ ٢٠٠٨/٩/١٥م.

٢- وكالة الصحافة الفرنسية (AFP)، نشرة صادرة بتاريخ ٢٠٠٨/٩/١١م.

٣- صحيفة «النهار»، و«السفير»، و«الحياة» اللندنية، تاريخ ٢٠٠٨/٩/١١م.

٤- مجلة «لونوفيل أوبسرفاتور» الفرنسية، تاريخ ١٨-٢٠٠٨/٩/٢٤م.

٥- موقع «العربية نت» على الإنترنت.

٦- صحيفة «النهار»، تاريخ ١٢كانون الثاني ٢٠٠٩م.

٧- صحيفة «لوموند»، تاريخ ٢٠٠٩/٣/٣١م.

٨- صحيفة «لوموند»، تاريخ ٢٠١١/٩/٢٦م.

الكون كما يراه العلماء اليوم

ترجمة: محمد الدنيا ❁

من السُدُم إلى المجرات، مروراً بالحشود، ليس الكون سوى نجوم؛ بل إن هذه هي التي ولدت، من أتونها النووي، القسمَ الأكبر من المادة الموجودة في الكون. هاهو استعراض منفصل لأجرام السماء التي تعمر الكون.

النجوم

النجوم كرات غازية حارة جداً ومضيئة، تستمد طاقتها من التفاعل الاندماجي الحراري النووي. تقع نواة النجوم تحت حرارة وضغط هائلين، يكفيان لإطلاق الاندماج النووي لذرات الهيدروجين، العنصر الرئيسي في الغاز النجمي. يطلق هذا الاندماج طاقةً عملاقة، تسخِّن النجمَ حتى سطحه. الضوء الشديد، الذي يجعل النجم مرئياً، منبعثٌ من سطحه المسخَّن بعدة آلاف من الدرجات. يمكن أن تعيش النجوم مزدوجة أو في مجموعات من ثلاثة إلى خمسة مكوِّنات، مترابطة بقوة التجاذب.

النجوم العملاقة:

مدة حياتها: ١ إلى ١٠٠ مليون سنة.

قطرها: ٥ إلى ١٠٠ مليون كم.

حرارة سطحها: ١٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ درجة.

تحرق النجوم العملاقة، ذات الكتلة الضخمة جداً، والمضيئة جداً، وقودَها النووي بمعدل هائل. يتيح لها «مِرْجَلُها»

❁ كاتب ومترجم سوري.

النووي الحارق تركيب العناصر الثقيلة، مثل السيليسيوم، والحديد، والذهب، إلخ، وهو ما لا تستطيعه نجومٌ أصغر مثل «الشمس». يسمى أضخمُها كتلةً النجوم العملاقة الفائقة supergéantes.

النجوم القزمة الحمراء:

مدة حياتها: ١٠ إلى ١٠٠ مليار سنة.

قطرها: ١ مليون كم.

حرارة سطحها: ١٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ درجة.

النجوم القزمة الحمراء naines rouges، ونظراً لطول حياتها الاستثنائي، هي الأكثر عدداً بكثير في الكون. إلا أنها تبقى متخفّية جداً مع ألقها الأدنى شدة من ألق الشمس بـ١٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ مرة.

النجوم القزمة البنية:

مدة حياتها: عشرات مليارات السنوات.

قطرها: ١٠٠٠٠٠ كم.

حرارة سطحها: ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ درجة.

ليست النجوم القزمة البنية naines brunes نجوماً بالفعل لأنها أصغر كتلة من أن تطلق عمليات اندماج حراري نووي، غير أنها أكبر كتلة من الكواكب العملاقة

النجوم الشمسية:

مدة حياتها: ١٠ مليارات سنة.

قطرها: من ١ إلى ٢ مليون كم.

حرارة سطحها: ٤٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ درجة.

«الشمس» نجم عادي، مع حجم، وكتلة، وسطوع من المعدل الوسطي: تتقاسم هذه الصفات جميعُ النجوم «الشمسية» étoiles solaires.

النجوم النيوترونية:

مدة حياتها: أكثر من ١٠٠ مليار سنة.

قطرها: ٢٠ كم.

حرارة سطحها: ١٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ درجة.

النجوم النيوترونية étoiles à neutrons هي بقايا نجوم كتلية. ينهار قلبُ النجوم القديمة العملاقة ذو الكتلة الضخمة جداً، والمجردُ من التفاعلات النووية، على نفسه ما بعد مروره بمرحلة النجم القزم الأبيض. ويستمر هذا الانهيار حتى المستوى الذري: تنصهر الإلكترونات والبروتونات في صهارة نيوترونات. تسمى أيضاً بُلسارات pulsars، وتتميز بحقل مغنطيسي قوي.

الكواكب:

الكواكب هي منتَج ثانوي لعملية تشكُّل النجوم: عندما تتشكل هذه الأخيرة، من خلال تكثُّف سحابة غازية، تترك حولها غازاً وغباراً يتكثفان بدورهما ويشكلان كواكب.

هنالك، وفقاً للمعارف الراهنة، نمطان رئيسيان من الكواكب: الكواكب الأرضية planètes telluriques، الأرض، والزهرة، والمريخ، وعطارد وهي صخرية أساساً، والكواكب العملاقة géantes، المشتري وزحل ونبتون وأورانوس، وهي غازية أساساً.

الثقوب السوداء:

مدة حياتها: عشرات مليارات السنوات.

قطرها الحقيقي: غير معروف.

قطرها الظاهري: من ٣ كيلومتر إلى مليارات الكيلومترات.

حرارة سطحها: ١٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ درجة.

المرحلة الأخيرة للمادة، بل أيضاً سقف المعرفة، هنا حدودهما النهائية. الثقب الأسود trou noir هو انهيار القلب المنطفئ لنجم عملاق فائق: لا يمكن لأي شيء أن يوقفه، ولا يعرف أحد أين أو متى يتوقف....

النجوم الكواركية:

مدة حياتها: أكثر من ١٠٠ مليار سنة.

قطرها: ١٠ كم.

حرارة سطحها: ١٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ درجة.

لم يتم رصد النجوم الكواركية étoiles à quarks مطلقاً، وربما كانت غير موجودة. ووفقاً للمنظّرين، هي عبارة عن نجوم نيوترونية كتلية، ربما كانت مستمرة في الانهيار على نفسها إلى أن تصبح مكوناتها الأساسية «غيرَ معينة الحدود» لتشكل نوعاً من عصيدة كواركية (الكواركات quarks هي من المكونات الأساسية للمادة)..

النجوم العملاقة الحمراء:

مدة حياتها: ١ إلى ١٠٠ مليون سنة.

قطرها: ١٠٠ مليون إلى ١ مليار كيلومتر.

حرارة سطحها: ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ درجة.

(النجوم) العملاقة الحمراء géantes rouges، مثل «منكب الجوزاء» Bételgeuse، هي نجوم في نهاية حياتها. بعد أن استنفدت وقودها الرئيسي، الهيدروجين، تبدأ باستنفاد احتياطيها من الهليوم. يحتدم الاندماج النووي والحالة كذلك، وتتضخم فجأةً. في غضون ما يقرب

من خمسة مليارات سنة، ستصبح شمسنا عملاقاً أحمر.

النجوم القزمة البيضاء:

مدة حياتها: أكثر من ١٠٠ مليار سنة.

قطرها: ١٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ كم.

حرارة سطحها: ١٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ درجة.

(النجوم) القزمة البيضاء naines blanches هي رماد نجوم متوسطة الكتلة، مثل الشمس. تنهار على نفسها في نهاية دورتها النووية، بعد استنفاد وقودها. وإذْ كانت صغيرة، فإنها تبرّد وتنطفئ بالتدريج.

السُدُم

نجد هذه السحب الغازية، التي تعوم في الفضاء، عند ولادة و...موت النجوم. تشكل السُدُم nébuleuses المنتشرة سحباً ضخمة من الهيدروجين والهليوم بشكل أساسي، يمكنها أن تنهار على نفسها وأن تتكثف في نجوم. وحالما يستخدَم الغاز كوقود نووي في النوى النجمية، فإنه يقذَف جزئياً في الفضاء، في الوقت الذي تصبح النجوم، في نهاية حياتها، عملاقةً حمراء، أو بعد أن تنفجر فجأة. يمكن أن يتكثف هذا الغاز المدوّر والمخصّب عندئذ على شكل سُدُم تولّد فيما بعد جيلاً جديداً من النجوم.

السدُم الكوكبية:

مدة حياتها: بضعة آلاف من السنوات.

حجمها: من ١ إلى ١٠ سنوات ضوئية.

السدم الكوكبية nébuleuses planétaires هي أغلفة غازية طردتها النجوم العملاقة الحمراء القديمة في المرحلة الأخيرة من تطورها. وتتمدد هذه السدم، المسخَّنة والمضاءة بنجمها، تدريجياً في الفضاء.

السدم المنتشرة:

مدة حياتها: بضعة ملايين من السنوات.

حجمها: ١٠ إلى ١٠٠ سنة ضوئية.

يمكن للسدم المنتشرة diffuses أن تحوي ما يعادل مئات من الكتل الشمسية الغازية. مع ذلك، تكاد تكون بلا كثافة، لأن حجمها (عدة آلاف من السنوات الضوئية) ضخم. لا تشتمل وسطياً إلا على بضع مئات من الذرات في السنتمتر المكعب.

كريات بوك:

مدة حياتها: بضعة ملايين من السنوات.

حجمها: ١ إلى ١٠ سنوات ضوئية.

كريات بوك globules de Bok، هذه العُقيدات الغازية والغبارية الواقعة بين النجوم الصغيرة، هي مناطق أشد كثافة

في السدم، في طور انهيار تثاقلي. ليست شفافة للضوء وغالباً ما تأوي نجوماً في طور التشكل.

حشود النجوم

لا تولد النجوم منعزلة في الفضاء بين النجوم، بل في مجموعات صغيرة أو كبيرة، تسمى حشوداً amas. تأتي ولادة هذه النجوم من تفاعل متسلسل: تنفخ النجوم المولودة حديثاً شرنقتها (غلافها) الغازية وتسبب، على نحو أقرب فأقرب، انهيارَ سديم بكامله. في النهاية، تتولد عشرات، أو مئات، إن لم يكن آلاف النجوم على نحو متزامن تقريباً في قلب الحشود.

الحشود الكروية:

مدة حياتها: أكثر من ١٠ مليارات سنة.

حجمها: ١٥ إلى ٥٠٠ سنة ضوئية.

هذه الحشود الكروية globulaires هي أكبر وأضخم كتلة بكثير من الحشود المفتوحة: يمكن أن تضم من ١٠٠٠٠ إلى ١ مليون نجم.... وعلى عكسها، لا تتشتت، إذ يجعل حقل جاذبيتها النجومَ قريبة بعضها من البعض الآخر. إنها قديمة للغاية، ويعود بعضها إلى جيل النجوم الأول.

الحشود المفتوحة:

مدة حياتها: من ١٠ إلى ١٠٠ مليون سنة.

بُعدها: ١٠ إلى ١٠٠ سنة ضوئية.

الحشود المفتوحة ouverts هي مجموعات نجمية تسكنها نجومٌ فتيّة جدّاً تقع على مسافة ١ سنة ضوئية كل منها عن الآخر.

المجرات

إذا كانت النجوم هي ذرات الكون، فإنَّ المجرات هي خلاياه. إنَّها تجمعات عملاقة من النجوم، التي يمكن أن يصل عددها إلى ١٠٠٠٠ مليار نجم، مع كميات من الغاز بهذه الضخامة أو تلك، التي تحولها إلى نجوم تدريجياً. ظهرت المجرات سريعاً بعد الانفجار الأعظم، منذ أكثر من ١٣ مليار سنة، انطلاقاً من فرط كثافات خفيفة من الغاز البدئي. منذئذ، تتطور وفقاً لتأثراتها مع المجرات الأخرى المجاورة لها.

المجرات الحلزونية:

مدة حياتها: عدة مليارات من السنوات.

حجمها: ٢٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠٠ سنة ضوئية.

تمثل المجرات الحلزونية galaxies spirales نحو ٧٠٪ من المجموع الكلي للمجرات. وتشبه أقراصاً ضخمة، متضخمة في وسطها، كالمجرة NGC ٤٥٦٥ في كوكبة «شَعْر بيرينيس» Chevelure de

Bérénice. تدور في قرص المجرة سُدُم وحشود النجوم الفتية، ببطء. مجرتنا «الدرب اللبنية» Voie Lactée هي من النوع الحلزوني.

المجرات الإهليلجية

مدة حياتها: أكثر من ١٠ مليارات سنة.

حجمها: ٥٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠٠ سنة ضوئية.

المجرات الإهليلجية elliptiques، القزمة، هي أصغر المجرات المعروفة؛ أمَّا العملاقة منها فهي الأضخم كتلة. والإهليلجية مجرات قديمة جدّاً، حيث كان الغاز قد تحول بالكامل. شكلها كروي أو متطاول، وتمثل نحو ٢٥٪ من المجرات.

المجرات غير المنتظمة:

مدة حياتها: من بضعة ملايين إلى عدة مليارات من السنوات.

حجمها: ٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ سنة ضوئية.

لا ينطوي ٥٪ من المجرات على تناظرات أو بنى خاصة: إنَّها غير منتظمة irrégulières، إنَّها مجرات صغيرة مشوهة بفعل التأثرات التجاذبية مع جاراتها، أو متشكلة حديثاً، من نُتَف انبعثت من مجرات حلزونية بعد التعرض لاصطدام.

الكوازارات:

مدة حياتها: من بضعة ملايين إلى عدة مليارات من السنوات.

حجمها: بضعة آلاف من السنوات الضوئية.

الكوازارات quasars هي نوى مجرات مفرطةُ السطوع. هذه الأجرام نادرة، ولا تلاحَظ إلا على مسافة بعيدة جداً. سطوعها الفائق، الأقوى من إشعاع ألف مليار شمس، ناجم عن المادة، غازات أو نجوم، تسقط في الثقب الأسود العملاق المختبئ في وسطها.

جماعات المجرات:

حجمها: ١ إلى ١٠ مليون سنة ضوئية.

جماعات (المجرات) groupes هي اقترانات ضعيفة الكثافة وقليلة العدد بين مجرات. تنتمي «الدرب اللبنية» إلى «الجماعة» المحلية التي يبلغ عدد فرادها نحو ثلاثين فرداً، بينها مجرتان حلزونيتان: «الدرب اللبنية» و«المرأة المسَلْسَلة» Andromède.

حشود المجرات

ليست المجرات معزولة ولا موزعة على نحو وحيد الشكل في الفضاء، بل هي مترابطة بروابط التجاذب القوية مع رفاق طريقها الكوني. تشكلت جماعات، وحشودٌ وحشود عملاقة لمجرات على هذا النحو منذ

الانفجار الأعظم. تعد بالعشرات، والمئات بل وبالآلاف، تدور ببطء حول مركز ثقالة gravité تشغله بشكل عام مجرة عملاقة تمتص بالتدريج المجرات المارة على مقربة منها.

الحشود العملاقة:

حجمها: ١٠ إلى ١٠٠ مليون سنة ضوئية.

تعد الحشود بمئات المجرات، إن لم يكن بالآلاف بالنسبة للحشود العملاقة. تشكلت هذه الأخيرة مع بدء تاريخ الكون، منذ اثني عشر إلى ثلاثة عشر مليار سنة.

إذن، بالمليارات، بآلاف المليارات، بمليارات المليارات..منذ نشوئه، في ومضة الانفجار الأعظم bing bang، منذ ١٣،٧ مليار سنة: الكون هو آلة ضخمة لصنع نجوم.... وهكذا، وأنت تقرأ هذه السطور، مع كل ثانية تمر في ساعتك، يولد عشرة آلاف نجم في مكان ما من الكون، بينما تنطفئ آلاف أخرى منها.

دور النجوم في التطور الكوني أساسي: إذا كانت المجرات، التي هي «تكتلات» حقيقية في الغاز المتجانس الذي كان عليه الكون في بداياته، قد جمعت، وكثَّفت المادة الأصلية، فإن النجوم هي التي بنت هذه المادة، وحولتها، وأخصبتها. ظهرت النجوم الأولى بعد الانفجار الأعظم ببضع عشرات أو مئات من ملايين السنين، ضمن شروط ما تزال مجهولة حتى اليوم، في قلب المجرات الأولى التي كانت في طور تشكلها. يمكننا أن نؤكد، على أكثر تقدير، أن الكتل الغازية العملاقة، التي كانتها المجرات الوليدة في ذلك الزمن، انهارت على نفسها، بتأثير قوة التجاذب، وتفتتت في سحب صغيرة. ثم تقلصت هذه الأخيرة حتى شكلت الكرات الغازية الكثيفة والحارة التي هي النجوم....

مع النجوم، جاء الضوء، وخرج الكون من «عصر الظلمات». لماذا تلمع؟ لفهم ذلك، علينا أن نغوص في قلب إحداها، «الشمس»، مثلاً. في قلب النجم، الضغط والحرارة عاليان إلى درجة أن المادة تنسحق حرفياً. في هذه الشروط القصوى، ينتهي الأمر بالذرات، المتصادمة بعضها مع البعض الآخر بشكل متواصل، بالاندماج تلقائياً. وهكذا، ينتج اندماجُ أربع نوى هيدروجين ذريةَ ذرةَ هليوم. يترافق هذا الاندماج الذري بإطلاق هائل للطاقة.

تحوِّل النجوم بالتدريج المادةَ الأساسية التي تكونت خلال الانفجار الأعظم. يعود الفضل لها في كل العناصر الكيميائية الموجودة في الطبيعة، باستثناء الهيدروجين والهليوم الأصليين. أوجدت في أتونها النووي الذهبَ، بالتأكيد، بل أيضاً الرصاص،

والأكسجين، والكربون، والآزوت، والحديد، هذه الذرات المركبة التي يسميها علماء الفلك «عناصر ثقيلة».

تأتي العناصر الثقيلة من النجوم الأضخم كتلة في الكون، تلك التي تخصبه على النحو الأفضل والأسرع. تتميز هذه النجوم العملاقة، الأضخم كتلة من الشمس بـ ١٠ إلى ١٠٠ مرة، بحياة قصيرة جداً، بضعة ملايين من السنوات على الأكثر. تُوجد خلال حياتها العابرة كمية كبيرة من العناصر الثقيلة، التي لا تستطيع النجوم الصغيرة كالشمس صنعها، لعدم تمتعها بحرارة وضغط كافيين. ثم، تنفجر النجوم العملاقة، التي تتجاوز حرارة قلبها ١٠٠ مليون درجة، بشكل فجائي، وتقذف في الفضاء كميةً عملاقة من الغاز المخصب.... يعود هذا الغاز ليتكثف في مكان آخر من الفضاء، مختلطاً بمادة نجوم أخرى ميتة، وتبدأ الدورة من جديد: تظهر نجوم جديدة ومواكبها الكوكبية.

تولد النجوم في قلب سحب غازية بين نجمية عملاقة، السُدُم. تحوي هذه السحب الكونية الضخمة، التي تمتد على مسافات تقدر بعشرات السنوات الضوئية، كميات ضخمة من الهيدروجين والهليوم، كافية لأن تولّد في الوقت نفسه مئات من النجوم. السُدُم دينمية، تتتسّل تحت تأثير الهبّة القوية للنجوم العملاقة الفائقة، وتتكثف بتأثير التجاذب. ويصبح الغاز، المضغوط، في قلبها، أشد كثافة، ويبدأ التجاذب بالعمل، ببطء.

شرنقة (غلاف) غازية

في بعض الأماكن، تتشكل عُقَيْدات nodules غازية وغبار. تنهار هذه العقيدات، التي يصل مقاسها إلى عدة أيام ضوئية، والشبيهة بالبَيْض، على نفسها بتأثير ثقلها الخاص بها. تتشكل مُضَغُ نجوم، كراتٌ غازية تصبح عند انكماشها بفعل التجاذب متنامية الكثافة والسخونة. وتنهار المضغة النجمية هي أيضاً حتى يبلغ الغاز في قلبها حرارةً تصل إلى عدة ملايين من الدرجات. في هذه المرحلة، تنطلق التفاعلات الحرارية النووية، مطلقةً طاقةً هائلة، على شكل أشعة غاما، وسينية، وفوق بنفسجية، وتحت حمراء، وضوء بالتأكيد. ويولد النجم..

تمكِّن الطاقةُ العجيبة التي ينتجها النجم من أن يتخلص من شرنقته، حيث يخْلي إشعاعُه القوي الغازَ المحيط به ويقذفه في الفضاء. وتستمر الدورة.

ذلك أن خصوبة السدم مُعْدِية: عندما تنفث النجومُ الفتيّةُ حولها الغازَ الذي ولّدَها، فإنها تزرع الفضاءَ وتسرّع في تكوين نجوم جديدة.... أن يولد نجمٌ بمفرده في

الفضــاء، فهذا الأمر ليس لــه وجود: تُولَد الأجســام السماوية على شــكل مجموعات تضــم عشــرات أو مئات منها، مشــكّلةً في الفضــاء، حالما تطرد غلافَهــا الغازي كله حولها، حشــوداً وقتية، من شأنها أن تتشتت تدريجياً. لاشــيء يشــبه حياة نجم أكثر من حياة نجم آخر: تمضــي كلُّهــا وجودَها في صنع عناصر ثقيلة من خلال عناصر خفيفة، منتجةً كمية عملاقة من الطاقة طوال عملية الاندماج النووي هذه.

ولكن، إذا كانت ولاداتها وأساليب حياتها متماثلة دائماً، فليســت هــذه الأجرام كلها متشابهة. يأخذ علماء الفلك دائماً، بالاتفاق، نجمَنا الشمس، مرجعاً نجمياً. الشمس نجم نموذجــي عمليــاً.. نجمنا وســطي في كل موضــع، حرارةً، وقطراً، وكتلةً. نجم عادي إجمالاً. إلا أن السماء تعمرها نجوم مختلفة كثيراً.

الأصغر بينها أقلُّ كتلةً من الشمس بـ١٥ مرة: هذه النجوم القزمة الحمراء، فضــلاً عن ذلك، أقل سطوعاً منها بـ١٠٠٠٠٠ مرة، غير أنَّ استهلاكها المقتصد في الطاقة يوفر لها طول حياة قدره ١٠٠ مليار سنة! كما أن بعض الأجرام، الأصــغر كتلة أيضاً، لا تعود جديرة باسم نجم، لأنها تكشف عن عجزها في بلوغ حرارة اشــتعال الاندمــاج النووي: تسمى «النجوم القزمة البنية».

في الجانب الآخر مــن الطيف، النجوم العملاقة الفائقة هي أكبر كتلة من الشمس بـ١٠٠ مرة، وأكبر حجمــاً منها بـ١٠٠٠ مرة وأكثر ســطوعاً بـ١٠٠٠٠٠ مــرة. نادرة هي مثيلات هذه الوحوش الكونية! يحصى منها واحــد مقابل ١ مليون نجم قزم أحمر. مدة حياتها قصيرة للغاية: بين ١ إلى ١٠ ملايين سنة فقط، أي أقل من الشمس بـ١٠٠٠ مرة. مع ذلك، هي الأجرام الأهم في الكون: تنتج النجوم العملاقــة الفائقة، بمعــدل هائل، العناصــرَ الأعقــد في قلبها النــووي، الذي تصــل حرارته إلى ١ مليار درجة. ثم، فجأة، تنفجر، وتعطي الكونَ المادةَ التي أنتجتها.

إنَّ كتلة النجوم هي التي تحدد مصيرها. يمكن للأصــغر كتلة بينها أن تحرق وقودَها النــووي خلال نحو ١٠٠ مليار ســنة. نهاية النجوم ذات الكتل المماثلة لكتلة الشمس هي أكــثر صــخباً: بعد نحو ١٠ مليارات ســنة، مــن الخدمات الملائمة والدقيقة، تضــعف محطتها النوويــة، بنتيجة نقص الوقود.. وعندما ينتهي الهيدروجين، يستبدل مفاعلُ النجم هــذا الوقودَ بالهليــوم. ولكن هناك مشــكلة: انصــهار الهليوم أقل فعالية، ومن هنــا على النجم أن يزيد ضــغطَه وحرارته المركزيّين. وليتمكن من ذلك، ينكمش النجم على نفســه حتى يصــل إلى عتبة اشــتعال الهليوم. والحالة هذه، يتخرب توازن النجم:

إذا كان قلبه يتركّز، فإنَّ غلافه ينبسط. عندما ستصير «الشمس» «عملاقاً أحمر»، يغدو تعرُّفُها متعذراً.

من عملاق أحمر إلى قزم أبيض

النجوم العملاقة الحمراء نادرة في السماء، لأنَّ هذه المرحلة من الحياة النجمية قصيرة جداً: بضع مئات من ملايين السنوات فقط. مرحلة قصيرة وشَوَاشية: لا تستعيد النجوم التي بلغت مرحلة العملاق الأحمر مطلقاً التوازنَ الذي كانت تتميز به حينما كانت تستهلك هيدروجينها على نحو مقتصد. تبدأ النبضان ببطء، مبتردةً ومتسخنةً بالتناوب، بينما يتلاشى جوها الخارجي بالتدريج، مع كل ترجُّح oscillation زائد للنجم. عندما يكون قسم كبير من غازها قد انقذف في الفضاء خلال حالات التنفس هذه المتنامية القوة والعمق، تتلاشى أيضاً النجوم العملاقة الحمراء هي أيضاً، منطفئة بالتدريج. لا تترك في الفضاء سوى قلبها المعرَّى، مثل جمرة صغيرة حارقة اسمها قزم أبيض يحجبها قريباً مخملُ الليل الأسود.

وفي حين يبلغ طول حياة نجم مثل الشمس ١٠ مليارات سنة، يكون وجودُ النجوم العملاقة الفائقة - أكبر كتلة من شمسنا بـ١٠، ٥٠، ١٠٠ مرة - وهّاجاً وعابراً. تستهلك هذه النجوم، في أقل من دقيقة، الطاقةَ التي تنتجها الشمسُ في سنة! حرارة وضغط الغاز في قلبها هائل إلى درجة أنَّ التفاعلات النووية تحدث في العديد من طبقاتها المتعاقبة، المتنامية السخونة كلما ازددنا اقتراباً من أتونها المركزي. في طبقة الغاز الأولى، التي ترتفع فيها الحرارة إلى أكثر من ١٠ ملايين درجة، يحترق الهيدروجين الذي يولِّد الهليوم. وفي أسفلها، الهليوم هو الذي يتحول، فوق ٥٠٠ مليون درجة، إلى أكسجين، وكربون، وآزوت. وفي مكان أقرب إلى القلب، حيث ترتفع الحرارة إلى أكثر من ١ مليار درجة، يتخلق الصوديوم، والمغنيزيوم، والكبريت، والفضة، والنيكل، والسليكون. أخيراً، في قلب النجم نفسه، تبدأ ذرات حديد بالتشكل، من السليكون. وعندما يصل النجم العملاق الفائق الأحمر، في غضون ١ إلى ٣ مليون سنة، إلى مرحلة انصهار السليكون هذه، لا يعود أمامه سوى بضعة أيام يعيشها.

في الواقع، تكون ذرة الحديد نفسها غير ممكنة الصهر لتخليق عنصر جديد! عملياً، عندما يكون قلب النجم غنياً بشكل كاف بالحديد، يتوقف عن إنتاج الطاقة الضرورية كي يوازن قوة التجاذب: ينهار النجم على نفسه، قبل أن ينفجر فجأةً.

إذا كانت مادة الكون مركّزة أساساً في

نجـوم، فهـي بالمقابل موزَّعـة في كيان من حجم أعلى، المجـرة، التي هي تجمُّع نجوم ضخم.... لقد كشفت هذه «الأكوانُ- الجزُر» univers - îles، حسـب تعبير الفيلسوف «إمانويل كانت» E. Kant، عند فجر العالم، منذ ١٣،٧ مليار سـنة، الغـازَ الأولي الذي أوجـده الانفجار الأعظـم. تعيد المجرات، التي يحملها التمـددُ expansion الكوني معـه، تدويرَ هذه المـادة إلى مـا لا نهاية، فتكيِّفُ كلٌّ منها، حسب إيقاعها، هيدروجينَ السدُم لتشهد ولادةَ، وتفتُّحَ، وموتَ نجوم في أقراصها.

هنالك فصيلتان أساسيتان من المجرات، الإهليلجية، والحلزونية: تشبه هذه الأخيرةُ، كمجرتنا «الدرب اللبنية»، أقراصاً ضخمةً، قسمُها المركزي أكثرُ ثخانةً.

المجرات الحلزونية ناشطة، ما تزال غنية بالغاز، الذي تحوله إلى نجوم. تولد النجوم في البنية الحلزونية الجميلة، المرتسمة أيضاً في قرصها. ينضغط غاز السُدم بانفجارات نجوم عملاقة فائقة، ويتكثف في نجوم، من بينها ذاك العدد القليل من النجوم العملاقة الفائقة، التي تنفجر بدورها وتضـغط غاز السـدم. وهكذا دواليـك: ينتشر التشـكّل النجمـي على كامل المجرة الحلزونية، حيث يحركه القرصُ المجرّي الدائر.

أمّـا المجـرات الإهليلجيـة، فلـم تعد تتطور عملياً. وبعضـها، المسمى الإهليلجية العملاقة، هو الأجرام الأضـخم في الكون: يمكن أن تحـوي هذه التجمعـات النجمية المدوخة، دائرية كانت أم بيضـوية، ١٠٠٠٠ مليـار نجم!. يمتد تأثيرهـا التجاذبي على مسـافة ملايـين السـنوات الضـوئية؛ في الواقع، محاطةٌ بشكل عام بهالة من المجرات الصـغيرة التي سـتبتلعها، فيـزداد بذلك حجمها وكتلتها. تسكنها نجومٌ قديمة جداً، قزمة بيضاء، وقزمة حمراء، غير أنها مجردة من الغاز، بعـد أن كانت قد حولته بالكامل إلى نجوم. لم تشـهد هـذه البراهين المهيبة حول أصل العالم ولاداتٍ جديدة للنجوم منذ مليارات السنوات.

المرآة المسلسلة تنقضّ على الدرب اللبنية

ذلك أنه كي تكون بهذه الكتلة اليوم، كان على هذه المجرات أن تتشكل منذ وقت مبكر جداً من تاريخ الكون، عقب الانفجار الأعظم ببضع مئات من ملايين من السنوات فقط. منذئـذ، لم تتوقف عن أن تجذب إليها المادةَ المـارة بقربها: تقع الإهليلجية العملاقة، في معظمها، في وسـط تجمعات ضـخمة من المجرات تدور بحـذر حولها، على بعد عدة ملايين من السـنوات الضوئية أو تنتظر أن تُجتذَب إلى بئرها التجاذبي.

تتطـور المجـرات، كالنجـوم نفسهـا. تتقاسمهـا قوتـان متنازعتـان: مـن جهة، التجـاذب التثاقلـي attraction gravitationnelle، الـذي ينـزع إلى تقريبها بعضها من البعض الآخر، ومن جهة ثانية، قوة التمدد الكوني التي لا تقاوَم، التي تنزع إلى إبعادها... توازن القوةُ الأولى القوةَ الأخرى، ولكن من دون أن تحد في ذلك من تمدد الكون. المسألة كلها مسألة مقياس: إذا كان التوسع الكـوني مذهلاً بمستوى كبير- تبتعـد المجرة الواقعة علـى مسافة ١ مليار سنـة ضوئية مـن الأرض بسرعـة ٢٠٠٠٠ كم/ ثا١ - فإنها علـى العكس لا تتأثر على مستـوى المجرات. في الواقع، تتأثر المجرات مـع جاراتها، منذ بداية تشكلها قبل ١٠ إلى ١٣ مليار سنة بالنسبة لأقدمها. في البداية، تتجمـع في حشـود يمكـن أن يصـل عدد مجراتها إلى عـدة آلاف- المجرات المعزولة في الكون نادرة.

وفي قلب الحشود، تكون المجرات قريبة بعضهـا مـن البعـض الآخـر، وكثيرة هي الصدامات التي تقـع فيما بينها. يمكن أن يستمـر الصدام بين اثنتيـن منها عشرات، ومئـات ملايين السنـوات، مسببـاً انقلاباً تاماً فيهمـا كليهما. يمكن أن يحدث بينهما اختراق متبـادل، ويمكـن أن تتشوَّها، إن لم تتقوضا. تـتركان في الفضـاء حينئذ قِطعَ أقراص، وحشودَ نجوم، تتجمع في مكان أبعد لتشكل مجرةً جديدة. غالباً ما تدور المجرات طويلاً إحداها حول الأخرى، قبل أن تندمجا وتتحولا إلى مجرة عملاقـة. وربما هذا ما ينتظـر مجرتنا «الدرب اللبنية» لأنَّ جارتها، مجرة «المـرأة المُسَلْسَـلة» Andromède، تنقضّ على القسـم الأعلى مجرتنا بسرعة تفـوق ٤٠٠٠٠٠ كم/ سـا: الصدام حتمي، وسيقع في غضون ٢ مليار سنة.

نجـوم، وسـدم، ومجـرات...لا يكشف الكون عـن هندسة بنائه إلا بالمقياس الأكبر أيضـاً: الكون خليـوي cellulaire، شبيه قليلاً برغـوة الصابـون. كل «فقاعة» هي خليـة كونية يبلغ قطرها نحـو ٣٠٠ مليون سنة ضوئية، بالحجم الفارغ عملياً. جدران هذه الخلايا تتأثر عليهـا حشودُ مجراتٍ. أخيراً، توجد على خطوط تقاطع الفقاعات أضخم تركزات مجـرات الكون. وعلى هذا المقياس الكـوني، لا يعود التجاذب يستطيع فعل أي شيء في مواجهة طاقة الكون الأكثر خيالية: التمـدد، الذي يسحب المجرات إلى فضاء متنامـي الخواء، نحو مستقبل يسعى علماء الفلك إلى اكتشافه.

أرقام كونية

بالأرقـام الفلكيـة! صفـة الفلكية هذه مناسبـة تمامـاً للأرقام التـي تتيح وصف

الكون. ليس هنالك أي علم آخر يتعامل بأعداد مدوخة بهذا القدر؛ لا يوجد أي فرع معرفي آخر يغازل اللامتناهي بهذا الشكل. تكشف هذه الخاصيات الرقمية، المقاسة في أتون النجوم أو في فراغ الفضاء، لعلماء الفلك، عن كون لم يكونوا يتصورونه على هذا القدر من السعة. إنَّه كبير إلى درجة عدم القدرة على تصوره.

بالسنوات، ١٣,٧ مليار هو عمر الكون. أو، على نحو أدق، عمر كون«نا»، الذي ظهر لحظة الانفجار الأعظم.. ولكن، منذ بضع سنوات، يتساءل علماء الكون ما إذا كان الزمان قد ظهر مع الانفجار الأعظم. ربما كان الكون موجوداً قبل ذلك، وقد لا يكون الانفجار الأعظم عندئذ سوى تغير مفاجئ في تاريخ طويل.

وعلى عكس ما يمكن أن نتوقع، ورغم العدد العملاق من الأجرام التي يحتويها - مئات مليارات المجرات التي تضم كل منها مئات مليارات النجوم -، الكون فارغٌ أساساً: يضم الفضاء، وسطياً، ذرة واحدة في المتر المكعب فقط، وهذا ما يمثل كثافة من معدل ٣٠-١٠.

أمَّا نسبة المجهول المئوية في الكون فهي ٩٦٪! لا تمثل المادةُ التي تشكل الأجرامَ - كواكب، ونجوم، وسدم، ومجرات - سوى ٤٪ من الموازنة الكلية الكتلية والطاقية للكون. تبقى نسبة ٩٦٪ مجهولة. ٢٢٪ مادة مظلمة، و٧٤٪ طاقة معتمة....

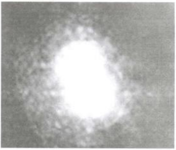
بالسنوات الضوئية: ١٠٠ مليار سنة ضوئية هو قطر الكون المرئي، كرة ظاهرة. هذه الكرة محدودة بـ«الأفق الكوسمولوجي» horizon cosmologique، الذي يتوافق والضوء الأول الذي صدر بعد الانفجار الأعظم منذ ١٣,٧ مليار سنة: يستحيل رصد ما وراءه.

الكون خلوي: المجرات في الفضاء موزعة ليس على نحو عشوائي، بل على وجوه وحدود «فقاعات» bulles كونية حقيقية قطرها نحو ١٠٠ مليون سنة ضوئية.

١٠٠٠٠ مليار مليار هو العدد التقريبي للنجوم الموجودة في الكون المرئي. تولد فيه كل يوم نحو ١٠ مليارات نجم، بينما ينفجر ١ مليون نجم آخر في الوميض الخاطف لمستعرٍ فائق.

ووفقاً للمعطيات الإحصائية، ١٠٠ مليار هو العدد الكلي للمجرات القابلة للرصد في الكون المرئي.... تمَّ عملياً تصوير بضع عشرات الملايين منها فقط، وقد تلزم قرون للتمكن من تسجيلها كلها.

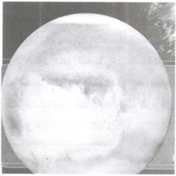
المصدر: Science & Vie





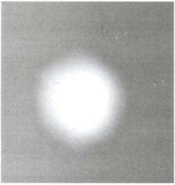


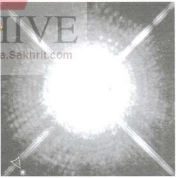


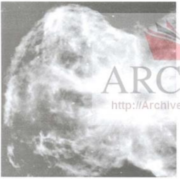


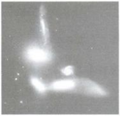


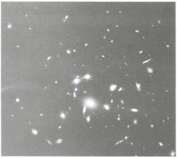


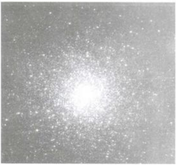


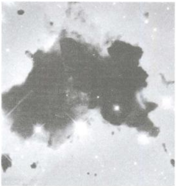






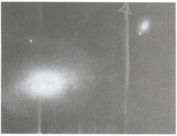














على باب المَغَارة

سليمان العيسى *

أيُّهذا الحَجرُ الضَّخْمُ على باب المغارَةْ
أيُّهذا الراكدُ، المنغلقُ، الأعمى، الأصَمّ
مُلجماً كلَّ ارتعاشٍ.. كل فَم
عبثاً نبحثُ عن قطرة ضوءٍ،
عبثاً نحلُمُ،
نَهْوَى،
نعشَقُ
عبثاً نحترقُ
عطشاً للنور..
في ليلِ المغارَةْ
أيهذا الحجرُ المطبقُ..
ينهالُ على باب المغارَةْ
خِرَقاً حَجرُها الدهرُ..
فشَلَّتْ كل حُلْم
أطفأتْ -واسألْ سمانا- كل نجمِ
أيُّهذا الحجرُ الضَّخْمُ.. متى تنزاحُ؟
يبدو مستحيلا
أن ترى أعينُنا قطرةَ ضوءٍ.. مستحيلا
وتهاويلك تلغينا..
متى يصرعُكَ الضوءُ
على باب المغارَةْ؟

* شاعر الطفولة والعروبة الكبير.

قريتي وموعد الربيع

محمد حسن حشمة *



هلَ الربيع فكل عين هانية   خطر النسيم على السنابل فانحنت

والأرض دغدغت السماء الصافية   شوقاً وصفق بيدر في الناحية

نشوى تبث إلى الغدير حنينها   لعبت بها ريح الشمال وصفقت

ريانة بالعطر ترقص زاهية   فإذا بها موجاتها متتالية

* أديب وشاعر سوري له أكثر من ديوان منشور.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ياقريتي نيسان حل ربوعنا
فترقبي آمال حب آتية
والشمس ساطعة على عشاقها
كالبيرق المنشور فوق السارية
والأقحوان موضب وشقائق
سفحت على الوادي دماءً قانية
وشت بها الأرض الضحوك رداءها
بقلائد في روعها متناهية
نشر الجمال على ربانا سحره
عبق الشذى في المنحنى والرابية
وحدائق مخرت ببحر أخضر
هيفاء تمشي كالفتاة الغانية
تبدو بأثواب الفخار وسيمة
وثيابها بالأمس كانت بالية
والبلبل الغريد يفضي سره
وحنينه قرب المياه الجارية
وقرأت في وجه السفوح صبابة
فتفردت بين النجوم الزاهية
من نغمة الينبوع في قيثارتي
نغمات حب في الشفاه الحالية
تأتي إليه صبية بجرارها
والورد يرسم في الخدود العافية
ولع الجمال بعقلها وجمالها
شغفت بها تلك الخصال السامية
وصغيرة في الحب دللها الهوى
تهوى بسن لا يزيد ثمانية

رقص الحياء بوجنتيها فانثنت
كتماوج الأزهار قرب الساقية
يا حلوة العينين أسكرني الهوى
وأكاد أغرق في الشفاه الدافية
فالريف في عينيك رش أريجه
وأنا أقطف من لماك القافية
والنبع في شفتيك يجري ماؤه
وأنا هنا.. نفسي الكئيبة صادية
أأظل أشرب لوعتي وتولهي
والخصب لا يأتي إلى بستانية
والدفلة الخضراء.. تعشق نغمة
ألفت مع الأيام حب الساقية
تتعانق الأطيار.. فرحى حولها
ويؤمها الراعي معاً.. والراعية
ويهيم بالمزمار.. لحناً دافئاً
بين العتابا في مروج ساجية
نجوى يهامسها الربيع.. فتنتشي
طرباً.. وتجري في الغصون العافية
فلاحة سمراء.. تعرق أرضها
تجني الحقول بجدها متباهية
والنهر أغنية السهول.. ترددت
نغماتها.. فوق الجبال العالية
للسهرة العصماء.. في أكواخنا
حب الصفاء.. على القلوب الصافية
والليل يحتضن النجوم، وبدرها
عشقت سماء الريف تلك الناحية

في موعد الأعراس تبقى قريتي..
سكرى بعرس شبابها.. أو لاهية
وجبالها للبحر منها طلة
تشفي النفوس.. المتعبات القاسية
من تحتها نهر الكبير مصفقاً
يجري.. كأنك في الجنان العالية
فإذا دعوك إلى الصلاة لغيره
صلي شموخاً.. لا تصلي جاثية
حاشاك من حب الخنوع.. لغيره
فهو الذي أعفاك ذل الطاغية
يا قرية الشهداء إن دماءهم
نبتت بحمرتها شقائق قانية
يا قريتي وسع الزمان.. محبتي
ما الشوق عندك.. لا أراك مبالية
فاحتني على جسدي.. بكل طهارة
فالروح فوقك.. سوف تبقى لاهية
يا ملتقى الأحباب.. يا بلد الهوى
عيشي بقلبي نغمة متنامية
يا قريتي.. والشوق يغمر مهجتي
هل نلتقي بعد التنائي ثانية؟!
والحب يجمعنا.. بظل غصونه
كالطير في الأعشاش فوق الدالية
لأحب من مدن الحضارة كلها..
كوخ.. تدغدغه البراعم حانية
يا قريتي.. أهواك حباً خالداً
يا نغمة سكرى.. بعين غافية

المرآة المائلة

○ صلاح دهني



كنت مستلقياً على سريري وإلى جانبي كأس شاي يبرد ببطء فوق (الكومودينا) مع مجموعة الأدوية التي كنت أتناولها، تحاملت على نفسي وانتقيت العلاج المناسب لجرعة الصباح، عدت أتــرك رأسي يهبط إلى الخلـف على الوسادة وأغلقــت عيني. لكن بدل أن يأتي النوم كدرفة نافذة تغلق، ذهب ذهني إلى صديقي عزمي.

في المـرآة المائلة، كنت أرى صورتي، بعينين مخضوضتــين، وخدين خشنين لم تطلهما شفرة حلاقة منذ أمد.

يومان انقضيا لم يأت فيهما صديقي عزمي لزيارتي مع علمه التام بأني ما أزال طريح الفراش أعاني بعد وقعتي المؤلمة على ركبتي اليسرى منذ مـــدة. أبداً لم يكن عزمي تأخر عن زيارتي بهذا

○ أديب وقاص ومخرج سينمائي.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

النحو . حتى أثناء الأزمة الوزارية، كان يعودني كل يوم رغم أشغاله الكثيرة في الجريدة التي كان محرراً فيها. تذكرت أنه بدا لي مهموماً في زيارته الأخيرة. كانت علائم القلق متبدية على وجهه، تخونه في حديثه رغم محاولاته في صوغ أقواله بصيغة المرح التي تعودتها وتعودها أصحابنا في كل ما يبدر عن عزمي.

فيما أنا في هذا، وإذا عزمي بالذات يقبل علي والابتسامة تعلو محياه، يأخذ يمناي في كلتا يديه ويهزها وهو لا ينفك يبتسم من دون أن ينبس بكلمة واحدة، كمن في قلبه أشياء وأشياء لا يفصح عنها لسانه. تبادلنا بعض العبارات التي تعوّد الناس إعادتها عند التلاقي، لكن بصيغة الهزار المبطن. وحاول هو معاودة لعبته التي ظننها انطلت عليّ في زيارته الأخيرة.

لكنه حين رأى، أمام نظراتي ولهجتي، أن لا معدى عن الوصول إلى موضوع مايشغله، إن عاجلاً أم آجلاً، قرب كرسيه مني متأهباً لخوض حديث كنت أتوقعه. قلت:

- إنها امرأة، أليس كذلك؟

- إنها امرأة، قال وهو يهز رأسه كمن يعترف بذنب.

قلت: ومنذ متى كانت البنات تؤثر فيك مثل التأثير الذي أرى، أيها الخليع؟

قال مدافعاً عن نفسه بلهجة لم نعتدها منه:

- لكنها امرأة، أو بالأحرى فتاة فريدة، لا كباقي الفتيات.

- وكيف تكون الفتيات الفريدات؟

قال: كفّ ساعة عن المزاح بل والهزء، أقسمت عليك بالله! ما كان في خاطري أصلاً أن أخبرك بشيء لأنك لن تفهم.. سكت لحظة ثم عاود: على كل حال أضعتها، ولن أراها بعد اليوم. وبعد لحظة صمت أخرى عاود: صدقني هذه المرة. وقعت على فتاة لا كالفتيات، لكني أضعتها، وإلى الأبد. أجل، سأقص عليك قصتي مهما يكن منك، لأنها تحرق قلبي ولساني، ولأنك الأوحد والأقرب.

تفتّحت قابلية عزمي للكلام وراح يفيض فيه. فيما رأيتني أوْخذ وأنصت بقلبي وجوارحي بعد ضحك وهزء. رأيتني أنساق أمام قصة حب حقٍّ، من تلك القصص التي لا يمر بها قلب إنسان إلا مرة واحدة في العمر، أو لا يمر، من تلك التي تأنس لها الروح وتطهرها من كل دنس؟

عمرها عشرون سنة -بدأ عزمي حكايته- كانت تضع وشاحاً أخضر يلفّ شعرها ويدور حول رقبتها عندما رأيتها. من تحت الوشاح، وعلى عرض الكتفين كانت خصل من شعرها مموجة بديعة تتناثر. ورغم أنها تقضي أكثر حياتها في الريف، كما حدثتني فيما بعد، كانت بشرتها ناعمة، وعلى قفا يديها تميز عروقاً خضراء دقيقة، يدان رقيقتان، ساحرتان.

على حدقتي عينيها يقرأ الإنسان ما في قلبها، تكبران وتصغران كلما تغير النور، وكلما تغير ما في القلب أيضاً، شفتاها كأنهما

مرسومتان بيد فنان، إشارة خاصة: الصوت! صوت خفيض بتموجات لا تصيب الأذن فحسب، لكن كطنين العود تصيب تلك الشبكة الدقيقة من الأعصاب التي تسكن حفرة الصدر.

يومها كان السبت، في مثل هذا اليوم من أسبوع، كانت تتنزه، كما بدا لي على ضفة بردى، ثرٌ متموج في مستوى التكية السليمانية، فهمت أنها كانت تفكر في نتيجة فحص خرجت منه للتو، رأسها الفتي كانت تزحمه مئة مسألة ومسألة. توقفتُ في وقت ما تمتّع عينيها بمنظر ثانوية جودت الهاشمي وبعمارها العربي البديع. خلفها كان الماء ينساب، وتحت قدميها يمتد ظل طويل بلا نهاية لسلسلة من الشجر ممتدة بلا نهاية.

أنا كنت أحثّ خطاي إلى إدارة جريدتي في ساحة المرجة حاملاً مقالتي الأخيرة التي كنت انتهيت من تدبيجها قبل قليل. لفتت الصبية نظري، كان في سيماء وجهها مزيج من القلق والتأمل. تمهلت ناظراً إليها بتودد، قلت مبتسماً:

- بديعة هذه المدرسة.

- بديعة.. ولكن... أجابتني كما لو بلا وعي.

عند ذاك توقفت. أدرت معها حديثاً قصيراً تافهاً مثل كل الأحاديث التي يمكن أن يتبادلها مجهولان. هناك شيء ما جذبني، استوقفني..! هو صوتها عندما فاه بهاتين الكلمتين: (بديعة.. ولكن...)؟ لهجة كلامها لم تكن دمشقية.. لم أبالِ. انطلق لساني ذاكراً قبر صلاح الدين الأيوبي قرب الجامع الأموي.. مقام السيدة زينب، مسجد الشيخ محيي الدين ابن عربي..

كانت هي قد زارت متحف دمشق، ومتحف حلب، ومقام خالد بن الوليد في حمص، أعجبت بالآثار الرومانية في تدمر.. أكملت أنا الحديث بدوري عن المتحف المصري وآثاره الفرعونية المدهشة.

هكذا انقضت ساعة أو تزيد. لا بد أن هناك شيئاً ما جرى، جعلها هي تنسى متاعبها الخاصة مع الفحص، وأنا أنسى مقالتي إلى الجريدة، كنّا نواصل السير على طول نهر بردى. ذكرت أنها طالبة سنة أولى حقوق. ذكرت أنها لم تسافر خارج البلاد، وأنها لا تعرف بيروت وعاليه وبحمدون وصوفر، بل حتى ولا شتورا. أبداً لم تدخل مقهى، لم تحضر حفلة تمثيلية. أبداً لم تقابل كاتباً ولا ممثل سينما ولا مغنية. كانت بعيدة عن أجواء الرقص والسهر والرمبا والسمبا والفالس، وحتى التانغو، أمّا الروك، أما الجاز...

الله كم بدت بريئة ونقية! ملامح وجهها أنيسة ومؤنسة تعبّر عن مشاعرها أكثر من الكلمات. لم تتكلم بحماسة إلا عندما طرقت مسألة دراستها، وكفاحها تجاه تصلب الأهل، لمتابعتها، فرصة أكبر يمنحها الأهل للأبناء من دون البنات، هي أيضاً كادت تضيع. تضيع

بين قطيع الجاهلات المجهولات لولا عزيمتها وإصرارها.

ابن عم لها كان يكتفي للبنات بالسرتفيكا، هذا القزم الجاهل كان يموت غيرة كلما رآها متفوقة تنجح من صف إلى صف، ومن مدرسة إلى مدرسة أعلى. أمّا الجامعة حيث تختلط البنات بالشباب، فتلك ثالثة الأثافي. انظروا -كان يوسوس في آذان أهلها- انظروا كيف أصبح الشباب يرمقونها كلما مرت. ويأسم الشرف مرة، وباسم الدين والخلق القويم مرة، كاد اللعين يقضي على مستقبلها.

فيما كان عزمي يحدثني في هذا كله، شعرت على غير العادة، أنّ شيئاً ما حاراً وصادقاً يحتدم في أعماقه. فما رأيتني إلا وقد أقبلت على حديثه منفتح النفس، مستزيداً.

كنّا قد بلغنا منتزهات الربوة -تابع عزمي كلامه- واستقرّ بنا المقام على كرسيين متقابلين حول طاولة صغيرة يدثرها غطاء نظيف مزدهي الألوان، وأمام كل منا كأس شاي.

اسمع يا صديقي، أقول لك الحقيقة؟ هذه الفتاة هزت عواطفي واستفزت شعوري وهي تتحدث عن حال المرأة في بلادنا الفتية، وحالها في بلاد أخرى: عاملة في مصنع، موظفة في مكتب، سائقة تكسي، كاتبة، عالمة، وزيرة..

أذكر تماماً كيف كانت تتحدث. وجهها لم يكن محمراً حمرة الغيظ الأهوج، يداها لم تكونا تصفعان الهواء وتوشران. كانت هادئة، ساكنة، رزينة.

قلت لعزمي:

- مهلاً، ويحك.. مجروف وجرفتني معك.. واضح أنك بت، في غفلة من طيشك وجنونك، متورطاً إلى الأعماق، كأنك في حالة غفلة.

جرع نصف كأس الشاي، وقلب يده إلى الأعلى بحركة اليائس من حسن تقديري.

- واضح أنك لن تفهمني، أنت طلبت مني الكلام، وها أنت تستنكر كلامي وتتنكّر لحالي.. صدقني أن هذه البنت هزت عواطفي بحديثها الناري البارد، الثوري الهادئ حركتني، حرّضتني..

- قف، عندك! قاطعته وقد هببت ناسياً رجلي ووجعي- الآن جعلتني أؤمن أنك بحاجة لا لمن يستمع إليك منفساً عن مشاعر مراهق مظلوم، محروم، بل بت بحاجة مؤكدة لطبيب نفساني.

- ليكن، قالها هازاً رأسه بالموافقة. أنا معك.. طبيب نفساني أليس كذلك؟ ليكن! لكن موقفك لن يغيّر قناعاتي. علماً أنني سأكون مهادناً معك، متفهماً ما ينجم عن أوجاع في الرجل قد تؤثر في خلايا الدماغ..

أخذ عزمي يدي من بعد، وهزها بلطف. ارتسمت على وجهه إحدى تلك الابتسامات الحنون التي كان يأسرني بها ويأسر أقرب الأصدقاء حتى في أشدّ المواقف.

تلك كانت الرهينة الحلوة التي خلفها في عهدتي قبل أن يغادر.

• • •

حكاية عزمي مع تلك البنت ظلت تدوّم في رأسي. أحُبٌّ عابرٌ هو يقضّ حياته ثم ينقضي كقرصة دبور، أم هي قناعة حقيقية سيكون لها ما بعدها؟

أهتف له فلا يرد، أترك له كلمات حادة على المجاوب الآلي في بيته: (أعرف أنك في البيت لكنني لا أفهم سكوتك. حتماً جُننت!).

جاء الطبيب بعد أيام يعودني، طمأنني أن الأمور على ما يرام، لكنه نصح بعدم الحركة الزائدة، وخصوصاً بعدم مغادرة البيت. فما إن غادر هو حتى رأيت عزمي يطل من باب الغرفة. انتصبت في سريري مرحباً. جاء إلى جانبي وأخذ يدي مصافحاً، لكن شيئاً ما في طلّته المنتظرة، بل المرغوبة، لفت نظري، لم يعجبني.. وراء بسمته الفاترة ما وراءها.

جلس على كرسي مجاور وبدل دفق حيويته المعتادة فوجئت من نظرته بما يوحي بالأسى، أو لمَ لا، بالقهر، حبست من جهتي نفسي عن الكلام مراعياً اللحظة وفي داخلي تحتدم الرغبة في مشاركته فيما يشغله ويحزنه. تلك ليست عاداته. لم يكن أبداً بيننا ما يخفيه الواحد عن الآخر.

قلت محاولاً كسر جمود اللحظة:

- أعرف أن بطاريتك لا تفرغ.. أهي بحاجة إلى شحن؟

- أنا كما تعلم أفيض قدرة بحيث أشحنها وأعيد شحنها وحدي.

- أفصح إذن.. قتلتني! إذا كانت حكايتك مع تلك البنت تسربلك بالهم على هذا النحو، فأنا لها.. سأتعكّز على عصا وأذهب لأخطبها لك، تضاحك عزمي من القلب هذه المرة.

- نعم هي حكايتي مع تلك الفتاة الرائعة التي تسميها حضرتك: البنت.

قلت لك إنها فتاة رائعة، وما تلا لي معها من لقاءات بعد مشوار ضفة بردى ومقهى الربوة، أكد مشاعري. وحكمي عليها لم يكن زعماً غريباً إذ خلف في رأسي عواء. في غفلة مني سقطت في حبها -أرجوك لا تضحك- بت فريسة قلق شوش حياتي.

ستفهم حالي وأنا أروي لك بقية القصة. قالها وما يشبه الدمع يكاد يتفجر من عينيه. حاولت الكلام، لكنه أشار بيده ألا أقاطعه. وأنا امتثلت.

تعلقي بهذه الفتاة -التي أعود فأصفها بالرائعة- جعلني أنتظر بشوق نهاية التزامها بمحاضرات كلية الحقوق لنتصاحب يومياً في مشاوير في الصالحية أو في سوق الحميدية، أو حتى في باب توما، حماسة مراهق، أليس كذلك؟ هي صفة من زمن الطفولة لم أتخلص منها تماماً، كم من حولي راشدين نسوا هذا الشعور الخارق. من بعد، يمكنني القول إنني بت جديراً بأن أكتشفها صفحة بعد صفحة.

ذكرت لي أنها كانت تتبادل الكتب مع صديقة لها معلمة هاوية قراءة. كانت المعلمة تحب القراءات العربية الجديدة، الأقرب إلى عصرنا. كفانا جموداً وثباتاً -كانت تردد- عند

أسلوبيات القرن الرابع والخامس- الكلمات، المفردات، هل هي سوى الحامل لما نعبر عنه. لماذا إذن نعطيها من الأهمية أكثر مما تستحق؟ لماذا نجعل القديم مما جال لونه يستعبدنا؟

ذات مرة توقفت عند كتاب (ألف ليلة وليلة)، كتاب تقول عنه: إنه يعرّف الإنسان بالحياة والمجتمع، العواطف، وجميع الوجوه التي يتخذها الحب.. حدثتني عن قراءتها له من دون خجل كاذب، ولم تخف عني اللذة المتجددة كلما انكبت على الألف ليلة وليلة. مثقفة هي أكثر من حكيم شاب أو عاهر عجوز!

حدثتني عن صديقتها تلك لكنها لم تحدثني عن قلبها هي. هل كان علي أن أفكر إنه لم يختلج أبداً بالحب.. هل في حياتها شاب قبلها؟

في إحدى الأمسيات، بعيداً عن الأعين، عندما افترقنا.. نعم عندما افترقنا -يا للأسف وللأسى- لئلا نلتقي فيما بعد سوى لحظة غبية، بلهاء، مجرمة.. لحظة مقدرة جعلتها تهرب مني إلى غير رجعة.

لفظ عزمي كلماته الأخيرة وعيناه متعلقتان بالبعيد خلال نافذة الغرفة، بتلك النقطة التي يلتقي فيها خطان متوازيان. التفت إلي:

أنت تنظر إلى الساعة يا صاحبي وفي ذهنك إني حيوان غريب جرت معه قصة ملائكية غريبة لم يكن يستحقها. تتساءل كيف ضاعت مني فتاتي بالسهولة التي لا تتصورها بعد كل الذي كان. لكن بالله عليك انتظر بقية ما أقول، ثم أحكم.

دمشق كانت كالنار المحرقة في ذلك اليوم. الإسفلت في الشوارع كان ليّناً، وحتى اقتراب المسار لم يأتِ بالرطوبة. كانت تحمل رداءها على ساعدها. صدرها العالي كان يبرز تعرجات ملابسها الداخلية. أكبرها أنا بخمس سنوات. عرفت كل عواطف الأهواء، لكن حتى ذلك الحين كنت أجهل الفتنة الساكنة التي تولد فقط من وجود مخلوق أقبلنا عليه ونحن نجهل أننا بدأنا محبته بعد.. حتى فكرة المشي معها جنباً إلى جنب بخطاً متساوية، والذراع البض بجانبي تحرجني ملامسته.. كل هذا أمكنه أن يولّد في سعادة لم يولدها في يوم، أي حب وأي هوى.

كل شيء في ذلك المساء، قبل يومين فحسب، جرى كأنه كان مقدراً، مكتوباً في لوح خالد. معنى واحد للكون، للحياة، للناس، للقدر، هو تفرغنا التام. السلسلة التي بدأت تربطنا الواحد بالآخر، فجأة بدأنا الكلام عن المستقبل، عن الوئام، عن المحبة. لم تكن قد وضعت خدها على خدي. يداها لم ترتبطا بيدي في غير لحظات. قالت لي فقط: كنت متأكدة بأني سألاقيك الآن أو بعد عشر سنوات.

تبادلنا في ذلك المساء تلك القبلة... قبلة وحيدة -الله كم كانت منعشة، حارة، صادقة- تواعدنا. افترقنا. هذا الموعد الحزين الذي لم يتحقق.

غصَّ عزمي عند هذا الحـد وقد توهج خداه- لم أعلق أنـا بأية كلمة قد تكون في غير محلها في ذلك الموقف. بقيت منصتاً، مفاجأً.

انتبـه الآن يا صـاحبي لما سـأقول، قبيل الساعة الثالثة من ذلك اليوم كنت منتصباً أمام سـينما دنيا في انتظار الموعـد، أكاد أكون في عالم غير عالمنا. فجأة رأيت ابنة عمتي منتصبة أمامي والناس يتوافدون. كانت بصحبة اثنتين مـن رفيقاتها. سـلام وعتـاب لأني لم أحضر لزيارة العمة منـذ زمن. وإذ تململت رفيقتاها بين الجمع، ودعتني، سارت خطوة عادة بعدها تُسرّ لي أمراً في إذني، لم أسمعه، وذهبت.

في تلك اللحظة بالذات رأيت فتاتي مقبلة نحوي وفي اللحظة نفسها رأيتها تستدير وتعود مبتعدة. ذهلـت وأنا أراها مسرعـة كالهاربة، حتمـاً هي ظنت، وابنة عمتي تسرّ في إذني أن هناك علاقة أثيمة بيني وبين الآنسة. لم تعرف أنها قريبتي، وأنها كأختي.

حاولت اللحـاق بها من فوري. لكن عوائق الدنيا قامـت في وجهي بين الناس المتجمعين. فما خلصـت حتى كانت اختفت. ركضت هنا وهناك، بلا فائدة. فتشت في المخازن القريبة. دخلت صـيدلية، مكتب طيران. لا أحد. همت على وجهي في الشوارع القريبة، ضفة بردى.

في ذلك المسـاء، وفي اليـوم التالي، توقعت منها اتصـالاً هاتفيـاً لم يأتِ. صـمت مطبق، خانق.

ضـاعت مني فتاتي. لم أرها من بعد أبداً. سـوء تفاهم، سوء تفاهم لا أكثر. توقف عزمي عن الكلام وهو يصـفق كفـاً بكف. وأنا أمامه لا أجد ما أقول وكأني أضـعت أنا أيضاً لساني وفكري. وعاود:

أرأيت يا عزيزي، سوء تفاهم بسيط. المرء لا يهدم حباً كبيراً بسبب سوء تفاهم. مضحك هذا، حُبك، صـدقني، كالمأخـوذ ظللت أبحث عنها فيمـا بعد في كلية الحقوق، في الحارات، حيثما توجهت. لم أجدها، وأشـعر أن قدري ألا أجدها أبداً.

هل تصـدّق؟ أضـحى الأمر يختلط علي، حتـى لأظن أحيانـاً أني لم ألتق أحـداً، لم أكلم أحـداً، لم يخفـق قلبي بحب. أضـغاث أحلام عصفت بذهني ثم توارت.

حب كمثل حريق شب، لهيب انقضى، رماد تذروه الريح.

الرايات

يوسف جاد الحق ✪

حدث هذا قبل آلاف السنين:

حدَّثه جده عن أصل الحكاية لدور (العَلَم) في الحروب بين القبائل والشعوب منذ البدايات الأولى. ربما كانت الحكاية صحيحة، وربما لم تكن كذلك، بيد أنَّه قبلها (على علاتها) لأنَّ جدَّه هو الذي قصَّها عليه، وليسَ لأحد -من باب اللياقة والأدب- أنَّ يشك فيما يقوله الأجداد، لاسيما من انحدر عنهم من الأحفاد..!

قال زعيم القبيلة لزمرة الشيوخ المتحلقين حوله، فيما هم يعبثون بلحاهم الطويلة بأصابعهم المعروقة، بعد أن روى لهم أسباب الخصومة مع القبيلة الأخرى التي أزمع أن يشن عليها حرباً ضروساً لا هوادة فيها.

أيُّها الربع:

عليكم أن تقنعوا أبناءكم ونساءكم، وحتى مواشيكم وأبقاركم، أنَّه بات لزاماً علينا أنّ نقاتل ذلك العدو الرابض عند أطراف مرابعنا، فهو يبغي الاستئثار باقتناص الغزلان التي تقتنصونها أنتم في العادة من هذه البراري، كما أنَّه ينوي إيثار نفسه بماء النهر الجاري هناك، وربما يحول دون وصول مائه إليكم بغية القضاء عليكم عطاشاً. من ثم أمسى واجباً علينا، أيها الربع، أن نهب للذود عن حياضنا وأن نقف في وجهه لنحول دون تحقيق أهدافه الشريرة المنكرة. هذا ما أعرفه عن أبي لبنى.. والمخفي أعظم..!

انفضّ (مجلس الشيوخ) عقب الاستماع إلى زعيم القبيلة ساعات وساعات. مضوا

✪ أديب وباحث وقاص فلسطيني.

يتخرصـــون، ويفكرون، ويتحاورون من دون أن يستقر لهم رأي أو يتبين لهم وجه للحقيقة. ثم ما لبثـوا أن تفرقوا جماعات يتناجون قبل أن يتوجهوا نحو خيامهم، لكي يحملوا إلى نسائهم مضـمون ما سـمعوا من زعيم القبيلة. قلّبوا الأمر على وجوهه في فرشـهم، وعلى وسـائد نومهم، حتى أقضّ مضـاجعهم، ولم يدع للنوم سبيلاً إلى عيونهم، ولا لأي شيء آخر..!

ربمـا كانوا مقتنعين بأنّ ما سـمعوه لم يكن صـحيحاً، وأنّ المسـألة برمتهـا لا تعدو رغبة الزعيم في بسط سلطانه (وليس سلطان القبيلة) على رقعة الأرض المجاورة وضمها إليه، فضلاً عن رغبته في الانتقام من زعيم القبيلة الأخرى الذي رفض أنْ يزوجـه ابنته (لبنى) التي هي أصـغر من ابنتيه (زلفى ونعمى).. وأنّ ما قاله لم يكن سوى ذريعة ليس إلا.

المسـألة إذن شخصـية بحتة، ولكنه يعمل على أنّ يلبسها طابعاً جماعياً، تحت ستار من الأباطيل والذرائع التـي لا تمت إلى الحقيقة بصلة.

بيد أنّهم في شـتى الظروف، وعلى الرغم من كل شيء، لا يملكون إلا أن يستجيبوا. أجل لا يسـعهم إلا أن يطيعـوا أمر زعيمهم شـيخ القبيلـة، وإلا كانـت العواقـب وخيمة، فلقد عرفوه قاسـياً لا يرحم، لا تأخذه رحمة فيمن يعصي له أمراً. وهم يعرفون أيضاً نوع العقاب الذي ينتظر العصـاة والمناوئين والمستنكفين، والذي قد يكـون أهونه إلقـاء واحدهم أمام جمع مـن الوحوشـ الكاسـرة لتنهش لحمه، جهاراً نهاراً، وعلى رؤوس الأشهاد، في الباحة الواسـعة التي تتوسط الخيام. من أجل ذلك لم يكن أمامهم سـوى الإذعان لمشيئته التي لا راد لها ولا معقب عليها.

لم ينقضـ زمن طويل حتى تكوّن من أفراد القبيلة جيش عرمرم. شرع الزعيم، من غير وناء، يشحن جيشـه الفتي بالأفكار المعادية للطرف الآخـر، وبمقولات يخترعها لهم اختراعاً ـ هو نفسـه لم يكن مؤمناً بها ـ عاملاً على توطيدها في نفوسهم، كيما تصبح عقيدة قتالية راسخة لكل منهـم. ولكي تدفعهم إلى مناجزة عدوهم الألدّ، وليبذلوا دماءهم (رخيصـة) من أجلها. ذلك فضـلاً عن التدريب المتواصل استعداداً للمواجهة المرتقبة.. والمعركة (المصيرية) التي ينبغي أن تكون فاصـلة، لكي ينعموا، من بعد، بالغنائـم الوفيرة مـن القطعـان والمراعي.. والسـبايا -على وجه الخصوص- من نسائها الجميلات.

• • •

فكر الشاب (وضاح)، شأنه شأن الآخرين، بمـا يجري. (وضّـاح) هـذا كان معروفاً بين أقرانه بصـمته الطويل. لم تكن سـحنته تنبئ عن شـيء البتة، ولولا تحرك عينيه لحسـبه الناظر إليه تمثالاً منحوتاً من صـخر أصـم. ولقد اختلفوا حتى على الأوصـاف التي يمكن أن تليق به وتنطبق عليه. ففيما رأى بعضـهم أنّه كائن عالي الذكاء شـديد الفطنة والدهاء،

رأى بعض آخـــر أنه لا ينطوي إلا على مخلوق غبي أبلـــه. فيما رأى غير هؤلاء وأولئك أنّه لا يرقـــى كثيراً عن مســتوى البهائم، لا يفقه من أمر نفسه شــيئاً، وإلاّ لما احتمى بهذا الصمت المطبق المستديم.

والغريــب أنّه لم يحاول قــط أن يثبت لهم عكس ما يرون في شأنه.

فكر وضاح محدثاً نفسه:

إنّ زعيمنا هذا يريد لنا أن نموت من أجله هـــو، وليس من أجل أي شـــيء آخر. وما ذلك إلا لكي ينفس عن حقد يجثم على صدره نحو زعيم القبيلة الأخرى مـــن أجل ابنته (لبنى). فهل هذا ســـبب وجيـــه للمـــوت..؟ موتي أنا تحديـــداً؟ وهل جـــيء بي إلى هـــذا العالم قبل ثلاثة عقود من الزمن لكي أنتظر هذا المصير البائـــس، لا لشـــيء إلا لأنّ هـــذا الرجل يريد ذلك؟ كان عمر أبي ينقص إبان ذلك سنة كلما زاد عمري ســـنة.. كذلك كان شـــأن أمي التي انجبتني بعد مخاض عســـير، أوشـــكت فيه أن تفقد حياتها، ينقص الزمن من عمرهما كيما يزيـــد في عمري. كذلك شـــأن رفاقي جميعاً. أنموت في طرفة عين من أجل عاطفة هوجاء، ونزوة حمقاء لهذا الشـــيخ الطاعن المأفون..؟ وهل نموت أيضاً بعدما استهلكنا من لحوم هذه الأبقار والأغنـــام والغزلان القناطير المقنطرة، ومن الحليب والماء ما يمكن أن يصـــنع بحيرة كبـــيرة لو أنـــه جمع في مكان واحـــد، وبعد أن تكونت لنا هذه الأجساد وهذه العقول؟ أنموت بعد هذا كله من أجل واحدة من نزوات شـــيخ قبيلتنا الجليل..!؟

بلغ استياء وضاح هنا مداه، فصاح بصوت مسموع من دون أن يدري:

-ليس عـــدلاً أن تســـفك دماؤنا لتشربها هذه الصحراء العطشى إرضاء لشيخ القبيلة.. وإشباعاً لنزوة تملكته!

لا يدري أحد كيف بلغ الزعيم أن (وضاحاً) يفكر على هذا النحـــو. ولأن الزعيم يزمع أن يمضـــي قدماً إلى غايته لا يصـــده عنها كائن ضـــئيل الشأن مثل وضاح ومَنْ هم على شاكلته من الأوغاد، خطر له أنْ يســـكت وضـــاحاً إلى الأبد. بأن يلقي به في غياهب الجب القريب. ولكنه خشـــي تلويث مائه، فهو المصدر الوحيد الذي يمنحهم ماء قراحاً هاهنا.!

فكر الشـــيخ في أن يضعه في غرفة مغلقة ذات جدران ســـامقة، ونوافذ ضـــيقة لا ينفذ منها ضـــوء ولا هواء، بالكاد تتســـع لجســـده. بيد أنّه آثر التريث كي لا يثير من حوله ضـــجة تصرف النـــاس عن هدفه المبتغى، الذي يعمل على تســـخيرهم من أجله. ولكي لا يجعل من وضاح زعيماً ينافســـه على زعامة القبيلة في قادم الأيام بوصـــفه معارضـــاً ومناوئاً شديد المراس.

رأى الرجل الحصـــيف في نهاية الأمر أن يرجئ موضوع وضّاح هذا إلى حين. أي إلى ما بعد المعركة المرتقبة. أمّا الآن فما عليه ســـوى أن يجـــد من الأســـباب وأن يختلق من الذرائع

والمسوِّغات ما يكفل له تحقيق هدفه المنشود. وهو لن يصل إلى شيء من ذلك بغير تحفيز أفراد القبيلة على القتال باستثارة غرائزهم العدوانية الكامنة.

دعا شيخ القبيلة القوم إلى اجتماع طارئ عام، ليلقي فيهم خطاباً.

هرع القوم إلى الساحة بين الخيام. انتظروا طويلاً قبل أن يطلَّ عليهم من خيمته الكبيرة. ساد الصمت. وعمَّ الوجوم والترقب، قبل أن يشرع الرجل في الحديث إليهم. وبعد أن حمد لهم اجتماعهم، وأثنى على فطنتهم التي لم يشهد لها مثيلاً بين القبائل، أخذ يشرح لهم أسباب الحرب التي يعتزم القيام بها، مكرراً زعمه بأنها من أجلهم هم، ذوداً عن مصالحهم. لم يدع سبباً واحداً من دون أن يعرج عليه لإيغار صدورهم على القبيلة الأخرى، ولا مثلبة من دون أن يلصقها بخصمه. ثم -وهذا كان مثيراً لدهشتهم- لم يلبث أن رفع قطعة من القماش ذات ألوان على عصا طويلة، وهو يقول: (من أجل هذه يجب أن تقاتلوا.. إنَّها ترمز إلى أرض قبيلتكم وخيامكم.. إنَّ حماية قطعة القماش هذه حين ترفعونها عالياً في ساحة القتال يجب أن تكون غايتكم ومبتغاكم، حتى لو قضى واحدكم نحبه من أجلها)..!

في يوم المواجهة، نظر وضاح فرأى قطعة القماش ذات لونين اثنين أصفر وأحمر ترفرف فوق الرؤوس. دارت المعركة سجالاً طوال ذلك اليوم على مقربة من خيام القبيلة الأخرى. بيد أنَّ وضاحاً بعد أن قضى تلك الليلة مسهداً، يقلب الأمر على وجوهه، راعه أن يرى في اليوم التالي الرجال في الناحية المقابلة يرفعون هم أيضاً فوق سارية أطول من ساريتهم قطعة قماش ذات ألوان عديدة غير واضحة المعالم لبعد المسافة.

احتدمت المعركة، وتساقط الرجال صرعى كجذوع نخل خاوية.

ولما جنَّ الليل تراءت على مدى البصر أجساد الرجال الأحياء من الجانبين ممددة على الأرض بعد عناء يوم شاق، انتظاراً ليوم قتال آخر في الغداة.

• • •

فكر وضّاح:

ربما أكون غداً في عداد الموتى.. و(الزعيم) ما فتئ مصراً على ادعائه بأننا نقاتل من أجل حماية قطعة القماش هذه، ذات اللونين الأصفر والأحمر.. وماذا لو أنَّها حملت لونين مختلفين عن هذين..؟ وما الفرق بينها وبين أي قطعة قماش أخرى..؟ ومن أين جاءت القداسة لقطعتي القماش هاتين..؟ حبذا لو كان هناك سبب أكثر وجاهة. صحيح أنَّ النعاج تساق إلى الذبح، ولكنها لا تذهب إليه مختارة أو بتحريض خطاب.. وإنَّما يقبض عليها من أعناقها لترغم إرغاماً وبالقوة الجسدية. ولكن أحداً لا يسعى إلى إقناعها بأن تذهب طواعية، وبحماسة أيضاً، من تلقاء نفسها كي تتناطح مع نعاج أخرى، تحت أي ذريعة، وحتى الموت.

نعاج من بنات جنسـها ليس بين الواحدة منها والأخرى سبب للتناطح والتذابح. أجل، النعاج لا يقضـي بعضـها على بعض بهذه الطريقة الفظَّة.. لا.. ولا الأبقار والثيران والخيول تفعل ذلك.. يبدو لي أنَّها أرجح عقلاً..! كما أنَّها لا تثير ضجيجاً ولا ترفع قطعاً من القماش، لكي يغرر بعضها بعضاً، من أجل الاندفاع إلى موت ناجز لا لشـيء إلا لأن واحداً منها أقدر على الثغاء أو الخوار أو الصهيل بصوت عالٍ..!

● ● ●

في كل مرة كان شـيخ القبيلة يلمس تهاوناً أو تراخيـاً أو فتوراً يعـتري رجاله يختلق لهم جديداً، أو يذكرهم بشأن قديم منسي (أسماء التاريخ)، لكي يرسـخ فيهم القناعة من جديد للذهـاب إلى الموت راضـين لا كارهين وربما مبتهجين أيضـاً..! والغريب أنَّهم يسـتجيبون، ويسعون إلى حتفهم حثيثاً. ولم يتوقفوا، ولو مرة واحدة، متسـائلين كيف نساق إلى الموت سوْقاً كالنعاج، بكلمة تصدر عن شيخ قبيلتنا..؟ وهل أرواحنـا هـذه التي بين جوانحنـا رهن كلمة منه لينتزعها من هذه الأجسـاد؟ هذه الأرواح أتراها ملكه هو أم نحن الذين نملكها..؟

بل إنَّ وضاحاً يراهن على أنَّ هذا كله سوف يتغـير في طرفة عين لو تصـالح الشـيخان.. ولربمـا ينقلب القتال إلى رقص فوق جثث القتلـى، وفي هذه الحلبة بالـذات، بمجرد أن تختفي أسباب الخلاف بين زعيمي القبيلتين. عندئذ تكون الأرواح جميعاً، في الجانبين، قد ذهبت سـدى، وكان مصـيرها واحداً موحداً علـى الرغم مـن أنَّ كلاً منها أُزهقت لسـبب غير السـبب الذي قضـت من أجله الأخرى، ومن أجل قطعة قماشها المختلفة اللون..! لقد توحد قتلى الجانبين في المصير البائس.

● ● ●

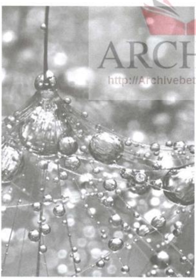
تمنى أفراد القبيلة، شـيوخها وشـبيبتها جميعـاً لو أن شـيخ القبيلة الأخرى يرضـى عن تزويـج ابنته (لبنى) من شـيخهم المزواج المتصـابي.. حقناً للدماء..! أمـا الذين ماتوا دونما سبب جوهري، فلا شك أن شيخ القبيلة يملك من زلاقة اللسـان، ناهيـك عن القدرة على الإفك والبهتـان، ما يؤهله لأن يجد لكل ماحدث تبريراً ومسوّغاً وتفسيراً. سوف يقول للثكالى والأيامى.. للمفجوعين واليتامى، بأن ذويهم يعيشـون هناك حياة أفضـل في مكان آخـر.. فابتهجـوا أيها النـاس وافرحوا.. بل إنَّ عليكـم أنّ تقيموا الأفـراح وتحيوا الليالي الملاح..!

لسـوف يشـوه شـيخ القبيلة حتى مفهوم الشـهادة نفسـها. ذلك أنَّهم لم يقضوا نحبهم لهدف سام يسلكهم في عداد الشهداء.

بيد أنَّ وضـاحاً حينما رأى طلائع مقاتلي القبيلـة الأخرى يقتربون من مضـارب قبيلته اندفع كالسـهم يخترق صـفوف مقاتليها وقد جرد سـيفاً، وانـبرى للقتـال ذوداً عن المكان والأهل... والراية...!

ضفاف السرد القصصي

❊
عبد الباقي يوسف



القصة القصيرة هي عمل إبداعي يتمتع باستقلاليته وخصوصيته الأدبية والفنية، هذه الاستقلالية التي تؤهلها لتحمل اسم القصة القصيرة.

للقصة القصيرة تاريخ ممتد إلى الاف السنين، حيث كانت تروى بشكل شفاهي على ألسنة الناس لتؤخذ منها العبر، وكانت الأمهات تروين القصص على أسماع أطفالهن وهن يهدهدنهم كي يناموا.

لقد اقترنت القصة بفكرة الأدب، وقد سبقت الرواية، بل حتى الشعر في التاريخ الأدبي يفخر باعتماده على فكرة قصصية، والأمر كذلك بالنسبة للمسرح، والسيرة، والمذكرات.

❊ أديب وقاص وناقد سوري

إنَّ كتاب القصة القصيرة يعد من الكتب التي ينتقيها زائر معارض الكتب لأنَّ هذا الكتاب يصلح للقراءة في أي وقت، كما يصلح أن يتداوله معظم سكان البيت، وهو يحتوي على مواضيع متنوعة وغنية تكون على تماس مع إيقاع الحياة الاجتماعية.

جواهر القصص

كل عمل قصصي يحمل في ثناياه أملاً جديداً إلى قارئه، وكل قارئ يأخذ لؤلؤة ثمينة جديدة من لآلئ الفن القصصي.

من هنا فإنَّ القصة لاتقف على قراءة متجمدة بالنسبة لعامة القرّاء، إنها تمنح كل قارئ وفق ما هو عليه من وعي قرائي لثناياها، ووفق سعيه للاستمتاع بنسيجها المعماري.

هي الثيمات التي تدور في عالم لامعنى له، تشكل نسيجاً حول الفراغات اللامتناهية، تفتش عن زوايا الجمال في فضاء مفتوح، تفتش عن بقايا نبضات أخيرة في قلب يرفض ألا ينبض، هي الثيمات ذاتها التي لايعجبها اللامعنى وتسعى بكل طموحها لإيجاد شيء ما في اللاشيء. حتى الكلاب تميل لأن تنبح نباحا مختلفا في أوقات ما، في طقوس ما. أعني نزعة التمرد الأبدية على المألوف الذي يأكلنا كما تأكل النار الحطب، والسر الذي يقف خلفه كل ذاك الأمل المتفجر الذي يقدمه قصاصو العالم على مرّ العصور. ذاك السر الذي يجعل القصاص يرفض النوم ثلاثة أيام احتفاء بعثوره على جملة مضبوطة يمكن أن يبدأ بها قصة قصيرة. من أي بقاع نأتي بتلك الأحمال الهائلة من الأمل المتفجر، وكيف نجعلكم تصغون إلينا، تتركون أعمالكم وأثقالكم ونساءكم وأولادكم ومساكنكم لتنعموا بدفء القصة وأنسامها.

إنَّنا نمنحكم أشياء أثمن مما تركتم، نمنحكم ما ليس لديكم، نقدم لكم تلك الوسائد التي تأخذكم إلى عالم الخلود والنور والبهاء. أشياء وأشياء ضائعة منكم، ضائعة من كوكب الأرض نحاول أن نسترجعها لكم وللأرض.

دوماً تقول القصة القصيرة لقصاصها: لست أنت الذي تريد أن تكون قاصاً، ولكن أنا التي أريد أن أكونك، لست أنت من يريد أن يكتبني ويرويني، ولكن أنا من أكتبك وأرويك وأقدمك.

فكرة القصة تلح على القاص ولايستطيع فكاكاً من الهيمنة القصصية، إنَّها توصله إلى ذروة المعاناة، لن يستطيع أن يغمض عينيه، أن يستقر مالم يكتبها، وأحيانا تبلغ في عنادها إلى التحدي مع القاص فتتحداه أن يستطيع أن يخلد للراحة أو حتى الخروج من البيت قبل أن يكتبها، أو حتى يكون قادراً على إجراء مكالمة هاتفية، فيستسلم لطغيانها وجبروتها، وهو يحاول أن يقنع نفسه بأنه هو الذي يكتب القصة ويتحكم بزمام مفاصلها.

وأمَّا المتعة فتكون بعد إنجازها فيكون

حاله كحال الذي أدار الباب الحديدي الضخم على نفسه من دون أن يدري بأنه نسي المفتاح في الخارج، وكل محاولاته تفشل في إسماع من هو في الخارج ليأتي ويفتح عليه هذا الباب، ينظر إلى الأعلى حيث النافذة المرتفعة على مسافة عشرة أمتار والمحكمة بالبلور، إنّه يفعل أي شيء ليُخرج نفسه من هذه الغرفة، فيستعين بأصابعه وأسنانه وقطع النقود المعدنية في جيبه حتى يحفر حفراً صغيرة، وفي النهاية يفلح بأعجوبة في أن يحفر مواطئ لقدميه في الحائط فيتسلق كالقطة إلى أن يبلغ النافذة المرتفعة الوحيدة ويخرج، عندها فقط يشعر بنشوة وهو يومئ برأسه لينظر إلى المسافة التي تسلقها لمدة يومين متواصلين، تلك هي النشوة التي يشعر بها الكاتب عندما يفرغ من عمل جديد.

وأقنع نفسي في كثير من الأحيان بأنّ الكتابة تحقق لي المسرة حتى لا أعترف أمام نفسي بقوتها علي وأنني أتنهد تحت ثقلها وقد تمكنت مني كل التمكن. والحقيقة فإنّ القراءة تقدم المسرة والمعرفة معاً، فأن أقرأ مجموعة قصصية لمدة ثلاث ساعات هذا أمتع لي من أن أمضي ثلاث ساعات في أرق ومخاض كتابة قصة جديدة، والواقع فإنّ رغبتي الحقيقية تكمن في عدم تمكن القصة مني بهذا القدر الذي لا مخرج منه. تكمن رغبتي فيما لو كنت قارئاً، قارئاً جيداً مثلما أنا مستمع جيد للموسيقى، ومشاهد جيد للسينما والفن التشكيلي، ولكن كل محاولاتي تبوء بالفشل لأن القصة وجدت طريقها إلي، وكل هذه الكتابات الجانبية كهذه هي في الواقع محاولات للتهرب منها، ولكنها بالوقت نفسه كتابات عنها وفيها، وهكذا فحتى الهروب منها يكون إليها.

قد يسأل البعض: لماذا يكتب الكاتب إذن؟! أقول ببساطة: لأنه لا يستطيع أن يعيش ثلاثة أيام إن لم يكتب، وكذلك فإنه يشعر بإثم عظيم إذا لم يتمكن من تقديم كتابات تعبر عن قوته وتضيف إلى كتاباته السابقة، ولعلي أرى أن الكتّاب الذين انتحروا ما قاموا بذلك إلا بعد أن تأكد لهم أنهم ما عادوا يقدرون على إبداع كتابات أعظم مما أبدعوا، ولعلي أرى خير مثال في ذلك /همنغواي/ الذي عبّر في /الشيخ والبحر/ عن مدى تعلقه بالحياة حتى في أسوأ ظروفها، بيد أنه لم يتردد من إطلاق النار على ذاك الخيال الذي أتى بكل تلك الإبداعات العظيمة لأنه عز عليه أن يرى ذاك الخيال الخصيب وقد أصابه الوهن.

القصة القصيرة بين قوة الفكرة وبلاغة اللغة

تعتمد القصة القصيرة بشكل كامل على قوة ودلالة اللغة للتعبير عن وظيفتها، وفكرة القصة القصيرة تستعين بمنارة الكلمة حتى تبلغ القارئ وتترك أثراً لديه.

من هنا كان اللجوء إلى استخدام تقنيات

غنية في كتابة القصة حتى تخرج إلى قارئها بفنية عالية.

والأمر لايختلف كثيراً حتى بالنسبة للقصة الشفاهية، فهي تعتمد على أكثر الكلمات والعبارات تعبيراً عن فكرتها، والكلمات الركيكة سواء في القصة الشفاهية، أو القصة المكتوبة تترك أثرها البالغ على مدى تأثير القصة على القارئ، كما أنّ هذه الركاكة، أو المباشرة والتقريرية تجعل قارئ القصة ينفر من متابعة القراءة، لأنّه يشعر بأن ما يقرأه لايمت إلى جنس القصة، فيكون مثله مثل الذي يستمع إلى مقطع نشاز بآلات موسيقية.

تقف الكلمة على أساس متين في تقويم حياة الإنسان، إنّها أحد أبرز الأركان التي تحرّك إيقاع الحياة، وهي سبيل الإنسان في بنية العلاقات الاجتماعية وتواصله الإنساني مع بعضه البعض.

يعتمد الإنسان على الكلمة في التعبير عن مدركاته، وآرائه، ومواقفه، ووجهات نظره، ويعتمد عليها في تلقي مدركات، وآراء، ومواقف، ووجهات نظر الآخرين.

يمكن للكلمة أن تجعلك صديقاً للآخرين، ويمكنها أن تحيلك خصماً لهم، يمكنها أن تجعلهم أصدقاء لك، ويمكنها أن تحيلهم خصوماً.

كما أنّها تمتلك سبيل التغيير، فتقلب البغضاء مودة، المودة بغضاء.

تفعل الكلمة فعلها في تحريك وتفعيل المشاعر والنزعات الإنسانية في دفقات مختلفة، تولّد الأفعال وردودها.

يمكن للكلمة أن تشفي مريضاً، ويمكن لها أن تسبب مرضاً لشخص معافى، يمكنها أن تبعث النشوة والانشراح النفسي إلى الإنسان، ويمكنها أن تجعله قلقاً مضطرباً.

تقوم الكلمة بتحديد العلاقات الإنسانية، وتؤسس للمراحل التحولية في حياة الإنسان، فالكلمة تجعل من رجل وامرأة زوجين، وتجعل منهما مطلقين، والإنسان يرتقي في درجات الإيمان بوساطة الكلمة، كما أنه يستعين بالكلمة في الصلاة والصيام، وسائر العبادات، يناجي ربه من خلال الكلمة، يدعوه، يذكره، يسبّح بحمده.

وقد جاء الأنبياء والرسل يحملون كلمة الله إلى الإنسان، واستطاعت الكلمة أن تنير للإنسان دربه.

لقد أكرم الله الإنسان بالكلمة تلقياً وإرسالاً، فالكلمة يمكن لها أن تقدم الحلول لأي خلافات تنشب بين الناس. إنها مسؤولية يجني الإنسان ثمارها إذا أحسن استخدامها، وكذلك يدفع ضريبتها إذا أساء استخدامها.

في القرآن الكريم تنبيه إلى مسؤولية الكلمة، وقد وردت كلمة /قال/ ٤٨٥ مرة، و/قالوا/ ٣١٤ مرة، و/يقولون/ ٨٧ مرة، و/ قيل/ ٥٤ مرة.

يقترن الإنسان بما يتفوّه به، فهو لايكون صادقاً إلا مــن خلال القول، ولايكون كذاباً إلاّ من خلال ما صدر عنه من قول.

لذلــك نــرى أن أهل العقــل والحكمة والخبرة يتأنون في قــول الكلمة الفصل لأن مصائر الناس تقف على تلك الكلمة، بل حتى المحاكم تمهل الزوجين أوقاتاً إضافية حتى يثبتوا في أقوالهم عند حالات الطلاق.

كلمة الحق تخرج من قائلها بقوة، وتبلغ سامعها بقوة.

تخرج بطلاقة، وعذوبة، وجمالية اللغة، وتبلغ بطلاقة، وعذوبة، وجمالية اللغة.

وكلمة الباطل تخرج مــن قائلها بوهن، وتبلغ سامعها بوهن، تخرج بارتباك، وتلعثم، وركاكة اللغة، وتبلغ بارتباك، وتلعثم، وركاكة اللغة.

تمارس الكلمــة سلطتهــا ونفوذها في حياة الإنسان، ولذلــك يشعر الإنسان بعمق المسؤولية تجاه ما يقول وما يصغي إليه من كلام، إنــه يقدّر قيمة الكلمة، ويتجنب إلقاء الكلام على عواهنه.

إنَّ القاص يستخدم عبارات تنسجم مع الفكرة التي يطرحها، وهــذه العبارات ترد بشكل يتوازى مع حدث القصة، إنَّ القصاص هنا يشبــه المحلل النفسي الــذي يستخدم اللغــة في سبيل ما توصل إليــه من تحليل، وعليه أن يقنع الآخرين بمكتشفاته التحليلية من خلال سطوع وبلاغة وسلطة الكلمة هذه المرة.

تصنــع القصــة قارئها بشــكل متدرج حتــى يرتقي في تــذوّق معالمهــا، ويستنشق أريج عطرهــا، وتتفتح حواسه لتلقي عذوبة شعريتها.

المعنــى نبض الكلمــة، الكلمــة جسد المعنى.

إننــي لا أصغــي إلى الكلمات قــدر إصغائــي إلى نبضها، كما أنني لا أصغي إلى الشخص قدر إصغائي إلى محراب قسماته، ثمة كلمات تفرض عليك راحة الإصغاء إلى نبضهــا، وثمة قسمــات ترغمك على راحة التأمل في نورانيتها.

أحيانا أقلب عشرات الصحف والمجلات، ولا أقنع على نبض كلمــة يمكن أن تشدّني، أقلب عشرات القنــوات الفضائية، ومواقع النــت، ولا ينجح مسعــاي، أو ينجح مسعى الكلمات.

أصغي إلى عشرات الأشخاص، فلا تنجح قسماتهم لإقناعي بعمق التأمل، أو لا أنجح في إقناع نفسي براحة الإصغاء.

أحيانــا تستفــزني كلمــات، تستفــزني قسمات، تستفزني مشاهد تمثيلية، تستفزني صحــف، إنَّها تملك مقــدرة هائلة على أن تشوش علي صفاء مخيلتي.

أظن أن ما بات يميز زماننا بجدارة، كل هذا الكم الهائل من الكلمات التي تخلو من

نبضات، كلمات لا قلوب لها. وقد نجح هذا إلى حدّ مرعب في صناعة متلق استهزائي، بات يستهزئ بكل ما يسمع، ويقرأ، ويرى.

أمام هذه الهوة الأكثر عمقاً يفقد هذا المتلقي حساسية جدّية التلقي، ليبلغ مرحلة فقدان حساسية جدّية التأثير.

فترى شخصا يتحدث، لكنه لا يتحدث،
يستمع، بيد أنه لا يستمع،
يبدي علامات التأثر، بيد أنه لا يتأثر،
يضحك، غير أنه لا يضحك،
يبكي، إلا أنه لا يبكي،
يجلس، لكنه لا يجلس،

يرقد في السرير، غير أنه غير راقد في دوامة استباحية لمعنى الكلام ومعنى الأفعال، حتى إنه يرتدي حالة اللا جدية، فإن وُجه إليه تهديد، لا يأخذه على محمل جد، وإن نظر إلى قانون يمنعه من القيام بهذا الفعل، لا يأخذه على محمل جد، فتراه يراهن حتى على عقائده وحياته العائلية في مجلس كأنه ينفث لفافة تبغ، فيمكن لك أن تراه في ثلاثة وجوه خلال ثلاثة أيام.

تعيش المجتمعات ذروة يقظتها وتقدمها قدر حالة الجدية لديها، فهي تأخذ كل ما تراه، أو تسمعه، أو تقرأه على محمل الجد لأنها تعقد آمالا كبرى على الكلمة، والنغمة، والمشهد.

لذلك تراها تقدم مغامرات كبرى ومخاطر كبرى من أجل أن تقرأ، وتسمع وترى.

وهذا ما يمنح للإبداع وللعمل قيمة كبرى، فلوحة تباع بثمن باهظ، قد لا يتنازل شخص آخر أن يقف بسيارته ليحملها إلى البيت إذا ما رآها لقى على الطريق، وكتاب جديد يقف الناس في طابور للحصول عليه، وقراءته حرفا حرفا، قد يتراكم عليه الغبار ثلاث سنوات في موقع آخر.

إنّنا لسنا أغنياء بمقدار ما لدينا من بنوك وأوراق نقدية، إنّنا أغنياء بقدر ما لدينا من متاحف، وكتب وموسيقى.

عندما تستبيح المعنى، فإن المعنى لا يتوانى عن استباحتك، وعندما تمجد المعنى، فإن المعنى لا يتوانى عن تمجيدك.

يروي الكاتب التشيكي ميلان كونديرا قصة طريفة عن صديقه جوزيف سكفورسكي قائلا: دعي مهندس براغي للاشتراك في ندوة علمية تعقد في لندن، وقد ذهب وشارك في الجلسات ثم عاد إلى براغ، وبعد ساعات من عودته تناول في مكتبه صحيفة (رود برافو) -وهي صحيفة الحزب الرسمية- وقرأ فيها: قرر مهندس تشيكي كان قد ندب للمشاركة في ندوة في لندن بعد أن أطلق تصريحاً أمام الصحافة الغربية شتم فيه وطنه الاشتراكي كي يبقى في الغرب. ليست الهجرة غير المشروعة التي يرافقها مثل هذا التصريح أمراً تافها. إذ إنها تعني عشرين سنة في السجن لم يكن بوسع مهندسنا أن يصدق عينيه. وحين دخلت

سكرتيرته مكتبه ذهلت لدى رؤيتها له قائلة: يا إلهي.. كيف عدت.. غير معقول ألم تقرأ ما كتب عنك؟ رأى المهندس الخوف في عيني سكرتيرته. ماذا يسعه أن يفعل؟ هرع إلى إدارة تحرير (رود برافو) وهناك عثر على المحرر المسؤول عن نشر الخبر، وقد اعتذر له هذا الأخير فعلاً إذ إن المسألة مزعجة حقاً، لكنه هو كمحرر، لادخل له في الموضوع، فقد تلقى نص الخبر مباشرة من وزارة الشؤون الداخلية. ذهب المهندس إلى الوزارة إذن، وهناك قيل له: نعم، هذا صحيح. إنه ولاشك خطأ قد وقع لكنهم في الوزارة لا دخل لهم في الأمر فقد تلقوا التقرير عن المهندس من إدارة الاستعلامات في السفارة بلندن. طلب المهندس نشر تكذيب للخبر، فقيل له: التكذيب غير ممكن لكنهم أكدوا له أنه لن يتعرض لشيء وأن بوسعه الاطمئنان. لكن المهندس لم يطمئن إذ سرعان ما انتبه على العكس إلى أنه يخضع لرقابة صارمة وإلى أن محادثاته الهاتفية قيد التسجيل وإلى أنه ملاحق في الشوارع. لم يعد يسعه النوم ثم صار نومه حافلاً بالكوابيس إلى أن جاء يوم لم يعد يحتمل فيه هذا الضغط فغامر معرضا نفسه لأشد المخاطر كيما يترك البلد بطريقة غير مشروعة لقد صار بذلك مهاجراً فعلاً.

يعلق كونديرا على هذه الواقعة قائلاً: واجه المهندس سلطة لها طابع متاهة بلا حدود لن يبلغ أبداً نهاية دهاليزها اللانهائية ولن ينجح أبدا على من صاغ الحكم، لقد عوقب مهندسنا برقابة بوليسية مكثفة وهذا العقاب يطالب بالجريمة التي لم تقترف بعد، فالمهندس الذي اتهم بالهجرة ينتهي إلى أن يهاجر بالفعل. لقد عثر العقاب أخيراً على الخطيئة.

إن القصة المتمكنة المتميزة، هي تلك القصة التي تكون غنية بفكرتها، وأسلوبها، ولغتها، وفنيتها، هي القصة التي لاتبرح قارئها قبل أن تترك لديه شيئاً من أثرها، ونفحة من طيب ريحها.

الكتابة بحبر ذهب القص

عندما نقول /قصة/ فهذا يعني بأننا أمام /حكاية/ نتخذ منها عبرة لأن أي قصة في العالم تحمل في جوهرها رسالة، حتى تلك القصص التي ترويها الجدات لأحفادهن، فإنها تحمل مغزى وعبرة وغاية.

هذا أمر هام بالنسبة لتقويم أي قصة، بيد أنه لايكفي، إذ لابد من لغة بيانية معبرة، ولابد من حبكة، ولابد من فنية، ولابد من تقنيات سردية جمالية حتى تتجمّل، وتتزيّن بها تلك الفكرة وتتشكل لبنة لبنة في درجات معمارية القصة، ثم تتقدم إلى أفئدة المتلقي بحلتها الجمالية على طبق من ذهب القص.

إنَّ أي قصة جديدة عليها أن تشرق على العالم كعروس جديدة ليلة دخلتها، تمتلك آمالاً وأحلاماً وأمنيات، ومقومات حياتية جديدة حتى تستطيع أن تجد لها منزلاً، وتؤسس لعلاقات اجتماعية وإنسانية رحبة.

إنَّ القصة الجيدة هي تلك القصة التي تُكتب بحبر ذهب القَص.

لقد تداخلت الأجناس الأدبية فيما بينها، وهذا لايشكّل شتاتاً بالنسبة للقصاص الماهر على قدر ما يقدم غنى وعمقاً لأدوات القص التي يمتلكها، ولكن في الوقت عينه يشكّل هذا التداخل شتاتاً بالنسبة للقصاص الذي هو في درجة دنيا من مهارة القص، إذ تتداخل عليه المعطيات، فينتج قصة ركيكة سريعة تحت مسميات شتى مما يجعله يقف في درجات متأخرة بين زملائه القصاصين، ولايحظى نتاجه القصصي بإقبال من القرّاء.

قصتنا القصيرة تقدمت وتطورت، مما فتح أمامها آفاقاً رحبة كي تستفيد من الرواية، ومن المسرح، ومن الشعر، بل حتى من تقنيات السينما، وهذا ما جعلها تزداد قيمة وغنى وجمالاً وفنية، وبالتالي جعلها تزداد رسوخاً في الثبات وهي تؤدي وظيفتها بين أخواتها من الأجناس الأدبية الأخرى.

ما هو هام في هذا التلاقح بين الأجناس الأدبية بالنسبة للقصة القصيرة، هو أنك عندما تقرأ قصة جيدة، تشعر حقيقة بأنك قرأت قصة جيدة، وعندما تقرأ قصة رديئة، ينتابك إحساس ذوقي بأنك قرأت قصة رديئة.

ذلك بأن القصة الجيدة تنجح في إيجاد مكان خاص لها في نفسك بعد أن تكون قد أذاقتك عسيلتها منذ القراءة الأولى.

عندما تحظى بقراءة قصة جيدة، تشعر بأنك قرأت قصة جيدة، استمتعت بجمالياتها حتى وأنت تنظر إلى ثوبها وحذائها، وعقد اللؤلؤ الذي يزيّن صدرها، وبريق الأساور في معصميها، وحلق الجواهر في أذنيها، تستنشق عذوبة طيب ريحها،وأنت تخلع عنها ثوب الزفاف لأنها عروس ذوقك الأدبي.

تجوب أنظارك بين السطور سطراً سطراً، بين حدائق الكلمات حديقة حديقة، بين أشجار علامات الترقيم علامة علامة.

إنها تستطيع أن تدخلك إلى عالمها الكرنفالي الحافل ولو لمدة لاتتجاوز بضعة دقائق من الزمن.

والأهم من ذلك هو أنك بين حين وحين تحنّ إلى عسيلتها، تحن إلى تلك الأجواء الذوقية الذهبية، فتؤوب إلى رحابة ذاك العالم السحري وأنت تمسك بها ككنز ثمين وكلك توق للولوج إلى تلك الرحاب المباركة،

فتدرك حينها أن ما بين يديك هو شيء يمس الأدب الخالد.

إنَّ أي كاتب في العالم لايستطيع أن ينجح في مهمته قبل أن يتوحد في حالة إنسانية عامة مع الآخرين في أنحاء العالم كافة، فالكاتب يقدم نزعات إنسانية عامة، ويسعى إلى تبرئة الإنسان والصلح العام بينه وبين الطبيعة ببساطة شديدة، إنه يدعو لأن يكتشف الإنسان الطبيعة التي ولد فيها، ويتعرف فيها على ما لايعرف، وأن يسافر إلى أخيه الإنسان المحتاج في أبعد بقعة محملاً بالهدايا.

ولذلك فإننا نتألم لو ماتت قطة نتيجة اعتداء، سواء كانت قطة شقراء أو سمراء أو بيضاء، لأنَّ ذلك يظهر عنف الإنسان بحق هذه القطة التي جاءت لتضفي شكلاً من أشكال التنوع البيولوجي في عالمنا.

استطاع دينو بوتزاتي• أن يترك مجموعة من الأعمال القصصية التي كتبها بشكل شبه مكثف تعبر عن مدى مقدرة القاص في التقاط أفكار بما يتمتع به من قوة ملاحظة.

وقد تركت طفولته أثراً على مجمل نتاجه القصصي. يقول بوتزاتي: /إن ذكريات الطفولة بالنسبة لأي كاتب تمثل بحد ذاتها قاعدة رئيسية/.

في كتابها النقدي /اللعب في الظلام/ وضعت توني موريسون بعض الشروحات حول كيفية الكتابة لديها، وهو كتاب يضيء جوانب هامة من أسلوبها السردي. تروي فيه تفاصيل عملية الكتابة لديها، ومما تقول: لقد كان ذلك، أردت ترجمة التاريخي إلى الشخصي، قضيت وقتاً طويلاً محاولة فهم ماجعل العبودية بتلك البشاعة، وبقراءة بعض الوثائق لاحظت الإشارة إلى شيء لم يوصف أبدا بشكل كاف: اللجام، ذلك الشيء الذي كان يوضع في أفواه العبيد لعقابهم وإخراسهم من دون أن يمنعهم ذلك من العمل.

قضيت وقتاً طويلاً محاولة اكتشاف شكل ذلك الشيء.

كنت أقرأ عبارات متكررة مثل: وضعت اللجام في فم جيني، أو كما يقول إيكويانو: ذهبت إلى المطبخ ورأيت امرأة تقف قرب الفرن وكان في فمها لجام. فقلت: ماذاك؟ فأخبرني أحدهم.

فقلت: لم أر شيئاً أرهب من هذا في حياتي كلها، لكني لم أستطع تخيل ذلك الشيء.

هل كان كلجام الحصان أم ماذا؟

وتضيف موريسون موضحة بأنها تعتمد في بعض المواقع على وثائق ووقائع لدعم مواضيعها: أخيراً وجدت بعض الاسكتشات في كتاب /في هذا البلد/ وقد كان سجلاً

لتعذيب رجل لزوجته في أمريكا الجنوبية، لكن بينما كنت أبحث حدث لي شيء آخر وهو أنني اكتشفت أن هذا اللجام، أداة التعذيب الشخصية هذه، كانت الوريثة المباشرة لمحاكم التفتيش.. هناك مقطع يقول فيه بول د.لسيثي: لم أخبر أحداً عنه، إنه يحاول أن يخبرها عن إحساسه بلبس اللجام، لكنه ينتهي إلى الحديث عن ديك يحلف أنه ابتسم له عندما لبسه، لقد شعر بانحطاطه وأنه لايساوي ديكاً يقف في ضوء الشمس.

أشير أيضاً بشكل متكرر إلى الرغبة بالبصاق، بمص الحديد وهكذا، لكن بدا لي أن وصف الحالة سيصرف نظر القارئ عمّا أردته. أن يجرب كيفية الاحساس بذلك.. ذلك النوع من المعلومات بين سطور التاريخ، ويبدو وكأن أشياء كهذه تسقط من الصفحات.. إنه هناك عند ذلك التقاطع الحاصل، عندما تصبح المؤسسة شيئاً شخصياً، عندما يصبح التاريخ أناساً لهم أسماؤهم.

تسري الفكرة القصصية في جسد الكلمات حتى تأخذ امتدادها وتشكلها القصصي

هنا تسعى اللغة القصصية أن تحافظ على خصوصيتها القصصية حتى لاتميل شطر المسرود الروائي، فتفقد ميزتها وحميميتها القصصية، بل والأكثر من ذلك تخرج عن كونها قصة، وتلبث مشتتة بين أجناس مختلفة.

إن القصة المكتملة هي تلك القصة التي تستعين بكثير من الحذر بمنجزات ألوان الآداب والفنون، على ألاّ يقتلعها ذلك من بذرتها القصصية.

غيوم الموهبة القصصية

تتشكل خيوط القصة القصيرة لتؤرخ إنساناً في موقف، وتؤرخ موقفاً في إنسان، تؤرخ المجد وكذلك تؤرخ العار، كل هذه الصيحات القصصية المدوية في عالم الإبداع الأدبي هي دموع تنهمر من ضمير الإنسان ومن روحه، تحاول أن تُلفت النظر إلى رؤية هذا الإنسان إلى اللحظات القصيرة التي تحمل أحداثاً لايلتفت إليها أحد، أجل فإن وظيفة القصة القصيرة تكمن في مقدرتها على أن تجعلك تلتفت لوقائع مرت وفاتك أن تتأملها، وهي بذلك تمنحك هذه الفرصة الذهبية مجدداً. القصة هي لقطة، وهي لفتة صغيرة في عالم كبير، إنها يوم واحد، أو ساعة واحدة، أو حتى لحظة واحدة بعكس الرواية التي تكون هي السنة كلها بكل أيامها وتقلب فصولها.

كل يوم تنفتح أبواب جديدة أمام قصاصي العالم ليقصوا قصصاً جديدة

لم يكتبها أحد من قبلهم، يكتبوا قصصاً تستوعب عقل العالم وجنونه، تستوعب مجده وإخفاقه، تستوعب ثقله وخفته. تتشكل القصة القصير نقطة نقطة.. حرفا حرفا.. فضاء فضاء.

الواقع أنَّ الموهبة الإنسانية لوحدها لاتكفي للإبداع، ولكن ثمة تفاصيل لايراها ولايلمسها ولايحياها إلا المبدع نفسه، ثمة أسرار لاتتكشف إلا أمام روح المبدع ذاته، إنه يمتلئ بالعالم والحياة والميتافيزيقيا مع كتابة كل قصة جديدة، ثمة قوة مجهولة تلقنه حروف هويته المجهولة ككائن مستقل في العالم، وهكذا فإنَّ الكاتب يعيش حياة استثنائية مغايرة لحياة الناس أجمعين. إنَّ القصة هي هواه الوحيد وعندما يبعد عنها يشعر بأنه خسر العالم برمته لذلك يهرع عائداً إليها بحرقة وألم وهو ينفجر بكاء وندماً على تركه لها فيقدم لها الاعتذار ويطبع على جبينها قبلات ساخنة.

تنير القصة الدروب أمام الروح البشرية، تفسح هامشاً أوسع للرؤية، لرؤية ما لايُرى. الكلمات القصصية هي القناديل العالية المعلقة في دروب البشر، إنَّها القناديل الكبرى وهي الرشيد إلى نهارات لاتنتهي من الضوء، والكاتب الذي يشتغل في الكلمات المضيئة، هو شخص يضيء ويمتلئ إشراقاً وحياة، ولذلك يبدو في الظاهر أكثر ظلامية، أكثر بساطة.

والحقيقة إنَّها ظلامية الشروق، والحقيقة إنها بساطة الامتلاء. أقول لكم أشياء أكثر حساسية، فإنَّ هذه الكلمات المضيئة ذاتها التي تتكون منها القصة القصيرة في كثير من الأماكن تحرق روح الكاتب وتلهب حواسه، وعندها لايجد أي مادة يمكن لها أن تدنو من هذا الاشتعال الروحي، ولذلك يقضي الكاتب احتراقا بنور كلماته، أو تتساقط عليه كتبه التي قام بتأليفها فتقضي عليه كما يقضي مخترع الكهرباء بماس كهربائي.

العلاقة بين القاص والقصة هي علاقة شديدة الخصوصية والحساسية والعذوبة، حيث تتحول القصة إلى عالم كامل يعيشه القاص، ويجول في طرقاته، إنَّه عالم سحري يستمتع القاص ويأنس به، ولذلك يمضي ساعات طويلة في كتابتها حتى يرهقه التعب من دون أن يشعر بالوقت.

والقاص بعد ذلك يمكن له أن يتخلى عن الكثير من حقوقه في الحياة في سبيل أن يتواصل مع عمله.

يكتب فرانز كافكا إلى حبيبته معبراً عن مدى تعلقه بالكتابة: /كثيراً ما فكرت في حياتنا المستقبلية فأشعر برغبة داخلية في أن خير نمط للحياة بالنسبة لي هو أن أعيش في كهف طويل منعزل عن العالم مضاء بمصباح

أكتب وأكتب، ولا شيء غير الكتابة وأن يحمل إليّ طعامي ويوضع في مدخل ممر الكهف بعيداً عن مجلسي الذي أكتب، فأذهب لآكل الطعام على قدر ماتسمح معدتي وحاجتي للطعام وسيكون سيري من مجلسي حتى المائدة هو نزهتي الوحيدة وعندما ألتهم ما يقدم لي، سأعود مسرعا إلى الكتابة هوايتي الوحيدة. إذ لا هوى لي في اللعب، فممارسة ما يهوى الإنسان يا حبيبتي لا تتعبه، وسيكون إنتاجي الأدبي رائعاً، لأنَّ الروعة هي نتيجة الإرهاق المحبب ولا إرهاق مع من نحب. قد تعدين ذلك جنوناً فهل ترضين أن تعيشي في كهف مع هذا المجنون؟!

وعلى هذا النمط من الحياة.. ما رأيك؟.. أليس الهرب من الكهف وساكنه أجدى لك.. آه يا حبيبتي أنا هكذا ولا أستطيع أن أكون غير هذا ولك الخيار من أول الشوط لا من آخره، فأنت زوجتي والأدب عشيقي، والمدى بعيد بين الزوجة والعشيقة لك جسمي النحيل، وللأدب قلبي وفكري/.

حقيقة الأمر أن كافكا كان يكتب ليخفف عن نفسه، ويجد متنفساً في أجواء الكتابة، ثمة عبارة نعثر عليها في هذه الكتابات، وهي عبارة اعترافية يقول فيها: /أود اليوم أن أنزع عن نفسي بالكتابة كل حالة القلق فأنقلها من أعماقي إلى أعماق الورق/. ولنتأمل أي شيء كان بوسع كافكا أن يصنعه لو لم يكتب؟ وأمام جواب واحد يرد على لسانه نثق بأنه كان سينتحر قبل بلوغه سن العشرين وهو يحمل كل هذه الحساسية تجاه مجريات ووقائع الحياة التي يعيشها.

لذلك يحلو له أن يدوّن الجملة التالية بخط واضح: / أنا أكتب على الرغم من كل شيء وبأي ثمن، فالكتابة كفاحي من أجل البقاء/.

حتى هذا الملجأ تستكثره عليه الأسرة وتزعجه فيه فيكتب: /إن أوضاعي لا تحتمل لأنها تتناقض مع رغباتي وميولي الوحيدة، وأعني بذلك الأدب، الأدب هو كياني، ولاأريد، ولاأستطيع أن أكون غير ذلك/. إنه يقوم بتصوير جشع الإنسان تجاه أخيه الإنسان، وفي النهاية مثلما يكون المظلوم ضحية للظالم، فإنَّ الظالم هو ضحية نزعة الظلم لديه، وبالتالي فإنهما يعيشان معا في /مستعمرة العقوبات/ سواء المادية، أو المعنوية.

والأمر مشابه بالنسبة لفيودور دستويفسكي الذي يستعد للتخلي عن أي شيء في سبيل أن يبقى القلم بيديه، ويكتب في أي وقت يشاء. إنَّه لايشعر بالمجد إلا وهو يكتب.

إنَّ دستويفسكي يكون أقوى في وضعه، يكتب بقوة هائلة يقول: نعم إنَّهم منعوني من الكتابة، إنَّني أفضّل أن أُسجن خمسة

عشر عاماً شرط أن أحتفظ بقلمي في يدي.. إنّني لم أفقد الأمل.

ويختتم خوفه: أنا مسكون بالخوف من أن يُصاب حبي الأوّل للعمل بالفتور قبل انطلاقه على الورق.

لقد استطاع فيودور دستويفسكي أن يهدي العالم إبداعات أكثر من أغنى رجل من أبناء عصره.

بعد قراءة ما كتبه دستويفسكي ندرك إنَّ كل من يحمل القلم، يحمل في قلبه ألماً يسعى بالقلم أن يعبر عن هذا الألم، ويبقى يكتب إلى أن يموت وفي قلبه الكلمة التي لم يتمكن من قولها والتي تخلصه من ألمه، وأمَّا إذا اهتدى إلى الكلمة المضبوطة المعبرة فإنَّه سيقولها ويبقى قلمه منطفئا إلى أن ينطفئ عقب انطفاء قلمه وفي لحظات الاحتضار الأخيرة سيكتشف بأن تلك الكلمة خانته ولم تكن مضبوطة بالمرة.

كلمة الختام

يتمتع جنس القصة القصيرة في العالم بتاريخ ذهبي حافل يغني المكتبة الأدبية، هذا الجنس الذي قدم أسماء لامعة في كتابة فن القصة.

لقد رسخت القصة القصيرة أسماء مثل: أدغار آلن بو، وأنطون تشيخوف، وغي دي موباسان في الذاكرة الأدبية القصصية في العالم.

كما ترك غالبية الروائيين في العالم آثاراً قصصية جيدة مثل: غابرييل غارسيا ماركيز، وهمنغواي، وفرانز كافكا، وستيفان زفايج، ويوكيو ميشيما، وفيودور دستويفسكي، وإيزابيل الليندي، وفرجينا وولف، وسيمون دي بوفوار، وجورج صاند، وتوني موريسون، وفرنسواز ساغان، وناتالي ساروت، وميلان كونديرا، وكلود سيمون، وهرمان هسه، وكنزا بورو أويه، ووليم فوكنر، وماريو بارغاس يوسا.

إنَّها قوة الكتابة التي تؤرخ الإنسان، تؤرخ مجده وتؤرخ عاره وهي الدليل على هذا المجد وعلى هذا العار وهي محاولة من الإنسان لإطلاق صيحة مدوية خالدة لا تنطفئ في عالم مجهول أتى إليه ويريد أن يتفهمه ويعيه ويترك فيه شيئاً يدل عليه وعلى ما توصل إليه من أفكار عن هذا العالم. وهي كذلك صيحة من ضمير الإنسان في وجه الشر العام، هذا الإنسان الذي يرتعب من المجهول ودوماً يخشى مما هو أكثر منه قوة على الرغم من جهله إمكانات مجهولة وخافية لديه، وثقته بهذه الإمكانات الخارقة في نفسه. حتى الآن لم يجد وسيلة أجدى من الكتابة تلخص وتقدم هلوساته وتصوراته وأفكاره عن العالم وكذلك تسجل نقاط ضعفه

ونقاط قوته ومشاعره وموسيقاه الداخلية، وفي النهاية فإن الكلمات الخالدة هي التي تنجح في أن تجمع مابين الهذيان والعقل، لأن الإنسان في كثير من مواقفه يهذي كما أنه في كثير من مواقفه يقدم العقل، الإنسان هو القصة، والقصة هي الإنسان بكل عقده وعقله وجنونه وضعفه وقوته.

الهوامش

• ينتمي القاص والروائي والمسرحي دينو بوتزاتي إلى سلسلة الأدباء الكبار الذين يتمتعون بقيمة أدبية وفنية عالية سواء في بلده إيطاليا أو في العالم فيما بعد.

فقد ولد هذا الكاتب الغزير الإنتاج والمكافح بشكل عجيب من أجل أن يحافظ على كرامته من جهة، ومن أجل أن يقدم عملاً ملفتاً من جهة أخرى سنة ١٩٠٦م في منطقة /بللونو/ في إيطاليا.

بعد حصوله على إجازة الحقوق بناء على رغبة والده الذي كان أستاذ القانون الدولي في جامعة بافيا، اكتشف دينو ميله الشديد إلى عالم الكتابة في الصحافة فلم يلبث أن عمل في صحيفة (الكورييري ديللا سيرا).

بعد ذلك بدأت أعماله تتوالى في الصدور وتشير إلى اسم له شأن هام وقيمة أدبية في المشهد الأدبي الإيطالي، ومن أبرز هذه الأعمال: سر الغابة القديمة- غزوة الدببة الشهيرة لصقلية- الصورة الكبيرة- الغليون- سقوط الباليفرنا- تجربة سحر- الليالي الصعبة.

المراجع

١- المسخ- رواية- فرانز كافكا- ترجمة منير بعلبكي- بيروت.
٢- في مستوطنة العقوبات- فرانز كافكا- ترجمة زكي الأسطة.
٣- فرانز كافكا- الآثار الكاملة- المجلد السادس- الرسائل- الجزء الأول: رسالة إلى الوالد- ترجمها عن الألمانية: إبراهيم وطفي- طرطوس- سورية- الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
٤- رومان سلدن- النظرية الأدبية المعاصرة- ترجمة: جابر عصفور- دار الفكر للدراسات والنشر- القاهرة ١٩٩١م.
٥- نظرية التلقي- روبرت هوب- ترجمة عز الدين إسماعيل- ط١- النادي الأدبي في جدة ١٩٩٤م.
٦- ستيفان زفايج- بناة العالم - ترجمة: محمد جديد- منشورات دار المدى- دمشق ٢٠٠٣م.
٧- ماريو بارغاس يوسا- رسائل إلى روائي شاب- ترجمة صالح علماني- دار المدى للطباعة والنشر- دمشق ٢٠٠٥م.
٨- هرمان هسه- سيرة ذاتية- ترجمة محاسن عبد القادر- منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت ١٩٩٣م.

العنصريّةُ في الأدبِ الصهيونيّ

محمّد قرانيا *



الأدبُ مرآة الشعوب، ومصدرُ إلهامِها وعنوانُ حضارتها، فتقدّمُ الأمم إنَّما يُقاس- في جانبٍ منه- بآدابها وفنونها كمّاً ونوعاً، ومن نافلة القول؛ إنَّ الأدب بأجناسه المتنوّعة كان على امتداد العصور، الناطقَ الرسميّ لمفهوم الثقافة عامّةً، والحاملَ الرئيس لهموم الشعوب وتطلّعاتها خاصّةً، وقد استطاع أن يحمل بجدارةٍ مسؤوليّة التأريخ والتحريض وإغناء الذاكرة، كما استطاع- عبْر المبدعين- أن يواكب مراحل الزمن، ويرصد الأحداث،

* باحث وناقد سوري له نحو خمسين كتاباً مطبوعاً.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

ويستخدم الذاكرة بامتياز، وأن يرسّخ علاقة الناس بالمكان/ البيت والأرض والوطن.

تُعَدّ قراءة الأدب لأيّ مجتمع، من الوسائل الفعّالة في فهم هذا المجتمع بأنظمته ومشكلاته وأحلامه، وقد حاول الكتّاب الصهاينة، منذ البداية، أن يجعلوا من الأدب العبريّ مرآةً تعكس بناء الدولة، فضلاً عن تصوير ما في المجتمع الإسرائيليّ من بُنيات فكريّة وثقافيّة واجتماعيّة، وغير ذلك، ممّا له أهميّةٌ قصوى في عمليّة تثبيت أركان كيانه.

والأدب الإنسانيّ يتكئ على المخزون التاريخيّ الثّريّ، وعلى الاقتناع الذي لا يحتاج إلى تسويغ بحقّ الإنسان في امتلاكه لأرضه ووجوده، وهذا ما لم يتوافر للأدب الصهيونيّ، الذي يحاول المحتل إيجاده في أدبيّاته، حيث يسعى جاهداً لربط وجوده كمغتصب بأرض لا تخصّه، وتسويغ ذلك بموروثات مبتدَعة، تقود غالباً إلى الموروث الدينيّ التلفيقيّ، عبْر تسويق حقّ دينيّ مزعوم، يخدم الفكر العنصريّ، ويتشبّث بمقولتي (أرض الميعاد) و(الهيكل).. وسوى ذلك من الأساطير. كما يعمل على تضخيم حجم الظلم الذي تعرّض له اليهود في أصقاع بعيدة عن أرض فلسطين، من خلال مقولتي (اليهوديّ التائه)، و(محرقة الهلوكست).. والظهور بمظهر المظلوم المضطهَد، أيْ إنه يحاول أن يستدرّ الشفقة عليه والعطفَ والرحمة، للخلاص من حجم الظلم والتشرذم والتيه الذي عاناه. ومن ثم، ليقع في حبائل العرقيّة، وليست مقولات (شعب الله المختار) وعقدة (قيادة الكون)، والترويج إلى (أن الله يسكن في شخص كلّ يهوديّ) سوى تسويق للتوراة المكتوبة بشريّاً، والتلمود، وهو بذلك، يسخّر أيّ وسيلة في سبيل غايته، ولعل كتاب «**موسى والتوحيد**» الذي كتبه «**فرويد**» يجسّد جلياً دلالة تلك الصورة المشوّهة..

إنّ الأدب لم يكن يوماً إلاّ نتاج إحساسات صادقة وكامنة تلحّ على الأديب، عبْر تفاعله مع مجتمعه، أو المجتمع الذي يعيش فيه، فيترجمها كلمات يختلف مذاقها باختلاف المواقف. لكنّ الأمر مع الأدب الصهيونيّ يبدو مختلفاً تماماً، وذلك لأنه ليس أدباً إنسانيّاً، بمعنى؛ عدم انتمائه الطبيعيّ والحرّ لتاريخ الأدب في العالم، لأنه ليس كالأدب الذي تنتجه مجتمعاتٌ قائمةٌ لها مدنيّتها ومسارها الحضاريّ، ولأنه أدبٌ مصنوعٌ، أيْ إنّه يصنع نفسه، ويضع من حوله شروطاً مسبقة الصنع، تعزله وتحدّده ضمن إطار ضيّق، متعصّب ومتصلّب في عدوانيّته وعنصريّته، لذلك لا يمكن النظر إليه إلاّ بوصفه (ظاهرةً) أو (دعوةً) لها سماتها العرقيّة المعاديّة للتاريخ، وصفاتُها

الاجتماعيّة المنبثقة عن تزييف تجمّع ملفّق يجري حقنُه باستمرار بمجموعات بشريّة غير متجانســة، وذات انتماءات متنافرة، مختلفة باختــلاف الأوطان التي قَدِمــت منها تلك المجموعات، وهو ليس مُوَحِّداً لها، أو جامعاً لأصولها، أو مُذيباً لاختلافاتها وتناقضاتها، لذلك، يصــحّ القول: إنه لا يوجد في الكيان الصهيونيّ انتماءٌ حقيقيّ، طبقيّ أو قوميّ أو حضــاريّ أو ثقافيّ، بل ثمة محاولاتٌ دائمةٌ، لتلفيق تاريخ مصــنوع من وحــدة موهومة، واســتمراريّة مزيّفة، وهــذا خلافٌ لجوهر الأدب الحضــاريّ الإنســانيّ، الــذي تكمن فعاليتــه في القدرة على الاســتمرار ووحدة المســار التاريخيّ في إطار وحدة المجموعة البشريّة التي يعبّر عنها.

إنَّ الأدب الصهيونيّ الحديث أدبُ مجتمعٍ غــير متجانس، وهو أدب أقليّات لا تجمعهم وحدةٌ وجدانيّــةٌ متناغمةٌ، وبمعنى أصــحّ: إنه أدبُ تجمّعٍ متنافر لمســتويات حضــاريّة واجتماعيّــة متعــدّدة تقف وراءه، وتشــكّل أرضــيّتَه أفــكارٌ (عقائديّــة/ أيديولوجيّة) صــهيونيّةٌ متعصّــبة، إذ يفتقــر (الأدب العبريّ)(1) الذي وُجد قبل قيام الكيان وبعده، إلى قاعدة اجتماعيّة، يركن إليها، ويعبّر عن طموحاتها ومشكلاتها، وهذا ما حدا بالأدباء الصهاينة- في معظم الأحيان- إلى الاقتباس، والترجمــة مــن الآداب الأوروبيّــة، أو إلى معالجة قضــايا تاريخيّة ودينيّة، فضلاً عن استثمار وجود الإنسان العربيّ، الذي جسّد صــورة العدوّ، فصبّوا عليه جميع منغّصات المجتمع الناشــئ، ثم انشــغل الأدب العبريّ بالتوجّهات (العقائديّة) التي تخدم الحركة الصــهيونيّة، الأمر الذي يؤثّر، ولاشكّ، في النواحي الفنيّة للعمليّة الإبداعيّة، ويُفقِدها كثيراً من تأثيراتها الوجدانيّة.

لم ينشــط (الأدب العبريّ) في فلســطين إلاّ في عشرينيّات القرن الماضــي على أيدي كُتّــاب من اليهــود المهاجرين من روســيا، وأيرلنــدا، والوطن العربيّ، والذي ترافق مع مدّ الفكر التقدّمــيّ، الداعي إلى تغليب المشاعر الإنســانيّة على التطلّعات العرقيّة والعنصريّــة، الذي تأثّر بــه الأدب الحديث عالميّــاً، لكــن اللافــت للنظــر أن الكُتّاب الصــهاينة قد تناسَوا تلك الأفكار الإنسانية التي سبق لهم أن اعتنقوها في بلادهم التي قدِموا منهــا، وتبنّوا الأكذوبة الصــهيونيّة القائلــة «إنّ فلسطين أرضٌ بــلا شعبٍ لشعبٍ بلا أرض».

لقد انبرى الأدب العبريّ لخدمة أهدافه، بالكــذب والتمويه وقلب الحقائــق، وقاتل بالكلمات قتــالاً لا يوازيــه إلاّ قتالُ جنوده بالســلاح العســكريّ، بغية تأكيــد (البُعد القوميّ) لليهوديّة، الذي نفى البعدَ الإنسانيّ لصورة العلاقة بالآخر، نفياً مطلقاً..

المصطلحات: تختار الصهيونيّةُ المصطلحاتِ اللغويةَ التي تُسخّرها لترويج الفكر الصهيونيّ، وخدمة مصالحها السياسية، وتوظيفها لتأويل النصوص الدينيّة، التي تخدم أهدافها السياسية والعسكريّة، فاليهوديّ يجيد التلاعب بالألفاظ اللغويّة، ويجيد استخدام المصطلح لخدمة أغراضه ومخطّطاته، وهنا تكمن الخطورة، نظراً لما لسلاح اللغة من أثر فعّال لا يقلّ خطورةً عن الأسلحة الماديّة الأخرى.

فحينما تقول قضيّة «الشرق الأوسط» ولا تقول (قضيّة المشرق العربيّ) فإنّهم يتناولونها من منظور غربيّ بحت، لأن مصطلح «الشرق الأوسط» صناعة غربيّة بامتياز، بوصفه شرق الإدّعاءات الدينيّة التي تقول إنّه لا يمكن فهم تاريخ المنطقة إلا من خلال التاريخ «التوارتي»، وهذا يعني، أنهم ليسوا أمام تاريخ المنطقة بما فيها فلسطين وجغرافيّتها، وإنّما أمام تاريخ «إسرائيل التوارتية» وجغرافيّتها، كما أنّ كثيراً من المصطلحات المستخدمة في علم التاريخ التوارتيّ توحي بالتحيّز، مثل مصطلحات **«التطهير العرقي» و«السبي» و«المنفى» و«الشتات»** لأنّها مصطلحاتٌ توحي بملكيّة المكان، أكثر مما توحي بالوجود العارض لهذه الجماعات في المنطقة، ومما يثير الدهشة أن المؤلّفات اليهوديّة التاريخيّة قسّمت فلسطين مناطق جغرافيّةً إداريّةً، بالأسلوب الذي تحدّث عنه (العهد القديم)، على الرغم من أن معظم أسماء الأماكن التي تتحدّث عنها التوراة هي أسماءٌ عربيّة كنعانيّةٌ.

إنّ مصطلح **«القدس الشرقية»** - على سبيل المثال- يوحي حتماً بوجود قُدْسَين لا قدسٍ واحدة، ومصطلح **«جيش الدفاع الإسرائيلي»** لايكتفي بالقول **«الجيش الإسرائيلي»**، وإنّما يؤكّد على كلمة (الدفاع) لما لها من مدلولاتٍ خطيرةٍ على أبعاد الصراع، وكذلك مصطلح **«المذابح النازية»** يفوق عبارة **«أحداث النازيّة»** لأنها عبارةٌ محايدةٌ لا تحمل الدلالات التي يحملها مصطلح المذابح أو الكارثة النازيّة، أمّا مصطلح **«يهود الشتات»** أو **«يهود المنفى»** فإنّه يحمل دلالات توحي بتشتّت اليهود من مكانٍ كان لهم، ويحقّ لهم العودة إليه. وثمّة مصطلحاتٌ أخرى تخلق لدى الإنسان العاديّ حالةً من البلبلة وسوء الفهم.

إنّ المشهد الثقافيّ في الكيان الصهيونيّ ذو ألوانٍ متداخلة، يصعب تمييزُ بعضه من بعض، إلى درجة تختلط فيها المعايير والمفهومات، وهذا يعبّر عن حقيقة التركيبة الغرائبيّة التي يتشكّل منها المجتمع الصهيونيّ على أرض فلسطين المغتصبة، والذي لا تنطبق عليه مقوّمات المجتمع بمصطلح علم الاجتماع، لأنه ليس مجتمعاً طبيعيّاً، وإنّما

هو تجميعٌ اصطناعيٌ اصطفائيّ، تكوّن من أكثر من ثمانين قوميّة تتحدّث لغات متنوّعة، تتعدّد بتعدّد تلك القوميّات، والقارئ للخريطة السكّانية في الكيان الصهيوني، لابدّ أن تذهله التشكيلة «الغريبة العجيبة» لهذا المجتمع المتعدّد الجنسيّات والثقافات والطوائف، ولابدّ أن يجتهد في التفكير حول ما يوحّده وما يفرّقه، فما الذي يجمع بين يهوديّ من أصل روسيّ، وآخر بولونيّ ويمنيّ وعراقيّ وسوريّ ومغربيّ وجورجيّ وخزري وكرديّ؟.. وكيف تُبنى العلاقات بين هذه المجموعات؟!. وهذا إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ في الدرجة الأولى على أنّ الوحدة المادّيّة مستعصية من الناحية الديمغرافيّة والفكريّة.

والأدب الصهيونيّ أدبٌ حديث، وحصيلة ثقافة هجينة، عمد الكُتّاب إلى لملمة شتاتها من الشرق والغرب، كما حدث ذلك في القديم، إذ من الثابت تاريخياً - إلى حدّ التسليم المطلق- أنّ ما ورد في التوراة من (قيم) وأفكار، يعود معظمه إلى مرجعيّات حضاريّة سابقة (سومرية، أكادية، بابليّة، آشوريّة، مصريّة، وكنعانيّة) ولمّا كانت التوراة «مقدّسة» يهوديّاً، فقد أصبحت الأخلاقيّات والسلوك اليهوديّ منهجاً عند أتباعه، ولدى أصحاب الرؤى الروحيّة «المحتكّة» بها. فلا غرو إذن، أن يغدو السطو على ثقافات الآخرين فلسفة ذاتيّة تنضوي تحت لافتة (القدرة على التكيّف).

لقد حُشيَ الأدب الجديد الذي شبّ على الأرض المحتلّة، بالمقولات الصهيونيّة الزائفة، وأساطيرها الدينيّة المغلقة منذ البداية، وتبنّى الفلسفة «الميكافيليّة» بكلّ أبعادها، فاصطنع أساليب التعبير الفنيّ عنها، وتخلّى عن سمات الأدب الإنسانيّة، لذلك ظهر أدب (**الرواية التاريخيّة**) الذي يسعى إلى إحياء الحياة العبريّة القديمة، وظهر أدب (التراث) الذي يسعى إلى تمجيد تراث الحياة اليهوديّة في (**الجيتو**) بوصفه الحصن الذي يحمي الشخصيّة اليهوديّة من التحلّل والذوبان.

كما ظهر ما يسمّى أدب (**النكبة**) الذي يؤكّد المعنى الغريزيّ لعقدة الاضطهاد لدى اليهود، وظهر أدب (**الارتباط بالأرض**) الذي يرمي إلى تأكيد خرافة الملكيّة التاريخيّة لفلسطين، ولكن الأوضح بين هذه التشكيلة الأدبيّة، ظهورُ أدب (**الحرب**) الذي يسوّغ استخدام العنف، لخَلْق الأنموذج اليهوديّ المقاتل، وكانت سمات ذلك كلّه التزويرَ والمبالغة، وطمس الحقائق.. والتأثير في الحياة السياسيّة والعسكريّة، التي غدت جزءاً من مسيرة هذا الأدب.

إنّ الأدب الصهيونيّ- بإيجاز شديد- بيانٌ سياسيّ كُتب بأسلوب اتّخذ من الصيغ

الأدبيّة المعروفة؛ من رواية وقصّة وشعر ومسرح.. إطاراً له، وإنّ «تجربة الأدب الصهيونيّ هي تجربة (فريدة) من نوعها، في التاريخ، حيث يَستخدم الفنّ بجميع أشكاله ومستوياته، للقيام بأبشع عمليّة تضليل وتزوير وتحقير لإنسانيّة الإنسان، سواءٌ أجاء ذلك عبر تعبئة الفرد اليهوديّ بكلّ مشاعر الحقد والاحتقار للعرب، أم عبْر تزوير التاريخ ونشر الأضاليل والخرافات»[٢]

إنّ القراءة الموثّقة للأدب الصهيونيّ، تقول: «إذا كانت الصهيونيّة السياسيّة هي نتاجٌ للتعصّب والعرقيّة، فقد كانت الصهيونيّة الأدبيّة هي أولى إرهاصات ذلك التعصّب وتلك العرقيّة».[٣]

ولعلّ من المهمّ أن الإشارة هنا إلى أنّ الحدّين الزمنيّين (١٩٤٨- ١٩٦٧م) يمثّلان- بصورة من الصور- أكثر المراحل حساسية وخطورةً في تاريخ الأدب العنصريّ، وقد كان لهما تأثيرهما الواضح في تحوّلات الخطابين الثقافيّ والأدبيّ. فقد خرج الإسرائيليّ منتشياً بعد إعلان دولته لأوّل مرّة في التاريخ، كما انتشى بانتصاره الحديث في حزيران عام ١٩٦٧م وعكَس ذلك على ثقافته وأدبه العنصريين في تحوّلات مثيرة، أنتجت داخلَ الكيان الإسرائيليّ، وخارجَه.. فوُجِدت صيغٌ تعبيريّةٌ، ورؤى فكريّةٌ استجابت لحركة الواقع، وعملت على توظيف الشروخ التي أحدثتها (النكبة والنكسة) في البنى المكوّنة للواقع العربيّ؛ السياسيّة، والاجتماعيّة، والثقافيّة..

لقد قام اليهوديّ الإسرائيليّ في القرن العشرين بمهمّة تاريخيّة، أعاد فيها كيان الدولة اليهوديّة بعد ألفي عام، وسجّل صفحاتٍ جديدةً في هذه الحقبة من التاريخ، فكان عمله أقرب إلى «المعجزة» وعلى هذه العقليّة ينشأ الإسرائيليّون، ولهذا السبب، فإنّ تشريد شعب بأسره وتحويله إلى لاجئين، والسيطرة التامّة على وطنه ومساكنه وأراضيه، يصبح مقبولاً وعادياً وفقاً لهذا الوعي، ويستطيع معظم الإسرائيليّين التعايش معه، لأنّه في نظرهم مسوَّغٌ دينيّاً بوعدٍ إلهي مسبق، ومؤيّدٌ سياسيّاً بدعم عالميّ، ومشروعٌ أخلاقيّاً بمنطق البقاء للأقوى، ولا أحقيّة للعربيّ في هذا المكان أو في هذه الحياة، مادام مستكيناً إلى ضعفه.

زخرت أدبيّات الحركة الصهيونيّة منذ بدايات القرن العشرين، بالنصوص الأدبيّة التي وَصفت الأرض الفلسطينيّة، وصفاً يهوديّاً، ففي مطلع القرن، وبداية الهجرة اليهوديّة، بدأت عمليّة نشر نصوص تُصوِّر فلسطين، بلغات هؤلاء المهاجرين، وباللغة العبريّة عند من تعلّمها، وتصفها بأنها صحراء قاحلةٌ في الجنوب وفي الشمال، تكثر فيها المستنقعات، وأن سكانها من البدو

الرُّحَّل البدائيّين والقذرين الذين يكرهون اليهود، وقد نُشرت القصص والقصائد التي تمجّد الإسرائيليّ الذي جاء إلى فلسطين ليحييَ القفار، وأحضر معه الحضارة الغربيّة المتطوّرة والثقافة العصريّة، وبدأت هذه الأدبيّات تصنع الأساطير الثقافيّة، مثل شخصيّة «أهرون ديفيد غوردون» الفلاح اليهوديّ العصريّ والمثقّف، الذي يعرف كيف يتعامل مع الأرض، خلافاً للبدويّ العربيّ المتنقّل، والذي يهملها ولا يحترمها كمصدر للعيش، وقد كتب المندوب السامي البريطانيّ «هربرت صموئيل» عام ١٩٢٥م تقريراً إلى حكومته يصف هذه العمليّة التي كانت تجري على أرض فلسطين بقوله: «إن **المستوطنين (اليهود) في كلّ أنحاء البلاد يعملون في الأرض بتلهّف وإيمان، ويحوّلون المستنقعات والقفار إلى حدائق غنّاء. بلادٌ متخلّفة تتحوّل إلى دولة متطوّرة**».(٤)

حاول الأدب العبريّ، إيجاد صورة مشوّهة للعربيّ، والعربيّ الفلسطينيّ الذي يطالب بحقّه في العيش على أرضه، وعمل على تسويغ المجازر الإسرائيليّة بحقّ العرب، والترويج لفكرة الوطن القوميّ، الذي يحمل دلالات تقديس الأسطورة الإسرائيليّة، لذلك كانت صورة العربيّ- من وجهة نظر الثقافة العبريّة- مشوّهة.

ومع اشتداد الصراع على الأرض، وحدوث المواجهات الدمويّة بين العرب واليهود، تمحورت الكتابة حول شخصيّة العربيّ الذي وُصف بأنّه: متخلّفٌ وخائنٌ، ومجرمٌ يطعن من الخلف، ومنافقٌ ولصٌّ.. هذه الصفات وغيرها كثيرةٌ في المعجم الصهيونيّ الذي يجرّد العربيّ من إنسانيّته، فمنذ البداية، قال «هرتزل» زعيم الحركة الصهيونيّة في يوميّاته: «**يجب علينا القيام بحملة صيد كبيرة نجمع فيها (الحيوانات) ونلقي بينهم القنابل الميتة**». وما زالت الأدبيّات الإسرائيليّة حتّى اليوم تذكر ذلك، وتُزوّد السياسيّين والعسكريّين بمفرداتها، وهم بدورهم يضيفون عليها أوصافاً لمخلوقات حيوانية حيّة، وثّقوها أدبيّاً، كما في كتاب: «**سرطان في قلب الدولة**، لـ «**الجنرال يانوش بن غال**» وقد عمد الشاعر «**أ.رووبيني**» في قصيدته الحربيّة «**خمسة وثلاثون**» إلى وصف العرب بأنهم «**بنات آوى وغربان ووحوش..**» وكذلك كتب «**إسحاق شامير**» كتاب «**حيوانات تسير على قدمين**» الذي يقول: «**لنَلْتَفِتْ إلى معتقداتنا نحن، حيث لا الأخلاق، ولا التقاليد اليهوديّة تنبذ الإرهاب بوصفه وسيلةً قتاليّةً في مجرى الصراع، لذا فنحن بعيدون كل البعد عن تأنيب الضمير إزاء استخدامنا وسائل الإرهاب. وقد ورد في التوراة «امحقوهم**

عـن آخرهـم، أبيـدوا حرثهـم ونساءهـم.. إنَّ إرهابنـا يلعـب دوراً كبـيراً في معركتنا هذه..»[٥]

وهـذه المفهومـات والمقـولات لا يزال يتبنّاها زعيم حركة «شاس/الحاخام عوفاديا يوسف» والمشـهور بـ«عُبادة»، وهو عربيّ من أصـول مغربيّة، حيث وصـف العرب بأنهم حشرات دون الآدميين، وقال عنهم في كتاب «أفاع رقطاء» : «بأنهم أولاد الأفاعي، وإنَّ الله نـدم لأنـه خلقهم، ومن ثم، يجـب قتلهم..» كما صـوّرتهم الشاعرة «دوريت مارتون» في قصـيدتها «لا أشجار» بأنهـم «أفاعي هذا الزمـان داخـل بيتها»، وهذا الوصـف- من وجهـة نظرٍ يهوديّـة- يعدّ «مرآةً للطريقة التـي ينظر بها اليهود إلى العالم» اعتماداً على مصادر يهوديّة من بينها التلمود.

أمّـا «الجـنرال رفائيـل إيتـان» زعيـم حركة «تسومـت» ومؤلّف كتـاب «صراصير في قنينـة»، فهو من أوائل من أدخلوا العنف والمعاملـة الفظّـة ضدّ العـرب علـى أيـدي الجيـش الصهيـونيّ، وهو يجاهـر بكراهيته للعرب، وقد قال عندما كان قائداً للمنطقة الشماليـة في سيـاق أحـد أحاديثـه: «علينـا أن نقيـم فـوق كل حجـر يقذفونـه عشر مستوطنـات، وهنـا لـن يستطيعـوا قذفنـا بالحجارة، ونكون قد وضعناهم كـ الصراصير في قنينة مسمّمة.»[٦]

ينشـأ الإسرائيليّون على هذه الأوصاف المنحطّـة، ويلجـأ مفكّروهـم وقادتهم إلى ترسـيخ ذلك، وعلى سبيل المثال، فقد تناول الكاتب «دان ياهـف» في كتابه «ما أروع هذه الحـرب» «مئات النصوص الأدبيّة للتأكيد علـى أن الأدب العـبريّ المعاصر متخـمٌ بالمفـردات والجمل التـي تُنمّي روح العسكرة العنيفة في وعي الإسرائيليّين.»[٧]

ومـع ذلك، وبصـورة عامّـة، فقد كان الأدب الصهيونيّ في فلسطين المحتلّة، صدىً للتربية الصـهيونيّة التي تشـحن اليهوديّ وغير اليهوديّ بالأفكار العنصريّة. ممّا يجعل هذا الأدب بمجمله فجّاً سـاقطاً، خالياً من النزوع الإنسانيّ. وإنّ ما يرسّخه من الأفكار، يحمل نـزعاته التدميريّة، بغية إعادة صياغة الشـعب اليهوديّ صـياغةً روحيّةً ونفسـيّةً وعسكريّةً، تبتدئ من الطفولة التي يزعمون أنّها سليلة المحارب اليهوديّ القديم.

الهوامش

١- لـلأدب العنصريّ أربعة مصـطلحات، هـي الأدب العـبريّ، الأدب اليهوديّ، الأدب الصـهيونيّ، والأدب الإسرائيليّ، ولكلّ منها تفريعاته، ومرحلته الزمنيّة. وقد دُرسـت هذه المصـطلحات بالتفصـيل في كتاب:

محمّــد قرانيا. النــزوع العنصري في الأدب الصهيــونيّ. اتّحاد الكُتّاب العرب. دمشــق ٢٠١١م، ص(٣٥) ومابعد.
٢- أنطوان شلحت. ثقوب في الثقافة الآخروية. ط١، ١٩٨٨م، ص١٠.
٣- غسان كنفاني. في الأدب الصهيونيّ. بيروت ١٩٦٦م.
٤- محمّــد قرانيا. النزوع العنصري في الأدب الصهيونيّ. اتّحاد الكُتّاب العرب. دمشق ٢٠١١م، ص(٣٥) وما بعد.
٥- د.صفــا محمود عبد العــال. تربية العنصريّة في المناهــج الإسرائيليّة. الدار المصريّــة اللبنانيّة. القاهرة. إنترنت.
٦- حَسَن البَاش. التربية الصهيونية من عنصرية التوراة -إلى دموية الاحتلال.
٧- د دان ياهــف. ما أروع هذه الحرب. ترجمة وتقديم: سلمان ناطور. رام الله. المركز الفلسطينيّ للدراسات الإسرائيليّة. فلسطين.

الآلية الفكرية للمجتمع المدني عند هيجل

ترجمة وإعداد: هبة الله الغلاييني ◘



ربما كان التأخر النسبي للدولة البروسية، هو الذي حدا بالفيلسوف الجرماني «هيجل» إلى اعتبار الدولة أسّ نظريته السياسية، بل الفلسفية، فالدولة حسب «المعنى» لديه، هي المناظر لمعنى المطلق. فهيجل في تثمينه لدور الدولة، خلافاً للتأخر النسبي للعرش البروسي، لا ينطلق فقط من الواقع العياني والمشخّص لهذا التأخّر، بل إنه يقوم بتجريد هذا المشخّص العياني، إلى مفهومه الفلسفي النظري، ضمن منظومته الفلسفية الكليّة. فالمفكّر الألماني هيجل عندما استخدم معنى المجتمع المدني مثلاً لم يستخدم هذا المفهوم إلا لتأكيد دور الدولة، في تحقيق التماسك والانضباط «وبلغتنا الحالية – الوحدة

◘ مترجمة وكاتبة سورية.

الوطنية داخل المجتمع»، ونفى بذلك أن يكون للمجتمع المدني، أي قدرة على تحقيق تماسكه وانضباطيته الحرفية- من دون أن تكسبه الدولة هذا التماسك والانضباط.

عند هيجل تتحقق الروح الموضوعية أو مفهوم الحق في لحظات ثلاث هي:

١- الحق المجرّد، حيث لا توجد الإرادة الحرّة أيضاً إلا وجوداً مباشراً.

٢- الأخلاقية الذاتيّة.

٣- الأخلاقية الموضوعية، وهي الأخلاقية المشخّصة الوحيدة، التي حينما وجد هيجل بمناسبتها مثاله الأعلى عن الكل، استطاع أن يقول: ليست الموضوعية الأخلاقية شيئاً آخر غير حياة الشعب.

الدولة ونقد المجتمع المدني عند هيجل:

يصوّب هيجل سهامه النقدية في كتابه «مبادئ فلسفة الحق» الصادر سنة ١٨٢١م، إلى نظرية التعاقد الاجتماعي في الدولة، وهو يعتبر أنّ المجتمع المدني لا يقوم بنفسه ولنفسه، وهو قاصر عن تحقيق الأمن والحماية لأفراده، وعند موازاته للمفهوم الفلسفي «الدولة مقابل الحرية»؛ تصبح الدولة عندئذ في نظره، وبصفتها المستقلّة عن المجتمع، هي التشخيص الحقيقي للحرية، بل إنه يطابق، بين الدولة «ونظام العقل».

وبمطابقته ما بين مفهوم الدولة «ونظام العقل»، يؤكد هيجل على عجز المجتمع المدني عن إقامة وتحقيق العقل والحرية من تلقاء ذاته، منكراً أصلاً فكرة الانسجام الذي تفترضه النظرية العقدية، ما بين الدولة والمجتمع المدني، وبهذا ينصبّ اقتراح هيجل على الدولة لا على غيرها باعتبارها الإطار القوي القادر على تحقيق العدل والحرية.

ينطلق هيجل من الأسرة التي يعتبرها الجذر الأخلاقي الأول للدولة، وعندما يعتبر أنّ المجتمع المدني هو أحد مستويات تمظهر الدولة، يعتبر أنّ المستوى الآخر هو الأسرة، ومعنى هذا أن المجتمع المدني في نظر هيجل هو مجال تقسيم العمل (بالعودة إلى نظرية آدم سميث في كتابه الشهير «ثروة الأمم» ١٧٧٦م) واتّباع الحاجات المادية.

غير أن المجتمع المدني أيضاً هو لحظة من لحظات الحياة الروحية، وهذه اللحظة تقع ما بين الشكل البسيط للخلية الاجتماعية ألا وهي الأسرة، وبين الشكل الأعلى وهو الدولة المتحكّمة في ذاتها.

يدرس هيجل المجتمع المدني ضمن مبادئ فلسفة الحق، وضمن مبادئ فلسفة الحق يدرسه ضمن مفهومه للأخلاقية الموضوعية، وضمن هذه الموضوعية يدرس

هيجل الأسرة أولاً، ثم المجتمع المدني ثانياً، غير أن دراسته للمجتمع المدني تأتي ضمن نسيج أكبر هو الدولة. ويقسّم هيجل دراسته إلى الفقرات التالية:

• **منظومة الحاجات:**

١- أنماط الحاجات وإرضاؤها.

٢- طرائق العمل.

٣- الثورة.

× القضاء:

١- الحقّ بوصفه قانوناً.

٢- وجود القانون.

٣- المحكمة.

• **الإدارة والهيئات الحرفية.**

١- الإدارة.

٢- الهيئات الحرفية.

لا يفرّق هيجل بداية بين المجتمع المدني والمجتمع البرجوازي، وهو ضمن تشكّل المدن في أوروبة، في ذلك العصر، وتقسيم العمل، وبداية عصر القوميات، والتوجه بالبضاعة الرأسمالية الفائضة نحو أسواق خارجية مما أدى إلى ظاهرة الاستعمار، يستخدم هذا المصطلح، أقصد المجتمع البرجوازي، ويثبته بالجرمانية هكذا: (المجتمع المدني أو البورجوازي)، وينطلق في تحليله الفلسفي العميق من أن المبدأ الأوّل للمجتمع المدني هو الشخص، ويقول: إنّ الخصوصية لها الحق بالنمو والانتشار في كل الجهات، أما الكليّة فلها الحق بأن تتجلّى بوصفها قاعدة الخصوصية وصورتها الضرورية. وفي مقابل مفهوم الدولة حسب الحداثة، يقول: إنَّ النمو المستقل للخصوصية هو اللحظة التي تتجلّى في «الدول» القديمة. إذن، هو يضع معنى «دولة» بالنسبة لمرحلة ما قبل النهضة (الرينيسانس، ضمن قوسين)، لأن دراسته تتركز على مفهوم الدولة، ودولة الحداثة، وهو لذلك يقول: إن الخصوصي مقسور على أن يرتفع إلى صورة الكلي، فالخصوصي أسٌّ للدولة القديمة، دولة ما قبل الحداثة، ينهدم، ويتشظى بفعل عوامل كثيرة من ضمنها تزايد الإنتاج، وتشكّل المدن البرجوازية، واتساع الأسواق، وتنظيم الهيئة الحرفية.

فدولة الحداثة تعادل بالمفهوم الهيجلي صورة الكلي، والأفراد بوصفهم مواطني هذه الدولة، «الدولة القديمة» دولة ما قبل الحداثة- هم أشخاص خاصّون، غايتهم منفعتهم الخاصة، وبما أن منفعتهم تُنال من خلال الكلي، تحوّلوا إلى حلقات في السلسلة التي تتألف منها جملة هذه الدولة.

يتضمن المجتمع المدني اللحظات الثلاث التالية:

أ- توسّط الحاجة وإرضاء الفرد بعمله، وبعمل الآخرين جميعاً، وإرضاء حاجاتهم وتلكم هي منظومة الحاجات.

ب- واقعية عنصر الحرية الكلّي، المتضمن في هذه المنظومة، وهي الدفاع عن الملكية بالعدالة.

ج- الحيطة ضد ترسّبات جواز هذه المنظومات، والدفاع عن المصالح الخاصة، وكأنها شيء ما مشترك، بالإرادة والمنظمات الحرفية في الآلية لمنظومة الحاجات.

• **إرضاء الحاجة الذاتية التي تبلغ الموضوعية:**

١- بوساطة الأشياء الخارجية التي هي ملكية الحاجات ونتاجها، وهي تركّز على أنماط الحاجات وإرضائها، وتتركز هذه على قدرة الإنسان على مضاعفة الحاجات والوسائل، لا بل الإفراط في طلب هذه الحاجات، لا بل تصعّد التجريد الذي يصبح صفة للحاجات وأنماط إرضائها وبالتالي يصبح شيئاً مشخّصاً بما هو اجتماعي، وعندما تصبح الحاجات كليّة ومشخصة بما هو اجتماعي، يصبح إرضاؤها ينبوعاً حقيقياً لمضاعفة الحاجات وتوسّعها، لكن صرامة الضرورة الطبيعية للحاجة اختفت، والإنسان يسلك وفقاً لرؤية الكلّي، ووفقاً لضرورة هي من صنعه، صنعها وفقاً لجواز لم يعد خارجياً، بل داخلياً، جواز من صنع حرية الاختيار والتعارض ما بين الحاجة والإرادة الحرة متيحة صلابة مطلقة.

٢- في آلية طرائق العمل بوصفها توسّطاً بين الحدّين (حدّ الحاجة وإرضاء الحاجة)، إن تخصيص المادة الطبيعية المبذولة هو لغايات متنوعة ومختلفة، وإن الثقافة الناتجة عن الممارسة للعمل تقوم على الحاجة التي تعيد إنتاج ذاتها وبذاتها، وعلى عادة الانشغال عموماً، وتقوم أيضاً على أن تحدّ من طبيعة المادة وإرادة الآخرين من الفعالية، وهذا التدريب يعكس في العادة فعالية موضوعية وصفات كليّة ويجعل من تجريد الإنتاج والعمل أكثر ميكانيكية، ويمكن في النهاية أن تحل الآلة محل الإنسان، وعندما يتطور الإنتاج إلى مثل هذه الآلية يصبح ضمن مفهوم الاقتصاد السياسي الرأسمالي، لمؤسس الاقتصادية الرأسمالية آدم سميث في (ثروة الأمم) (١٧٧٦م) وبعده الاقتصاد السياسي في صيغته الإنتاجية التبادلية (ريكاردو وتراكم الثروة).

في آلية الثروة:

إنّ هناك توسّطاً للفكرة الجزئية ضمن المفهوم الأعلى وهو الفكرة الكليّة، فتكوين الثروة والحفاظ عليها في الدول والمجتمعات مسألتان تعودان إلى المجتمع المدني وضمن مفهوم الكلي، تعودان إلى الدائرة الأكبر، ألا وهي الدولة، ومشروطية المشاركة في الثروة الكليّة ترجع إلى قوة رأس المال، وبالقابلية

المشروطة بدورها بالقواعد المباشرة الملائمة، لكن هيجل حتى ضمن هذه المشروطية الشخصية يركّز على موضوعية خصوصية الروح، لذلك تتخذ الجماعية - يقصد الكليّة - منظومة جزئية من الحاجات وأساليب إرضاء الحاجات وثقافة نظرية وعمليات تقوم على خصوصية الروح، وهي منظومات يتوزع الأفراد عليها، هذا يؤدي إلى الفرق بين الطبقات، أسّ توزيع الثروات، وعند هيجل الطبقات، هما طبقتان فقط:

- الطبقة الجوهرية.
- الطبقة الكليّة.

الطبقة الجوهرية:

وهي تستمدّ ثروتها من الأرض كملكية خاصة، وروح هذه الطبقة تتسم بالأخلاقية الموضوعية المباشرة، أس مبحث هيجل، ما يستدعي أن تعتمد على الأسرة والثقة الطيبة.

ويحلو لهيجل هنا أن يعود إلى الموضوعية المفضّلة لدى الجرمان، في هجاء المجتمع الزراعي والطقوسي الشرقي، فهو يعتبر أنّ الطبقة الزراعية هي الأس الأول للطبقة الجوهرية، أمّا الأسُّ الآخر فهو الطبقة الصناعية وهي التي تهتم بتحويل الناتج الطبيعي إلى شكل آخر، إلى التوسط، وفعالية هذه الطبقة قسمان:

- الصناعة الحرفية.
- المعمل.

الطبقة الكليّة:

أمّا الطبقة الكليّة فهي الطبقة التي تهتم بالمصالح العامة، والنفع العام، ونعود إلى موضوع الخصوصية الذاتية، فهي إذا أثبتت وتمّ الاعتراف بحقّها، تصبح المبدأ الذي يحرّك المجتمع المدني، وحينما تعترف بحق حرية الاختيار بكونه الوسيط الذي ينتج ما هو ضروري عقلياً في المجتمع المدني وفي «الدولة» ونسلّم به، نضع التحديد القريب لما يدعى في التصور الشائع: الحرية. وهيجل في هذه الملحوظة يعيد إلى أسّه المعرفي حول موازاته الحرية بالدولة.

وأخيراً، تتطلب الحاجات المتفاقمة للفرد ضبطها وإرضاؤها، شيئاً اسمه الحماية، ومن يحمي هذه الحاجات ومن يضبطها؟

ومن يحمي هذه الثروة المتراكمة؟ إنه القضاء.

القضاء كأساس للدولة، وآليته في منظومة المجتمع المدني لدى هيجل، تنعكس علاقات التبادل بين الحاجات والعمل في الحق المجرد.

١- الحقّ بوصفه قانوناً:

إن ما هو في ذاته الحق، يوضع في وجوده الموضوعي من أجل الوعي، ويعرف الحق

بوصفه ما هو كائن وما له قيمة ضبطاً، وذلكم هو القانون، وبحسب هذا التحديد، يصبح هذا الحق: الحق الموضوعي عموماً، غير أن ما هو قانوني وضعي له وحده القدرة الحقوقية على الإلزام، فقد يحدث أن يبقى القانون في مضمونه، مخالفاً لما هو القانون في ذاته، غير أنَّ هيجل يقول هنا إنَّ الحق وضعي عامة، ووضعه لقاعدة وضعية الحق، ووضعية القانون تأتي ضمن النسق الأوروبي لمنجز الحداثة في ترسيخ وضعية القانون ضمن الأنساق الفكرية الأخرى للأوروبي.

لكن متى يتحقق الحق؟ يقول هيجل: إنَّ الحق يتحقّق بوصفه مضموناً بالتطبيق ويدخل في علاقات مع المادة التي تقدمها أوضاع أنواع الملكيات والعقود في المجتمع المدني، ويدخل أيضاً في علاقة مع الأوضاع الأخلاقية ضمن حدّ ووجه من وجوه الحقّ المجرد، وإن الواقع الوضعي للحق يتضمن قابلية التطبيق على الفردي خارج الجزئي، إنه يدخل ما ليس على الكمّي.

٢- وجود القانون:

يتضمن الالتزام تجاه القانون، ضرورة كون هذا القانون معروفاً للجميع، وربما كانت العبارة الحقوقية الشائعة الآن: القانون لا يحمي المغفلين، هي خير معبر عن فكرة هيجل هذه، وهو يضرب مثلاً حول وجوب أن يكون القانون معروفاً للجميع، حول أحد الطغاة واسمه ديونيس، إذ كان يصدر القانون ويعلقه عالياً كي لا يقرأه أحد، ويستطيع أن ينزل العقاب بمن يشاء، بعد استصداره لهذه القوانين «العالية».

ويناقش هيجل هنا المصادر الرئيسة لتعقيد القوانين، ويقول إنَّ الحق في ذاته هو القانون في المجتمع المدني، وتعتمد الملكية مثلاً على العقد وعلى الشكليات القابلة لجعل العقد صحيحاً، وذا قيمة حقوقية، ويركّز هنا على غياب الطرائق البدائية والمباشرة للاكتساب في المجتمع المدني، ويصل إلى فكرته الأثيرة في فعل الاحتياز، والحيازة، فالملكية والشخصية لهما قيمة في المجتمع المدني، والجريمة انتهاك للشيء العام، فما دامت هناك أصبحت حيازة، وأصبح هناك خطر يتهدّد هذه الحيازة.

إنَّ قدرة المجتمع القوية تنقص من خطورة انتهاك هذه الحيازة، لكن يجب أن يكون هناك اعتدال في فرض الجزاء، وهذا الاعتدال يأتي من خلال المحكمة.

٣- آلية المحكمة لدى هيجل:

الحق (القانون)، يوجد لذاته، بوصفه مستقلاً، والفعل الذي يعترف بالمحكمة، يمت أصلاً إلى المحكمة، وإنَّ حق دفع الجريمة، حق في ذاته، وليس في صورة الحق، أي

ليس عادلاً في وجوده. ويناقش هيجل هنا آليات انعقاد المحكمة: حضور المحكوم ساعة الحكم، وعليه المثول أمام المحكمة، وأن لا يطلب الاعتراف بحق متنازع عليه إلا أمام المحكمة. ويتصف الحق بوجوب إظهاره أمام المحاكم، من مداولات أعضاء المحكمة الحكم فيما بينهم وتتبع الإجراءات القانونية، والاعتراف بالحالة الخاصة.

ويناقش هيجل صفة القاضي المؤهل الذي يستصدر الحكم، ويقول إن الحالة يجب أن تهيأ لإلحاقها بقاعدة ما، ويجب أن تصبح حقيقة معترفاً بها، وأن تتلقى مواصفات كلية، أي أن الحق يتصف بوجوب إظهاره أمام المحاكم. ولا تتضمن معرفة الحالة أي قرار حقوقي، فهي معرفة وفي متناول كل إنسان مثقف، ويجب أن يكون الحكم القضائي معرفاً، وهنا يأتي دور المجتمع المدني - حاضنته الكبيرة الدولة - كي يعود إلى وحدة الكلي- الدولة، ويؤلف تحقيق وحدة الكلي هنا مهمة هيجل للإدارة بوصفها اتحاداً نسبياً ومهمة الهيئات الحرفية في وحدة مشخصة وإن تكن محدودة.

أما الخصوصية الذاتية مقابل الكلية فترتد إلى حالة نوعية، ويحتفظ الكلّي بمعنى الحق المجرّد. لكن ما هي الهيئات الحكومية الحرفية وإدارتها الشخصية ضمن مفهوم هيجل لوحدة الكلي هنا؟

الإدارة والهيئات الحرفية:

١- الإدارة:

إنَّ القدرة الكليّة تضمن المبدأ الذي يتعلق بتحقيق الغاية ويركّز على حرية الاختيار في تحقيق هذه الغاية، ويقول يجب أن تصبح أعمالي الخاصة جوازياً، تفلت من إرادتي، وتتيح الفرصة لخسارة الآخر، وإن أساس القسر الإرادي، يقابله الإضرار بالآخر، لكن ليس هناك حدّ في ذاته (أي هل هناك حدّ معرّف بذاته، وحاجز ما بين الضرر والإضرار؟). فتنوّع الحاجات، ووسائل إرضائها، يولّد أنواعاً مشتركة من الفعاليات الاجتماعية، الاقتصادية، أو العكس، وهذه المهام الجماعية، والمؤسسات ذات النفع العام، تتطلب سهر السلطة، الدولة هنا، وقدرتها على التوقع بأن تنوع المصالح يؤدي إلى التنازع، وهل هناك إمكانية لمشاركة الأفراد للثروة الجماعية، وجواز هذه الإمكانية من عدمه؟

وهنا يقطع المجتمع المدني رابطة الأسرة، ويعترف بأعضاء الأسرة كأشخاص مستقلّين، ويصبح الفرد ابناً للمجتمع المدني، الذي بإمكانه أن يطالب به، بيد أنّ الفرد تكون له أيضاً حقوق عليه (على المجتمع المدني)، غير أن هيجل يرجع إلى المفهوم الكلّي مرّة أخرى، في اعتباره أن الأسرة هي مفهوم كلّي، وهذا المفهوم الكلّي يلقي على عاتق

المجتمع واجباً تجاه الأسرة، ألا وهو مفهوم: التربية، ويمضي هيجل قدماً في أن التربية لها الحق الواجب في الوصاية على الأفراد، لتحقيق غاية المجتمع.

وأن سلطة الجماعة تحل محل الأسرة حيال الفقراء، ويشرح هيجل شكل الفاقة والعوز والبؤس، ويلحظ جواز إنشاء المبرّات والصدقات، ويتصور المجتمع المدني هنا في تقدم مستمر وداخلي للسكان والصناعة.

وفي أوروبة في ذلك الوقت (أوائل القرن التاسع عشر)، عند بدء تشكيل المدن الكبرى وهجرة الريف إلى المدينة، وبداية تكوّن طبقة البرجوازية أو ما ندعوه في أدبياتنا (الطبقة الوسطى)، نشأ كما يقول هيجل انحدار في المعاش لوجود دهماء ليس لديهم ثروات، ووجود ثروات بالمقابل غير متناسبة في عدد قليل من الأيدي، وطالب هنا بحياة الجمهور وبالعمل، ووسّع من فكرته الاقتصادية كي يتناول تطوّر الإنتاجية ونشوء الاستعمار الذي فتح أسواقاً خارجية لتصريف فائض بضائعه.

٢- الهيئات الحرفية:

خصوصية المجتمع هنا، تبتدئ في التبصّر الإرادي بصورة نظام خارجي ومؤسسات. والتبصّر كاتجاه أعلى، يسهر على المصالح الفائضة عن أطر المجتمع، وحينما تتخذ الخصوصية ذاتها من الكلي المتضمن فيها غاية وموضوعاً لإرادتها وفعاليتها، تعود الأخلاقية الموضوعية إلى الاندماج في المجتمع المدني، وهذا يؤدي إلى منفذ إلى لرسالة هيجل في الهيئات الحرفية.

فصل هيجل سابقاً في الطبقة الصناعية كجزء من الطبقة الكليّة حسب تصنيفه، وهو يتجه من الناحية الجوهرية إلى الأصغر ألا وهو فكرة الجزئي، ولهذا كانت الحرفة خاصة بالمنطقة الصناعية، فالزراعة أسٌّ أول يربط الطبقة الزراعية بمفهوم الدولة القديمة، دولة ما قبل الحداثة، بتعبيرنا الراهن.

وبعد هذا التوصيف للهيئات الحرفية - يبدأ هيجل بالتفكيك المعرفي حيث تنقسم طبيعة المجتمع المدني إلى فروع مختلفة، حسّ الخصوصية التي في طبيعته، ويصبح عضو المجتمع المدني عضواً في الهيئة الحرفية هنا كأسرة ثانية، ويمت عضو الهيئة الحرفية بصلة إلى الكل -الكل بمفهوم هيجل- وبما أنه عضو في المجتمع عموماً فهو يهتم بالغايات غير الأنانية لهذا الكلّي -الدولة- ويجهد من أجله.

إذن تتحدد كرامته في مرتبته الاجتماعية. بدورها تقدم الهيئة الحرفية لمواهب الفرد سمة التصرف وتضمن لموهبته الأمن، وترفع هذه الموهبة إلى كرامة الفعالية الواعية، من أجل تحقيق غاية اجتماعية. وبذا تؤلّف

الهيئة الحرفية هنا الجذر الأخلاقي الثاني للدولة، الجذر المغروس في المجتمع المدني.

وعود على بدء، فإنَّ غاية الهيئة الحرفية تجد حقيقتها في الغاية الكليّة في ذاتها ولذاتها، وفي واقعيتها المطلقة، والمطلق يؤدي بدائرة المجتمع المدني إلى الحاضنة الأكبر، أي بمفهوم هيجل في فقرته الأخيرة، إلى الدولة.

المصدر

من كتاب: «مبادئ فلسفة الحق» تأليف: هيجل- إصدار عام ١٨٢١م.

فرص الإبداع والمبدعين في الحالة العربية الراهنة

د. خير الدين عبد الرحمن *

الإبداع من أبرز خصائص الإنسان الناجح، وإطلاق مواهب المبدعين من أبرز مقومات المجتمع المؤهل للتطور والتقدم. يعكس الإبداع تجربة إنسانية عميقة تمنح صاحبها تمايزاً، وكلما ارتبطت هذه التجربة بموضوع حياتي معاش يهم الآخرين، يدركه المبدع بعمق ويسبر أغواره ويكشف خفاياه وارتباطاته وينفعل معه انفعالاً صادقاً.

ويجيء العمل الإبداعي الناجم عن هذه التجربة أشد التصاقاً بمسار التقدم الإنساني، وأكثر تأهلاً لتوليد آفاق واسعة لإبداعات أخرى، وأكثر تجسيداً لأصالة موشحة بالابتكار- وهذا شرط رئيس للإبداع.

والإبداع مشروط دائماً بالحرية، فالطفل يبدأ ممارسة حريته منذ ولادته، مع أنها تكون إذ ذاك حرية قاصرة، وتكون إمكانياته محدودة، لكن الطفل يندفع لتجريب إمكانياته القاصرة على نحو يزداد مع ازدياد قدرته على الحركة المواكبة لنموه ولما يكتسبه من دربة وما يلقاه من تشجيع وتزداد هذه القدرة بازدياد مساحة الحرية المتاحة له.[1]

كما يرتبط الأمر بتنمية خيال الطفل، عبر قدرته على الحلم والتذكر والخلق والتأقلم مع العالم المتغير من حوله، بما يشكل حافزاً له لمواجهة المواقف والتعامل مع المستجدات والمتغيرات.

* أديب وباحث ودبلوماسي سابق.

تحدث الطبيب النفسي ديفيد فيسكوت عن هذه المسألة في كتابه (فجّر طاقتك الكامنة في الأوقات الصعبة) وقال: «كم هو رائع لو كنا جميعاً موهوبين بصورة كبيرة في مرحلة الطفولة، لدرجة أن تحدد لنا مواهبنا المسار الذي نتبعه، لكن ذلك لا يحدث في الغالب. ربما يقلل تعليمك من حماسك لما تحبه أكثر مما يدعمه..». عندما تجابه أسئلة الطفل وتساؤلاته وإجاباته وشطحات خياله في البيت بالزجر والقمع أو الاستخفاف أو التجاهل أو أوامر بالصمت من قبل والديه وإخوته الكبار، وعندما تتكرر هذه المعاملة نفسها معه في المدرسة من قبل معلميه، وفي الشارع من قبل الجيران أو المعارف أو المتعاملين معه أو عابري السبيل، يصبح من العبث انتظار تفجر طاقات الإبداع لديه لاحقاً.

وهنا لا نجد غضاضة في الإشارة إلى ملاحظة تتكرر عن حالات إبداع عرب مغتربين في الولايات المتحدة وأوروبة واختراعات بعضهم وابتكارات آخرين على نحو جعلهم شخصيات عالمية بارزة، وغمرهم بالتقدير والجوائز العلمية، بينما تقتل مواهب من كانوا يماثلونهم أو حتى يتفوقون عليهم في طفولتهم وصباهم لأن ظروف بلادنا العربية تقتل أكثر المواهب أو تطمسها.

وإذا ما توافقنا على أن كل إبداع إنساني هو نتاج جزئي ذاتي خاص يتضمن في داخله تكويناً كلياً عاماً ينشئه أو ينتسب إليه أو يفيض فيه، إذ لا إبداع بغير تلاقي واتحاد التفرد والخصوصية مع الكلية والعمومية، فهل نجنح إلى يأس يبعثه تشخيص لحالتنا العربية الراهنة بما يداني رؤية الجاحظ إذ جزم في ثالث أجزاء بيانه وتبيينه أن «كل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة، وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام»؟، أم نعتمد تشخيص ابن خلدون إذ قال:

«التحقيق قليل، وطرق التنقيح في الغالب كليل، والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل»؟ خاصة وأن مفكراً عربياً معاصراً نقدره هو أبو يعرب المرزوقي الذي شدد على إرجاع أزمة التخلف العربي الراهنة إلى جذورها الماضية قد أكد على ضرورة مراجعة عوامل النهوض لدى صعود المدّ الحضاري الإسلامي الأول للاقتداء بها وتوظيف روحها وجوهر أفكارها في تجديد النهضة، معتبراً أن أبرز من جسدوا النهضة من المفكرين العرب ابن خلدون في رؤيته العمرانية والحضرية وابن تيمية في نظره العقلي والمنطقي..[٢] أم أنَّ أزمة إبداع الفكر العربي المعاصر من حيث كونه رؤية متكاملة للعالم هي أزمة بنيوية،

أزمة عقل يواجه مفاهيم ومقولات وآليات ذهنية تنتمي إلى نظم معرفية شاذة اكتسحت الطريقة الصوفية والرؤى السحرية ساحتها الاجتماعية والثقافية وأزمة ثقافية ارتبطت بالسياسة منذ بدء تشكلها كما رأى محمد عابد الجابري؟ أم أن هناك (استعصاء) إبداعياً مثلما هناك (استعصاء) ديمقراطي للمجتمعات العربية كما يبدأ محسن محمود خضر بحثه المعنون عوائق الإبداع في المجتمع العربي(٢) منطلقاً من فرضية أساسية هي أن فضاء ممانعة الإبداع من حدود المدرسة والنظم التعليمية أنه كامن في بنية النسيج الثقافي ويعززه ويعيد إنتاجه مناخ الاستبداد والقهر السياسي والتنشئة المجتمعية عامة في المجتمع العربي المعاصر؛ فالإبداع دال الثقافة.

فلنتفق أن الإبداع هو جوهر الوجود الإنساني، وهو شيء كامن فينا، هو نحن، هو الإنسان كما هو إنسان. «الإنسان يبدع بما هو إنسان، ويبدع فيما له إنسان، فالأولى تعني أن هدفه الإبداع، أمّا الثانية فهي الوسيلة التي يستخدمها لتحقيق الكمال البشري في وجوده المعنوي والروحي، في وجوده الفردي والاجتماعي والثقافي، وهذا يؤكد أن الإبداع هو تجاوز الواقع لتحقيق ارتقاء معين، سواء كان حل المشكلات أو تغيير الواقع. ومن ثم فإنّ تنمية الإبداع ضرورة لأنه يفجر الطاقة الخلاقة للفرد والمجتمع والأمة؛ فليس مجرد زائدة دودية يمكن إزالتها، أو مسألة ترفيه يمكن الاستغناء عنها أو إهمالها».

رأى السيد يس أنّ محددات تنمية إبداع الطفل العربي المستقبلية هي سياسة تعليمية حافزة ومنميّة للإبداع، مع تكافؤ الفرص التعليمية، وإيمان القيادة السياسية بالإبداع، والتقدم في بحوث فهم الإبداع ودراسته، وتدريب المعلمين على وسائل تنمية الإبداع، وتنمية صناعة ألعاب الطفل، ودفع سياسة قومية متكاملة لتنمية الإبداع والموهوبين على امتداد الوطن العربي، بينما مضى باحثون آخرون، مثل رفيقة حمود لطرق أبواب ما تتحاشى أكثر النظم العربية الاقتراب منها مثل اشتراط رفع مستوى المعيشة والقضاء على الفقر المعطل للإبداع والتقدم، ومعالجة كل العوامل المعرقلة لنمو القدرات الإبداعية في المجتمع العربي وخاصة لدى النساء، واتخاذ قرار سياسي يتيح اكتشاف ورعاية ذوي المواهب والقدرات الإبداعية المتميزة مبكراً بمشاركة مؤسسات المجتمع المدني، واحترام حرية المواطن وكرامته (رفيقة حمود، معوقات الإبداع في المجتمع العربي، مجلة مستقبل التربية العربية، مركز ابن خلدون، القاهرة، ٢٠٠٢).

وإذ شدّد أكثر الباحثين على مسؤولية التربية المنزلية والمدرسية في اكتشاف ورعاية المبدعين سأل فرناندو سبابتير عمّا إذا كان على التربية تطوير التفكير النقدي والقدرة على إبداء الآراء الذاتية لدى كل إنسان أم تربية شخصية مندمجة مع المجتمع، وهل على التربية تطوير العقلية المبدعة المجددة أم المحافظة على الشخصية التقليدية، وهل عليها المجازفة بتكوين الإنسان المبدع أم ذلك الإنسان الآلي (الروبوتي) الروتيني، وهل على التربية أن تعكس النظام الاجتماعي السائد أم تهيئة جيل متمرد يكون أداة التغيير الاجتماعي؟؟(التعليم والقيم المعاصرة، ت.جمال سليمان وخوان خيمنيث، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٠، ص١٤).

لكن مثل هذه الأسئلة كثيراً ما يساء استعمالها لتبرير الإبقاء على الأوضاع الراهنة، والحد من الدعوة إلى التغيير والتطور. إنَّ تقدم المجتمع في عصرنا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتفاعله الإيجابي مع جوهر التقانة والمعلوماتية والدفق المعرفي المتعاظم، تفاعل من يضيف ويبدع ويبتكر ويخترع ويطور، لا من يقف عند حدود الاستيراد والاستهلاك من فتات الآخر.

تستند التقانة والمعلوماتية إلى المساهمات البشرية المؤهلة المبدعة ذات الكفاءة المتميزة في ظل تنافس دولي يجعل للميزات التنافسية competitive advantages أهمية فائقة.

إنَّ إعداد المؤهلين لخوض هذا التنافس يبدأ بمراعاة وإشباع حاجات الطفل الفطرية من حب وحنان ومشاركة اجتماعية. أي نزوعه الطبيعي للاختلاط مع جماعة وصفها العالم توسي بتجمع عدد صغير من الأفراد على نحو يمكنهم من تفاعل دائم عبر اللقاء والمواجهة المباشرة.

إنَّ السياق الثقافي والاجتماعي محدد رئيس لتأسيس النشاط الإبداعي أو خنقه. وفي هذا الصدد لاحظ د.خلدون النقيب أنَّ النظم العربية تسعى إلى الضبط الاجتماعي بدلاً من تكريس الحرية المترتبة على المعرفة، وإلى توليد المسايرة والانصياع لمعايير الجماعة للحفاظ على الوضع القائم بدلاً من زرع روح التمرد المبدع البنّاء.

فعندما تسود علاقة هرمية قمعية تسلطية في العائلة والمدرسة والمجتمع، تولد ما أسماه د.هشام شرابي الإجماع القسري الصامت المبني على الطاعة والقمع، ونضيف من ناحيتنا إدمان النفاق والانتهازية وإفرازات الخوف الأخرى الناجمة عن هيمنة الأمني على السياسي، وهيمنة السياسي على الفكري والمعرفي، من الطبيعي أن يضمر الإبداع ويختنق، وأن تسود المجتمع ازدواجية ولاء قسري ظاهري

مفتعل مزيـف، بينما تمور أعماقه برد فعل تمردي يتراوح ما بين تخريب تحت السطح تنفيساً عن الكبت من جانب، وسعي إلى تغيير ثوري إنقاذي من جانب آخر، مع رضوخ غالبية الناس إلى شعور يائس بالإحباط يعطل إنتاج المجتمع ويعيق تطوره.

وإذا كان تولستوي الذي اهتم بمسألة التربية والتعليم وأسس مدرسة خاصة مفتوحة لتنمية الإبداع قد شدّد على الارتباط العضوي بين الإبداع والحرية باعتبارها شرطاً رئيساً لكل تعليم حقيقي، فـإنَّ أغلب علماء السياسة قد توافقوا على أنَّ الدولة تسعى باستمرار إلى تعزيز سلطاتها وإقناع مواطنيها بحاجتها إلى سلطات جديدة استثنائية (مؤقتة) لمواجهة متطلبات كل حالة طارئة أو منعطف حرج.

لكن كل استثنائي أو مؤقت من الصلاحيات والسلطات يضاف إلى الدائم، فلا تتخلى الدولة عن سلطة أضافتها إلى (ترسانتها)، بل يتعاظم عطش الدولة إلى مزيد من السلطات، على حساب حرية المواطنين وحقوقهم، الأمر الذي يؤدي غالباً إلى انفجار تمرد أو ثورة تطالب باسترداد حرية المواطن وحقوقه.

إنَّ حاجة الطفل للإبداع والتفكير من زوايا غير ما ألفه في بيته، وبعيداً عن القيود التي يقاسيها في مدرسته، تجعله يهرب إلى خياله أو إلى أي أفق آخر ينقذه من كبت تلك القيود وعمليات الترويض البليدة التي تحاصره.

ويعتمد إبداع الفرد إلى حد كبير على قدرة تحكمه بالنشاط، حيث تتفاوت إرادة المرء في توجيه نشاطه وممارسته ما بين تحكم إرادي شبه تام في الفعل، أو انسياق شبه كلي استجابة لدوافع وعوامل وعوائق الواقع الخارجي دونما تدخل يذكر للإرادة الذاتية، أو بلا وعي. تتراوح إرادة التحكم فيما بين هذين النقيضين، ويتحدد مدى استعداد المرء للإبداع ومدى قدرته عليه في المدى الواقع بينهما.

وإذ تخضع هذه القدرة لعوامل ذاتية من ناحية، ولتأثيرات المجتمع وعوامل ومعطيات الواقع من ناحية ثانية، فإنَّ أبرز التأثيرات مرتبط بمدى الحرية المتاحة، ومستوى سيطرة الإرادة الحرة للمبدع على واقعه، ودرجة تحديه لسطوة هذا الواقع وطغيانه.

كما يلعب شكل الفعل الإبداعي نفسه ومادته ومضمونه وغرضه دوراً في تشكيل خيارات المبدع وصياغة نشاطه الإبداعي. لا نغفل هنا تأثير المبادأة الذاتية للمبدع، فمبادأته، أو مبادرته، وإقدامه الواعي والشجاع على الخطوة الأولى، استجابة لدافع ذاتي أو لحافز خارجي، سمة رئيسة من سمات المبدع، وعنصر هام وحيوي في سلوكه واستعداداته.

لا غنى هنا أيضاً عن توافر الإرادة الحرة، فالحرية المتلازمة مع الوعي شرط لا غنى عنه للإبداع، وكذلك لصنوه ورديفه الابتكار.

يرتبط الإبداع بالمبادرة، أي بالفعل الحر الذي وصفه هنري برغسون بانبثاق الحياة وطفرة فيها. هذه المبادرة فعل مرتبط بقوة الحدس والإلهام والرؤية والكشف والإدراك المباشر ويقظة الوعي والتركيز على الكيف والإقدام والمغامرة ورفض الجمود والسعي للانعتاق والحركة والتحول من التقليد إلى الابتكار والإبداع.

بل يرتبط أيضاً بالتحرر من الذاكرة، على نحو ما دعا نيتشة، أو اللاوعي النصي على نحو ما قال العالم النفسي الفرنسي أندريه غرين.

الإبداع هو المدخل إلى الحداثة والتحديث والتطور والتقدم، إنه تخطي الأفكار والأساليب والنماذج السائدة إلى ما هو أفضل وأحدث وأكثر ابتكاراً، إنه تجاوز الحلول المعتادة إلى حلول جديدة أكثر دقة أو جدوى أو عائداً، أو أسهل ارتياداً، إنه «تفجر إمكانات المواجهة والرغبة في تطوير البنى والأداء إلى أفضل.

والإبداع بهذا المعنى قيمة إنسانية عليا، ودالة كاشفة للحيوية الإنسانية»[٤]. وصف علي وطفة الحداثة الحقيقية بأنها «موقف يتصل بالجوهر والروح الحقيقية. إنها تعني القدرة على بناء النزعة العقلية في الإنسان، وترسيخ الروح العلمية، والنهوض بالفرد إلى مستوى الحرية الفردية، ومن ثم تربية الإنسان على قيم الإبداع والحرية وحقوق الإنسان. الحداثة الحقيقية تعني انتصار العقل والعقلانية، وهيمنة المعرفة العلمية، وتأكيد الحرية الفردية، وتفجير الإبداع، وبناء المجتمع المدني..». هنا يدخل عامل تراث الثقافة المجتمعية وتأثيراته الراهنة على فلسفة التغيير وسبله.

نلاحظ بسهولة مثلاً تمايز د.عصمت سيف الدولة في كتابه (الاشتراكية العربية) عن فلسفة هيجل المثالية، وعن فلسفة كارل ماركس الجدلية المادية، ناظراً إليهما بنظرة جدلية اعتبرت أن «الأولى تقصر نفسها على مسار الفكر المجرد الخالص وحده، والثانية تقصر نفسها على مسار المادة وحدها، فلماذا لا ننظر إلى هاتين الفلسفتين بنظرة جدلية تجعلهما بمثابة الدعوى ونقيض الدعوى، لنؤلف بين النقيضين في كيان يجمعهما معاً، وهو الإنسان الذي اجتمع فيه الفكر والمادة معاً، بحيث نقول إن الجدل -أي التطور- لا هو مقصور على الفكر النظري وحده، ولا على المادة المجسدة وحدها، بل هو جدل الإنسان».

كما رأى د.نجيب محمود في رؤيته لتمايز عصمت سيف الدولة.(*) وما دام الجدل مفهوماً يتضمن مساراً تطورياً صاعداً قد جعله هيجل تياراً من فكر، وجعله ماركس تياراً من مادة، فكلما أوغل المرء في تفحص هذا التيار أو ذاك، وكلما تمعن في مسار هذا أو ذاك، يبدو للمتنقل من أحدهما إلى الآخر أنه ينتقل من وضع إلى نقيضه.. فكان الحل لهذا الإشكال يكمن في فكرة مفادها أنَّ الجدل لا يكون للمادة وحدها، ولا للفكر وحده، وإنَّما للإنسان الذي يحتويهما معاً بحكم تكوينه ومقوماته العضوية من مادة وفكر.

فالمادة مجردة لا تعرف السير في التطور التصاعدي، ولا يعرف الفكر المجرد المطلق مثل هذا السير أيضاً ما لم يتجسد في إنسان معين يعيش مشاكله واحتياجاته وطموحاته ورغباته ويبحث له عن حلول.

فتجريد جدل المادة المجردة أو جدل الفكر المثالي أو عزلهما عن الإنسان إنَّما يلغي إرادة الإنسان الحرة ويخضعه لإرادة خارجية توجه مساره، ويلغي بالتالي أو يعطل إبداع الإنسان ويمتهن كرامته. لقد خلق الله الإنسان على طبيعة كان معها «وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً» (سورة الكهف، الآية١٨)، وبالتالي فالجدل يبتعد عن جوهره وقيمته ما لم يجعل الإنسان غايته، وهذا لا يكون من دون مشاركة الإنسان فيه متفاعلاً باستناده إلى خبرة ماضيه ومعطيات حاضره وتطلعاته إلى مستقبله. لن يكون الإنسان فاعلاً بحيث يحقق ذاته الفردية والذات الجمعية التي ينتمي إليها ما لم يكن هو مقصد الجدل وغايته وأداته، وما لم يخضع حركته للقوانين الخاصة به ولحرية إرادته تمايزاً عن الفكر المجرد المنضبط على قوانينه الخاصة، وعن الطبيعة المادية التي تتحول طبقاً لقوانين حتمية. وهنا تبرز حرية إرادة الإنسان رديفاً لحرية فكره وحرية اختياره، شرطاً لمسؤوليته الأخلاقية من ناحية، ولإطلاق كوامن الإبداع فيه من ناحية ثانية.

تحدث باحثون عن الهندسة الاجتماعية الهادفة إلى إعادة تكوين المجتمع تتم وفق د.عبد الله البريدي مثلاً عبر خمس عمليات متكاملة هي التشخيص والتخطيط (أي الهندسة) والبناء والحماية والإبداع.

«من السمات الأساسية للمجتمعات الأكثر ذكاء أنَّها تمارس هندسة اجتماعية ذكية، بخلاف المجتمعات الأقل ذكاء التي تركن إلى ملاحظات عابرة فاترة لأدائها وسلوك أفرادها، (عابرة) إذ لا منهجية ولا تراكم فيها..و(فاترة) إذ لا همّ إصلاحي ولا تطلع حضاري يحدوها... ولذا فالمجتمعات الأقل ذكاء تكتفي بدور المتفرج، حيث أنَّها

مجتمعات تكبر فتكبر معها مشاكلها وتتفجر أزماتها في جوفها»[٦].

ولئن بدا لنا استخدام وصف ذكاء المجتمع استنساخاً لما راج استخدامه من نعت أسلحة وتقانات أخرى بالذكاء، فإنَّ هذا من سمات عصرنا الذي تخترق التكنولوجيا فيه حياتنا مستهدفة كل خلايانا أفراداً ومجتمعات.

لا سبيل لتراخي المجتمع أو تلكؤه في أداء واجب رعاية الإبداع وتوفير الشروط اللازمة لإطلاق طاقاته وحماية المبدعين، فهذا سبيل نهوض المجتمع المعاصر في زمن باتت المعرفة فيه المعيار الرئيس لمستوى تقدم الأمم والمجتمعات. هذا ما جعل الدول الكبرى والمتحضرة تستثمر في المعرفة أكثر من خمسين في المئة من الناتج الإجمالي لاقتصاداتها، بحيث صار اقتصاد المعرفة Knowledge Economy الركيزة الكبرى لاقتصاد كل من تلك الدول.

إنَّ المعرفة المرتبطة بإمكانات الإنسان هي الثروة الحقيقية للمجتمع، وإذا عدنا إلى تعريف إدوارد تايلور في القرن التاسع عشر للثقافة، إذ اعتبرها «ذلك التكوين المعقد الذي يشمل المعرفة، والإيمان، والأخلاق، والقانون، والتقاليد، وأي خصائص أخرى وعادات يكتسبها الإنسان في مجتمعه»، فإنَّ ثقافة المعرفة في عصرنا تعتمد اعتماداً رئيساً على تحفيز الإبداع وتشجيع الابتكار لإغناء عملية تنمية المجتمع وتصويب مسار تطوره.

الهوامش

١- د. مصري عبد الحميد حنورة، الإبداع والمخاطرة، العربي، الكويت، العدد ٤٠٧، أكتوبر ١٩٩٢م، ص٨٤.
٢- أبو يعرب المرزوقي، آفاق النهضة العربية ومستقبل الإنسان في مهب العولمة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٩م.
٣- محسن محمود خضر، عوائق الإبداع، مجلة الفيصل، الرياض، العدد المزدوج ٤٢٧/٤٢٨، ك١ /ك٢، ٢٠١٢م، ص٥١.
٤- المصدر السابق، ص٥٢.
٥- د. زكي نجيب محمود، جدل الإنسان، مجلة الفكر المعاصر، القاهرة، العدد٨، أكتوبر ١٩٦٥م، ص٥-٦.
٦- أما يسع المجتمعات الأقل ذكاء زيادة ذكائها؟ صحيفة الجزيرة، الرياض، ١٧/١١/٢٠٠٥م.

القلق آفة العصر

د. معمر نواف الهوارنة ⚬



عرف الإنسان القلق منذ أقدم العصور، ويمثل القلق واحداً من أهم الاضطرابات المؤثرة على الناس في أنحاء العالم كافة حتى أطلق بعض علماء النفس على العصر الذي نعيشه اسم عصر القلق، وتقدر الإحصاءات أن واحداً من كل أربعة أشخاص يتعرض يوماً ما على مدار حياته لواحدة أو أكثر من اضطرابات القلق حتى كبار المجرمين يشعرون بهذا الاضطراب. وقد نتج عن شيوع القلق بين إنسان اليوم أن اتصفت حياته بدرجة عالية من الاغتراب، فأصبح مغترباً

⚬ باحث وعضو هيئة تدريسية بقسم علم النفس- جامعة دمشق.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

عن نفسه، وعن إنسانيته، وعن أسرته، وعن مجتمعه، وإن كان قريباً منهم بجسمه.

القلق شعور يصيب صاحبه بالتوتر والاضطراب، والقلق خبرة وجدانية غير سارة «Unpleasant»، ويمكن وصفها بأنها حالة من التوتر «Tension» والاضطراب وعدم الاستقرار والخوف وتوقع الخطر، فإذا زاد القلق عن الحد فإنه يجعل صاحبه غير متكيف اجتماعياً، فيعطل إنتاجه وتتأثر فعاليته وتقل سعادته وشعوره بالاطمئنان. والقلق أحد مظاهر الشخصية العصابية الذي يُحدث تأثيراً سلبياً على قدرة الشخص على ممارسة حياة طبيعية مفيدة، ويعوقه عن أداء واجبه كاملاً وعن الاستمتاع بالحياة. ويعتقد البعض أن القلق استجابة انفعالية عامة للمشقة، والقلق شعور أو إحساس بالفزع أو الرهبة أو الهواجس.

لا يوجد جانب من جوانب الخبرة الإنسانية أكثر عمومية وعالمية من القلق. ففي كل ثقافة وفي جميع العصور التاريخية المسجلة، تعرض الكائن الحي الإنساني لتهديدات حقيقية أو متخيلة تستدعي حالة الاستثارة التي نطلق عليها مصطلح القلق. ولهذا كان القلق موضوعاً رئيسياً أو مركزياً في دراسة الإنسان.

وكثيراً من نظريات علم النفس تفرد لظاهرة القلق مكانة كبيرة في نظامها النظري وفي دراستها للشخصية والسلوك، وفي حالات السواء والاضطراب، والصحة والمرض وفي المستويات العمرية المختلفة من مدى حياة الإنسان، فالقلق حقيقة من حقائق الوجود الإنساني، وجانب ديناميكي في بناء الشخصية ومتغير أساسي من متغيرات السلوك.

فاضطرابات القلق تعد أكثر الاضطرابات النفسية شيوعاً وتتسبب في إحداث اختلال وظيفي كبير لدى الفرد وفي شعوره بالضيق والكدر. إنَّ الاختلاف في القلق بين الأفراد، شأنه في ذلك شأن معظم الظاهرات العاملة في حياتنا النفسية، هو اختلاف في الدرجة وليس في النوع، فالقلق ظاهرة يخبرها الناس بدرجات مختلفة من الشدة، وتبدو في مظاهر متباينة من السلوك، وتستثار استجابة لمنبهات أو إشارات متباينة، ومن ثم يمكن فهم القلق في نسق «متصل» يتدرج بين حالات السواء والاضطراب وعلى هذا المتصل يختلف القلق من قلق موضوعي أو عادي إلى قلق عصبي أو مرضي.

وينطوي القلق، في كل مستوياته على حالة انفعالية مؤلمة أو غير سارة إزاء منبهات الخطر أو التهديد، يخبرها الأشخاص في نزعتهم إلى اللذة أو المتعة، وهي نزعة غريزية. ويمكننا تعريف القلق «Anxiety» بأنه: خبرة عنيفة من الخوف

والتوجس يدركها الفرد كشيء ينبعث من داخله ولا يمت بصلة إلى موقف تهديد خارجي واقعي، والإنسان عندما يقترب من مرحلة الشيخوخة، يصبح أكثر عرضة للقلق، ويمكننا تعريف

تفسير القلق عند بعض علماء النفس:

١- تصورات فرويد للقلق:

اهتم عالم النفس «فرويد» بدراسة ظاهرة القلق، وحاول أن يعرف سبب نشأته عند الفرد. حيث أنّه يميز بين نوعين من القلق هما:

- القلق الموضوعي:

حينما يدرك الفرد أن مصدر القلق خارجي، نقول أن الفرد يعاني قلقاً موضوعياً ويعرف «فرويد» القلق الموضوعي بأنه «رد فعل لخطر خارجي معروف» فمصدر الخطر في القلق الموضوعي يوجد في العالم الخارجي وهو خطر محدد. وهذا النوع من القلق أقرب إلى الخوف؛ لأن مصدره يكون واضح المعالم لدى الفرد.

- القلق العصابي:

يمكن تعريف القلق العصابي بأنه خوف غامض غير مفهوم، لا يستطيع الشخص أن يشعر به أو يعرف سببه، فهو رد فعل لخطر غريزي داخلي، ويتضح من هذا التعريف أنّ مصدر القلق العصابي يكمن داخل الشخص في الجانب الذي يطلق عليه «الهو» فيخاف الفرد من أن تغرقه وتسيطر عليه نزعة غريزية لا يمكن ضبطها أو التحكم بها.

٢- تفسير القلق عند «أتورانك»:

يفسر «أتورانك» القلق على أساس الصدمة الأولى وهي صدمة الميلاد، فانفصال الوليد عن الأم هو الصدمة الأولى. فالفطام سيثير لدى الطفل القلق؛ لأنه يتضمن انفصالاً عن ثدي الأم، والذهاب إلى المدرسة يثير القلق؛ لأنه يتضمن الانفصال عن الأم، وكذلك الزواج يثير القلق لأنه يتضمن الانفصال عن الأم. فالقلق في رأي «أتورانك» هو الخوف الذي تضمنه هذه الانفصالات جميع مراحل حياته هما: خوف الحياة وخوف الموت. يعتقد «يونغ» أن القلق عبارة عن «رد فعل يقوم به الفرد حينما تغزو عقله قوى وخيالات غير معقولة صادرة عن اللاشعور الجمعي». فالقلق هو خوف من سيطرة اللاشعور الجمعي غير المعقولة التي مازالت باقية فيه من حياة الإنسان البدائية.

٣- القلق عند «هورني»:

تحليل «هورني» للقلق يختلف اختلافاً واضحاً عما يذهب إليه «فرويد»، فالتحليل يقود مباشرة إلى القول بوجود ثلاثة عناصر أساسية في هذه الحالات هي الشعور بالعجز والشعور بالعداوة والشعور بالانفراد أو العزلة.

أعراض القلق:

يترافق القلق باضطرابات فيزيولوجية ونفسية مختلفة تكون بمثابة مظاهر أو أعراض له وهي تتفاوت من حيث الشدة تبعاً لشدة القلق. ومن هذه الأعراض مايلي:

أ. الأعراض المزاجية:

تتكون الأعراض المزاجية للقلق بشكل أولي من التوتر والهلع والخشية أو الخوف من الشر أو خطر مرتقب والاكتئاب والتهيج أعراضاً ثانوية للقلق؛ لأنها تنبع من حقيقة أنّ الفرد ربما لا يرى حلاً لمشكلاته ويستسلم لشعور العجز.

ب. الأعراض المعرفية:

يمكن تمييز ثلاثة أنواع من العمليات المعرفية المرتبطة بالقلق فالأفراد الذين يعانون من القلق ينتبهون بطريقة انتقائية للمعلومات المتعلقة بالتهديد أو الخطر- وتنشط لديهم على نحو يزيد من تدفق المعلومات المتعلقة بالخطر- ويظهرون تحيزاً تفسيرياً يفضل المعاني الأكثر تهديداً والمشتقة من المعلومات الغامضة وفيما يتعلق بمحتوى التفكير فقد وجد أن القلق يشتمل على هموم وسواسية والحديث السلبي مع الذات.

ج. الأعراض الجسمية:

تشمل الأعراض الجسمية زيادة ضربات القلب جفاف في الحلق، وضيق في التنفس، وجع في الرأس، والتعرّق، وشعور بالتوتر العضلي وهذه الأعراض الأولية تعكس مستوى عالياً من الاستثارة وهي أعراض فورية.

أمّا الأعراض المتأخرة فتنتج عن استمرار القلق وتبدأ بارتفاع ضغط الدم المزمن والصداع والاضطرابات المعوية وتعكس هذه الأعراض إجهاداً أو انهيار الجهاز الفيزيولوجي نابعاً من الاستثارة الممتدة.

د. الأعراض الحركية:

غالباً ما يبدي الأشخاص الذين يعانون القلق أعراضاً من عدم الاستقرار والتململ والنشاط الحركي الكلي مثل هز القدم والاستجابات الترويعية المفرطة إزاء صوت مفاجئ وتعكس هذه الأعراض الحركية مستويات عالية من الاستثارة المعرفية والجسمية لدى الفرد ومحاولاته لحماية نفسه. وقد يؤدي القلق بصاحبه إلى تناول الخمر أو الحبوب المنومة والمهدئة كمحاولة للتخفيف من أعراض القلق مما قد يؤدي إلى حالات إدمان.

العوامل المؤدية للقلق:

١- العوامل الوراثية:

أكدت الدراسات والأبحاث التي قام بها علماء النفس على التوائم مشابهة الجهاز العصبي اللاإرادي واستجابته للمنبهات الخارجية والداخلية ولهذا قرر علماء النفس أنّ الوراثة تلعب دوراً فعالاً في الاستعداد للمرض. فالمولود يأتي إلى العالم وهو مزود بقابليات واستعدادات متنوعة. منها ما يجعل بعض الناس أقدر على تحمل الأمراض ومواجهة التجارب الشديدة ومنها ما يؤهل آخرين للوقوع فريسة لعدد من الاضطرابات البدنية والنفسية ومازال البحث في هذا المجال مستمراً.

٢- العوامل الاجتماعية:

يمكن للقلق أن يكون سبباً للظروف الاجتماعية التي ينشأ فيها فالقلق يصيب جميع الطبقات والفئات صغاراً وكباراً نساءً ورجالاً الأغنياء والفقراء. والجو الأسري الذي يسوده الشقاق وسوء التفاهم وإهمال الوالدين، ومطامح الإنسان عندما تتعدى حدود قدراته وإمكانياته، كل ذلك يؤدي إلى زيادة القلق. ويزداد أيضاً في المجتمع الذي ترتكز قيمه على التفوق المادي والصراع من أجل البقاء

٣- العوامل النفسية:

قد ينجم القلق عن أحد الأسباب التالية:

- نزوع الغرائز القوية «كالجنس والعدوان» نحو التحقيق وعدم قدرة الفرد على كبحها.
- تبني الفرد معتقدات متناقضة أو مخالفة لسلوكه الظاهري أي عدم تطابق أقواله مع أفعاله.
- الأفكار والمشاعر المكبوتة والخيالات والتصورات الشاذة والذكريات اللاأخلاقية التي تترك شعوراً بالذنب وامتعاضاً في الضمير.
- الصراع النفسي الذي يعاني منه الفرد ومصدر ذلك الصراع والدوافع الفردية.
- عدم رضا الفرد عن نفسه.

أنواع القلق:

إنّ القلق يتفاوت من درجات منخفضة إلى درجات شديدة ومن حالات دائمة إلى حالات مؤقتة. ومن أهم أنواع القلق:

- **القلق العادي المؤقت:** وهو القلق الذي تسببه مواقف معينة وتختلف حدته حسب الظروف التي تسببه.
- **القلق المزمن:** هو القلق الذي يحدث عندما يرتكب الإنسان أي مخالفة للضمير.
- **القلق العصابي:** قلق شديد يتشكل

على شكل نوبات وتعبر أعراضه النفسية والفيزيولوجية عن اضطراب داخلي يكون أشد بكثير مما يظهر في حالة القلق المألوفة.

مسار القلق:

- **القلق الحاد:** غالباً ما يبدأ بصورة مفاجئة لسبب واضح ومهم أو بسيط وتزداد الأعراض خلال أيام أو أسابيع وإذا تمت معالجته الصحيحة السريعة يتجاوب بسرعة، ويحتاج لفترة علاج ما بين (٦-٩) شهور.

- **القلق المزمن:** يبدأ بشكل تدريجي وتزداد أعراضه مع الوقت، وفي الغالب هو قلق بدأ بشكل حاد ولكنه لم يعالج ولم يشف منه فتحول إلى مزمن.

- **القلق المتكرر:** ويكون بشكل متكرر بين فترة وأخرى بمناسبة أو من دون مناسبة، وقد يكون التكرار كل بضع سنوات أو شهور، على سبيل المثال يتكرر في مراحل التغير المختلفة من حياة الفرد مثل دخول الجامعة وبداية حياته العملية والزواج.

المواقف المثيرة للقلق:

قد يستثار القلق على وجه العموم بأي موقف يهدد تكامل الكائن الحي فيمكن لأي مثير أن يكتسب هذه الصفة مع التسليم بأنه يتضمن التهديد لقيمة ضرورية، ونظراً لأن هذه المثيرات تتحدد بدرجة كبيرة من خلال خبرة الفرد وتعلمه، فإن مجموعة كبيرة من المثيرات قد تستثير القلق. إلا أننا لا نستطيع أن نميز بين مجموعة المثيرات التي يحتمل أن تكون باعثة للقلق في معظم الناس، ويطلق على هذه المجموعة من المثيرات مصطلح الضغوط. ويمكن أن نتصور وجود كل متصل من المثيرات التي تختلف في معناها بالنسبة للفرد وبالنسبة لآثارها في بعث حالة القلق.

وفي أحد طرفي هذا الكل المتصل توجد مثيرات غاية في الرمزية ليس لها إلا معنى محدد من الأشخاص في حين تبدو لغيرهم تافهة غير ضارة وفي الطرف الآخر توجد المثيرات «الضغوط» التي تكون شبه عامة.

ويمكن اعتبار القلق باعثاً أو حافزاً على السلوك، والمعروف أنَّ الشخص يمتثل للتوقعات الاجتماعية عن طريق إشعاره بما يهدد شعوره بالأمن، إنَّ التهديد يجعله قلقاً إذا لم يمتثل للتوقعات الاجتماعية، إنَّ تهديدات القلق تغذي كثيراً من الممارسات المقبولة لدى المجتمع، وتصبح الضوابط الخارجية داخلية أي يمتصها الشخص، وتظهر في شكل ضميره الخلقي، وعلى ذلك يشعر الشخص بمزيد من الارتياح عندما يتصرف وفقاً لما يتوقع منه المجتمع، عن فكرة سلوكه خلافاً لما يتوقع منه المجتمع

تجعله يشعر بالذنب واللوم ومن ثم يثير مشاعر القلق. ونظراً لأنّ القلق شعور غير سار فإنّ الإنسان يسعى لتحاشيه وفقاً لما يمليه عليه ضميره الخلقي.

ويعتبر القلق في الظروف العادية مصدراً من مصادر الدافعية، ويقود مثله في ذلك مثل بقية مصادر الدافعية، ويوجه السلوك نحو هدف والهدف في حالة القلق هو خفض مستوى القلق الناتج عن عدم إشباع الدافع.

إنّ التوافق الجيد يقتضي قدراً معقولاً من القلق المثير للدافعية، والمعين على الالتفاف حول العوائق، فإذا فقد الإنسان السيطرة على التحكم في مستوى القلق، فإنّ زيادة هذا القلق واستمراره يعيق التوافق ويقود إلى آثار سلبية، بل قد يشتد القلق ويستمر ليصبح مرضاً نفسياً، وقد يظهر في صورة أعراض جسمية مختلفة ليس لها أساس عضوي فيما يعرف باسم الأمراض النفسجسمية.

ومن المهم أن نؤكد أن التحفز في ذاته والاهتمام وبعد النظر والتفكير للمستقبل، بل الخوف أيضاً من مستلزمات الحياة التي تعين على النجاح فيها، ولكنها إذا اتخذت صورة غير عادية بشكل مبالغ فيه كما في حالات القلق العصابي فإنها تصبح حرباً على صاحبها.

إذن، لابد أن يجد كل شخص نفسه قلقاً وخائفاً ومتشككاً في بعض المواقف، ولا يصح له أن يجزع من ذلك أو يعتبر نفسه مريضاً. وإنّما إذا ظهرت عنده هذه الأعراض في صورة شاذة فعليه أن يستشير المختص النفسي.

علاج القلق:

هناك أربعة أهداف للعلاج:

١- السيطرة على جوهر الأيض.

٢- التغلب على المخاوف المرضية أو الفوبيا.

٣- تناول الضغوط النفسية البيئية.

٤- الرعاية على المدى الطويل.

وفي الماضي كان المسار الشائع للعلاج يتضمن عدة خطوات، فكان المريض يعالج أولاً بالعلاج النفسي أي العلاج بالكلام بهدف تناول الأسباب النفسية، فإذا فشل هذا بعد بضعة شهور يحول المريض إلى المختص النفسي الذي يستخدم العلاج السلوكي للتخلص من المخاوف المرضية مع تدريبه على طرق الاسترخاء، فإنّ لم يتم التحسن فإن المريض يعالج عندئذ بالمهدئات الخفيفة أو البسيطة.

والخبرات الحديثة في علاج القلق تبين أنه يجب عكس هذا الترتيب في العلاج فتحاول العلاج بالأدوية أولاً ثم العلاج

السـلوكي ثانياً ثم العلاج النفسي ثالثاً. إن جوهر الأيض في المرض هو السبب الأقوى في القلق وأنه من العسـير أن نحصـل على تقدم مقبول في علاج القلق من دون السيطرة على الأساس الفيزيولوجي له بالأدوية. فإذا ما تحقق ذلك أصـبح من الأيسر أن نتغلب على المخاوف المرضـية بالعلاج السلوكي ثم نتجـه إلى التخفيف من الضـغوط البيئية التي تزيد من القلق ثم نحاول منع النكسات عن طريق توعية المريض وضمان الرعاية له على المدى الطويل.

المراجع

١- صبحي، سيد(٢٠٠٣م)، الإنسان وصحته النفسية، القاهرة، مكتبة الأسرة.

٢- طـه، فرج عبد القادر؛ قنديل، شـاكر عطية؛ محمد، حسـين عبـد القادر؛ عبد الفتاح، مصـطفى كامل (١٩٩٣م)، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، ط(١)، الكويت، دار سعاد الصباح.

3- Oliver, P. John. et al.(2008), Handbook of personality; theory and research, 3d ed.Reference and Research Book News. Portland. Vol. (23), Iss. 4, Nov.

4- Wilson, G. & Terence, N. & Peter, E. & OLeary, K. Daniel & Clark, Lee Anna.(1996), Abnormal psychology integrating perspective, Allyn and Bacon, boston.

النفوذ الاجتماعي

بين القوانين الوضعية النافذة والمعطيات الاجتماعية التقليدية

محمد علي درويش ✪

إذا تفحصنا العلاقة بين المدير والموظف، الضابط والجندي، الأب والابن، السياسي والناخب، الطبيب والمريض، والمدرّس والتلميذ، فكل هؤلاء يشتركون في صفة أنّ أحدهما له نفوذ اجتماعي أكثر من الآخر، وهذا ينطبق على معظم أعضاء أي جماعة لأنَّ النفوذ الاجتماعي لا يقسم بالتساوي إلا نادراً، ويمكن الإشارة هنا إلى وجود النفوذ الاجتماعي النسبي لمجموعتين، غير أننا سنركز هنا على النفوذ الاجتماعي متمثلاً في التفاعل بين شخصين أو بين أعضاء جماعة صغيرة، لأنَّ مركز سيكولوجيا الاجتماع يكون على هذا المستوى، ولأنَّ اتجاهات البحث في وحدات أكبر من حيث النفوذ الاجتماعي تكون نادرة.

يختص النفوذ الاجتماعي بالعلاقة بين شخصين أو أكثر وأفضل فهم له يتمثل في تبادل الرأي، وعلى سبيل المثال فإنَّ قوة النفوذ الاجتماعي للشخص (أ) على الشخص (ب) تعتبر عملاً مشتركا لمقدرته على التأثير على استنتاجات الشخص (ب) بالنسبة لاستنتاجاته هو نفسه.

وتستخدم قوة النفوذ الاجتماعي غالباً في التأثير على سلوك الآخرين غير أنَّ مفهومها يتميز عن التأثير، وربما يتمتع الشخص بنفوذ اجتماعي كبير إلا أنّه لايستخدمه إلا

✪ ناقد وأديب سوري.

نــادراً، ولا ينبع النفــوذ الاجتماعي مباشرة من الصــفات الشخصية للفرد وإنَّما يعتمد على العلاقة بين الفــرد ومكان العلاقة في سياق البنية الاجتماعية الأكبر. وعلى سبيل المثال فإنَّ قوة رئيس مؤسسة ما تنبع أساساً من السلطة المناطة بموقعه، والتي تمكنه من اتخاذ القرارات التي تؤثر تأثيراً جذرياً على الموظفين وأسلوب إدارة المؤسسة.

وحتى في العلاقة والتفاعل بين صديقين فــإنَّ النفــوذ الاجتماعي لكل منهما ينشــأ من صــفات معينة مــن العلاقــات بينهما وعلاقاتهمــا مع الأشــخاص الآخرين، وفي العلاقــات والتفاعلات المســتمرة فــإنَّ أي اســتخدام للنفوذ ينطــوي علــى تكلفات ومكافآت مــن الجانبين وينتهي بنتاجات معينــة لهما. فمثلاً الطفــل الذي يعمل ما يريده هو وسط عاصفة من غضب الوالدين فإنَّه يحصــل على نتاج العمل. غير أنَّ ذلك تمَّ بتكلفــة أنَّ الطفــل عمل شــيئاً لا يريده الوالدان. ونلاحظ هنا الاعتمادية المتبادلة من الطفــل على الوالدين (اللذين يتحكمان في العقــاب والمكافأة). ومــن الوالدين على الطفل (الذي يريد أن يســلك طبقاً لمستوى معــين). وهــذه الاعتماديــة المتبادلة هي أساس النفوذ الذي يتمتع به أي منهما على الآخر.

وهذا يعني أنَّ أي ممارسة للنفوذ تنطوي على تبادل، وإنَّ الشــخص الأقوى نفوذاً ربما يحصــل على الطاعة من الأقل نفوذاً ولكن في المقابل يتوقع منه إبداء الاستحسان والتوصية الحسنة مثلاً.

حدود النفوذ الاجتماعي

هنالك ثلاث صــفات لعلاقات متداخلة تحــدد مدى النفوذ الذي يتمكن الأفراد من ممارسته في أوضاع معينة :

١-المورد

٢- الاعتماديات

٣- البدائل.

فالمورد هو صفة أو حال شرطية للفرد- خاصــية، تعزى إلى المظهر أو للشخصــية، الموقــع الذي يشــغله، أو أســلوب معين في الســلوك. الذي يمكنه من تعديــل المكافأة والتكلفة الممارســة من شــخص آخــر. إنَّ قيمة المورد تحددها أساســاً الاعتمادية من شخص آخر. وعلى سبيل المثال جمال المرأة مورد فقط بالنســبة للرجال الذين يجذبهم الجمال الأنثوي. كما أنَّ قيمة المورد تختلف باختلاف الأوضــاع: وبعض الأوضاع تخلق اعتماداً مؤقتــاً، ففي حالات الطوارئ ربما تحتاج مجموعة ما إلى خبير لحل المشــكلة. إنَّ قابليات التأثير في العلاقة بين شخصين لا تعتمد على صــفات كل شــخص والوضع

وإنما تمتد أيضاً إلى الموارد البديلة. فإنّ قوة الخبير مثلاً تعتمد على ندرة الشخص وخبرته وندرة مصادر موارد الخبير، الاعتماديات والبدائل.

المكافأة والنفوذ القسري

أوّل نوع من أنواع النفوذ هو نفوذ المكافأة، وهذا النوع يمارس من الشخص (أ) على الشخص (ب) ويعتمد على إدراك (ب) أن (أ) له القدرة على مكافأته. فالمدير له نفوذ على الموظف لأنّه يعرف أنّ المدير له القدرة على التوصية برفع الأجور أو التوصية بالترفيع. أمّا النوع الثاني من أنواع النفوذ هو النفوذ القسري، ويعتمد على إدراك الشخص (ب) على أن للشخص (أ) القدرة على عقابه. فمثلاً المدير له القدرة على وقف العلاوات أو الترفيع أو حتى الفصل من العمل.

وهذه النوعية من النفوذ تتشابه في بعض جوانبها. وفي كلا النوعين المذكورين من النفوذ يتحدد النفوذ على مدى من السلوك الذي يُظهِرُ فيه الشخص (أ) القدرة على معاقبة الشخص (ب).. إنّ قوة كليهما تبدو كوظيفة مشتركة لمقدار المكافأة والعقاب المعين والاحتمالات المقدرة، إن هذه الوسائل يمكن التعرض لها إذا رضخ الشخص (ب) أو لم يرضخ لنفوذ الشخص (أ).

وتعتمل هذه الاحتمالات المقدرة بعاملين أولهما المدى الذي يعتقد الشخص (ب) أنّ الشخص (أ) يشرف عليه فكلما كبر مدى الإشراف من قبل (أ) كلما كبر اعتقاد الشخص (ب) أنّ سلوكه يعرضه للمكافأة أو العقاب من قبل (أ).

والعامل الآخر تاريخ العلاقة الماضية بين (أ) و(ب) فإذا كان المدير نادراً ما يعاقب أو يكافئ الموظف فإنّ قوة نفوذه في المكافأة أو النفوذ القسري يكون ضعيفاً بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

كما أن تأثير العقاب أو المكافأة يعتمد أيضاً على مدى دقة تقييم (أ) للسلوك الموجب للمكافأة أو العقاب بالنسبة لـ (ب). وهنالك فرق بين أسلوب المكافأة وأسلوب النفوذ القسري يمكن الإشارة إليه وهو أنّ الإشراف الأمثل يكون أشد صعوبة في حالة التلويح بأسلوب النفوذ القسري لأنّ الأشخاص في هذه الحالة يعكسون السلوك الجالب للمكافأة. ويحاولون إخفاء السلوك المؤدي للعقاب.. وهكذا يغدو النفوذ القسري أكثر تكلفة بالنسبة للشخص (أ) من استخدام المكافأة طالما وجب عليه تحويل طاقاته من نشاطات أخرى للاستمرار في المراقبة الضرورية للموقف.

نفوذ الإسناد

يتصف نفوذ المكافأة بخاصية يفتقر إليها النفوذ القسري مما يجعل نفوذ المكافأة مؤهلا للتحول تدريجيا إلى نفوذ إسناد. ويعتمد نفوذ الإسناد على الارتباط إلى درجة أن انجذاب (ب) إلى (أ) يجعله مندمجاً فيه وبالتالي متأثراً بسلوكه. والتفسير الممكن لتحول المكافأة إلى نفوذ اسناد أولاً أن استخدام أسلوب المكافأة من قبل (أ) يجعله جذاباً لـ(ب) وثانياً جاذبية (أ) تجعله شيئا للارتباط. إنَّ نفوذ المكافأة الذي يجعل (أ) جذاباً يظهر في أنَّ الرؤساء الذين تتركز أساليبهم فقط في وسيلة المكافأة وحدها يكونون محبوبين أكثر من أولئك الذين تنحصر أساليبهم في أسلوب العقاب.

ويرى بعض الباحثين أنَّ قوة نفوذ الإسناد لـ(أ) على (ب) وأيضاً مدى السلوك الذي تطبق عليه سيختلف بجاذبية (أ) إلى (ب). ويفرق الباحثون بين نفوذ الوالدين وضابط الشرطة، فنفوذ الوالدين غالباً ما يكون نفوذ إسناد إلا أنَّ نفوذ الشرطة يعتمد أساساً على النفوذ القسري. وهكذا نجد أنَّ الأطفال قد يسلكون سلوكاً حسناً في غياب الوالدين إلا أنَّ قواعد المرور كثيراً ما يتم خرقها في غياب رجل المرور.

نفوذ الخبير

يعتمد نفوذ الخبير على تصور (ب) على أنَّ (أ) يمتلك معرفة خاصة بوضع معين كما هو ظاهر في حالة المريض الذي يتأثر بطبيبه عندما يطلب منه اتباع حمية معينة. إنَّ المكافأة المتحصل عليها بوساطة (ب) من خلال التعرف على نفوذ خبرة (أ) تتضمن مشاعر الثقة والتأكد من أن مجريات الأمور على ما يرام. إن التكلفة التي يمكن تجنبها استشارة الخبير هي الشعور بالشكل والخوف من ارتكاب الأخطاء. وتختلف قوة مثل هذا النوع من النفوذ حسب الخبرة المنسوبة إلى (أ) من قبل (ب) ومع أنَّ سلطة الخبير تكون عادة محدودة بسلوك متصل بمجال خبرته فإنَّ الخبراء في مجال واحد ربما يدعمون توقعات الكفاءة في مجالات أخرى أيضاً.

السلطة الشرعية

تعتمد السلطة الشرعية على قبول (ب) معايير وقيم ذاتية تؤدي إلى السلوك بطريقة معينة. وهذا ربما يتضمن قبول نفوذ (أ) بمقتضى صفات معينة مثل العمر، الطبقة الاجتماعية، أو بمقتضى موقعه في هيئة معروفة أو لأنَّه قد تمَّ تعيينه بسلطة أعطته حقاً شرعياً لمراقبة سلوك (ب) في مجال أو أكثر.

وتتمثل طبيعة تبادل ممارسة السلطة الشرعية في شعور الأفراد بالرضا عندما ينسجم سلوكهم مع المعايير والقيم التي يحملونها، وعندما لا ينسجم شعورهم فإنّهم يدفعون الثمن في شكل الشعور بالذنب. وربما يتلقى كلا الفريقين مكافآت أو عقاباً من مصادر خارجية. ومثال سيادة السلطة الشرعية: السلطة التي يتمتع بها الضابط العسكري، الهيئة التنفيذية، المسؤولون الحكوميون، والوالدان في بعض الجوانب.

إنَّ استمرار السلوك بسبب ممارسة السلطة الشرعية لا يعتمد على المراقبة ولكن على مقاومة القيم والمعايير الأساسية المتضمنة. وتعتمد قوة السلطة الشرعية على درجة إخلاص (ب) للمعايير والقيم الأساسية.

وعلى الرغم من أنَّ السلطة الشرعية في معظم الأحوال تغطي مساحة واسعة من السلوك إلا أنَّها غالباً ما تكون ضيقة المجال. وعلى سبيل المثال بينما تمارس الأم سلطتها الشرعية على طيف واسع من سلوك أطفالها نجد أنَّ مدير العمل في شركة ما تنحصر سلطته الشرعية على الموظفين في ما يختص بالعمل فقط.

عمليات النفوذ

يتضح لنا مما سبق ذكره أنَّه ينبغي أن لا نفهم السلطة على أنَّها ترجع إلى شخص واحد فإنَّ ممارسة السلطة ما هي إلا عمل لخصائص المؤثر والمتأثر إضافة إلى الآخرين المتواجدين في المجال. إلا أنَّه ينبغي أن تتجه التحاليل إلى أبعد من ذلك. وينبغي أن تختبر السلطة في سياق تفاعل الأساليب الجارية.

ومن وجهة نظر نظرية التبادل فإنَّ فهم السلطة على أنَّها الوسيلة التي يجري بها الشخص تغييرات في سلوك شخص آخر، ليس كافياً لأنَّه يتجاهل الاتساق المتضمن في فكرة التبادل. وبذلك فإنَّ كلا الشخصين يتأثران ويؤثران.. إنَّما يتبادلان السلوك الناتج عن تفاعلهما مع تكاليف ومكافآت معينة. ويختلف التبادل تبعاً لنوع السلطة الممارسة، فعندما يذعن الموظف بالسلطة الشرعية لمديره فإنَّه يتلقى استحساناً في مقابل ذلك ومن وراء ذلك تكمن بالطبع سلطة المدير في تسهيل أو تصعيب تقدم الموظف في سلم الوظيفة.

تبعات السلطة العليا المتساوية:

العلاقات المتوازنة

إذا كان هنالك عضوان في مجموعة لهما سلطة عليا على بعضهما البعض فإنَّ أي

منهما ربما يبدو بسلطة متوازنة في مقابل الآخر وبذلك يتم إفراز الحد الأدنى من التأثير المتبادل. وربما يبدو أنَّ كل شخص، باعتماده كثيراً على الآخر، فإنَّه يكون متردداً بشأن إعلان مطالبه، لأنَّ الآخر أيضاً تكون له مطالب مماثلة. وربما تكون موجبات النزاع أكثر احتمالاً في مثل هذه الظروف.

وتبرهن الملاحظات اليومية أنَّ الأشخاص الأصدقاء المقربين يمارسون تأثيراً عظيماً على بعضهما البعض وفي الوقت نفسه يحتفظون بعلاقات حبية. ويحدث ذلك بسبب سيادة بعض الإجراءات التي تبعد النزاعات. فمثلاً يلجأ الجانبان إلى تحديد قيم متنوعة لأنشطة مختلفة. ففي نشاط معين يفسح أحد الجانبين المجال للجانب الآخر. فمثلاً صديقان تختلف ميولهما ربما يتفقان على الذهاب إلى التزحلق على الجليد أسبوعاً ثم الذهاب إلى لعب التنس في الأسبوع الذي يليه فهنا تقوم المعايير بالتوجيه. وفي موقف آخر تقوم المعايير بتوجيه المناوبة عندما يكون هنالك طفلان لهما نفوذ متساو ودافع متساو ولهما لعبة واحدة يتفقان على التناوب في استخدامها. وموقف ثالث عندما يكون هنالك شخصان ليسا متساويين تماماً في النفوذ فإنَّ المشكلة يمكن تجنبها باذعان الأقل نفوذاً.

العلاقات غير المتوازنة

يقول الباحث الإنكليزي «إميرسون» (Emerson) إنَّ العلاقة غير المتوازنة تكون غير مستقرة نسبة لأنَّها تشجع على استخدام السلطة وهو ما يقود إلى عمليات التوازن ويظهر ذلك في المثال الافتراضي التالي: على افتراض أنَّ شخصين (أ) و(ب) على علاقة حب فإذا قلّت عاطفة أحدهما (أ) مثلاً وبقيت عاطفة الآخر (ب) كما هي ففي هذه الحالة فإنَّ سلطة (أ) على (ب) أقوى من سلطة (ب) على (أ).

صيانة الخلافات في السلطة

حيث يكون من الأساسي صيانة خلافات السلطة، فإنَّ مختلف أشكال البنية الاجتماعية تتفاعل لإيقاف تقدم الاعتمادية المتبادلة. في الجيش، الضباط. والمتطوعون مميزون بعض الشيء وهنالك درجة من الرسميات في علاقاتهم كما يبدو من ممارسة التحية واستخدام الأسماء والرتب. كذلك في المؤسسات الكبرى يقيم كبار الإداريين حواجز بينهم وبين الموظفين مثل صالات الطعام الخاصة ودورات المياه.

إنَّ أخطر اعتمادية تنمو بين كبار الموظفين وصغارهم هي الصداقة والتي تفسد عنصر النفوذ المطلوب لتسيير المنظمة بشكل صحيح. ويظهر هذا الموقف أيضاً في

حالة العلاقة بين الأستاذ والتلميذ والضابط والجندي.. ففي كل هذا النوع من الأوضاع يظل من الضروري لإنجاز أهداف المنظمة أنَّ يحتفظ المدير بسلطة القرار وضبط العلاقة.

إدراك السلطة

إنَّ السلطة عنصر حيوي وفارض وجوده في المعاملات مما يجعل معظم الناس حساسين اتجاهها. وفي دراسة للسلطة أجريت على معسكرات الأولاد، اتضح أنَّ الأولاد يدركون بشكل دقيق السلطة النسبية لأفراد الجماعة، بما في ذلك سلطاتهم وأنَّ محاولات كل فتى للتأثير على الآخر مقيدة بهذه المفاهيم.. فإنَّ الذين يتصورون أنفسهم أصحاب سلطة عالية يقومون بمحاولات أكثر للتأثير على الآخرين. وأشارت دراسة أخرى أجريت على متطوعي القوات الجوية إلى النتائج نفسها.

وخلاصة القول إنّه عندما يتم فحص ممارسة السلطة في سياق التفاعل، فإنَّ عدداً من المقومات تكون متصلة بذلك. أي ممارسة هي عبارة عن تبادل بين أشخاص، وغالباً ما يكون تبادلاً متنافراً للسلوك يختلف في القيمة بالنسبة لكل جانب. وتبدو السلطة كوظيفة مباشرة لاعتمادية (ب) على (أ). وكلما امتدت اعتمادية (ب) كلما امتدت سلطة (أ) على (ب).

وربما تكون الاعتمادية متبادلة أو متوازنة، أو ربما تكون مشتقة وغير متوازنة مع أن يكون أحد الشخصين أكثر اعتماداً.. ويقود مثل هذا النوع من الوضع غير المتوازن غالباً إلى جهود لتقييم التوازن.. ومثل هذه التوازنات بما في ذلك الانسحاب من العلاقة، تشكل علاقة بديلة، تزيد حالة ومحصلة اعتمادية الشخص ذي السلطة القوية، وتؤدي إلى تشكيل تحالفات. والتوازن لا يحدث دائماً، وإنَّما تتفاعل عناصر البنية الاجتماعية لحفظ الخلافات في السلطة.

العدالة الاجتماعية..
علم أصيل وفن رصين

منيب هائل اليوسفي *



من الثابت أنَّ كل ما له علاقة بالأخلاق له علاقة بالقانون، فالقانون لا يفرض الأخلاق ولا يستحدثها بل هو سياج لها يحميها ويصونها، فالأخلاق أوّلاً ومن ثم القانون ثانياً، ويتجسد ويصبح ذلك أكثر وضوحاً في العلاقات الاجتماعية ولاسيما في العلاقات الأسرية، ويرتبط مفهوم الأخلاق وتقديم الخدمة الإنسانية والاجتماعية في أذهان الكثيرين بأعمال البر والإحسان وإيتاء الصدقات وتقديم العون للمحتاج والمريض والعاجز واليتيم، ويردد بعض من الناس أنَّ الخدمة الإنسانية أو الاجتماعية ليست مهنة ولكنها واجب إنساني وأخلاقي حث عليه جميع الأديان

* محام وباحث في القانون العام.

ومارسه الإنسان لمعونة أخيه الإنسان منذ بدء الخليقة.

ونسمع آخرين ينادون بأنّ الخدمة الاجتماعية نشاط إنساني دونما حاجة إلى إعداد أو تخصص؛ فالآباء وأعضاء الأسرة الواحدة والأطباء والمعلمون ورجال الدين والقانون.. كل هؤلاء يقومون بدور إيجابي في خدمة الناس والمجتمع مع أنهم لم يتدربوا على الخدمة الاجتماعية ولم يتمرسوا بفنونها في المدارس المهنية المعدة لهذا الغرض.

وفي رأي هذا الفريق أنّ المعيار الصحيح الذي يمكن اتخاذه أساساً للتمييز بين الأعمال التي تعتبر من الخدمة الاجتماعية والأعمال التي لا تعتبر كذلك، إنّما هو الدافع من وراء هذا العمل والنوايا التي ينطوي عليها وبمقتضى هذه النظرة اعتبرت الخدمة الإنسانية «جهوداً تنطوي على الإخلاص وتقوم على أسلوب منظم موجه نحو الأفراد الذين تأخر تقدمهم بسبب ضعف صحي أو اضطراب في علاقاتهم العائلية أو الاجتماعية».

ولا شك في أن الدافع الذي يبعث المرء على إتيان الخير أو إسداء النصح للغير هو الجوهر الحقيقي لكل عمل إنساني، وهو الذي يضفي على هذا العمل قيمته الإنسانية.

وما لم يثق الإنسان الذي يتلقى العون من إنسان آخر بأن معونته خالصة من الشوائب منزهة عن المآرب، لا يستطيع أن يتقبل هذا العون وعندما تضطره ظروفه لقبوله فأغلب الظن أنّه لن يفيد منه الفائدة المرجوة ولن يكون له في نفسه الأثر المستحب.

على أن توافر الدوافع الطيبة والنوايا الصالحة ليس هو كل ما يهم في التعامل مع أناس يتخبطون في مشاكلهم ويتعثرون في خطاهم فالمساعدة التي يسديها الوالد لولده أو المعلم لتلميذه أو الصديق لصديقه بدافع من المحبة والغيرة يمكن أن يكون لها نفعها إذا ما كان الشخص المرغوب في مساعدته يتمتع بشخصية سوية أي إذا كان ينظر للحياة نظرة إيجابية ويرغب في التعاون من أجل إيجاد حل للمشكلة التي يعاني منها إذا كانت لديه مشكلة ما.

ولكن الملاحظ بوجه عام إنّ كثيراً ممن تستدعي أحوالهم إسداء العون أو النصح لهم هم أناس يعانون من اضطراب في الشخصية، فالأشخاص الذين يتعذر عليهم التعامل مع غيرهم من الناس والمشاكسون والمتهيبون وغير المتعاونين أو أولئك الذين لديهم نزعة إجرامية إنّما يعانون جميعاً من سوء التوافق النفسي.

و أمثال هؤلاء لن تنفع معهم نصيحة رائدها الصدق أو معونة مبعثها الإخلاص وربما انقلبت النصيحة إساءة والمعونة مضرة بالنسبة إليهم.

ولنضرب لذلك مثلاً بالسيارة التي أقودها

بمهارة لأني بطبعي أتجاوب بسرعة كما أنّ نظري سليم يميز الرؤية بوضوح فضلاً عن كوني أتقن استخدام أدوات القيادة وكل هذا حسن وجميل طالما كانت السيارة تسير من دون أن يطرأ عليها أي خلل ما.

لكن حينما يصاب أحد أجهزتها بخلل لن يكون في وسعي إلا القعود مكتوف اليدين حتى يهرع لنجدتي من هم أكثر مني خبرة في شؤون ميكانيكية السيارة.

وهكذا الحال بالنسبة للعلاقات الإنسانية إذ قد تكفي النوايا الطيبة وحسن الإدراك في التعامل مع شخص طبيعي وفي وضع سليم.

لكن قدراً كبيراً من الخلل يمكن أن يدب في نفوس البشر وكلما كبر الخلل اشتدت الحاجة إلى المعرفة والتخصص وإلى الخبرة والمهارة لعلاجه وإصلاح أمره.

وفي مقدورنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنؤكد بأنّ الضرر كثيراً ما يصدر عن إنسان خالص النية كريم المقصد، بوسعنا أنّ نسوق هنا بعض الأمثلة العملية على ذلك:

قد تضيق زوجة شابة ذرعاً بحياتها الزوجية الجديدة وتحس بأنّها قد خدعت وأنّ زوجها لا يفهمها فتأنس إلى صديقة تزين لها الطلاق من زوجها والسعي إلى العمل مستقلة عنه، وربما لا يمضي أكثر من أسبوع واحد حتى يكون الزوجان الشابان قد سويا خلافاتهما وصفا الجو بينهما.

في حالة كهذه، لم يحدث ضرر كبير في الواقع، اللهم إلا ما يمس سمعة الصديقة ومكانتها، ولكن من يدري؟ فقد تتطور الأمور إلى أسوأ من ذلك وتنتهي إلى دعوى أمام القضاء ومن ثم إلى انفصال الزوجين عن بعضهما.

أو لنفترض أن سيدة نقية السريرة، هالها ما رأت عليه منزل أحد جيرانها من حيث قذارة غرفه وبؤس أهله فبذلت جهدها ونفوذها في إبعاد أطفال تلك الأسرة عن دارهم وإلحاقهم بإحدى دور رعاية الأطفال.

ترى؟ هل علمت تلك السيدة الخيّرة أيهما أشد عذاباً وإيلاماً للأطفال: هل بقاؤهم في مسكنهم الوضيع حيث المفارش المتسخة والوجبات الرخيصة وندرة وسائل اللعب..؟؟ أم عيشهم في جو تتوافر لهم فيه كل أسباب النظافة والعناية والترفيه بينما يبقون محرومين من عطف آبائهم وأمهاتهم ودفء الحياة في بيوتهم؟

هنالك عشرات الأمثلة للمواقف التي يمكن أن يخدع فيها الإنسان ذو النوايا الطيبة والعواطف السخية ويخطئ الحكم على الأمور.

ولهذا كان لابد لمن يريد أن يتصدى لمهمة مساعدة الناس أن يعتمد الفكر العلمي في تناوله للمواقف الإنسانية والاجتماعية.

وقد ساق لنا الفيلسوف الألماني «شوبنهاور» تشبيهاً طريفاً في هذا المعنى

يستند إلى قصة المقعد والأعمى المشهورة، إذ شبه العاطفة بالرجل الأعمى والفكر بالرجل المقعد.

فمن الواضح أنَّ العاطفة كالرجل الأعمى تملك قوة السير والحركة ولكنها محرومة من نعمة البصر، أي إنَّها تعجز عن رؤية الطريق فلا تستطيع أن تعين الاتجاهات التي يجب أن تسير نحوها.

وأمَّا الفكر شأنه كالرجل المقعد يتمتع ببصر حاد يرى الطريق وكل ما يحيط بالطريق فيستطيع أنْ يعين الاتجاهات التي يجب أن يسير نحوها ولكنه محروم من قدرة الحركة فلا يستطيع أن يسير نحو الأماكن التي يشاهدها بعينه مع أنَّه يدرك وجوب التوجه نحوها وضرورة الوصول إليها.

كذلك الأمر في الخدمة الإنسانية إذ إنَّها وليدة عاطفة الخير يهديها السبيل فكر مستنير يقودها بخطا وئيدة في ضوء فهم شامل لنوازع النفس البشرية ودراية تامة بطرق البحث العلمي ومعرفة بصيرة بأساليب العمل مع الأفراد والجماعات والمجتمعات.

وهذا هو التصور الحديث لطريقة تقديم الخدمة الاجتماعية كما عبر عنها عالم الاجتماع الفرنسي (رينيه ساند rene sand) حين قال: إنها وضع الشعور والميل الاجتماعي موضع التنفيذ مع الاستنارة ببحوث العلوم الاجتماعية.

بيد أنَّ الخدمة الاجتماعية لم تصل إلى ما وصلت إليه من تطور وتقدم في عصرنا هذا إلا بعد أنْ قطعت طريقاً طويلاً حافلاً بالتجارب والمصاعب مليئاً بالنجاح والفشل إذ كان عليها أن تطور فلسفتها وأن تحور أسلوبها باستمرار تبعاً لتطور الفكر الفلسفي والسياسي والقانوني لكل مجتمع وكل عصر.

فمنذ أن استقر الإنسان في الأرض وأنشأ المزارع والقرى واتجهت الأنظار نحو المالك الذي يملك الأرض ويدير شؤون الجماعة باعتباره المسؤول الأول عن مهمة الغوث الاجتماعي.

وفي العصور الوسطى التي سادت فيها تعاليم الأديان كانت الوظيفة الأولى للخدمة الاجتماعية هي منح الصدقات والمعونات وكانت المؤسسات والهيئات الدينية هي المسؤولة عن هذه المهمة.

وبدءاً من القرن السابع عشر ظهرت في العالم الأوروبي لأوّل مرة فكرة مسؤولية الدولة تجاه رعاياها وخاصة أولئك الذين يشكون من علة ما، والذين يعيشون في ظل أوضاع غير إنسانية وذلك عندما صدر في انكلترا عام ١٦٠١م قانون الفقراء المشهور بقانون الملكة اليزابيث، ومنذ ذلك الحين استمرت فكرة مسؤولية الدولة تجاه رعاياها تنمو وتتقدم تدريجياً حتى بلغت أوجها في

عصر النهضة الأوروبية «عصر الاستنارة» حيث حلت فكرة «العدالة الاجتماعية» محل الإحسان الديني وحيث أصبحت شؤون الرعاية الاجتماعية للمواطنين مسؤولية الدولة أكثر مما هي مسؤولية الأفراد والهيئات والمنظمات الدينية.

فكان القرن الثامن عشر أخرجنا من الفكرة الضيقة التي أساسها المساعدة بالإحسان إلى فكرة حديثة واسعة الأفق وهي فكرة احترام الفرد كإنسان والإيمان بالعدل الاجتماعي وبذلك خطت الإنسانية خطوة واسعة إلى الأمام.

وهذه النظرة الجديدة المتطورة انعكست صورتها في مرآة القوانين والتشريعات الجديدة التي تقوم على فكرة الديمقراطية وعلى أنَّ المجتمع الديمقراطي أسرة كبيرة توجب الصلة بين أفرادها توادداً وتراحماً وتعاطفاً إضافة إلى مصالح مشتركة تفرض عليهم التعاون على تأمين الحياة وترفيه العيش وأن على هذا المجتمع إتاحة الفرصة لكل مواطن لينال حقه من العلم والعمل ويبلغ أقصى ما تسمح به مواهبه حتى يؤدي واجبه كمواطن على أكمل وجه فإذا أقعده عن هذا الواجب مرض أو عجز أو عاهة أخذت أمته بيده وتعهدته بالرعاية الرؤوم وهي حين تفعل، إنَّما تؤدي إليه حقه عليها، لا تسدي إليه حسنة ولا تتصدق عليه بفضل نوال.

ومن حقنا نحن -معشر العرب مسلمين ومسيحيين- أن نباهي بأنَّ مجتمعاتنا الشرقية كانت الأسبق إلى إقرار مبادئ العدل والتكافل الاجتماعي وحقوق الإنسان وذلك حينما أقامت الدولة الإسلامية نظاماً كاملاً للرعاية الاجتماعية والتكافل الاجتماعي كان بمثابة تتويج للمبادئ الإنسانية التي أعلنتها الديانة المسيحية وتكملة لنظامها القانوني الاجتماعي الذي يقوم على اعتبار الصدقة حقاً للفقير لا منحة متفضل ولا هبة محسن.

على أن أهم ما يميز الخدمة الاجتماعية في القرن العشرين موضوعيتها وتناولها العلاقات والمشكلات الإنسانية بأسلوب البحث العلمي فلم تعد لتقنع بتقديم ما يمكن تسميته بالمعونة المسكنة أو الملطفة ولم تعد لترضى بالحلول المؤقتة، وإنَّما غدت تبحث عن المعونات العلاجية الشافية التي يمكن أن يكون لها صفة الديمومة والتي تصلح أنْ تكون أساساً في النهوض بشخصية الفرد والجماعة والمجتمع وتحقيق أقصى درجة من الفعالية والإنتاجية لكل منهم.

وما من خطة يرسمها الأخصائي «وهو الشخص المؤهل علمياً وعملياً في طرق العمل مع الأفراد والجماعات والمجتمعات المحلية» إلا وتكون مسبوقة بدراسة علمية وافية لطبيعة الموقف الذي يستلزم المساعدة وللعوامل المتداخلة فيه، ويعمل الأخصائي الاجتماعي في مكاتب ودوائر الخدمة الاجتماعية الملحقة بالمدارس والمستشفيات

ومعاهد إصلاح الأحداث المنحرفين وفي السجون وفي مراكز إنعاش الريف وفي المؤسسات المعنية برعاية الأسرة والطفولة.

وقريب وجه الشبه من هذه الناحية فيما بين مهنة الخدمة الاجتماعية ومهن الطب فهذه تعالج آفات البدن وتلك تعالج آفات المجتمع والأخصائي القانوني والاجتماعي ولاسيما الذي يلقى على عاتقه رأب الصدع بين الزوجين شأنه في ذلك شأن الأخصائي الطبي لا يكتفي بدراسة حقيقة المرض مستعيناً بمنهج البحث العلمي ووسائله.

على أنَّ الخدمة الاجتماعية حينما تتصدى لمشكلات المجتمع لا تستطيع أن تقف وحيدة في الميدان إذ لا بدَّ أن تتضافر معها مهن أخرى كثيرة كالطب والزراعة والهندسة والقانون.

هذا ولما كان للقانون قوته وسلطانه في المجتمع فلا مندوحة من أن تشفع الدراسة العلمية والخطط العلاجية بتشريعات وقوانين وقائية وإصلاحية تدعمها وتمكن لها في التنفيذ على أن تستوحي أحكامها من حاجة المجتمع ومصلحته فخير القوانين ما سد نقصاً أو جاء صدى لحاجة ما.

وهذه التشريعات والقوانين الوقائية والإصلاحية إنَّما هي بمثابة عملية تسلح اجتماعي تساعد الخدمة الاجتماعية على دخول معركتها ضد أعدائها التقليديين من الفقر والجهل والتسول والمرض والتشرد، وهي أسباب كفيلة لارتكاب الجريمة.

فتشريع قانوني اجتماعي يحد من الطلاق وتعدد الزوجات أصون لوحدة الأسرة وأسلم لبنائها وأجدى لها من قانون يحدد النفقة لأولاد حيارى بين أب مطلق وأم حاضنة.

وقانون أو تشريع يسقط حق الآباء في الولاية الشرعية على بنيهم إذا ساءت بهم القدوة وتضاءلت منهم العناية، أجدى على الأمة من إنشاء مؤسسات للمتشردين والجانحين من الأطفال الذين خاب حظهم في أبوة صالحة كريمة.

وقانون يوفر للعمال في مصانعهم أسباب الوقاية من أمراض المهنة وحوادث العمل أنفع لهم وللأمة من صرف الأموال الطائلة لتعويضهم عن نواحي العجز والقصور التي يصابون بها فضلاً عن الأموال التي تستلزمها إقامة المؤسسات الاجتماعية المختصة بتأهيل العاجزين ولو أنَّ هذه المؤسسات لا غنى عنها لأي مجتمع طالما أنَّ

مصادر الإصـابة بالعاهات متعددة متنوعة وغير مقتصرة على إصابات العمل.

والعدالـة الاجتماعية في كفاحها ضـد عوامل التفكك والتخلف الاجتماعي أشـبه بالجيش المحارب فهو لكي يكتب له النصر، لابدّ من تنسيق جهود وحدته المختلفة لبلوغ الهدف المشترك.

فتنسـيق جهود الهيئـات المعنية بخدمة المجتمع، أهلية وحكومية، ضروري لتماسك المجتمع ونهوضـه، وتكاتف جهود الوحدات الاجتماعيـة المختلفـة مهم لـكل منها فهو ييسر مهمتها ويشـد أزرها فيما هي تسعى بسـبيله من وجوه الإصـلاح، فالمدرسـة لا تؤتـي ثمارها المرجوة علـى أكمل وجه ما لم تجاوبها الأسرة وتردد صداها البيئة ويعكس تعاليمها المجتمع.

تقنية المحاكاة الحاسوبية وسبر أغوار العلوم

رحاب محمد ✿



في ظل ما يشهده العالم من تغيرات وتحديات في مختلف الميادين العلمية والتكنولوجية، تكثر التساؤلات حول كيفية مواكبة هذه التغيرات ومقاومة التحديات التي تواجهنا، وكيفية السعي نحو فهم أفضل من شأنه خلق أفراد مبدعين وقادرين على العطاء في مختلف الميادين، ولعلَّ هذا الأمر لا يمكن تحقيقه إلا من خلال إدراك الفرد لطبيعة العلاقة المتبادلة بين كل من العلم والتكنولوجيا والمجتمع والبيئة، ومن خلال توفير جميع السبل الكفيلة بذلك؛ والتي يمكن من خلالها تحقيق هذا الإدراك وتطوير التربية

✿ أديبة وباحثة من سورية.

العلمية والتكنولوجية، وتوظيف ذلك من خلال استحداث إستراتيجيات وأساليب متطورة في التدريس تأخذ بيد المتعلم نحو الإبداع والتميز، وتجعله قادراً على الإنجاز والعطاء في ظل عصر سادت فيه فنون المعرفة والتكنولوجيا، وكثرت فيه المشكلات والتحديات المستقبلية.

ولمواجهة هذه التحديات برزت الحاجة إلى استخدام التقنيات الحديثة في التعليم كالحاسوب والتلفاز والأفلام السينمائية لتساعد المعلم في تعزيز التعلم، والتركيز على أنماط التعلم الذاتي والتعلم المفتوح والتعلم عن بعد للارتقاء بالتحصيل العلمي لدى الطلبة. ولعلَّ من أفضل الوسائل التقنية الحديثة التي ظهرت في هذا العصر هي تقنية الحاسوب، التي ساهمت في توفير الوقت لدرجة جعلت المعلم قادراً على تحقيق المزيد من الأهداف التي كثيراً ما كانت تهمل بسبب ضيق الوقت وكان المعلم يعجز عن تحقيقها في الظروف العادية.

الحاسوب أداة تعليمية

إنَّ توظيف الحاسوب في العملية التعليمية يعد من أبرز المستجدات التربوية التي لقيت اهتماماً متزايداً من قبل صانعي القرار في المجالات المختلفة وخصوصاً في المجال التربوي، حيث أدى ذلك إلى إعادة النظر في المقررات الدراسية والعمل على تحديثها بحيث تتضمن ظواهر ومعارف وبيانات حديثة شهدها العالم مؤخراً إضافة إلى حوسبة بعض الجوانب الصعبة فيها، وتفعيل دور المعلم في التعامل مع هذا التطور بشكل يحقق أهدافه المتفقة مع خصائص الطلبة وخلفياتهم السابقة، وذلك من خلال القدرة على استخدام واختبار طرق وأدوات وأساليب تدريس فعالة، تسهم في تحقيق الأهداف وتعلم أفضل للمفاهيم العلمية بغية الوصول بالطلبة إلى مستوى تحصيل أعلى، وزيادة وعيهم لأهمية ما يتعلمونه في حياتهم العلمية والعملية.

ويعرِّف غرلدين جيج الحاسوب من الناحية التربوية على أنَّه: «آلة تمنح المتعلم الفردية في التعلم، وتساعده على أن يتحكم في الانتقال من خطوة إلى خطوة في دراسته وتحثه على التعمق فيها، كما تساعد في اكتساب استجابة مستقلة في تعلمه الخاص».

وهنالك تعريفات أخرى للحاسوب منها تعريف لوهرمان بأنَّه: «آلة الاتصال الوحيدة التي تتجاوب وتتفاعل مع طالب العلم بذكاء، ويمكن استعماله بطريقة بنّاءة ومبدعة كوسيلة للتفكير بالمسائل وحلها».

وبناء علـى ما سبق فالحاسوب هو أحد وسائـط التكنولوجيا التي توفـر للإنسان فرصـة التفاعـل مـع إمكانـات الآلة من استقبـال للمعلومـات وتخزينهـا، وإجراء عمليـات بسيطة ومعقـدة، والحصول على نتائج دقيقة وبسرعة فائقة، واتخاذ قرارات سليمة ومبنية على معلومات يمكن الحصول عليهـا بسهولة ويسر، وكذلـك القدرة على التعامل مع برامج متعددة الأنماط والنماذج، وبه يمكن محاكاة مختلـف المظاهر العلمية والحياتيـة كما لو كانت حقيقية، مما يسهل على المتعلم إدراكها عندما تعرض عليه.

وإضافة إلى ذلك فـإنَّ الحاسوب يحث المتعلم علـى التفكير ويولد لديـه الدافعية للتعلـم، كما يمكّنه من تعلم ومواجهة ما قد يكون خطـراً عليه عند مواجهتـه مباشرة كالتجـارب الخطرة، وتعلم تلـك العمليات المكلفـة مادياً، أو التي تتطلـب فترة زمنية طويلـة لدراستها، كما يزود الحاسوب أيضاً المتعلم بالتعزيز المناسـب والتغذية الراجعة في مكانهـا الصحيح وجعل التعلم أكثر إثارة وتشويقاً للمتعلم من التعلم التقليدي كما أنَّه يشجع التعلم القائم على الاكتشاف.

إنَّ استخـدام الحاسـوب كمساعـد في التعليم القائم علـى المحاكاة وعمل النماذج يعتـبر من الجوانـب الهامـة في التدريس، وخصوصاً في مجال تدريس العلوم الطبيعية، حيث يمكننا الحاسوب من محاكاة الظواهر الطبيعية والتجـارب التي يصعب تحقيقها عملياً داخل المختبر وذلك إمّا لخطورتها أو لارتفاع كلفتها، ومن الأمثلة على ذلك محاكاة عمليـات الاحتراق أو التفاعلات الكيميائية الخطرة، أو محـاكاة العمليات التي تحدث خـلال فترة زمنيـة طويلة كنمـو النباتات. وهنالك نمط آخر للمحاكاة الحاسوبية وهو ما يعرف بالألعاب التعليمية التي تهدف إلى توفير منـاخ تعليمي يمتزج فيـه التحصيل العلمي مع التسلية وتحقيق عنصريّ الإثارة والتشويق أثناء التعليم وزيادة قدرات الطلبة ودافعيتهـم نحو التعليم بغيـة الوصول إلى التعلـم الإستراتيجـي القائم علـى الفهم. وانطلاقاً من أهمية المحاكاة الحاسوبية في التدريـس، كان لابدَّ لنا مـن توضيح معنى المحاكاة، وأنواعها، وميزات استخدامها.

تعريف المحاكاة

المحاكاة هـي «طريقة أو أسلوب تعليمي يستخدمـه المعلم عادة لتقريـب الطلبة إلى العالم الواقعي الذي يصعب توفيره للمتعلمين بسبـب التكلفة المادية أو المـوارد البشرية»، ويعتقد بأنَّ أسلوب المحاكاة قد استخدم منذ أن وجد الإنسان علـى الأرض، كما أشارت

بعض الدلائل التاريخية إلى أنّ أوّل لعبة محاكاة في تاريخ البشرية هي لعبة الشطرنج التي ترجع إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد في الصين والتي كانت تهدف إلى التدريب على المناورات العسكرية.

أمّا جذور لعب المحاكاة فترجع إلى بداية الحضارة اليونانية، فقد بيّن أفلاطون وغيره من الفلاسفة اليونانيين أهمية تقليد المواقف الحياتية من خلال التدريب عليها. ومنذ منتصف ستينيات القرن العشرين ازداد الاهتمام بالمحاكاة كطريقة مناسبة وفعالة في عملية التعليم وخاصة بعد ظهور الحواسيب، حيث أصبحت عملية المحاكاة للمفاهيم والأنشطة والتجارب تتم من خلال الحاسوب، وأصبح لها دور هام وبارز في العملية التعليمية.

ومع تطور الحواسيب ازدادت المحاكاة الحاسوبية فعالية وإثارة في تدريس المفاهيم والمواضيع العلمية المختلفة وتنوعت لغات المحاكاة واستخداماتها في التدريس وهذا ما جعله أكثر مرونة وحيوية من ذي قبل، كما استخدمت المحاكاة في التقليل من الخسائر المادية والمعنوية، وهذا ما جعلها من النشاطات الفاعلة والممتعة في إرساء أسس التعلم لبعض المهارات والمواضيع الصعبة التي يصعب التعامل معها من دون مخاطر في الواقع، فهي تبسيط لبعض المواقف الحياتية أو لعملية ما يكون لكل فرد فيها دور يتفاعل من خلالها مع الآخرين في ضوء عناصر الموقف المُحاكى.

وفي البرامج التعليمية المعززة بالحاسوب تمثل المحاكاة تكراراً لظاهرة ما في الطبيعة، بحيث يصعب تنفيذها داخل غرفة الصف أو خارجها، نظراً لخطورتها أو لارتفاع تكلفتها؛ ففي هذه البرامج يواجه المتعلم بمواقف واقعية تقدم له بطريقة مشابهة، فهي بذلك تقنية فاعلة للتعلم أو لتدريس مفهوم من الحياة بوساطة تقليد هذا المفهوم أو استحضار شيء يشبهه، ولا ينظر للمحاكاة باعتبارها حافزاً للمتعلمين فحسب بل ينظر إليها على أنّها قادرة على جعل المتعلمين يتعلمون بطريقه مشابهة للطريقة التي سيتعرضون لها في حياتهم العملية الحقيقية.

أنواع المحاكاة

يمكن تقسيم المحاكاة إلى أربعة أنواع وذلك على النحو التالي:

١ - محاكاة مادية أو فيزيائية: وهذا النوع يتعلق بمعالجة أشياء فيزيائية مادية بغرض استخدامها مثل: قيادة الطائرة، استخدام الأدوات والكيماويات.

٢- محاكاة إجرائية: ويهدف هذا النوع من المحاكاة إلى تعلم سلسلة من الأعمال أو الخطوات مثل التدرّب على خطوات تشغيل آلة أو جهاز أو تشخيص بعض الأمراض في مجال الطب.

٣- محاكاة وضعية: وهذا النوع يختلف عن المحاكاة الإجرائية حيث يكون للمتعلم دور أساسي في السيناريو الذي يعرض وليس مجرد تعلم قواعد وإستراتيجيات كما هو في الأنواع السابقة، فدور المتعلم اكتشاف استجابات مناسبة لمواقف من خلال تكرار المحاكاة.

٤- محاكاة عملية أو معالجة: وفي هذا النوع لا يؤدي المتعلم أي دور في المحاكاة بل هو مراقب ومجرب خارجي، ففي الوقت الذي لا يستطيع فيه المتعلم أن يشاهد الإلكترونات أو حركة وسرعة الضوء، فإنّه يمكنه مشاهدة ذلك في المحاكاة العملية مما يسهل عليه إدراك مثل هذه المفاهيم.

ولسهولة التمييز بين أنواع المحاكاة فقد تم تقسيم المحاكاة إلى قسمين رئيسيين هما:

أ- محاكاة للتعلم عن الأشياء: أي محاكاة تعلم الأشياء أو التعلم من مشاهدة شخص آخر، ويندرج تحت هذا القسم المحاكاة المادية والعملية.

ب- محاكاة لتعلم عمل شيء: هذا يعني تعلم كيفية عمل الأشياء أو كيف يتم التعلم من مشاهدة شخص آخر، ويندرج تحت هذا القسم كل من المحاكاة الوضعية والإجرائية.

مزايا المحاكاة

تعد المحاكاة أحد أهم أساليب التدريب التي يعتمد عليها المديرون لترشيد التكاليف. ليس فقط ترشيد التكاليف المالية بل وتكلفة الوقت وتكاليف الجهد البشري أيضاً، كما أنّ أسلوب التدريب بالمحاكاة يعتمد عليه لتحقيق مستوى متقدم من الجودة مع بداية دخول المتدرب إلى بيئة العمل الفعلية من دون الاعتماد على مبدأ رفع جودة الأداء عن طريق الصواب والخطأ والتي تؤثر من غير شك على سمعة الموظف والمنظمة. ولا يفوتنا التأكيد على أن هناك مجالات قد يصعب أو يستحيل فيها العمل والتجربة الحقيقية وإنّما لابدّ من الاعتماد على التدريب بالمحاكاة.

متطلبات المحاكاة

١- تهيئة بيئة العمل لتحاكي وتشابه بقدر الإمكان بيئة العمل الفعلية المستهدف التدريب عليها.

٢ - تجهيز المعدات اللازمة للتدريب بالمحاكاة والمتوافقة مع المعدات التي ستستخدم بالواقع العملي وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّه من الخطأ أن يتم تجهيز معدات مختلفة تماماً عما سيتم توافره في الواقع الحقيقي.

٣ - توفير المستندات المتطابقة للمستندات التي سيتم التعامل معها.

خطوات التدريب بالمحاكاة

١ - تحليل الأداء لتحديد الاحتياجات التدريبية والشخصيات المستهدف تدريبها وأهداف الخطة التدريبية.

٢ - تحليل الأعمال الحقيقية التي سيتم التدريب عليها لأوّل مرّة أو التدريب عليها لرفع مستوى الأداء بها.

٣ - تحديد العناصر الأساسية لبيئة العمل التي يمكن توفيرها في مقر التدريب.

٤ - تهيئة البيئة التدريبية المشابهة للبيئة الفعلية.

٥ - تنفيذ العملية التدريبية، وذلك من خلال:

- تهيئة البيئة التدريبية المشابهة إلى أكبر درجة ممكنة بالبيئة الحقيقية لمزاولة العمل.

- التدريب على مواقف تحاكي وتشابه تماماً ما يمكن أن يحدث بالبيئة الفعلية من دون إفراط أو تفريط ومن غير المبالغة في حالات غير واقعية.

- يتم تكثيف التدريب في حالة المتدرب قليل الخبرة بينما يقل إلى حد ما للمتدرب الذي له سابق خبرة.

- لا يطبق التدريب بالمحاكاة نظراً لتكلفته إلا في وقت الحاجة الحقيقية له وقد يكون من الأنسب في بعض الحالات تطبيق أساليب أخرى.

٦ - تقييم الأداء التدريبي السابق واللاحق لمزاولة المتدرب للعمل الحقيقي.

المحاكاة والبحث العلمي

لقد تسللت الطريقة الثالثة لصياغة العلم «المحاكاة الحاسوبية» إلى معظم ميادين البحث العلمي خلال نهاية عقد الثمانينيات من القرن الماضي، وكثيراً ما تكون هذه هي الطريقة الوحيدة الممكنة والقابلة لأن تعمل بنجاح، وكلما تقدم الباحثون خطوات باتجاه الزوايا الأكثر غموضاً من العالم الطبيعي، وجدوا مزيداً من التفاصيل والتعقيدات التي لم يكن لأحد أن يتخيلها قبل بضعة عقود، وهو ما يواجههم على الدوام بمحدوديات طرقهم القديمة وعقولهم التي لا تستند إلى ما يساعدها.

وعلى سبيل المثال، فإنَّ الفلكيين صاروا يعرفون، ومنذ زمن ماهية المستعر الأكبر (السوبر نوفا) وكان (سبر همنيان شاندر شيخار) قد بيّن في ثلاثينيات القرن الماضي أنّه عندما يستنفد نجم كبير كل وقوده فإنه ينهار تحت وطأة ثقله، وعرف فيما بعد أنَّ هناك حالات يؤدي فيها هذا الانهيار إلى إطلاق انفجار -وهو المستعر الأكبر- يقذف بعيداً بالكثير من كتلة النجم، مخلفاً وراءه نجماً نيترونياً كثيفاً أو ربما ثقباً أسود، وقد اكتشف هذا كله بوساطة «فيزياء الورقة والقلم»، ولكن هذه الطرق فشلت في متابعة تفاصيل الأحداث الأساسية التي تستغرق أجزاء من ألف في الثانية، والتي يتقلص من خلالها قلب النجم ويرتد فجأة ثم ينفجر، وهناك كثير مما يجري خلال تلك الفسحة الزمنية القصيرة جداً، مما لا يستطيع النظريون مجاراته ومعرفته، وأمّا التجارب المخبرية فهي مستحيلة طبعاً في مثل هذه الحالات.

محاكاة قوانين الطبيعة

كانت المحاكاة الحاسوبية قد بدأت في نهاية عقد الثمانينات من القرن المنصرم، بسد الفراغ القائم في تفاصيل موت النجم، وبدأت هذه المحاكيات بنموذج رياضي لنجم يصف كتلة النجم وتركيبه الكيميائي وبنيته الداخلية، ولبدء المحاكاة تأثير مشابه لإطلاق قوانين الفيزياء، أي أنَّ بداية محاكاة نموذج نجم ما تشبه بداية عملية «طبخ» النجم، حيث تبدأ سلسلة التفاعلات النووية وتتدفق تيارات الحمل وتضغط الجاذبية قلب النجم، وتتسرب النيوترونات الأخرى عبر طبقات الجو. وفي هذه الأثناء ينتظر العالم الفيزيائي ما سيحصل، ولا يكون الانتظار قصير الأمد حتى باستعمال أسرع الحواسيب، فالمحاكاة قد تستغرق دقائق عدّة لتمثيل ما يحصل في الطبيعة خلال أجزاء من الألف من الثانية، ولكن النتائج التي يتم الحصول عليها تستحق الانتظار.

وعلى سبيل المثال فقد كشفت المحاكيات الحاسوبية أنّه ليس من السهل دوماً تفجير نجم ما، ذلك أنَّ موجة الصدمة التي تحمل الزخم من قلب النجم المنهار إلى الطبقات الخارجية تميل إلى التلكؤ وتشتيت طاقتها في تفتيت النوى الذرية، حتى يعاد إحياء هذه الطاقة بوساطة النيوترونات القادمة من القلب.

ومن ناحية أخرى فإنَّ مراقبة مستعرات حقيقية - وخصوصاً مستعرة سحابة ماجلان الكبرى- أوحت بالكثير لواضعي النماذج الحاسوبية، وأصبح حوار العلم أكثر

ضجيجاً وثلاثياً (نظرية، تجربة، محاكاة) مما يجعل كل الأطراف تخرج وهي أكثر معرفة وحكمة.

واستعمال الحواسيب للحصول على نتائج تفصيلية للقوانين الفيزيائية ليس بالأمر الجيد كلياً، ففي القرن الثامن عشر كانت النماذج الكوكبية المجسدة ذات المسننات الساعاتية المعقدة (نماذج كوكبية تبين تجهيزاتها حركات ومواقع الكواكب في النظام الشمسي وتسمى المبيان، وهي حواسيب ميكانيكية عملياً) تحاكي حركات الكواكب وأقمارها، وكان المرء إذا أراد معرفة تشكيلة النظام الشمسي قبل أو بعد سنوات يدير ذراع التدوير فتتحرك الكواكب والشمس فيعرف ما يريد، وكانت بعض الأسطرلابات الأقدم تخدم أغراضاً مشابهة أيضاً.

والواقع أنه ربما كانت تكنولوجيا أمثال هذه المحاكيات قديمة جداً، ويعتقد أن إحدى قطع المعدن المتآكلة التي عثر عليها في حطام سفينة قرب الجزيرة اليونانية «أنتيكيثيرا» ليست إلا بقايا حاسوب للكواكب صنع في القرن الأول قبل الميلاد، ولكن هذه الأجهزة كانت مجرد أدوات لتوفير الجهد، ولم تكن تحل مشكلات لا يمكن حلها بوسائل أخرى، ولم تبرز المحاكاة كسبيل بديل يؤدي إلى معرفة جديدة أصيلة إلا بعد أن حلت الحواسيب الإلكترونية القوية محل الميكانيكية في منتصف القرن الماضي.

طريقة مونتي كارلو

كان أحد أبكر وأشهر الشواهد العلمية التي أنجزت بوساطة المحاكاة قد حصل في مختبرات لوس ألاموس الأمريكية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة، وكان الباحثون هناك مازالوا يعملون بجد لإنتاج قنابل ذرية أحسن أداء، وكانوا بحاجة إلى وسيلة للتنبؤ بمصير النيترونات المنتقلة عبر المواد المختلفة، فعندما يصطدم النيترون بذرة ما فإنه يتناثر وقد يجري امتصاصه، أو أن نواة الذرة قد تشطر في بعض الحالات محررة ومطلقة مزيداً من النيوترونات، وكانت النتائج المختلفة لاحتمالات أي اصطدام معين معروفة، ولكن المشكلة بقيت قائمة وصعبة الحل لأن كل نيترون كان يشارك في عدد كبير من الاصطدامات، وقد وضع الرياضي «ستانسلاف أولام» حلاً بسيطاً أو أنّه بدا بسيطاً عند النظر إليه لاحقاً، أي بعدما توصل إليه وطبقه، وكانت نتيجة كل اصطدام تحدد بالاختيار العشوائي لعدد ما بحسب الاحتمالات المعروفة، وكان يمكن تمثيل المحاكاة من حيث المبدأ بالاستعانة بدولاب لعبة الروليت، وعلى سبيل المثال

فقد قرر المرء أنه إذا توقف دوران الروليت على عدد زوجي فإنَّ النيترون يتناثر أمَّا العدد الفردي فيمثل امتصاص النيترون.

وقد تحصل حالات الانشطار النادرة عندما يتوقف دولاب الروليت على الصفر (ولكن الاحتمالات الحقيقية تختلف عن هذه)، وبعد آلاف الدورات للدولاب يكون متوسط خواص مسارات النيترونات قد بدأ بالظهور، ونظراً لما في هذه الطريقة من عنصر المصادفة والحظ فقد سميت «طريقة مونتي كارلو» (في إشارة إلى كازينوهات ألعاب القمار فيها ومنها الروليت)، وبمرور السنوات جرى تطبيق هذه الطريقة على مشكلات كثيرة غير رسم مسارات النيترونات.

ومن الناحية العلمية ليس دولاب الروليت الأداة المختارة لدراسات مونتي كارلو، وقد وظف «أولام» وزملاؤه في حل هذه المشكلة اثنين من أقدم أنواع الحواسيب الإلكترونية الرقمية، وهما الحاسوب «أنياك» والحاسوب «منياك»، وأمَّا اليوم فتتم المحاكيات بوساطة أسرع الحواسيب المتوافرة، والتوافر واسع النطاق لهذه الأجهزة هو الذي مكن المحاكيات الحاسوبية من الازدهار خلال العقدين الماضيين.

حلول للمستحيلات

وليس من المفاجئ أن يكون قد تمَّ اللجوء إلى «العلم المحاكي» بشكل واسع جداً في الميادين التي تواجه الطرق ذات العقبات المانعة، وتتم المحاكاة في حدوث المستعرات العظمى لأنَّ مثل هذه الأحداث نادرة وتقع بعيداً جداً عنا وفي الأماكن التي لا يمكن الوصول إليها بأي وسيلة كانت، وكذلك فليست هناك بدائل قليلة للمحاكاة في محاولتنا فهم بنية الكون هائلة الأبعاد، حيث تكون المحاكيات هي الطريقة الوحيدة للوصول إلى نظرة الكون من خارجه، وترينا المحاكيات شبكة واسعة من الخيوط الرفيعة وبيوت العناكب تشبه الخرائط الأولية التي وضعها المراقبون الفلكيون، وهي تعطي على الأقل تلميحات أولية حول كيف يمكن لهذه البنى أن تكون قد تطورت، ولا تقتصر المحاكاة على سد الثغرة الناجمة عن كون التجارب غير عملية في بعض الحالات، بل في سد ثغرة مماثلة أيضاً في نظريات غير ملائمة.

وعلى سبيل المثال ففي سبعينيات القرن الماضي كانت إحدى أعقد مشاكل الفيزياء النظرية هي مشكلة تفسير انحسار الكواركات (الجسيمات المكونة للبروتونات والنيوترونات وأشباههما)، والواقع أنَّ الكواركات تبدو

وكأنّها تتجول داخل البروتون طليقة من كل قيد، ولكن المحاولات التي جرت للفصل بين هذه الكواركات في مسرعات الجسيمات أظهرت وجود روابط فيما بينها لا تنفصم عراها، وكانت الروابط هي روابط القوة النووية القوية الموصوفة في نظرية تسمى «نظرية التحريك الكوني للكم»، ولكن النظريين لم يجدوا في هذه النظرية عوناً على تفسير سبب هذه الحرية الكبيرة التي تتمتع بها الكواركات وامتناع انفصالها عن بعضها البعض في آن معاً، وكانت المشكلة في الأساس هي كون حقل القوة بين كواركين اثنين أكثر تعقيداً من إمكانية حسابه، ولم يتم العثور بعد على حل نهائي لهذه المشكلة، ولكن أقرب حل تمثل حتى الآن في محاكاة حاسوبية وضعها «كينيث ويلسون» من جامعة كورنيل.

وفي هذه الطريقة يجري تبسيط حساب حقل القوة عن طريق استبدال المكان والزمان المتواصل.

تخيل شبكة رباعية الأبعاد هي أشبه بهيكل من القضبان الحديدية الأفقية والعمودية للمكان والزمان، ولا يمكن للكواركات أن تشكل غير نقاط التقاطع للشبكة، وتمثل الوصلات التي تصل بين هذه النقاط القوى المؤثرة في الكواركات، وهذه الوصلات متغيرة بحيث يصبح عدد التشكيلات الممكنة لحقل القوة بأكمله كبيراً جداً، كما لو كل قضيب من قضبان الهيكل قابلاً لأنّ يطلى بلون ما من ألوان عدّة مختلفة.

وفي المعالجة الأصلية التي أجريت على أساس فكرة ويلسون الأصلية لا يأخذ الحاسوب في اعتباره إلا عينة تمثيلية يختارها عشوائياً، كما في طريقة مونتي كارلو، ثم يقوم الحاسوب بحوسبة ترتيب أو تشكيل وسطي، والذي فعلته هذه المحاكيات هو أنّها أكدت نظرية التحريك اللوني للكم من خلال إظهارها أن النظرية كانت تتوقع فعلاً بقاء الكواركات محصورة بوساطة القوة الشديدة في البروتونات والنيوترونات، وهذا ما يعتبر بحد ذاته انتصاراً علمياً، وعلى العموم وأكثر من ذلك، فقد شكلت المحاكيات أيضاً توقعاً رائعاً، فقد أوحت المحاكيات أنّ الكواركيات قد تتحرر من روابطها القوية في حرارة درجتها عدة تريليونات وتسبح بحرية في ما يشبه «حساء الكواركات»، ويعتقد باحثون كثيرون اليوم أنّ الكون كان يتألف من حساء الكواركات هذا في اللحظات التالية مباشرة للانفجار العظيم، وأنّ حساء الكواركات هذا مازال موجوداً حتى الآن في

النجوم النيوترونية التي تخلفها المستعرات الأعظم وراءها.

تطوير العلوم التجريبية

هذه الأمثلة وسواها قد توحي بأنّ المحاكاة الحاسوبية لا تستخدم إلا في الحالات المستعصية وعند فشل النظرية والتجربة التقليديين، ولكن في الواقع هو أنّ المحاكاة الحاسوبية وجدت لها مكاناً في العلوم التي لا تعاني أمثال هذه الحواجز المنهجية، وعلى سبيل المثال فإنّ الكيمياء علم تجريبي نموذجي، ولكنّ الكيمياء الحاسوبية أصبحت خلال العقدين الماضيين علماً فرعياً هاماً، ويعمل بعض الكيميائيين الحاسوبيين على حساب بنية الجزيء انطلاقاً من المعادلات الأساسية لميكانيك الكم، ويستعمل آخرون طرقاً حاسوبية أقل دقة في وصف الجزيئات الكبيرة كالمتاثرات، أو لاستطلاع أنظمة معقدة خاصة بتفاعلات مترابطة كما في احتراق الوقود، وإحدى الفوائد الكبيرة للطرق الحاسوبية هي أنها تسمح للكيميائي بأنّ يرى بشكل مباشر أشياء كانت تستنبط من نتائج تجربة تقليدية، وعلى سبيل المثال قام العالم الكيميائي «أنريكو كليمنتي» بإجراء محاكاة بطريقة مونتي كارلو لجزيئات الماء المحيطة بجديلة (اللولب المزدوج) الحمض الريبي النووي (د. ن. أ)، وفي حين أنّ التجارب لم تعط أكثر من دليل غير مباشر على كيفية تفاعل الحمض الريبي النووي مع الماء، فإنّ المحاكاة كشفت طرقاً محددة تميل فيها جزيئات الماء إلى ترتيب نفسها تبعاً لأنماط هذه التفاعلات.

محاكاة علم الأحياء والمناخ

وقد شق الحاسوب طريقه أيضاً إلى مختبرات علم الأحياء، وكان البيولوجيون الذين يدرسون ديناميات الجمهرات سباقين في اللجوء إلى المحاكيات الحاسوبية، والمشكلة التقليدية في هذا الميدان هي تصور كيف يتقلب عدد جمهرة نوع مفترس جمهرة نوع من الفرائس عندما يكون هذان النوعان على اتصال فيما بينهما، وفي حين أنّه يمكن للمراقبة الميدانية في هذا المجال أن تستغرق سنوات، فإنّه يمكن للحاسوب أنّ يمر خلال دقائق بأجيال من الأرانب البرية وأجيال من الوشق (وهو حيوان أصغر من النمر ويفترس الأرانب البرية)، للكشف عن العلاقة الضدية بين الجمهرتين، وتستخدم طريقة مثيلة حالياً في دراسة الأمراض السارية، بما في ذلك انتشار مرض الإيدز (نقص المناعة) بين البشر.

وتشكل تنبؤات المناخ مجالاً آخر تمس فيه

المحاكيات الحاسوبية اهتماماً اجتماعياً آخر مباشرة، فقد عرفنا جميعاً خلال السنوات الماضية أنَّ للجنس البشري القدرة على تغيير مناخ الأرض من خلال تأثير الدفيئة أو الاحتباس الحراري (البيت الزجاجي)، وكان المصدر الأخير لهذه المعرفة هو المحاكيات الحاسوبية التي تنبأت بتأثيرات تزايد تركيزات غاز ثاني أوكسيد الكربون في الجو على المناخ، ومازال العلماء يدرسون حتى يومنا هذا مدى هذه التأثيرات، والنماذج المختلفة تعطي نتائج متباينة إلى حدّ مثبط للعزيمة، ولكنَّ يبدو أنَّ معظمها يتوافق مع الفكرة المركزية القائلة إنَّ العالم يزداد سخونة فعلاً وإنَّ ظاهرة الاحتباس الحراري بدأت تشكل خطراً على مناخ الأرض.

المراجع

١ - المحاكاة بواسطة الحاسوب، د.أحمد طه، مجلة بناة الأجيال، العدد ٦١، نقابة المعلمين- سورية.

٢ - المحاكاة الحاسوبية.. الطريقة الثالثة لصياغة العلم، د.شريف مفلح، مجلة التقدم العلمي، العدد ٥٧، الكويت.

٣ - المحاكاة الحاسوبية في التدريس، د.أحمد المصري، مجلة العلم والتكنولوجيا، العدد ٤٣.

المفكر الفلسفي محمد ياسر شرف
أبرز أعلام التحليلية النقدية العرب

إعداد وحوار: محمد خالد الخضر ✿



الحوار مع الأستاذ الدكتور محمد ياسر شرف يكتسب أهمية خاصة في هذه المرحلة التي تشهد فيها الثقافة العربية ضغطاً غير مسبوق تاريخياً لتغيير كثير من مرجعياتها وقناعاتها واتجاهاتها.

فهو مفكر عربي سوري درّس الفلسفة والعلوم الاجتماعية وأغنى الساحة الثقافية على امتداد الوطن العربي وخارجه بمداخلات ومقالات وكتب كثيرة، جاوز المطبوع منها «مئة» في الشعر والقصة والنقد الأدبي وعلم الاجتماع والفلسفة والتصوف والأنثروبولوجيا (علم الأنسنة) والديانات المقارنة، على مدى أكثر من نصف قرن من حياته العلمية وعمله الدؤوب في

✿ شاعر وناقد سوري

منظومات المجتمع المدني ومؤسساته الثقافية والإعلامية.

كما أتاحت له صلاته بالأساتذة والباحثين والمحققين والمترجمين الجامعيين، من نظرائه في أوروبة الشرقية والغربية وآسيا والدول العربية، أن ينشر غير قليل من آرائه ومواقفه النظرية الخاصة بل بعض النظريات التي لم يسبقه إليها أحد. وهي ما سنحاول التركيز عليه بالدرجة الأولى من خلال هذا الحوار الذي خصّ به مجلة «المعرفة» الصامدة في واحد من أهم مراكز الإشعاع الثقافي العربي- دمشق.

التحليلية النقدية منهج بحثي

نقلنا في بداية الحديث مع الدكتور محمد ياسر شرف تساؤلات كثيرة عن اتجاهه الفكري في مؤلفاته المتنوعة الموضوعات وضمن التخصصات المتعددة التي حصّل فيها شهادات الدبلوم العليا والماجستير والدكتوراه.

• أنا أنتمي إلى مذهب محمد ياسر شرف الفكري حالياً، ولو أنني استفدت من دراسات كثير من المذاهب الفلسفية وغيرها منذ بداية حياتي الجامعية وعبر عشرات السنين، حيث اختبرت الأسس التي تقوم عليها والنقود التي تقع تحتها، وما أدّت إليه من استنتاجات أو حصائل معرفية ذات اعتبارات خاصة.

مذهبي الفكري الفلسفي يقوم أساساً على تقديم منهج البحث على الاتجاه الفكري المسبق، وهو أقرب إلى منهج المشتغلين بالعلوم منه إلى المشتغلين بالدراسات التأملية والتصوّرات والتأويلات، نظراً لأنه يعتمد على دراسة كل موضوع بحثي باعتماد أدواته العلمية المتوافرة خلال هذه المرحلة الزمنية بصورة تفصيلية أي تحليلية. ويوجّه الباحث فيه انتقاداته إلى الصورة التركيبية الخاصة به أي المنجزّة، مقارنةً بالصورة التركيبية التي تنشأ عن إعادة صياغة أي موقف فكري تمّت دراسته، بحسب مقتضى الترتيب الموضوعي المنطقي لمكوّنات البحث.

وهذا ما يوضح للباحث العلمي أهمية النتائج التي أصل إليها، على غير صعيد، لأنها تكون مستندة إلى منهجية دقيقة في تصنيف المعطيات، ورصد العلاقات بينها، ثم إنجاز الصياغة المقترحة العامة للفكرة أو الأطروحة الفكرية الخاصة التي تمّت دراستها من جانب هذا الأديب أو ذاك الباحث.

- هل يمكن أن تقدّم لنا مثالاً على ذلك؟

• نعم، الأمثلة كثيرة، لكن اسمح لي أن أشير إلى أنّ جذور هذه الطريقة التي كانت تُسمّى «طريقة التوليد» في الجانب الأوّل منها تعود إلى أكثر من ألفين وخمسمئة سنة، وقد استمرت عبر القرون في أعمال كبار المفكرين الغربيين والعرب والمسلمين

بدرجات متنوّعة، بسبب أصالتها وجدارتها وفاعليتها. فاتبعها عدد غير قليل من أعلام الفلسفة العربية وأصحاب المصنّفات الإسلامية، حتى اغتنت في العصر الحديث بوضع قواعد المنطق المتعدّد الاحتمالات والمنهج الديالكتيكي في مستوياته المادية والتاريخية والعلمية.

ومثالاً على ذلك يقول الدكتور شرف:

حينما درستُ ما نُسب تأليفه إلى «أبي حامد الغزالي» من مصنّفات منطقية، ورددت عليه في كتابي «وسائل الإقناع عند الغزالي» عمدتُ إلى تحليل الأسس التي اعتمدها في إقامة ما سمّاه «براهين ملزِمة» ووضعتُها في «صيغ ممكنة» أخرى بالطريقة «المنطقية الصورية» نفسها التي اعتمد على قواعدها المعروفة بين الباحثين المختصين، وأظهرتُ أنها تحمل «عكس» ما أراد الغزالي إقامة «الحجة» عليه في ردوده على خصومه والمخالفين من ذوي الاتجاهات الفكرية المغايرة.

وكذا فعلتُ في دراستي أعمال الصوفي الشهير «الحسين بن منصور» الشعرية والنثرية في كتابي «حلاج الأسرار»، ثم تناولت على الطريقة ذاتها أهمَّ أطروحات المفكر الفرنسي «روجيه غارودي» بعد إسلامه في كتابي «غارودي وسراب الحلّ الصوفي»، وكذا في ردّي على المفكر الأميركي «صامويل هنتنجتون» الذي تحدث عن صدام الحضارات الراهنة وتغيير الثقافات السائدة، وذلك في كتابي «إعادة تنظيم العالم» الذي أوضحت بعض ما فيه من أطروحات «عبر حضارية» في كتاب آخر بعنوان «توجيه صراع الحضارات».

النقد الأدبي وفلسفة أطروحاته

يقدم الدكتور محمد ياسر شرف مثالاً آخر على منهجيته التحليلية النقدية فيقول:

• طبّقتُ طريقتي البحثية ذاتها في النقد الأدبي، وذلك في كتب متعدّدة، أهمها «مشكلات في النقد الأدبي» و«النثيرة والقصيدة المضادة» و«أدب الحب المؤلم» و«مستقبل الشعر» وغيرها.

فقد كنتُ أتناول الأثر الأدبي في الشعر أو النثر انطلاقاً من الأغراض الفنيّة للجنس الأدبي الذي تُصنف فيه التجربة المنتجَة أو الأثر الإبداعي. وأعمد إلى تحليل صيغ التركيبات في النصوص، لرؤية مدى «دقة الربط» في خدمة «الفكرة» التي يريد المبدع إيصالها إلى «المتلقي» أي الآخر الذي يقع خارج مداه النفسي والعقلي والجسدي معاً، ثم إصدار الحكم بنجاح ذلك أو إخفاقه، والمدى التقديري لهاتين النتيجتين، قياساً إلى نماذج «معيارية».

يضيف الدكتور شرف قائلاً:

إنني في سياق العمل النقدي على الأعمال الشعرية والنثرية أوضحتُ كثيراً من الأطروحات النظرية التي أعدُّها بمثابة

«أسس» يجب أن يستند إليها الأديب في مجال إنتاجه النثري أو الشعري، كما يجب أن يأخذها بالتقدير ناقدُ العمل الأدبي لدى دراسته في صيغته المنجزة الأخيرة، أي حينما يصبح «شيئاً عاماً» يمثل «منتَجاً خاصاً»، منسوباً للأديب أو المبدع الذي صنعه.

لقد وضعتُ أطروحات نظرية حول «النثيرة» وتأسيسها جنساً أدبياً جديداً، وحول «القصيدة البيانية» و«القصيدة الشعاعية» و«القصيدة المضادة» في أواخر سبعينيات القرن الماضي، وهي اليوم مشهورة ومنتشرة وبعضها ذائع الصيت جدّاً؛ تجد غير قليل من البحوث عنها في الموسوعات الإلكترونية التي سبقت الموسوعات الورقية في تجديد موضوعاتها، التي تجاوزت سعتها آلاف الصفحات بل عشرات آلاف الصفحات الورقية.

وكذلك وضعتُ صياغات فلسفية لما يمكن تسميته «فكر اللغة» العربية المحرِّك، وضرورة التوافر على تجويد قواعدها وأدائها وتعيين أصولها. وهناك اقتباسات كثيرة عني مبثوثة في عشرات الكتب والبحوث والمظانّ والمواقع الإلكترونية توضح الأفكار التي أدعو إلى تطبيقها في تلك الشؤون، وهي مستمدة من كتبي «إصلاح الكتابة العربية» و«مصادر اللغة العربية وقواعدها» و«منهج تعليم اللغة العربية» و«تدوين الثقافة العربية». وهذا ينطبق أيضاً على ما أشرتُ إليه من الردود التي وضعتها حول كتب لمفكرين بأعيانهم، على نحو ما ذكرته منذ قليل.

الوضعية المنطقية وفلسفة العلوم

- لقد أشرت إلى أنك تعتمد على ترتيب المعطيات المعرفية في بحوثك على أساس منطقي، هل تعني أنك تحاول تطبيق الفلسفة على الآداب والبحوث الإنسانية، باعتبار أنّ المنطق هو أداة بحث رئيسة في الفلسفة ولا مجال للاستغناء عنها؟

• لا ونعم، فليس هذا ما أفعله بالضبط، لكنّ القضية تقترب من ذلك؛ من دون أن أفرض منهجاً غريباً على موضوع الدراسة. وللإيضاح أشير إلى أنّ الوضعية المنطقية ليست واحدة، بل فيها اتجاهات متعدّدة، وأنا أطبّق جانباً خاصاً بي، ألخّصه بأنّ طريقتي تقوم على إجراء «امتحان معرفي» للنصّ الذي أدرسه، أي إنني أعمد إلى تحليل القضايا التي يقدمها المؤلف في صورة مركّبة -عادة- لنقل أفكاره ومواقفه إلينا.

وبعد أن أطمئن إلى ما تحيل إليه هذه «الأجزاء المتفرّقة» أجمعها في «صيَغ ممكنة» لمعرفة ما إذا كانت صيغة المؤلف أو المفكر الذي أدرسه ذات «تماسك ضمني» أم أنها مجرّد «حشد تلفيقي» لأفكار أراد تقديمها في ما ادّعى أنه صيغة نظرية أو رؤية نظرية ذات بُنية منطقية أو مواصفات مذهبية في التأليف التصنيفي، ومن دون أن يكون ذلك قد تحقّق فعلاً.

هذه الطريقة التي أتّبعها تشبه (أقول تشبه، ولا أقول تطابق) ما يقوم به المشتغلون المختصون في فلسفة العلوم، حينما يعمدون إلى تقديم «تسويغ نظري» يناسب كل تقدّم علمي، ضمن مجاله الفنّي أو التّقني الذي يحدث فيه التغيير، وبيان أنّ هذا يحدث في إطار الارتقاء بمستويات «الشمول والتطبيق» اللذين يفرضهما الترتيب المنطقي والواقع العملي، أي يقومون بوضع الإنجاز الجديد في سياقه من النظرية المتحققة، لتسهيل «التقدّم» بمعنى المضيّ قُدماً في توسيع مجال الفكرة الواحدة وتوجيه «التطور» التكاملي لعلاقاتها المتنوّعة، وليس هدم السابق والبدء من الصفر أو من «افتراضات» لا تتسق مع «الثوابت» الراهنة التي يجري الاعتماد عليها في رفع مستوى التكنولوجيا ومنجزاتها. وأقصد بالتكنولوجيا مجمل ما يتقدّم من استخدام الطرق والوسائط والمواد الجديدة في تحويل الأفكار النظرية والتصوّرات والفروض إلى وقائع وأدوات وأجهزة وتطبيقات متكاملة.

وهنا أريد أن أشير إلى مسألة غاية في الأهمية، هي أنّ التقدم التكنولوجي الذي حدث في القرن العشرين وضع أمام العلماء خيارات كثيرة جداً لاختبار «فروض» متنوّعة في المجالات كافة، ولحلّ مشكلات أيضاً وصل عمرُ بعضها إلى آلاف السنين، على صعيد تشكيل الكون ومصير الإنسان والموجودات الأخرى من ما كان شاغلاً للمفكرين العاملين في الدراسات الاجتماعية والثقافية والسياسية، إضافة إلى المشتغلين بالاقتصاد والتربية والقانون والفنون والآداب.

وقد فتحت التكنولوجيا أبواباً غير مسبوقة في التجريب و«إعادة التحقق»، هذه الأطروحة التي رأى كثير من «الوضعيين المناطقة» أنها تشكّل معياراً جيداً للتمييز بين «قضايا» تدخل في إطار «العلم» وضرورة التصديق أو القبول بها -من جهة- وقضايا لا تتجاوز إطار «التحليل اللغوي» وتعتمد على «تعريفات» لغوية غير قابلة للضبط الجمعي ولا تتمتع بضرورة الإلزام، من جهة ثانية.

توفير النسق السّوي وفقدانه

- كيف يمكن الجمع بين ما ذكرته عن فلسفة العلوم والدراسات الأدبية والنقدية ومعطيات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في بحوثك؟

• حينما يقبل الباحث في التحليلية النقدية التي قلتُ لك إنها طريقتي في البحث، لابدّ له من إجراء «تقييم معرفي» لمحتوى الأطروحات الفكرية التي يقدم على معالجتها. وهذا الإجراء العملي يتضمّن أن يرى مدى «التماسك الداخلي» في طبيعة «ربط الأجزاء» التي تتكوّن منها كل فكرة في الموضوع المبحوث، ومدى ضرورة وجود «العناصر الرئيسة» فيه، أو بالأحرى ما عدّه

منتجُ الأثر الأدبي أو الفكري عناصر رئيسة.

خُذ مثالاً علــى ذلك الروائي في تركيزه على «حدث أو شخصية» دون أخرى لإيصال رسالته الخاصة (شخصية الفكرة) إلى القارئ أو المتلقّي، من خلال ما تحمله فاعليات الشخصية الروائية وسلوكاتها وأقوالها من «رسائل» يقوم بناء الرواية الشكلي لخدمتها، أي يتمّ استخدامـه في توصيلها إلى القارئ بصورة درامية لا تشبه البحث العلمي ولا تتخذ شكل الوعظ أو العمل الإرشادي، كما إنها تبتعد عن إصدار أوامر النهي والحضّ ونصائح القبول وما يتبعها من طرق ترغيب وترهيب تأخذ بها مجــالات معرفية أخرى كالتربية والتعليم بأنواع مجالاتهما المختلفة.

النسـق السـوي في الدراسـة التحليلية هو مـا يمكن الوصـول إليه مـن استخراج «دعائم الفكـرة» أو الأفكار الأساسية في العمـل الإبداعي أو المنتَـج البحثي، لمقاربته إلى ما تحقق في مجاله من أطروحات، بغرض تصحيح ما ينطوي عليه العمل من «أغلاط» صاحبـه أو تجاوزاته والمخالفـات المنطقية والعلمية والمعلوماتية التـي ارتكبها -قصداً أو عـن غير قصد- في أثناء صياغة أفكاره الكبرى، أي التي أقام عليها عمله الإبداعي. يضاف إلى هذا مـا يشكّله ذلك الإجراء من اعتماد الناقد التحليلي على ذلك في تصحيح النسـق الخاص لـكل فكـرة أو تسويتها، ثم تسويـة النسـق العـام لمجمـوع الأفكار في الموضوع المبحوث، بحيث يشكّل ذلك إعداداً منطقيـاً لنقدها وبيـان بدائلها، وهو الجزء الثاني من العملية التحليلية النقدية.

ولـذا فإنّ الناقـد المتخصص، سواء في الأدب وعلوم الاجتماع والنفس والفيزيولوجيا والفلسفـة أو غيرهـا، يمكـن أن يلاحـظ اختـلال «البناء الوظيفي» عنـد أي مؤلف خـلال ساعات قليلة من قراءة مختارات من العمل الذي يريد دراسته. فالخبير في تاريخ قضايا الشعر وأوزانه وقواعده وموضوعاته يـدرك ببساطة عـدمَ وجود ثقافـة ودربة مرموقـتين في أي عمل شعـري بعد تقليب قراءته وتصفّح بضع عشـرات من المواضع فيه.

وكذا يمكـن لمختصّ في الفيزيـاء أن يلاحظ عـدمَ معرفة بعض المؤلفين آخرَ ما صدر في هذا العلم، بعد أن يقرأ كلامه حول الطبيعة وموجوداتها ومصير البيئة النباتية أو الحيوانية، نتيجة ازديـاد التلوث بنواتج الاحتراق وارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكربون بالنسبة للأوكسجين، على سبيل المثال.

يمكنني أخـيراً أن أشير إلى أنّ الطريقة التحليلية النقدية قابلة للتطبيق في مجالات معرفيـة كثـيرة أخـرى، وتجـد نموذجات لذلـك في ما كتبته أيضاً عن تواريخ الأديان المقارنة وعـن الأنثروبولوجيا الدبلوماسية، ومـا أجريته من مقاربات في الفكر الصوفي والعلوم الاجتماعية.

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ✿

وزيرة الثقافة تكريس ثقافة الحوار:

أقامت وزارة الثقافة السورية في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق فعاليات ندوة «الحوار الوطني من أجل سورية» بمشاركة نخبة من الشخصيات الثقافية والأدبية.

وقالت وزيرة الثقافة الدكتورة لبانة مشوّح في كلمة لها خلال الافتتاح: إن موضوع الحوار الوطني بات اليوم أكثر إلحاحاً وأهمية كي تبحث سورية في دور المثقف في هذا الحوار وفي أهمية تكريس ثقافة الحوار وسيلة للتقارب وسبيلا لتفادي انحرافات التعصب التي تؤجج المشاعر السلبية وتفضي لنزاعات مدمرة.

وأضافت وزيرة الثقافة: نجتمع اليوم في هذا الصرح الثقافي إدراكاً منا جميعا لأهمية الحوار «كوسيلة للتقارب والتفاهم للخروج برؤى لحل الأزمة» التي يعيشها وطننا الغالي وتعبيراً عن رغبة صادقة برؤية «حراك ثقافي مثمر يبدد ظلمات الجهل ويسهم في تحقيق التواصل بين أبناء الوطن الواحد» أملاً في مستقبل نريده مشرقا لوطننا الحبيب وشعبنا العظيم.

وتابعت الدكتورة مشوّح قد يرى البعض أن مفهوم الحوار والانفتاح على الآخر وتقبله على اختلافه مفهوم جديد على ثقافتنا العربية لكننا «أبناء سورية العظيمة أرض البطولات والتاريخ المشرف منبع الأبجدية والفنون.. سورية التي وصلت الشرق بالغرب وصدرت الفكر والإبداع منذ آلاف السنين» نحن السوريين من وقف في وجه «الغزاة والمحتلين وصد المغول والصليبيين وسطر ملاحم البطولة ضد المستعمر الفرنسي

✿ أديب وباحث في التراث العربي من (سورية).

والصهاينة المعتدين» فكيف لنا نحن بناة الحضارة أن نرفض التحاور فيما بيننا وهل يمكن لحضارة أن تبنى من دون حوار.

واعتبرت مشوّح أنه من المحزن أن نجتمع ووطننا يمر بأوقات عصيبة فالجرائم «ترتكب بحق شعبنا وتدمر بنانا التحتية ويعتدى على تراثنا وما يمثله من قيم حضارية أثرت الفكر والإبداع الإنساني» بينما يقف العالم «متفرجاً باكياً موجعاً للفتنة».

ورأت الدكتورة مشوّح أن المطلوب في هذه المرحلة «سلوك الطريق الوطني العريض» تحت سماء الوطن الواسعة في هذه الأرض الطيبة الجامعة «لبناء منظومة اجتماعية تقوم على ثقافة المواطنة التي يتقدم فيها الولاء للوطن على أي ولاء آخر».

ودعت وزيرة الثقافة المثقفين جميعاً لممارسة دورهم كاملاً في «إعادة بناء الأخلاق وتنمية الوعي المجتمعي العام بتعزيز الانتماء الوطني والتمسك بالهوية والوحدة الوطنية وتحصين الفكر ضد انحرافات التعصب والتغييب والإقصاء» حفاظاً على نسيج وطني منيع مشيرة إلى أنّ الحوار الوطني الناجح لا يكون إلا بتضافر جهود قادة الرأي من مثقفين وأدباء ومفكرين وسياسيين وإعلاميين ورجال دين للوصول إلى التصالح مع الذات والآخر وإلى السكينة والسلام، مشيرة إلى أن ندوة الحوار الوطني من أجل سورية يمكن أن «تؤسس لرؤى وأفكار وآراء تمهد الطريق لبناء وطن سليم آمن مزدهر فما زالت في الأفق صفحات بيضاء نستطيع أن نخط عليها كلمات التسامح والمحبة والتلاقي».

بدوره قال حسين جمعة رئيس اتحاد الكتاب العرب إنه من المهم أن يتنادى المثقفون والأدباء وأبناء الأمة إلى طاولة حوار ليناقشوا كل ما يعنيهم في واقعهم وحاضرهم ومستقبلهم وليقرؤوا ذلك قراءة ذاتية وموضوعية منهجية وعلمية بغية «صياغة عقد اجتماعي يفيض بالأمل والمحبة».

وأوضح رئيس اتحاد الكتّاب العرب أن على «المثقفين والكتّاب أن يواجهوا الحقيقة بعيداً عن التغني بالمصطلحات التي لم يعد لها موقع في حياتنا وثقافتنا» فالمثقف فوق أي تصنيف إلا تصنيف من ينضم إلى خدمة قضاياه النضالية وقضايا مجتمعه وأمته.

من جهته قال أنور رجا مسؤول الإعلام في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة في كلمة المشاركين. «لا يولد الحرف ولا ينمو العقل إلا بفعل المثاقفة والحوار الذي يترتب عليه مكاشفة وشفافية على قاعدة الرأي قبل شجاعة الشجعان» فلا معنى للحوارات المسترخية على طاولات بعيدة لأنّ التجارب التي خاضتها أميركا

والصهيونية والغرب جعلتهم يدركون أن «رأس سورية عصي على أعدائه لاسيما أن الدعوات للتطرف والقتل والذبح أثبتت فشلها» وتبدّى عارها متجلياً في قطع رأس تمثال أبي العلاء المعري، ودعا رجا إلى الخروج من «ثقافة الغزو والغواية إلى ثقافة المحبة والحوار» لتلافي ما يرمي إليه الآخرون في تجديد اتفاقية سايكس بيكو والخروج من أزمة الوعي وسطوة الإعلام الذي كرس في سورية فكرة الموالاة والمعارضة مفسراً الانتماء بالموالاة ومن شذوا على الانتماء هم المعارضة المصطنعة وقادتها في الغرب.

وتحت عنوان «الأزمة السورية والمثقف» قدمت الكاتبة كوليت خوري مداخلة تحدثت فيها عن الأزمة في سورية ودور المثقف في شرح واقع الأزمة مقدمة تعريفاً للمثقف الحقيقي ومبينة الفارق بين العلم والثقافة والعالم والمثقف وحتمية كون المثقف صاحب أخلاق حميدة.

أمّا الدكتور أشرف بيومي من مصر فشارك بمحاضرة تحدث فيها عن أبعاد التآمر على سورية ومدى خطورة نتائجه على الأمة العربية كلها لافتاً إلى أن «موقف الكثير من المثقفين العرب هو إمّا عدم الاكتراث وانتظار ماتحضره الأحداث أو اتخاذ موقف معاد للدولة والوطن السوري»، وبحث بيومي في العوامل والأدوات التي أدت إلى هذا التحول الخطير والذي نرى نتائجه ليس فقط بالنسبة للأزمة في سورية بل أيضاً في دول ما يسمى «الربيع العربي» مناقشاً كيفية مواجهة قوى الهيمنة الأجنبية في محاولاتها المستمرة «لإضعاف الدولة الوطنية والتمهيد الحثيث لتحقيق الهدف الأكبر وهو المشروع الشرق أوسطي» بأبعاده السياسية والاقتصادية والثقافية الجديدة.(1)

فيلم عن الشاعر عبد الوهاب البياتي:

تجري استعدادات أولية لإنتاج فيلم سينمائي وثائقي عن الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي ضمن مشروع بغداد عاصمة للثقافة العربية، إعداد الكاتب فاروق محمد، وسيتصدى لإخراجه المخرج نزار شهيد الفدعم، ويعد هذا الفيلم الأوّل عن الشاعر الذي توفي عام ١٩٩٩ عن ٧٣ عاماً، حيث يعد واحداً من أربعة أسهموا في تأسيس مدرسة الشعر العربي الجديد في العراق (روّاد الشعر الحر) وهم على التوالي نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وشاذل طاقة.

قال الكاتب فاروق محمد: عن عبد الوهاب البياتي صدرت كتب ولكن لم ينتج عنه فيلم وثائقي أو تسجيلي يؤرخ فيه تاريخ حياة هذا الشاعر الكبير وما قدم من نتاج أدبي، والبياتي يعد شاعراً عالمياً

لأنه دواوينه الشعرية ترجمت إلى العديد من اللغات العالمية فضلاً عن كون شهرته عالمية فعلاً، وهو من جيل السياب ونازك الملائكة، أصحاب التجديد في الشعر، وليس ابتكار الشعر الحر فقط، فهناك تجديد فكري كما نعرف للشعر، مؤكداً أنه لم يتناول كل تفاصيل حياة البياتي، لأن حياته طويلة وتنقلاته كثيرة ودواوين شعره عديدة، هو ليس مسلسلاً تلفزيونياً كي أذكر به كل التفاصيل، بل تناولت لمحات مهمة وقبسات مؤثرة، وختم حديثه بالقول: وجدت أن الرجل لم يكتب عنه أحد بتفصيل، وهو منسيّ من بعض الجهات، فهناك أجيال من الشباب لا يعرفونه مثلما يعرفون السياب على سبيل المثال، على الرغم من المساحة الزمنية التي عاشها وعلى الرغم من المسافة الإبداعية التي قدمها.(٢)

اكتشاف ٣٥ هرماً في السودان:

كشف علماء الآثار حلقة ربط بين الحضارة الفرعونية وحضارة السودان حيث وجدوا ٣٥ هرماً يعود تاريخها إلى أكثر من ٣٠٠٠ عام في منطقة شمال الخرطوم.

واكتشف فريق الباحثين أوّل الأهرامات في عام ٢٠٠٩م وفي عام ٢٠١١م وصل عدد الأهرامات المكتشفة إلى ١٣ هرماً، انصرف لدراستها خبراء الآثار من القسم الفرنسي بمديرية الآثار بالسودان، ومع حلول نهاية عام ٢٠١٢م وصل عدد الأهرامات إلى ٣٥ هرماً.

وقد وجدت الأهرامات في منطقة واحدة تبلغ مساحتها ٥٠٠ متر مربع، وتمَّ بناؤها بترتيب معين، إلا أنها قامت في منطقة كانت معبراً للقوافل، وردمتها الرمال فأخفتها عن الأعين، ما أدى لتدمير قطعان الجمال للكثير منها، فضلاً عن تأثرها بعوامل التعرية وتقلبات الطقس.

وتعد الأهرامات الموجودة أصغر من الأهرامات المصرية إلا أنها تشبهها ولم تسلم قممها من الاندثار ويرجح علماء الآثار أنَّها كانت على أشكال مختلفة مثل زهرة اللوتس، أو على شكل طيور وأيضاً الشمس، وعثر المنقبون على العديد من الآثار بجوارها، وعلى غرف لدفن الموتى بقيت فارغة بعد أن نهبت على مر القرون، ما يرجح أن المنطقة المحتضنة للأهرامات كانت مقابر منذ أكثر من ألفي سنة.

ويقول فنسنت فرانسيغني عالم الآثار من المتحف الأمريكي للعلوم الطبيعية: «إن كثافة توضع الأهرامات تدل على أن هذه المقبرة امتدت على مدى فترة طويلة من الزمن واستغرقت الكثير من الوقت فتشييد الأهرامات دام لعدة قرون».

ويبلغ الطول العرضي لأكبر هذه الأهرامات ما يقارب ٦,٧ أمتار وأصغرها

يقارب ٧٦ سنتمتراً، ووجد المنقبون في أحد الأهرامات أكثر من ١٥٠٠ خرزة ولوح حجري يحمل نقشاً للإله «أنوبيس» مع رأس حيوان.

ويعود بناء هذه الأهرامات إلى عصر قيام مملكة كوش القديمة التي ظهرت في المنطقة الممتدة بين الحدود الجنوبية لمصر وشمال السودان حالياً وكانت قوة عظمى بين القرنين الثامن والرابع قبل الميلاد وحكمت مصر لقرن ونيف، وأصبحت فيما بعد جزءاً من الإمبراطورية الرومانية. وتتركز أهمية هذا الاكتشاف بكونه إثباتاً ملموساً عن توارث حضارة الفراعنة وانتقالها جنوباً إلى السودان.(٣)

مركز الخطوط يوثق النقوش الأثرية:

أقام مركز الخطوط بمكتبة الإسكندرية ندوة بعنوان «الأديرة القبطية- النقوش الأثرية».تحدث فيها كل من الدكتور يوحنا نسيم يوسف، كبير باحثين بمركز الدراسات المسيحية المبكرة في الجامعة الكاثوليكية بأستراليا، والدكتور عاطف نجيب؛ مدير عام متحف آثار أسوان.

وقدم أحمد منصور نائب مدير مركز دراسات الكتابات والخطوط بمكتبة الإسكندرية، عرضاً لاهتمام المركز بمجال توثيق النقوش والكتابات القديمة بمختلف أنواعها، وركز على نشاط المركز في توثيق ودراسة النقوش والكتابات القبطية في مصر.

وأشار إلى أن عام ٢٠١٠م يمثل خطوة هامة لمركز دراسات الخطوط والكتابات بالدراسات القبطية، حيث جاء تنظيم المؤتمر الدولي الأول للدراسات القبطية تحت عنوان: «الحياة في مصر خلال العصر القبطي...المدن والقرى، رجال القانون والدين، الأساقفة»، مضيفاً إن مركز الخطوط يعلن عن عقد ورشة عمل لتدريب الأثريين والباحثين في مجال الدراسات القبطية على قراءة النقوش القبطية سواء على الأوستراكا أو البرديات، مما يسهم في رفع مستوى البحث العلمي في مجال النقوش القبطية. وسوف تعقد الورشة بالتعاون مع جامعة أيوا الأميركية، والبعثة الأثرية العاملة في الدير الأحمر بسوهاج.

وألقى الدكتور يوحنا نسيم يوس محاضرة بعنوان «الكتابات والنقوش في الأديرة المصرية: من الإسكندرية إلى الفيوم، عرض خلالها اللهجات القبطية المختلفة كاللهجة الصعيدية والبحيرية، وشرح معنى كلمة دير والمعاني العديدة التي تحملها هذه الكلمة فقد تستخدم بمعنى بلدة أو مقابر أو بمعناها الأشهر مسكن للرهبان والراهبات، حيث كان أول ذكر لها في القرن ١٢ الميلادي،

وأشار إلى ازدهار الحياة الديرية في مدينة الإسكندرية وضواحيها، حيث ذكرت بعض المصادر أنّ عدد الأديرة أو التجمعات الرهبانية فيها وصل إلى ٣٠٠ دير، وإن لم يكن الرقم دقيقاً فإنه على الأقل يؤكد كثرة الأديرة بالمدينة ومحيطها، وتطرق الباحث في محاضرته إلى منطقة كيليا (القلالي)، القريبة من النوبارية، التي اكتشفت في عام ١٩٦٤م؛ وهي ثاني أقدم تجمع رهباني في العالم حيث بدأت الحياة الرهبانية فيها في منتصف القرن الرابع الميلادي ووصل عدد رهبانها إلى ٦٠٠ راهب، كما تحدث حول منطقة وادي النطرون التي أنشئت الحياة الرهبانية فيها على يد القديس مكاريوس الكبير، وتعرض الباحث كذلك للعديد من الأديرة القبطية في تلك المنطقة كدير أبو مقار، دير الأنبا بيشوي، دير السريان ودير البراموس، والتي عثر فيها على العديد من النقوش التي كتبت بلغات مختلفة كالقبطية، اليونانية، السريانية والعربية، واختتم محاضرته بأمثلة من دير الأنبا أرميا بسقارة التي عثر فيه على كتابات على الخشب، الشاقافات والأحجار كتبت بالقبطي، اليوناني والعربي.

ثم ألقى الدكتور عاطف نجيب محاضرة بعنوان «الكتابات الجدارية في مواقع الآثار القبطية بالنوبة وصعيد مصر»، تناول فيها الآثار المسيحية التي عثر عليها في مقابر البجوات بالوادي الجديد؛ وهي جبانة مسيحية يرجع تاريخها إلى القرن الثاني حتى السابع الميلادي، تحتوي على ٢٦٣ هيكلاً زخرت بمناظر مختلفة من التوراة إضافة إلى المناظر المسيحية.

وعثر في العشرات من تلك المقابر على الكثير من الكتابات المختلفة كاليونانية، القبطية والعربية. وتناول الباحث أمثلة من مزار السلام وهو من أهم العناصر الأثرية الموجودة بمنطقة البجوات.

وانتقل الباحث إلى الحديث عن مثال آخر وهو دير القديس أقلاديوس بأسنا ثم دير الأنبا متاؤس الفاخوري الذي عثر فيه على أحد أهم اللوحات التي تحمل رسوماً لأنبياء من العهد القديم كتب بجانب كل منهم اسمه.كما تحدث الباحث عن أحد النصوص التي عثر عليها بدير الأنبا متاؤس الفاخوري والتي كتبت باليونانية والقبطية الصعيدية ما يعني أنّ «الفنان الذي قام بتلك الرسومات هو راهب من دير الأنبا شنودة بأخميم». وتطرق الحديث كذلك إلى تمثال وجد بمنشوبية (مكان صغير لتجمع الرهبان) غرب أسنا فيه نص يذكر أسماء قديسي الوجه البحري والقبلي بدءًا من الأنبا أرميا بسقارة إلى أبيدوس.

وتناولت المحاضرة النقوش التي عثر عليها

بمملكة النوبة المسيحية التي تحولت إلى الإسلام عام ١٣٢٤م، وبدأ الحديث بإعطاء أمثلة من دير قبة الهوى بأسوان والتي من أهمها النص الذي يحمل اسم البطريرك يعقوب الذي عاش بالقرن التاسع الميلادي، وتطرق الباحث إلى أمثلة لكتابات من دير الأنبا هدرا بأسوان الذي عثر فيه على كتابات تنوعت لغتها ما بين يونانية، نوبية وعربية. وتناول أيضاً نصّاً وُجد بكنيسة المضيق كُتب بالقبطية والنوبية، وأخيراً ختم الباحث محاضرته بالحديث عن نص معبد وادي السبوع؛ وهو عبارة عن قائمة بأسماء أساقفة فرس تحوي أسماء ٢٨ أسقفاً، الأمر الذي يجعلها أكبر قائمة بأسماء أساقفة عثر عليها في مصر القبطية.(٤)

اكتشافات أثرية في شبه الجزيرة العربية:

أظهرت مجموعة اكتشافات أثرية حديثة في شبه الجزيرة العربية دليلاً يشير إلى وجود حضارة تاريخية كانت تتمركز في قلب الصحراء القاحلة الآن، تتيح دليلاً على وجود حضارة ازدهرت قبل آلاف السنين فضلاً عن كونها أثارت الشغف العلمي بشأن الإنسان وتطور عملية تدجين الحيوان، حيث استطاع علماء الآثار الكشف عن نحو ٣٠٠ قطعة أثرية حجرية في منطقة المقر السعودية من بينها أدوات مصنوعة من الحجارة ورؤوس سهام ومكاشط صغيرة وعدد من تماثيل الحيوانات من بينها منحوتات لخراف وماعز ونعام، إضافة لتمثال حجري كبير يجسد حيوان «ايكيد» أحد الحيوانات التي تنتمي لفصيلة الخيليات حظي باهتمام واسع بين علماء الحياة والآثار.

وأكد الأثريون أهمية هذه الاكتشافات التي يعود عمرها إلى تسعة آلاف عام، مايشير إلى أن هذه المنطقة قد تمثل مهد ميلاد حضارة متقدمة تعود لفترة ما قبل التاريخ شهدت تدجين الحيوانات، لاسيما الخيول، للمرة الأولى خلال العصر الحجري.

وقال مايكل بيتراغليا، أستاذ علوم تطور الإنسان وعصر ما قبل التاريخ في جامعة أكسفورد وأحد العاملين في بحوث الكربون المشع، إنَّ تاريخ الموقع يعود لفترة تسبق بكثير ما كان متوقعاً، كما يبرز فترات التأرجح بين فترات الرطوبة والجفاف في شبه الجزيرة العربية، وأضاف بأن الأثر الذي تمّ اكتشافه للخيول يعود إلى فترة الرطوبة في شبه الجزيرة العربية.

واكتشف العلماء، من خلال تتبع أدوات حجرية أخرى مثل المكاشط التي يقدر تاريخها بأكثر من ٥٠ ألف سنة، أن الموقع كان مألوفاً لاستقرار الإنسان على مدى آلاف السنين، ويرجع ذلك إلى حد ما إلى الطبيعة

الطبوغرافية (السمات التضاريسية) أو الأرض، وقال مايكل بيتراغليا «كانت المنطقة تقع على ضفاف النهر. وعاش الإنسان في هذه المنطقة قبل أن يداهمها التصحر أو قبل تغير المناخ الشديد الذي انتهى بظروف جفاف قاسية وتنامي مساحة الصحراء»، مشيراً إلى أن هذه الاكتشافات تبرز دلائل بالغة الأهمية تتعلق بالتجارة والهجرة والطقوس.(٥)

ثلاثون ألف كتاب في دار فارغاس يوسا:

أعلنت وزارة الثقافة البيرونية أن الدار الأثرية في مدينة أريكيبا أصبحت جاهزة لاستقبال نحو ٣٠ ألف كتاب تبرع بها الكاتب البيروني الحاصل على جائزة نوبل ماريو فارغاس، من بينها أرشيفه الشخصي الذي سيتم تسليمه للدار بعد وفاته، إضافة إلى كتبه القادمة من مكتباته الخاصة بمدريد وباريس وليما

وأشارت الوزارة إلى أن الدار التي ستضم كذلك جميع البحوث التي كتبت حول أعمال يوسا الإبداعية ستكون مفتوحة في وجه السياح الذين سيزورون مدينة أريكيبا، متوقعة أن يزور هذه الدار التي اقتنتها الحكومة الإقليمية بمليون و٩٤٥ ألف دولار حوالى ٦٤٩ ألف سائح سنوياً.

وأفادت الوزارة بأنّ الدار التي تبلغ مساحتها ١٤٥٣ متراً مربعاً وتضم ١٤ غرفة وثلاثة فناءات وأقواس، تعود إلى القرن الثامن عشر وكانت في ملكية أسر مهمة في أريكيبا قبل أن تنتقل ملكيتها إلى ثانوية كاثوليكية، وتضمنت المرحلة الأولى من الدار استثمار ٢٣٦ ألف دولار ستوجه للصيانة وللحفاظ على هذه الدار الأثرية.

يشار إلى أن فارغاس ولد في أريكيبا جنوب البيرو في ٢٨ آذار/مارس ١٩٣٦م ونشأ مع والدته وجديه في كوتشابامبا في بوليفيا ثم في البيرو. وبعدما درس في الأكاديمية العسكرية ليونثيو برادو في ليما حاز شهادة في الآداب من جامعة سان ماركو في ليما ثم حصل على منحة مكنته من مواصلة دراساته حتى حصل على دكتوراه من مدريد.

وعمل يوسا بين ١٩٥٩ و١٩٦٠م في القسم الإسباني لمكتب وكالة الصحافة الفرنسية في باريس قبل أن ينجز الرواية التي اكتسب شهرة بعدها «المدينة والكلاب» التي تجري أحداثها في مدرسة عسكرية في ليما، وترشح يوسا في ١٩٩٠م للانتخابات الرئاسية عن يمين الوسط على الرغم من انخراطه في شبابه في تيار سياسي يساري.

وقد صعد نجم بارغاس يوسا سماء العالمية عام ١٩٦٦م بعد نشر روايته «زمن البطل» التي تدور أحداثها حول عملية قتل

في أكاديمية عسكرية، ومن بين أشهر روايات بارغاس يوسا «ألاعيب الطفلة المشاغبة» عام ٢٠٠٦م و«زمن البطل» عام ١٩٦٢م و«حفلة التيس» عام ٢٠٠٠م، وتستند أعمال يوسا إلى خبرته في الحياة في بيرو في أواخر الأربعينيات والخمسينيات، وقد ترجم إنتاج فارغاس يوسا الذي يضم حوالى ثلاثين عملاً بين الرواية والدراسة والمجموعة القصصية والمسرح في العالم بأسره.

يرى فارغاس أنَّ على الكاتب التزاماً أخلاقياً يقضي بأن ينخرط في الحياة المدنية وأحياناً في السياسة أيضاً، وخلال مساره المهني المديد الذي أخذه إلى أماكن مختلفة، لم يكف فارغاس يوسا إلا نادرا عن الكتابة مازجا «الانضباط» و«الفضول» وهما صفتان يعدهما أساسيتين لأي كاتب، ويرى أنه محظوظ جداً لأنه حظي بفرصة رائعة حيث كرس معظم وقته لممارسة النشاطين الأحب بالنسبة إليه ألا وهما الكتابة والقراءة.[٦]

كنز القصائد بقي تحت وسادة الشاعر:

تمَّ العثور مؤخراً على مجموعة تضم أكثر من ٥٠ قصيدة غير منشورة للكاتب البريطاني روديارد كيبلينغ صاحب «كتاب الغاب»، وقد صدرت عن دار النشر التابعة لجامعة كامبريدج على ماورد على موقعها الإلكتروني.

وكانت الوثائق التي جمعها الأستاذ الجامعي الأميركي توماس بيني موجودة في الولايات المتحدة وموزعة في أماكن عدة منها منزل في مانهاتن في مدينة نيويورك حيث عثر على قصائد خلال أشغال ترميم في المكان.

وقال توماس بيني في بيان صادر عن «كامبريدج يونيفيرستي برس» أن «الباحثين الجامعيين لطالما أهملوا أعمال كيبلينغ لأسباب سياسية على الأرجح»، وأضاف «ثمة كنز غير مقدر على مستواه الحقيقي مؤلف من أعمال غير منشورة وغير مكتشفة» أن الأمر يشكل «مرحلة مشوقة جداً للباحثين ولمحبي كيبلينغ».

وتحمل هذه القصائد غير المنشورة عناوين مثل «الصحافة» و«عبر جبالنا الشمالية العالية» وتتناول مواضيع مختلفة من عيد ميلاد في نيويورك إلى الحرب العالمية الأولى التي قضى فيها نجل الكاتب جون في سن الثامنة عشرة، وتنشر هذه القصائد في المجموعة الكاملة لشعر روديارد كيبلينغ الصادرة في أجزاء ثلاثة عن دار النشر التابعة لجامعة كامبريدج، «كامبريدج يونيفيرستي برس».

ولد روديارد كيبلينغ العام ١٨٦٥م في بومباي في الهند وعاش لسنوات في فيرمونت في شمال شرق الولايات المتحدة وفي سن الثانية والأربعين كان أوّل كاتب باللغة الإنكليزية يحصل على نوبل للآداب. وكان مدافعاً كبيراً عن الإمبراطورية البريطانية وهو من محبي اللغة الفرنسية وكتابات جول فيرن.(٧)

وفاة ريزو، مصوّر بيكاسو:

رحل المصوّر الشهير ويلي ريزو عن عمر يناهز ٨٤ عاماً، وهو الذي ارتبط اسمه بصور بابلو بيكاسو، وسلفادور دالي، ومارلين مونرو، وغيرهم من بين العديد من أسماء نجوم هوليوود، والمشاهير من جميع أنحاء العالم.

ولد ويلي ريزو (١٩٢٨-٢٠١٣م) في نابولي بإيطاليا، وعندما كان طالباً لم يتجاوز عمره ١٢ عاماً، في المدرسة الإيطالية «سيديلوت ستريت» بباريس، التقط العديد من الصور لزملائه في الصف بكاميرا «أغفا بوكس» التي كانت أعطتها له أمه. وبدأ مسيرته في العاصمة الفرنسية باريس، حيث عمل مصوراً للنجوم لحساب «وورلد سينما»، وسافر إلى تونس لالتقاط الصور في أعقاب الصراع في شمال أفريقيا لمجلّة «بونت دو فو».

واستطاعت عدسة ويلي ريزو أن تلتقط أوّل صورة ملونة لرئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل (١٨٧٤- ١٩٦٥م)، ونشرها في مجلة «باري ماتش». ومع ذلك، فقد نال الشهرة والصيت العالمي عن طريق الصور التي التقطها لنجوم هوليوود، والفنانين، وعروض دور الأزياء.

واشتهر ريزو الذي أُطلق عليه اسم «صائد النجوم»، و«اللورد الكبير»، خلال أعوام الخمسينيات والستينيات، عن طريق تصويره الملوك، وعارضات الأزياء، والممثلين، ونجوم مهرجان كان وهوليوود، ومن بين أبرز النجوم والمشاهير الذين وقفوا أمام كاميرا ريزو الممثلة مارلين مونرو، والرسام العبقري بابلو بيكاسو، والرسام السوريالي سلفادور دالي، والنجمة بريجيت باردو، والممثلة والمغنية مارلين ديتريش، والممثل السينمائي جاك نيكلسون، والراقص والمغني جين كيلي، والممثلة والكاتبة والناشطة السياسية جين فوندا.

وخلال سنوات ما بعد الحرب، انجذب ويلي ريزو إلى حياة المشاهير في الولايات المتحدة الأمريكية، وإلى عالم نجوم كاليفورنيا، وقرّر السفر إلى نيويورك للعمل لحساب وكالة «بلاك ستار». وتمكن في سنوات ما بعد الحرب من التقاط الصور وكتابة التقارير عن أساطير هوليوود، أمثال غريغوري بيك، وغاري كوبر، وبريجيت

باردو، وصوفيا لورين، ومارلين مونرو، وأودري هيبورن، وجين فوندا، وجين كيلي، وفريد أستر، الذين قادتهم أرجلهم جميعاً للوقوف أمام عدسته الشهيرة، ولينجز أشهر الصور لنجوم هوليوود، ما بين الأعوام ١٩٤٥- ١٩٧٠م.

عقب زواجه من الممثلة إيلسا مارتينيلي في ١٩٦٨م، قرّر ويلي ريزو العودة إلى روما والبدء بالعمل في مجال التصميم، لحاجته الشخصية في بادئ الأمر غير أن تأثره بالأسماء الكبيرة والمعروفة في عالم التصميم، مثل «لي كوربيسير»، دفعه للعمل من أجل أن تكون لديه مجموعة أعمال خاصة به، وكان أن أنشأ شركة ضمّت ١٥٠ موظفاً. وبعد مرور عقد من الزمن، عاد إلى فرنسا ليمارس المهنة التي عشقها مذ كان صغيراً، ألا وهي التصوير.[٨]

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW.SANA.ORG.

٢- موقع إيلاف WWW.ELAPH.COM.

٣- أنباء موسكو /نوفوش AR.RIAN.RU.

٤- وكالة أنباء الشرق الأوسط WWW.MENA.ORG.EG.

٥- موقع بي بي سي WWW.BBC.CO.UK/ARABIC

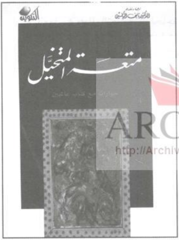
٦- موقع ميدل إيست أون لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO.

٧- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM.

٨- موقع البوابة WWW.ALBAWABA.COM.

متعة المتخيَّل
عالم فسيح من جنون الإبداع

د. إسماعيل مروة ✪



هل عرفنا تفاصيل رحلة الإبداع الروائي لدى المبدعين؟ وهل وصلنا إلى سر النجاح الذي حققه هذا المبدع أو ذاك؟ ماذا نعرف عن الإخفاقات والنجاحات؟ متى يصل المبدع إلى لحظة الألق؟ ومتى يصل إلى حافة الانهيار لينهي حياته بنفسه؟ نجومية المبدع وآليات تحققها، الأثمان التي يدفعها المبدع في رحلته الإبداعية، قراءة المبدع لماهية الإبداع الروائي، ثم تقييمه لمنجزه الروائي، ما تحمله الأعمال الروائية من تحديات للذات والمحيط والإبداع، الغاية النهائية من العمل الروائي فنياً وفكرياً.

أسئلة وقضايا يقف عندها الباحث مطولاً، ويحار أمامها القارئ، وخاصة إن بقي على حدود النص الروائي ولم يدخل في ثنايا حياة الروائي، أو إذا كان الروائي عالماً مغلقاً، وفي أحسن الحالات إن لم يسمح المبدع بدخول الناقد في تفاصيل حياته ورؤيته الإبداعية.

أبدع مبدعونا ورحلوا، ولا يزال بعضهم

✪ كاتب وأديب وشاعر وأستاذ جامعي.

على قيد الحياة، ونحن نجهل منابعهم الحقيقية، ودوافعهم المحفزة لإنجاز هذا الإبداع المتميز من كل الجوانب، بل إن بعضهم يخفي إخفاقاته ليبدو مارداً وناجحاً على الدوام، متناسياً أن إخفاء هذه الإخفاقات يعني ضياع كمّ من القيمة الإبداعية لما جادت به قريحته وسط مؤثرات عامة وخاصة.

التخيل بين المتعة والقراءة

قرأنا روايات الكتّاب العالميين، وتغنى القرّاء والنقاد بالشيخ والبحر لهمنغواي، ومئة عام من العزلة وخريف البطريرك لماركيز، وبأعمال أخرى لكتّاب من الصف الأوّل على المستوى العالمي ولكن هذه المتعة في القراءة، والفوائد التي جنيناها من قراءة هذه الأعمال الروائية، كيف تحققت؟ ومن أين جاءت؟ وكيف تراكمت وتراكبت؟ وهل كان النجاح هو في لحظة وقوع العمل الروائي بين القرّاء؟

إنّ سبل تحقق العالمية والذيوع ليست سهلة، حتى لأولئك الذين ينتمون إلى غير العالم العربي، وهنا لا استثناء بين غرب وشرق، أميركي ولاتيني.

فالحكم بالذيوع والعالمية وصل إلى كل هذه الأصقاع، واستثنى العالم العربي النائم على تاريخ طويل فردي وجمعي أعاق التحليق في آفاق الإبداع العالمي، وحرم المبدعين المشاركة في تكوين جوهر الرواية العالمية، وينبئنا عن ذلك الثورة العالمية في الرواية، فكراً وفناً وحجماً، والتي كانت من أميركا اللاتينية لتحرك المياه الراكدة في الرواية العالمية التقليدية.

إنّ ما نقرؤه من شذرات هنا وهناك عن همنغواي أو فوكنر أو كونديرا أو يوسا، تعطينا فكرة محددة عن عمل ما، أو عن مرحلة محددة تطول أو تقصر، لكنها تبقى على هامش العملية الإبداعية الروائية.

«متعة المتخيّل» كتاب يجمع حوارات لعدد من أهم الكتّاب العالميين في عالم المتخيل من العالم الروائي ترجمه وحرره الدكتور نايف الياسين، وصدر عن دار التكوين في دمشق، وهذا الكتاب الذي يجمع حوارات لاثني عشر كاتباً عالمياً هم «أرنست همنغواي، وليم فوكنر، جون شتاينبك، فلاديمير نابوكوف، توني موريسون، مايا أنجيلو، غابرييل غارسيا ماركيز، أوكتافيوباز، ماريوفارغاس يوسا، آلان روب غرييه، غونترغراس، ميلان كونديرا» من الأهمية بمكان، فهو يقدم سيرة مختصرة للكاتب الروائي قبل أن ندلف معه إلى حوار، هذا الحوار يشكل منجماً حقيقياً في قراءة النص الملتصق بكاتبه، بعيداً عن نظرية موت المؤلف، باعتبار

أنّ الحوار يشكل راسماً للعمل الإبداعي، وإن كان المؤلف قد مات على الحقيقة أو على الافتراض، وكذلك قريباً من نظرية موت المؤلف، باعتبار أنّ النص هو العلامة الباقية أثراً إنسانياً بغض النظر عن الكاتب وماهيته وتجربته، وسنرى كلتا النظريتين في هذه الحوارات الغنية للغاية، الصادقة إلى حد الإدهاش الصادمة حد الغيبوبة.

العنوان والدلالة

«متعة التخيل» قد لا يشي هذا العنوان بما يحمل تحته من مغامرة حياتية وحوارية ولكن العمل موجّه لمن يقرأ الدلالة أولاً، ولمن لا يكتفي بقراءة العنوان، فالمتعة غاية، والرواية تخيل وتخييل، وصناعة عوالم قد تكون واقعاً، لكنها تشكل رؤية وخيالاً عند الكاتب والقارئ على السواء.

فالنص الروائي قد ينتقل من خيال كاتب ليلامس واقعاً قارئاً، وقد يتحول من تسجيل كاتب ليداعب خيالاً مجنحاً قارئاً، وفي كل الحالات هو عالم من المتخيل غير مكتمل الواقعية، ليمنح القارئ متعة التخيل، ومتابعة الحدث المتخيل، وصولاً إلى تجربة وفائدة، وربما محاكاة، وترتفع قيمة المتخيل، وأنت تقرأ نجاحاً وإخفاقاً يظهر إلى العلن، في سيرة عاصفة تمر مروراً خاطفاً قبل أن تبدأ رحلة العصف الذهني والحوار المجنح لمبدع يعطي خلاصة صادقة متماهية مع ذاته، أو يرسم عالماً هو إلى الخيال أقرب بين واقع لا منطقي ونتيجة غير مرتقبة من جانب من الجوانب.

همنغواي والكتمان

«الكتابة هي عمل خاص وشخصي يُؤدى في عزلة الكاتب من دون الحاجة إلى شهود حتى إنتاج الشكل الأخير للعمل» هكذا يرى محاور همنغواي رأيه القائم على التكتم ويكشف عن أنّ همنغواي المنطلق ليس كذلك في الحديث عن الكتابة، ما بين ١٨٩٨م تاريخ ولادته، و١٩٦١م تاريخ انتحاره، ووفاته يختصر همنغواي رحلة الإنسان وقوته التي مثلها خير تمثيل في رائعته «الشيخ والبحر» التي قامت على التحدي في عالم المتخيل، هذا التحدي الذي عجز عنه همنغواي في مجابهة تراجع قواه الفنية والجسدية. وها هو يعبر بعفوية عن عاداته الكتابية وطقوسه وأقبس عبارات منتقاة من إجاباته لتضعنا أمام صورة للكاتب الذي كان:

«دائماً أعيد كتابة الجزء الذي كتبته في اليوم السابق.. كتبت وداعاً للسلاح، الصفحة الأخيرة منها تسعاً وثلاثين مرة قبل أن أشعر بالرضى.. يمكنك أن تكتب في أي وقت يتركك فيه الناس وشأنك ولا يقاطعونك..

أفضل الكتابة هي عندما تكون في حالة حب.. عندما تصبح الكتابة هي رذيلتك الأساسية ومتعتك الأعظم، فإنَّ الموت وحده يمكن أن يوقفها.. الصحافة بعد نقطة معينة تصبح تدميراً للذات لكاتب إبداعي جاد.. أتعلم عن الكتابة من الرسامين بقدر ما أتعلم من الكتّاب.. أنا أقرأ الكتب دائماً.. إذا شرحت أعمالي بنفسي سأقطع رزق الشارحين..

أحياناً تعرف القصة كاملة، وأحياناً تطورها بالتدريج، ولا يكون لديك فكرة كيف ستنتهي.. عندما يتوقف الكاتب عن المراقبة والملاحظة فإنه ينتهي.. إذا قمت بعملك بشكل جيد فإنك تمنحه الخلود..».

فوكنر والبديل

ولد عام ١٨٩٧م وتوفي عام ١٩٦٢م، وما بين العامين كانت الرحلة الحافلة التي أنجز فيها: أجر الجنود، البعوض، أعلام في الغبار، الصخب والغضب، الملاذ، الذي لم يقهر، القرية، متطفل في الغبار، قداس لراهبة.. وغيرها من الأعمال، عاصف فوكنر في إجاباته، وإشكالي وصادم، لكن هذه الصدامية تروق للمتلقي الذي يراها من قلب الصدق.

«لو لم أكن موجوداً لكتب أحد آخر أعمالي، همنغواي، دوستويفسكي، كلنا..» «كلنا فشلنا في تحقيق حلمنا في الكمال، وهكذا فإن تقييمنا على أساس فشلنا العظيم في فعل المستحيل. في رأيي، لو سنحت لي الفرصة لكتابة كل أعمالي من جديد، فإني مقتنع بأني سأكتبها بشكل أفضل..

بغض النظر عن الرؤية النقدية التي أشرت إليها من حياة المؤلف أو موته، فإنَّ فوكنر يقرر عدم ضرورة تعيين الكاتب من ذاته، فالمنتوج الأدبي يجب أن يظهر، سواء كتبه أو غيره، وهو هنا يتعامل مع العمل الروائي كما لو أنه فكرة مطروحة، وما على الكاتب إلا الصياغة، وهو هنا يتجاوز الفروق الفردية أو الإبداعية، وفي المقطع الثاني يقرّ بأنه لو كتب أعماله من جديد لكتبها بشكل أفضل، وربما كان أكثر دقة لو تحدث بأنه يكتبها بشكل مغاير تماماً..

وما أدقه وهو يتحدث عن خصائص الروائي الجيد.. تسعة وتسعون بالمئة موهبة.. تسعة وتسعون بالمئة انضباط، تسعة وتسعون بالمئة عمل يجب ألا يحس بالرضى عما يفعل. يستحيل أن يكون العمل بالجودة التي يمكن أن يكون بها، احلم دائماً وصوّب أعلى مما تعرف أن بإمكانك فعله، لا تهتم فقط بأن تكون أفضل من معاصريك وأسلافك، حاول أن تكون أفضل من نفسك. الفنان هو مخلوق تدفعه الشياطين..».

وأختم برأي قاطع لفوكنر كلنا في حاجته عند القراءة والكتابة «لا وقت لدي للتساؤل من يقرؤني.. ليس هناك طريقة ميكانيكية للكتابة.. علّم نفسك عن طريق أخطائك.. الفنان الجيد يعتقد أن لا أحد جيداً بما يكفي ليعطيه نصائح..».

جون شتاينبك وحرية الكتابة

ولد في كاليفورنيا عام ١٩٠٢م درس علم أحياء البحار، وبدأ مسيرته الأدبية ١٩٢٩م عام إلى «شقة تورتيلا» ١٩٣٥م و«معركة مشبوهة» و«عن الفئران والرجال» ١٩٣٧م و«عناقيد الغضب» ١٩٣٩م و«شرق عدن» ١٩٥٢م. حاز جائزة نوبل عام ١٩٦٢م..

يقدم هذا الكاتب الكبير خلاصة تجربته الروائية في ست نصائح «دعني أقدم لك تجربتي الشخصية في مواجهة أربعمئة صفحة من الورق الأبيض، هذا الفراغ المرعب الذي يجب ملؤه بالكلام: تخلّ عن فكرة أنك ستنتهي، لا تفكر بالأربعمئة صفحة، واكتب صفحة واحدة كل يوم، هذا يساعد، وعندما تنتهي ستندهش بما أنجزته/ اكتب بحرية وسرعة، ولا تصحح ولا تعد الكتابة حتى يصبح كل شيء على الورق/ انسَ الجمهور العام/ إذا استعصى عليك مشهد أو قسم تجاوزه واستمر في العمل/ احذر من المشهد العزيز عليك أكثر من اللازم/ إذا كنت تستعمل الحوار قله بصوت عالٍ..».

وحين نجد كاتباً يبحث عن لقمة العيش اليوم يتبرع الكثيرون لشتمه والانتقاص منه ومن ملكاته، ويعيبون عليه أنه يعمل بالأجر، هذا في الوقت الذي يعملون هم فيه أعمالاً دونية ووضيعة، ويحصلون على ما يريدون بطرق ملتوية! ولكن الفكر المتقدم يرى غير ذلك، فهذا شتاينبك، وهو من هو في عالم الرواية والأدب يقول من دون تردد «من الواضح أنّ الناس لا يريدون شراء ما أكتبه. ولذلك قررت لكي أحصل على المبلغ الذي أحتاجه، أن أكتب الأشياء التي يريدون قراءتها. بعبارة أخرى، عليّ أن أضحي بنزاهتي الفنية إلى حين في سبيل نزاهتي الشخصية..».

وعن الشخصية التي يكتبها يقول جون «أحياناً أتخيل الشخصية الإنسانية كغابة منتنة مليئة بالمسوخ والشياطين وقليل من الأضواء. بدا لي أنها مكان خطير لأن يغامر المرء بالدخول إليها، كأنفاق جزيرة كوني حيث تقفز الأشياء صارخة..».

وعمّا يصارعه الروائي يقول «لقد قسّمت نفسي إلى ثلاثة أشخاص. أصبحت أعرفهم، واحد يفترض ويتوقع، والثاني ينتقد، والثالث يحاول أن يتواصل معهما، والثلاثة يتعاركون كثيراً، لكن من هذه المعارك أستمد عمل

الأسبوع. وأصبحت هذه الأحداث في ذهني الآن على شكل حوار. إنَّها تجربة غريبة. في مثل هذه الظروف قد تكون واحدة من أعراض انقسام الشخصية، لكن كتقنية عملية، لا أعتقد أنَّها سيئة على الإطلاق..».

نابوكوف والجنسية

ولد فلاديمير نابوكوف في بيترسبيرغ عام ١٨٨٩م لعائلة أرستقراطية هاجرت بعد الثورة البلشفية، وفي الولايات المتحدة الأميركية عاش أغلب حياته، ودرّس اللغة الروسية، وكتب رواياته، ومارس النقد الأدبي حتى وفاته عام ١٩٧٧م، وشغل أستاذ كرسي الأدب الروسي في جامعة كورنيل.. نشر عدداً من الروايات: بنين، نار واهنة، لوليتا، عاطفة متأججة، ترجم بوشكين، وكتب مذكراته (حديث الذاكرة).

في حديثه تبدو حدّته وقسوته، ويظهر انحيازه الأيديولوجي، والغريب أن نابوكوف يقف عند جملة الكتّاب في الشرق والغرب بشيء من الحدة، فلا قيمة لأدب دوستويفسكي والكسي تولستوي! ولا فائدة من فرويد! ولا يعجبه أفلاطون! وهو يعطي أحكاماً عامة مستندة إلى طبعه النقدي، وهو لا يميل إلى أي شيء يؤيد البلشفية، أو حتى يعجب بها.. ملك قدرة التخلي عن الأشياء المهمة، فيقول عن نفسه وببساطة «أرى نفسي ككاتب أميركي كان روسياً ذات يوم»! ولعل أهم رأي يقدمه يتعلق بالرواية والخيال والذاكرة، مستفيداً من رؤيته النقدية التي غلبت عليه: «الخيال هو شكل من أشكال الذاكرة، تعتمد الصورة على قوة الربط والتداعي، والتداعي يزود ويحفز من قبل الذاكرة».

توني موريسون ومايا أنجيلو

كاتبتان مبدعتان من الكاتبات السود، ومعالجة قضايا شائكة في المجتمع الأسود، أو في المجتمع الغني الأفرو- أميركي.. توني موريسون من أوهايو إلى جائزة نوبل مروراً بجامعة هاوارد وكورنيل، والتحرير في النشر، وكتابة الرواية لإصدار «أشد العيون زرقة» و«سولا» و«أغنية سولومون» و«ناربيبي» و«محبوبة» و«حب» وفي معالجات متقدمة للسود وقضايا العبودية، كاتبة من رتبة عليا إبداعاً وتدريساً حملت على عاتقها مهمات كبيرة وترى الرواية بين الموهبة والاكتساب: «أعتقد أنه إما أن يكون لديك ذلك الخيال أو أنك تكتسبه.. أنا غير مهتمة بالناس الحقيقيين كموضوعات روائية، بما في ذلك أنا نفسي، لماذا علي أن أسرق حياة شخص حقيقي، لا أحب فعل ذلك، ما أحبه فعلاً هو مسار عملية الإبداع».

أمَّا مايا أنجيلو فمن ميزوري إلى الاغتصاب الذي تعرضت له في الثامنة، ومن

ثم أصبحت أماً غير متزوجة في السادسة عشرة، ومواجهة الحياة بشجاعة وكبرياء «اغتصبت وأنا طفلة، أخبرت أخي باسم الشخص الذي فعل ذلك، بعد عدة أيام قتل الرجل، وفي عقلي الطفولي ظننت أن صوتي هو الذي قتله» بهذه المخيلة المبهرة ترى مايا العالم الروائي يجول في الحقيقة «لا أعلم عن كذب الروائيين، أنظر إلى الروائيين العظام، وأفكر بأنهم عظام لأنهم يقولون الحقيقة، الواقع أنهم يستعملون أسماء مستعارة، أمكنة مستعارة، لكنهم يقولون الحقيقة عن الإنسان.. عندما أكتب أحاول أن أعرف من أنا، من نحن، ما بإمكاننا أن نفعله، كيف نشعر، كيف نخسر ونقاوم، وكيف نمضي من ظلمة إلى ظلمة».

ماركيز وأوكتافيو باز وفارغاس ثورة الرواية

استطاع روائيو أميركا اللاتينية تغيير خارطة الأدب الروائي، وخارطة جائزة نوبل للأدب بإبداعاتهم، وأصبح كتّاب اللاتين الآباء الشرعيين للرواية في عصرنا، فأزاحوا الأوروبيين والأميركيين فعمموا أدبهم، وسيطروا ليس على الساحة، بل على الأسلوب الرواتي، والمزاج الروائي، وفي (متعة المتخيل) نقتطف آراء لهؤلاء الكتّاب الذين وصلوا القمة بأدبهم، ومن دون الخوض في التجربة، فهي أغنى، والذي يعنينا كيف صنع هؤلاء عالمهم.

ماركيز الكاتب الأكثر سيرورة في العالم من الناحية اللاتينية، المتعدد صناعة وصحافة ورواية وسيناريوهات، يكتب لأصدقائه أولاً، ويعمل على إسعادهم «كتبت (أوراق في العاصفة) لأصدقائي الذين كانوا يساعدونني ويعيرونني كتبهم، وكانوا متحمسين لأعمالي بشكل عام أعتقد أنك تكتب من أجل شخص ما.. أنا دائماً أفكر بأناس معينين، في النهاية فكل الكتب تكتبها لأصدقائك.. بعد مئة عام من العزلة لم أعد أعرف من أجل من بين ملايين القراء أكتب!... في كل رواية، الشخصية عبارة عن كولاج: كولاج من عدة شخصيات عرفتها، أو سمعت أو قرأت عنها..».

أوكتافيو الصغير الكبير من مكسيكو إلى جائزة نوبل ١٩٩٠م ووفاته وقف أوكتافيو الصغير حجماً والكبير مكانة وطاقة ناقداً قاسياً «بدأت أفكر بأنَّ كل هذا القتال قد يكون سخيفاً، لكني بالطبع لم أستطع أن أقول ذلك لأحد. كانوا سيظنونني خائناً، ولم أكن خائناً. فهمت أنَّ الأخوّة الحقيقية تعني فيما تعنيه أنك يجب أن تقبل حقيقة أن عدوك هو إنسان أيضاً..» «في النثر الفكرة تأتي أولاً، تتبعها الرغبة بتطوير الفكرة الأصلية، لكن

على الرغم من ذلك فإنّ الحقيقة الجوهرية تبقى نفسها».

ماريو فارغاس يوسا من البيرو انطلق يوسا، واختار النفي، وتابع دراساته الأكاديمية، كتب «البيت الأخضر» و«حرب نهاية العالم» و«القاص» و«في مديح أيلول» و«ألاعيب الفتاة سيئة السمعة».

وفارغاس من الكتّاب المهمين متعددي المؤثرات «عندما كنت شاباً، كنت مولعاً بسارتر، وقرأت الروائيين الأميركيين أيضاً خصوصاً الجيل الضائع فوكنر، همنغواي، وفوكنر خصوصاً، هو الوحيد الذي ما زال يعني لي الكثير.. لا أكن لماركيز الكثير من الاحترام كشخص، وأعتقد أن معتقداته انتهازية.. لم أستطع أن أكتب عن شيء قريب مني، القريب يسبب شيئاً من الكبت، بمعنى أنه لا يسمح لك العمل بحرية، المهم أن نتمكن من العمل بحرية.. علاقة الأدب بالإنجازات طويلة الأمد أكبر من علاقة السياسة بها.. أنا مثابر وبوسعي أن أعمل بجد وأن أحصل من نفسي على أكثر مما كنت أعتقده ممكناً..».

غونترغراس المتعدد والروائي المتفرد والآن روب أوروبيان

أديبان أوروبيان حققا ما حققاه من نجاح بخصوصية وموهبة وكفاح ففونترغراس عرف في مختلف الصنوف الأدبية، وتفوق في كثير منها، لكن الرواية التي بدأت معه عام ١٩٥٨م بـ«الطبل القصديري» جعلته الكاتب الأكثر مبيعاً في العالم، وله «القط والفأر» و«سنوات الكلب» و«الجرذ» و«أخرج لسانك» وباعتراف الكبار يظهر ولادة إبداعه «كنت وأنا طفل كذاباً كبيراً.. بدأت كتابة كذباتي في وقت مبكر جداً، وما زلت أفعل ذلك!.. لا أكتب أبداً في الليل.. الكتابة تشبه النحت إلى حد ما، في النحت، عليك أن تعمل من كل الجهات، إذا غيرت شيئاً هنا، فعليك تغيير شيء هناك.. الشخصيات الأدبية، خصوصاً الشخصيات الرئيسية التي يقع على عاتقها دفع الكتاب، هي مزيج من أناس مختلفين، أفكار وتجارب ممزوجة ببعضها..».

الآن روب تجاهله النقاد والقرّاء في روايتيه الأوليتين «المحايات» و«مسترق النظر» لكن روايته الثالثة «غيرة» لقيت استحساناً خاصة من رولان بارت الناقد المهم.. وعن الرواية والذاكرة والكتاب يقول روب «الذاكرة تنتمي إلى الخيال، الذاكرة الإنسانية ليست كالكمبيوتر الذي يسجل الأشياء، إنّها جزء من العملية التخيلية، تماماً كالاختراع.. اختراع شخصية أو استعادة ذكرى معينة هي وجوه للعملية نفسها.. عندما يقولون أنّ الروائي لديه ما يقوله، فإنّهم يعنون فكرة أو رسالة، لهذا تداعيات سياسية، أو رسالة دينية، أو

وصفات أخلاقية، ذلك يعني الالتزام كما استعمله سارتر ورفاقه.. أنا ضد كل ذلك.. أقرأ فلوبير كروائي دافئ، محب، وكريم، يحتفظ بصداقة دافئة مع كل شخصياته.. لقد كانت الرواية الجديدة دائماً حركة متنوعة. كل كاتب يكتب في الاتجاه الذي يجده مناسباً، لكن العامل المهم هو أن لنا جميعاً مراجع أدبية واحدة..».

كونديرا التشيكي لا يتحدث عن نفسه

التشيكي الشيوعي المفصول مرات، والفرنسي مواطنة، صاحب رواية «النكتة» التي حققت نجاحاً كبيراً، وله «حالات حب مضحكة» و«الحياة في مكان آخر» و«الضحك والنسيان» و«الهوية» و«الجهل» وعن تقنياته ورأيه يقول «لكي تتمكن من جعل الرواية إنارة تاريخية تعددية للوجود، عليك أن تجيد تقنية الحذف، وفن التكثيف.. لقد أصبحت الحبكة ومبالغاتها في الرواية هي أكثر العناصر سخفاً ورجعية وإملالاً.. أحلم دائماً بعلاقة غرامية خارجية غير متوقعة، إلا أنني لم أتمكن من الهرب من حالة المضارة التي أعيشها..».

إنهم كتّاب الرواية الذين وصلوا العالمية، وكانوا صادقين وصادمين، وهذه آراؤهم التي لابد أن توصف بالجرأة والصدق، ففيها تعرية للروح والذات، وفيها أحكام نقدية تبتعد بنا عن الثيمات التي حفظناها، وفيها تحطيم وتحليل لصنمية شخصيات نكن لها الكثير من التقدير الذي منعنا من التقدم وولوج عوالم أخرى.. «متعة المتخيَّل» كتاب مهم لقارئ الرواية وكاتبها، ولا أتخيل من لم يقرأ هذا الكتاب من المهتمين لما فيه من تضارب وآراء بعضها يناقض الآخر، ولكنها في المحصلة عالم من جنون الرواية.

رئيس التحرير

محمد عيسى
يخفي قصائده تحت غيمة

أعترف بأنني لم أكن أعرف شيئاً عن شاعرية الأديب محمد عيسى، حتى أُتيحت لي الفرصة لأقرأ دواوينه الثلاثة «مائدة البراري» و«شيء ما» و«رتوش ما بعد العاصفة» دفعة واحدة، فوجدت نفسي أمام موهبة وقامة شعرية كبيرة، تستحق كل الحب والتقدير والإعجاب.. لقد قدّم لنا روائع من مقامات العبور والظل والوقت والماء والدروب والهبوب والريح والعنب واليقين والقمح والندم والضجر والشك والنسيان والمكان والغابة، ليشكّل منها مقامات التحوّل، وليقف حارساً على الماء، ويقوم بسحب العابرين من ظلالهم، وليجلس القرفصاء على هيئة جبل، وليطلق كلابه خلف ظلالنا، ويقوم بنفخ الريح ليملأ صفيرها الشبابيك المغلقة، وليرى الطيور نائمة قبل المغيب..

إنَّه يسرد لنا قصائد حنطيّة اللون، ويجلس على قارعة الوطن رافعاً يديه فوق عينيه كواقية يستظل بها من سطوة الشمس.. شاعرنا لا يملك من القطيع سوى العصا، ومع ذلك يرفع الكأس عالياً كعمامة فارس عربي، يستسلم من بداية الصحراء، ويعلن التوبة عن الخطايا حتى تزول المحنة، يجمع الدروب تحت إبطيه، تاركاً لكل خطاه، قميصه الريح، والوديان جيوبه.. لقد أتعبته المسافة ما بين نون البداية ونون النهاية، ومع ذلك فالأرض لا تتعب من الأقدام القلقة، ولا من العابرين..

محمد عيسى في شعره المميّز، يحاول بقوة أن يدخل الخيط بخرم إبرة، وعندما يسحبه من الطرف الآخر، يكتشف أنه قد أدخله في الفراغ الذي يحيط بالإبرة.. إنَّه يحاول أن يخفي أسلحته تحت غيمة، وهو لا يخاف على الأسلحة، ولكنه يخاف أن تضيع الغيمة، وحين تسأله عن الساعة، يقول: الساعة ضد الماء، والماء حياة.. هو بطبعه فضولي ومتسرّع، ما إن سمع بالمستقبل، حتى صعد إلى أعلى قمة ليكون أوّل من يبشّر بقدومه، مع أنه هشّم جرار العاطفة، وكسر مزهرية الوقت، ومازال يحب الخريف، ومازال ينتظر القصيدة لتفعل به ما تشاء، ومازال الكائن يعبر المسافة، مابين النفختين، نفخة البداية، ونفخة النهاية..يوم نفخ فيه من روحه، ويوم ينفخ في الصور.. في البدء كان الزفير، وفي النهاية، سيكون النفير..

محمد عيسى، في هذا الزمن الذي يحار المرء، ماذا يطلق عليه، يرفع أشرعة ويغني للغربة، ويقطف زنبقة، ويمشي حافياً، يبعثر الضوء كعود ثقاب، يحاول الاشتعال، يعشق المطر وزرقة السماء.. يحمل قنديلاً، ويفتش عن بيت يضعه فيه، ويحمل رأساً يفتش عن ذراع يحنو عليه.. ويحمل قرنفلة لغائبة لا تجيء.. يجول على شرفة التخوم، ويرى الأمكنة تتبادل الأمكنة، ليرى ما لا يُرى.. يرى الأفق

يتدلى فوق مائدة المكان، ورأسه إلى الأسفل يطقطق أصابعه.. يتثاءب كسلاً ويغفو.. بعد أن أيقظه التعب من النوم..

محمد عيسى، يعرف ما يريد، لا يهدأ فيه جناح طائر، ولا تستقر فيه غفوة، مازال قلبه مستعداً للركض والحب والحياة، ومازال يؤمن بأنَّ الحسنة تمحو السيئات، ومازال يكتب الشعر، ويشمّس عظامه، ويراقب لعب الأولاد وركضهم، وكل ما نرجو أن لا يلهيه الركض عن الركض، وأن يستمر بتألقه وحيويته وإشراقاته الشعرية المحببة والجميلة..